

تأليف
ابن القيم الجوزية

تحقيق
كمال على الجمل

مكتبة الإيمان
المنصورة - أمام جامعة الأزهر
ت : ٣٥٧٨٨٢

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونستهديه ، ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾

(سورة آل عمران الآية ١٠٢)

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساءا واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا ﴾ (سورة النساء الآية ١)

وبعد ؛ فإنى أحمدك يارب حمدا يليق بجلال وجهك وعظمة كبريائك ، يا من خلقت الإنسان وعلمته البيان ، وأرسلت إليه الرسل منذرين ومبشرين ، مبلغين عنك ، داعين إليك ، وأصلى وأسلم على نبيك محمد الذى أرسلته للعالمين ، فكان لهم الأمان ، وأنزلت عليه القرآن ، وأمرته أن يبين للناس ما نزل إليهم ، وقد عصمته من الهوى فقلت ﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى ﴾ (النجم : آية ٣) فكان قرآنك العظيم ، وسنة نبيك الكريم مشعل النور فى ليل الضلالة ، والكوكب المنير فى ظلام الجهالة ، والهادى القويم إلى الصراط المستقيم .

اللهم لك الحمد يا من حفظت كتابك من الباطل فقلت ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ (فصلت : آية ٤٢) وصنته من الإختلاف فقلت :

﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه إختلافاً كثيراً ﴾ (النساء : آية ٨٢)

وسخّرت من خلقك أناسا برعوا فى كل العلوم ، فتركوا لنا ذادا تفخر به العيون ، وتفخر به المكتبات فى شتى الفنون . وكان على رأس هؤلاء علم من الأعلام أفنى عمره فى خدمة الدين الحنيف ، وألف وجمع وحقق فأفاد وأجاد وأحسن الإعتقاد

والإنتقاد ، ذلكم هو العلم جليل القدر ، الإمام قدوة الأنام ، عمدة المفسرين ، بغية المجتهدين شمس الدين أبو عبد الله ، ابن الشيخ الإمام شرف الدين أبى بكر ، ابن الشيخ الكبير أيوب ابن سعد الشهير بابن قيم الجوزية الحنبلى الدمشقى ، قدس الله تعالى روحه ، وجعل أبواب الجنان بين يديه مفتوحة .

فقد ألف هذا الإمام كتابا عظيم النفع جليل الفائدة ألا وهو كتابه المسمى ـ الروح ـ ما صنف مثله فى معناه ، فقد ضمنه مسائل ما تكلم فيها احد من العلماء قبله ، فتكلم عن معرفة الأموات بزيارة الأحياء وسلامهم ، وأرواح الموتى هل تتلاقى وتتزاور أو لا وهل تموت الروح أم الموت للبدن وحده ، وتكلم عن عذاب القبر ، وهل عزاب القبر يقع على النفس والبدن أو على أحدهما دون الآخر ، وتكلم على مسائل بلغت إحدى وعشرين مسألة مختلفة ، تحتها مئآت الفصول ، فخرج كتابا نافعا ، شهد له الأقدمون وما بعدهم ،وإنتشر هذا الكتاب وزاع صيته بفضل جهد مؤلفه رحمه الله

وعندما قرأت هذا الكتاب رأيت فى نفسى أن أقدم له وأحقق أحاديثه وآثاره ، وشرحت غريبه ، وعلقت على بعض مسائله . فإن كنت قد وفقت فمن الله وحده ، وإن كانت الأخرى فمن نفسى ، وأعتذر إلى الله تعالى بأنى طالب علم اجتهد فيما فيه مجال لذلك .

إن أريد إلا الاصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

أدعو الله عز وجل أن يتقبل هذا العمل بقبول حسن وأن يجعله فى ميزان حسناتى يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين
وصلى اللهم على سيدنا محمد وعلى آله
وصحبه أجمعين

المحقق

مقدمة[1]

الحمد لله المتصف بصفات الكمال المنعوت بنعوت الجلال . الذى علم ما كان وما يكون وما هو كائن فى الحال والمآل . وحكم بالموت على كل ذى روح من مخلوقاته. وساوى فيه بين الملك والمملوك والغنى والفقير والشريف والضعيف والعاصى والمطيع من سكان أرضه وسماواته . فهو الذى عدل فى الآخرة بين برياته ، قبض روح هذا بعد ما عمر الدنيا وزخرف البناء وتوطنها وليست لحى وطنا ، وقبض روح الآخر الذى اجتهد فى اصلاح آخرته وجعل الدنيا لجة واتخذ صالح الأعمال فيها سفنا . فشتان ما بين خروج الروحين من الجسدين ، هذه لها السعادة والهناء . وتلك لها الخيبة والشقاوة والعناء . هذه ترتع فى رياض الجنة وتأوى إلى قناديل معلقة فى العرش فى لذة ونعيم . وتلك محبوسة تعذب فى نار الجحيم . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، اله تحبب إلى عباده بنعمه وآلائه وابتدأهم سبحانه وتعالى باحسانه العميم وعطائه فعياذاً بعزته جل جلاله أن يختم بالاساءة وقد بدأنا بالإحسان فله سبحانه الحمد والشكر والنعمة والفضل والخلق والأمر والثناء الحسن الجميل والامتنان. واشهد أن محمداً صلوات الله وسلامه عليه عبده ورسوله الطيب الروح والجسد ولد آدم

---

(١) هذه المقدمة لم يكتبها الإمام الحافظ « ابن قيم الجوزية » وإنما كتبها الإمام « إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط ، البقاعى ، الشافعى ، نزيل القاهرة ثم دمشق . كان عالماً جليلاً ، ومفسراً ومحدثاً ومؤرخا ، ولد بقرية « خربة روحا » من عمل البقاع ، ونشأ بها ، ثم تحول إلى دمشق ثم بيت المقدس ، ثم القاهرة ، كان مولده سنة ٨٠٩ هـ . ومن أهم مؤلفاته الكثيرة

- نظم الدرر فى تناسب الآى والسور فى التفسير .
- الأصل الأصيل فى تحريم النقل من التوراة والإنجيل .
- القول المعروف فى الرد على منكر المعرووف .
- وله كذلك ديوان شعر سماه أشعار الواعى بأشعار البقاعى . وكانت وفاته بدمشق سنة ٨٨٥ هـ .

أنظر ترجمته فى : شذرات الذهب ٧/ ٣٣٩ - ٣٤٠ ، كشف الظنون ص ٨١ ، ٨٦ ، ١٠٤ ، ١٠٥، ١١٧ ١٤٠ ، معجم المؤلفين ١ / ٧١ ، فهر س الفهارس ٢ / ٤٨ .

والقارئ للمقدمة يجد أن الإمام البقاعى أشار إلى أنه قام بكتابة هذه المقدمة بعد أن استخار الله سبحانه وتعالى طلباً للثواب . ثم إنه اختصر بعد ذلك هذا الكتاب وسماه « سر الروح » وصدره بهذهالمقدمة والله أعلم .

وأفضل من قام وركع وسجد الذى أنزل عليه فى كتابه العزيز ومن أصدق من الله قيلا ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ (١) وعلى آله وصحبه خير القرون الذين اهتدوا وما بدلوا تبديلاً صلاة دائمة بدوام السموات والأرض إلى أن يرث الله سبحانه وتعالى الأرض ومن عليها للحساب والعرض وسلم تسليماً كثيراً .

[**وبعد**] فهذا كتاب عظيم النفع جليل القدر كثير الفائدة ما صنف مثله فى معناه فلا تكاد تجد ما تضمنه من بدائع الفوائد وفوائد القلائد فى كتاب سواه . ويشتمل على جملة من المسائل تتضمن الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة والآثار ، وأقوال العلماء الأخيار ، لا أدرى أسئل مصنفه قدس الله روحه عنها فأجاب . أم سئل عن البعض ولكن هو أطال الخطاب . فإنى رأيته مجرداً عن خطبة وسؤال أصلاً مبتدئا فيه بقوله [أما المسألة الأولى وهى هل تعرف الأموات زيارة الأحياء وسلامهم أم لا] فأحببت بعد استخارة الله سبحانه وتعالى أن أفتتحه بهذه الخطبة المباركة العظيمة . لكونه كتاباً فى ضمن مسائله التى تتأملها وتشاهدها كل درة يتيمة لينشرح صدر الناظر فيه . ولتقوى همته على النظر فى بدائع فوائده ودقائق معانيه . والله سبحانه وتعالى المسؤول المرجو الإجابة أن يعصمنا من الزيغ والزلل . وأن يوقفنا لصالح النية والقول والعمل . وأن يرفع درجات مؤلفه فى جنات النعيم . وأن ينفع به الناظر فيه إنه سميع عليم . إنه على كل شىء قدير . وبالإجابة جدير . وهو حسبنا ونعم الوكيل .

(قال) الشيخ الإمام العالم العامل ترجمان القرآن ، ذو الفنون الحسان ، شيخ الإسلام ، قدوة الأنام ، أوحد الحفاظ ، فارس المعانى والألفاظ ، علامة العلماء ، وارث الأنبياء ، عمدة المفسرين بغية المجتهدين شمس الدين أبو عبد الله ابن الشيخ الإمام العالم العامل شرف الدين أبى بكر ابن الشيخ الكبير أيوب بن سعد الشهير بابن قيم الجوزية الحنبلى الدمشقى قدس الله تعالى روحه ونور ضريحه وجعل أبواب الجنان بين يديه مفتوحة ، ولسائر علماء الإسلام الجهابذة النقاد الأعلام آمين وصلى الله على سيدنا محمد سيد الأولين والآخرين وآله وصحبه أجمعين .

---

(١) سورة الإسراء آية ٨٥ .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ المسألة الأولى ﴾

[فى معرفة الأموات بزيارة الأحياء وسلامهم]

قال ابن عبد البر : ثبت عن النبى ﷺ ، أنه قال : « ما من مسلم يمر على قبر أخيه كان يعرفه فى الدنيا فيسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام » (١) .

وفى الصحيحين عنه صلى الله عليه وآله وسلم من وجوه متعددة : « أنه أمر بقتلى بدر فألقوا فى قليب ؛ ثم جاء حتى وقف عليهم وناداهم بأسمائهم : يا فلان ابن فلان ويا فلان ابن فلان هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا ، فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقًّا فقال له عمر : يا رسول الله ، ما تخاطب من أقوام قد جيفوا ؟ فقال: « والذى بعثنى بالحق ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون جوابًا» (٢) .

وثبت عنه ﷺ : « أن الميت يسمع قرع نعال المشيعين له إذا انصرفوا عنه » (٣) .

وقد شرع النبى ﷺ لأمته : إذا سلموا على أهل القبور أن يسلموا عليهم سلام من يخاطبونه فيقول : السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل . ولولا ذلك لكان هذا الخطاب بمنزلة خطاب المعدوم والجماد . والسلف مجمعون على هذا ، وقد تواترت الآثار عنهم بأن الميت يعرف زيارة الحى له ويستبشر به .

قال أبو بكر : عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبى الدنيا فى ﴿ كتاب القبور ﴾ باب معرفة الموتى بزيارة الأحياء :

---

(١) ذكره المتقى فى الكنز ١٥/ ٦٥٧ وعزاه للخطيب وابن عساكر وابن النجار عن أبى هريرة وقال : سنده جيد .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب المغازى ٧/ ٣٥١ (٣٩٨٠ ، ٣٩٨١) عن ابن عمر .

ومسلم فى كتاب الجنة ٤/ ٢٢٠٣ (٧٧) عن أنس .

(٣) أخرجه البخارى فى الجنائز ٣/ ٣٣٤ (١٣٣٨) . ومسلم فى الجنة وصفة نعيمها ٤/ ٢٢٠١ (٧١) .

حدثنا محمد بن عون ، ثنا يحيى بن يمان عن عبد الله بن سمعان عن زيد بن أسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم » (١) .

حدثنا محمد بن قدامة الجوهرى ، ثنا معن بن عيسى القزاز ، أخبرنا هشام بن سعد ، ثنا زيد بن أسلم عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : إذا مر الرجل بقبر أخيه يعرفه فسلم عليه رد عليه السلام وعرفه ، وإذا مر بقبر لا يعرفه فسلم عليه رد عليه السلام (٢) .

حدثنا محمد بن الحسين ، حدثنى يحيى بن بسطام الأصغر ، حدثنى مسمع ، حدثنى رجل من آل عاصم الجحدرى قال : رأيت عاصما الجحدرى فى منامى بعد موته بسنتين فقلت : أليس قد مت ؟ قال بلى ، قلت : فأين أنت ؟ قال : أنا والله فى روضة من رياض الجنة ، أنا ونفر من أصحابى نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى أبى بكر بن عبد الله المزنى ، فنتلقى أخباركم قال قلت : أجسادكم أم أرواحكم ؟ قال : هيهات بليت الأجسام وإنما تتلاقى الأرواح ، قال قلت : فهل تعلمون بزيارتنا إياكم ؟ قال : نعم . نعلم بها عشية الجمعة ويوم الجمعة كله ويوم السبت إلى طلوع الشمس ، قال قلت : فكيف ذلك دون الأيام كلها ؟ قال : لفضل يوم الجمعة وعظمته (٣) .

وحدثنا محمد بن الحسين ، حدثنى بكر بن محمد ، ثنا حسن القصاب قال : كنت أغدو مع محمد بن واسع فى كل غداة سبت حتى نأتى الجبان (٤) ، فنقف على القبور فنسلم عليهم وندعو لهم ثم ننصرف ، فقلت ذات يوم : لو صيرت هذا اليوم يوم الاثنين قال : بلغنى أن الموتى يعلمون بزوارهم يوم الجمعة ويوماً قبلها ويوماً بعدها .

حدثنى محمد ، ثنا عبد العزيز بن أبان قال : ثنا سفيان الثورى قال : بلغنى عن الضحاك أنه قال : من زار قبراً يوم السبت قبل طلوع الشمس علم الميت بزيارته ، فقيل له : وكيف ذلك ؟ قال : لمكان يوم الجمعة (٥) .

---

(١) ذكره السيوطى فى الحاوى ٢/ ٣٠٢ . وفى اتحاف السادة المتقين ١٠/ ٣٦٥ .

(٢) إسناده ضعيف فيه محمد بن قدامة الجوهرى قال ابن حجر فى تقريبه (ص ٥٠٣) لين الحديث ، وهشام بن سعد المدنى : صدوق له أوهام ورمى بالتشيع ، انظر تقريب التهذيب (ص ٥٧٢) .

(٣) فى إسناده جهالة . (٤) الجبان : المقابر .

(٥) ضعيف جداً فى إسناده عبد العزيز بن أبان : متروك ، وكذبه ابن معين وغيره (تقريب التهذيب ص ٣٥٦) كما أن الإسناد منقطع .

[ما يقوله الطير يوم الجمعة]

حدثنا خالد بن خداش ثنا جعفر بن سلمان عن أبى التياح قال : كان مطرف يغدو فإذا كان يوم الجمعة أدلج [1] قال : وسمعت أبا التياح يقول : بلغنا أنه كان ينور له فى سوطه ، فأقبل ليلة حتى إذا كان عند مقابر القوم وهو على فرسه فرأى أهل القبور كل صاحب قبر جالساً على قبره ، فقالوا هذا مطرف يأتى الجمعة قلت : وتعلمون عندكم يوم الجمعة ؟ قالوا نعم ، ونعلم ما يقول فيه الطير ، قلت : وما يقولون ؟ قالوا يقولون سلام [2] .

حدثنى محمد بن الحسين ، حدثنى يحيى بن أبى بكير ، حدثنى الفضل بن موفق ابن خال سفيان بن عيينة قال : لما مات أبى جزعت عليه جزعاً شديداً ، فكنت آتى قبره فى كل يوم ثم قصرت عن ذلك ما شاء الله ثم إنى أتيته يوماً ، فبينما أنا جالس عند القبر غلبتنى عيناى فنمت ، فرأيت كأن قبر أبى قد انفرج وكأنه قاعد فى قبره متوشحا أكفانه ، عليه سحنة الموتى [3] ، قال : فكأنى بكيت لما رأيته قال : يابنى ما أبطأ بك عنى ؟ قلت : وإنك لتعلم بمجيئى ؟ قال : ما جئت مرة إلا علمتها وقد كنت تأتينى فآنس بك وأسر بك ويسر من حولى بدعائك . قال : فكنت آتيه بعد ذلك كثيراً [4] .

حدثنى محمد ، حدثنى يحيى بن بسطام ، حدثنى عثمان بن سودة الطفاوى قال - وكانت أمه من العابدات ، وكان يقال لها راهبة - قال : لما احتضرت رفعت رأسها إلى السماء فقالت : يا ذخرى وذخيرتى ومن عليه اعتمادى فى حياتى وبعد موتى ، لا تخذلنى عند الموت ، ولا توحشنى فى قبري . قال : فماتت ، فكنت آتيها فى كل جمعة فأدعو لها وأستغفر لها ولأهل القبور ، فرأيتها ذات يوم فى منامى فقلت لها : يا أمه كيف أنت ؟ قالت : أى بنى إن للموت لكربة شديدة وإنى بحمد الله لفى برزخ محمود نفترش فيه الريحان ونتوسد فيه السندس والاستبرق إلى يوم النشور .

---

(١) أدلج : أى سار ليلاً .

(٢) ضعيف فى إسناده خالد بن خداش صدوق يخطئ (تقريب التهذيب ص ١٨٧) ، وجعفر بن سلمان صدوق يتشيع .

(٣) سحنة الموت : الهيأة واللون .

(٤) ضعيف فى إسناده الفضل بن الموفق الثقفى : ضعيف (تقريب التهذيب ص ٤٤٧) .

فقلت لها : ألك حاجة ؟ قالت نعم ، قلت : وما هى ؟ قالت لا تدع ما كنت تصنع من زيارتنا والدعاء لنا ، فإنى لأبشر بمجيئك يوم الجمعة إذا أقبلت من أهلك ، يقال لى : يا راهبة هذا ابنك قد أقبل فأسر ويسر بذلك من حولى من الأموات .

حدثنى محمد بن عبد العزيز بن سليمان ، ثنا بشر بن منصور قال : لما كان زمن الطاعون كان رجل يختلف إلى الجبان فيشهد الصلاة على الجنائز . فإذا أمسى وقف على باب المقابر فقال : آنس الله وحشتكم ورحم غربتكم وتجاوز عن مسيئكم وقبل حسناتكم . لا يزيد على هؤلاء الكلمات ، قال : فأمسيت ذات ليلة وانصرفت إلى أهلى ولم آت المقابر فأدعو كما كنت أدعو ، قال : فبينما أنا نائم إذا بخلق كثير قد جاءونى فقلت : ما أنتم وما حاجتكم ؟ قالوا : نحن أهل المقابر ، قلت : ما حاجتكم ؟ قالوا : إنك عودتنا منك هدية عند انصرافك إلى أهلك ، فقلت : وما هى ؟ قالوا : الدعوات التى كنت تدعو بها . قال قلت : فإنى أعود لذلك ، قال : فما تركتها بعد .

حدثنى محمد ، حدثنى أحمد بن سهل ، حدثنى رشدين بن سعد عن رجل عن يزيد ابن أبى حبيب : أن سليم بن عمير مر على مقبرة وهو حاقن قد غلبه البول ، فقال له بعض أصحابه : لو نزلت إلى هذه المقابر فبلت فى بعض حفرها ، فبكى ثم قال : سبحان الله والله إنى لأستحيى من الأموات كما أستحيى من الأحياء ، ولولا أن الميت يشعر بذلك لما استحيى منه (1) .

وأبلغ من ذلك أن الميت يعلم بعمل الحى من أقاربه وإخوانه . قال عبد الله ابن المبارك : حدثنى ثور بن يزيد عن إبراهيم عن أبى أيوب قال : تعرض أعمال الأحياء على الموتى ، فإذا رأوا حسناً فرحوا واستبشروا ، وإن رأوا سوءاً قالوا : اللهم راجع به .

وذكر ابن أبى الدنيا عن أحمد بن أبى الحوارى قال : حدثنى محمد أخى قال : دخل عباد بن عباد على إبراهيم بن صالح وهو على فلسطين فقال : عظنى . قال : بم أعظك أصلحك الله ؟ بلغنى أن أعمال الأحياء تعرض على أقاربهم الموتى ، فانظر ما يعرض على رسول الله ﷺ من عملك . فبكى إبراهيم حتى اخضلت لحيته .

---

(1) إسناده ضعيف فيه رشدين بن سعد : ضعيف (تقريب التهذيب ص ٢٠٨) وفيه رجل مجهول .

قال ابن أبى الدنيا : حدثنى محمد بن الحسين ، حدثنى خالد بن عمرو الأموى ، حدثنا صدقة بن سليمان الجعفرى قال : كانت لى شرة سمجة فمات أبى فأنبت وندمت على ما فرطت قال : ثم زللت أيما زلة فرأيت أبى فى المنام ؛ فقال : أى بنى ما كان أشد فرحى بك وأعمالك تعرض علينا فنشبهها بأعمال الصالحين ، فلما كانت هذه المرة استحييت لذلك حياء شديداً فلا تخزنى فيمن حولى من الأموات . قال : فكنت أسمعه بعد ذلك يقول فى دعائه فى السحر وكان جاراً لى بالكوفة : أسألك إنابة لارجعة فيها ولا حور . يا مصلح الصالحين ويا هادى المضلين ويا أرحم الراحمين [1] .

وهذا باب فيه آثار كثيرة عن الصحابة .

وكان بعض الأنصار من أقارب عبد الله بن رواحة يقول : اللهم إنى أعوذ بك من عمل أخزى به عند عبد الله بن رواحة ، كان يقول ذلك بعد أن استشهد عبد الله ، ويكفى فى هذا تسمية المسلِّم عليهم زائراً ، ولولا أنهم يشعرون به لما صح تسميته زائراً ، فإن المزور إن لم يعلم بزيارة من زاره لم يصح أن يقال زاره ، هذا هو المعقول من الزيارة عند جميع الأمم . وكذلك السلام عليهم أيضاً ، فإن السلام على من لا يشعر ولا يعلم بالمسلم محال ، وقد علم النبى ﷺ أمته إذا زاروا القبور أن يقولوا : سلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين ، نسأل الله لنا ولكم العافية [2] .

وهذا السلام والخطاب والنداء لموجود يسمع ويخاطب ويعقل ويرد ، وإن لم يسمع المسلم الرد ، وإذا صلى الرجل قريباً منهم شاهدوه وعلموا صلاته وغبطوه على ذلك .

قال يزيد بن هارون : أخبرنا سلمان التيمى عن أبى عثمان النهدى أن ابن ساس خرج فى جنازة فى يوم وعليه ثياب خفاف ، فانتهى إلى قبر قال : فصليت ركعتين ثم

---

(١) فى إسناده : خالد بن عمرو الأموى رماه ابن معين بالكذب ، ونسبه صالح جزرة وغيره إلى الوضع . (التقريب ١٨٩) . وقوله : ولاحور : أى رجوع فيه .

(٢) أخرجه مسلم فى الطهارة ١/ ٢١٨ (٣٩) .
وأبو داود فى الجنائز ٣/ ٢١٦ (٣٢٣٧) .
وابن ماجه فى الجنائز ١/ ٤٩٣ (١٥٤٦) .
وأحمد فى المسند : ٢/ ٣٠٠ ، ٣٧٥ ، ٤٠٨ وغير موضع .

اتكأت عليه ، فوالله إن قلبى ليقظان ، إذ سمعت صوتا من القبر : إليك عنى لا تؤذنى فإنكم قوم تعملون ولا تعلمون ، ونحن قوم نعلم ولا نعمل ، ولأن يكون لى مثل ركعتيك أحب إلى من كذا وكذا . فهذا قد علم باتكاء الرجل على القبر وبصلاته(١) .

وقال ابن أبى الدنيا : حدثنى الحسين بن على العجلى ، ثنا محمد بن الصلت ، ثنا إسماعيل بن عياش عن ثابت بن سليم ، ثنا أبو قلابة قال : أقبلت من الشام إلى البصرة ، فنزلت منزلا فتطهرت وصليت ركعتين بليل ثم وضعت رأسى على قبر فنمت ثم انتبهت ، فإذا صاحب القبر يشتكينى يقول : قد آذيتنى منذ الليلة . ثم قال : إنكم تعملون ولا تعلمون ، ونحن نعلم ولا نقدر على العمل ، ثم قال : الركعتان اللتان ركعتهما خير من الدنيا وما فيها ، ثم قال : جزى الله أهل الدنيا خيراً أقرئهم منا السلام ، فإنه يدخل علينا من دعائهم نور أمثال الجبال (٢) .

وحدثنى الحسين العجلى ، ثنا عبد الله بن نمير ، ثنا مالك بن مغول عن منصور عن يزيد بن وهب قال : خرجت إلى الجبانة فجلست فيها فإذا رجل قد جاء إلى قبر فسواه ثم تحول إلىَّ فجلس ، قال فقلت لمن هذا القبر ؟ قال : أخ لى ، فقلت : أخ لك ؟ فقال أخ لى فى الله رأيته فيما يرى النائم فقلت فلان عشت الحمد الله رب العالمين . قال : قد قلتها لأن أقدر على أن أقولها أحب إلى من الدنيا وما فيها ، ثم قال : ألم تر حيث كانوا يدفنون فإذا فلانا قام فصلى ركعتين لأن أكون أقدر على أن أصليهما أحب إلى من الدنيا وما فيها (٣) .

حدثنى أبو بكر التيمى ، ثنا عبد الله بن صالح ، حدثنى الليث بن سعد ، حدثنى حميد الطويل عن مطرف بن عبد الله الحرشى قال : خرجنا إلى الربيع فى زمانه فقلنا ندخل يوم الجمعة لشهودها وطريقنا على المقبرة . قال : فدخلنا فرأيت جنازة فى المقبرة فقلت : لو اغتنمت شهود هذه الجنازة فشهدتها ، قال : فاعتزلت ناحية قريبا من قبر فركعت ركعتين خففتهما لم أرض إتقانهما ، ونعست فرأيت صاحب القبر يكلمنى وقال : ركعت ركعتين لم ترض إتقانهما ؟ قلت : قد كان

---

(١) سنده إليه صحيح رواته ثقات .

(٢) إسناده ضعيف فيه الحسين بن على العجلى : صدوق يخطئ كثيراً (التقريب ١٦٧) .
وإسماعيل بن عياش : صدوق فى روايته عن أهل بلده مخلط من غيرهم (التقريب ١٠٩) .

(٣) ضعيف فيه الحسين بن على العجلى ، سبق الكلام عليه ، انظر سابقه .

ذلك . قال : تعملون ولا تعلمون ، ولا نستطيع أن نعمل لأن أكون ركعت مثل ركعتيك أحب إلى من الدنيا بحذافيرها فقلت : من هاهنا ؟ فقال : كلهم مسلم وكلهم قد أصاب خيرا ، فقلت : من هاهنا أفضل ؟ فأشار إلى قبر ، فقلت فى نفسى : اللهم ربنا أخرجه إلىَّ فأكلمه : فخرج من قبره فتى شاب ، فقلت : أنت أفضل من هاهنا ؟ قال: قد قالوا ذلك . قلت : فبأى شىء نلت ذلك ؟ فوالله ما أرى لك ذلك السن ، فأقول نلت ذلك بطول الحج والعمرة والجهاد فى سبيل الله والعمل . قال : قد ابتليت بالمصائب فرزقت الصبر عليها فبذلك فضلتهم (١) .

[تواطؤ رؤيا المؤمنين كتواطؤ روايتهم]

وهذه المرائى وإن لم تصح بمجردها لإثبات مثل ذلك فهى على كثرتها وأنها لا يحصيها إلا الله قد تواطأت على هذا المعنى ، وقد قال النبى ﷺ : « أرى رؤياكم قد تواطأت على أنها فى العشر الأواخر » (٢) . يعنى ليلة القدر ، فإذا تواطأت رؤيا المؤمنين على شىء كان كتواطؤ روايتهم له ، وكتواطؤ رأيهم على استحسانه واستقباحه ، « وما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن ، وما رأوه قبيحا فهو عند الله قبيح » على أنا لم نثبت هذا بمجرد الرؤيا ؛ بل بما ذكرناه من الحجج وغيرها .

[الميت يستأنس بالمشيعين]

وقد ثبت فى الصحيح أن الميت يستأنس بالمشيعين لجنازته بعد دفنه .

فروى مسلم فى صحيحه من حديث عبد الرحمن بن شماسة المهرى قال : حضرنا عمرو بن العاص وهو فى سياق الموت فبكى طويلا وحول وجهه إلى الجدار فجعل ابنه يقول : ما يبكيك يا أبتاه ، أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا ؟ فأقبل بوجهه فقال : إن أفضل ما نعد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإنى كنت على أطباق ثلاث ، لقد رأيتنى وما أحد أشد بغضاً لرسول الله ﷺ منى ، ولا أحب إلى أن أكون قد استمكنت منه فقتلته فلو مت على تلك الحال ، لكنت من أهل النار ، فلما جعل الله الإسلام فى قلبى لقيت رسول الله ﷺ فقلت : ابسط يدك فلأبايعك فبسط

---

(١) فى إسناده : عبد الله بن صالح كاتب الليث ، صدوق كثير الغلط ثبت فى كتابه وكانت فيه غفلة (التقريب ٣٠٨) .

(٢) أخرجه البخارى فى التهجد ٣/٤٨ (١١٥٨) .

ومسلم فى الصيام ٢/٨٢٢ (٢٠٥) وتواطأت : أى توافقت .

يمينه ، قال : فقبضت يدى قال : فقال مالك يا عمرو ؟ قال : قلت أردت أن اشترط قال : تشترط ماذا ؟ قلت أن يغفر لى ، قال : أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله ، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها ، وأن الحج يهدم ما كان قبله ، وما كان أحد أحب إلى من رسول الله ﷺ ولا أجل فى عينى منه ، وما كنت أطيق أن أملأ عينى منه إجلالا له ، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت ، لأنى لم أكن أملأ عينى منه ، ولو مت على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة . ثم ولينا أشياء ما أدرى ما حالى فيها ، فإذا أنا مت فلا تصحبنى نائحة ولا نار ، فإذا دفنتمونى فسنوا على التراب سناً ، ثم أقيموا حول قبرى قدر ما تنحر جزور ويقسم لحمها حتى أستأنس بكم ، وأنظر ماذا أراجع به رسل ربي فدل على أن الميت يستأنس بالحاضرين عند قبره ويسر بهم [(١)] .

وقد ذكر عن جماعة من السلف : أنهم أوصوا أن يقرأ عند قبورهم وقت الدفن .

قال عبد الحق : يروى أن عبد الله بن عمر أمر أن يقرأ عند قبره سورة البقرة وممن رأى ذلك المعلى بن عبد الرحمن ، وكان الإمام أحمد ينكر ذلك أولا حيث لم يبلغه فيه أثر ، ثم رجع عن ذلك .

[القراءة عند دفن الميت]

وقال الخلال فى (الجامع) كتاب القراءة عند القبور :

أخبرنا العباس بن محمد الدورى ، ثنا يحيى بن معين ، ثنا مبشر الحلبى ، حدثنى عبد الرحمن بن العلاء بن اللجلاج عن أبيه قال : قال أبى : إذا أنا مت فضعنى فى اللحد وقل : بسم الله وعلى سنة رسول الله وسن على التراب سنـا واقرأ عند رأسى بفاتحة البقرة وخاتمتها ، فإنى سمعت عبد الله بن عمر يقول ذلك [(٢)] .

قال عباس الدورى : سألت أحمد بن حنبل قلت : تحفظ فى القراءة على القبر شيئا ؟ فقال : لا ، وسألت يحيى بن معين فحدثنى بهذا الحديث .

---

(١) أخرجه مسلم فى الإيمان ١/١١٢ (١٩٢) ، وأحمد فى المسند : ٤/١٩٩ ، وقوله « أطباق ثلاثة » أى على أحوال ثلاث .

(٢) إسناده ضعيف جداً فيه مبشر الحلبى أبو حفص متروك ورماه أحمد بالوضع (التقريب ٥١٩) وفى الإسناد الذى يليه وثقه أحمد ، إذن اختلف فيه أحمد ، فالله أعلم بحاله .

وقوله : « سن التراب » : أى صبه صباً سهلاً .

قال الخلال : وأخبرنى الحسن بن أحمد الوراق ، حدثنى على بن موسى الحداد وكان صدوقا ، قال : كنت مع أحمد بن حنبل ومحمد بن قدامة الجوهرى فى جنازة، فلما دفن الميت جلس رجل ضرير يقرأ عند القبر ، فقال له أحمد : يا هذا إن القراءة عند القبر بدعة ، فلما خرجنا من المقابر قال محمد بن قدامة لأحمد بن حنبل: يا أبا عبد الله ما تقول فى مبشر الحلبى ؛ قال : ثقة . قال : كتبت عنه شيئا ؟ قال : نعم قال : فأخبرنى مبشر عن عبد الرحمن بن العلاء بن اللجلاج عن أبيه أنه أوصى إذا دفن أن يقرأ عند رأسه بفاتحة البقرة وخاتمتها ، وقال سمعت ابن عمر يوصى بذلك ، فقال له أحمد : فارجع وقل للرجل يقرأ .

[القراءة عند القبور عقيب الدفن]

وقال الحسن بن الصباح الزعفرانى : سألت الشافعى عن القراءة عند القبر فقال : لا بأس بها .

وذكر الخلال عن الشعبى قال : كانت الأنصار إذا مات لهم الميت اختلفوا إلى قبره يقرؤن عنده القرآن ، قال : وأخبرنى أبو يحيى الناقد قال : سمعت الحسن بن الجروى يقول : مررت على قبر أخت لى فقرأت عندها تبارك لما يذكر فيها فجاءنى رجل فقال : إنى رأيت أختك فى المنام تقول : جزى الله أبا على خيراً ، فقد انتفعت بما قرأ .

أخبرنى الحسن بن الهيثم قال : سمعت أبا بكر بن الأطروش ابن بنت أبى نصر ابن التمار يقول : كان رجل يجىء إلى قبر أمه يوم الجمعة فيقرأ سورة يس ، فجاء فى بعض أيامه فقرأ سورة يس ، ثم قال : اللهم إن كنت قسمت لهذه السورة ثوابا فاجعله فى أهل هذه المقابر ، فلما كان يوم الجمعة التى تليها جاءت امرأة فقالت : أنت فلان ابن فلانة ؟ قال : نعم . قالت : إن بنتا لى ماتت فرأيتها فى النوم جالسة على شفير قبرها فقلت : ما أجلسك هاهنا ؟ فقالت : إن فلان ابن فلانة جاء إلى قبر أمه فقرأ سورة يس وجعل ثوابها لأهل المقابر ، فأصابنا من روح ذلك أو غفر لنا أو نحو ذلك .

وفى النسائى وغيره من حديث معقل بن يسار المزنى عن النبى ﷺ أنه قال :

« اقرأوا يس على موتاكم » (١) . وهذا يحتمل أن يراد به قراءتها على المحتضر عند موته مثل قوله : « لقنوا موتاكم لا إله إلا الله » (٢) ويحتمل أن يراد به القراءة عند القبر والأول أظهر لوجوه .

أحدها : أنه نظير قوله « لقنوا موتاكم لا إله إلا الله » .

الثانى : انتفاع المحتضر بهذه السورة لما فيها من التوحيد والمعاد والبشرى بالجنة لأهل التوحيد وغبطة من مات عليه بقوله : ﴿ يَلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (٣) . فتستبشر الروح بذلك فتحب لقاء الله فيحب الله لقاءها .

فإن هذه السورة قلب القرآن ولها خاصية عجيبة فى قراءتها عند المحتضر .

وقد ذكر أبو الفرج بن الجوزى (٤) قال : كنا عند شيخنا أبى الوقت عبد الأول وهو فى السياق وكان آخر عهدنا به أنه نظر إلى السماء وضحك وقال : ﴿ يَلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَلِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ (٥) . وقضى .

الثالث : أن هذا عمل الناس وعادتهم قديما وحديثا يقرأون يس عند المحتضر .

الرابع : أن الصحابة لو فهموا من قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « اقرأوا يس على موتاكم » قراءتها عند القبر لما أخلوا به وكان ذلك أمراً معتاداً مشهوراً بينهم .

الخامس : أن انتفاعه باستماعها وحضور قلبه وذهنه عند قراءتها فى آخر عهده بالدنيا هو المقصود ، وأما قراءتها عند قبره فإنه لا يثاب على ذلك ، لأن الثواب إما بالقراءة أو بالاستماع ، وهو عمل ، وقد انقطع من الميت .

---

(١) أخرجه أبو داود فى الجنائز ٣/١٨٨ (٣١٢١) . وابن ماجه فى الجنائز ١/٤٦٥ - ٤٦٦ (١٤٤٨) . وأحمد فى المسند : ٥/٢٦ ، ٢٧ .

(٢) أخرجه مسلم فى الجنائز ٢/٦٣١ (١-٢) . وأبو داود فى الجنائز ٣/١٨٧ (٣١١٧) . وابن ماجه فى الجنائز ١/١٦٤ (١٤٤٥) . وأحمد : ٣/٣ ، والمراد بذلك : لقنوا من حضره الموت لا إله إلا الله .

(٣) يس آية : ٢٦ - ٢٧ .

(٤) ابن الجوزى الإمام الجليل المشهور المتوفى سنة ٥٩٧ هـ .

(٥) يس آية : ٢٦ - ٢٧

فصل

[الموتى يسألون عن الأحياء ويعرفون أقوالهم وأعمالهم]

وقد ترجم الحافظ أبو محمد عبد الحق الإشبيلى على هذا فقال : ذكر ما جاء أن الموتى يسألون عن الأحياء ويعرفون أقوالهم وأعمالهم . ثم قال : ذكر أبو عمر بن عبد البر من حديث ابن عباس عن النبى : « ما من رجل يمر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه فيسلم عليه إلا عرفه ورد عليه السلام » (1) .

ويروى هذا من حديث أبى هريرة مرفوعا قال : « فإن لم يعرفه وسلم عليه رد عليه السلام » .

قال ويروى من حديث عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « ما من رجل يزور قبر أخيه فيجلس عنده إلا استأنس به حتى يقوم » (2) .

واحتج الحافظ أبو محمد فى هذا الباب بما رواه أبو داود فى سننه من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من أحد يسلم علىَّ إلا رد الله علىَّ روحى حتى أرد عليه السلام » (3) . قال : وقال سليمان بن نعيم : رأيت النبى ﷺ فى النوم فقلت : يا رسول الله ، هؤلاء الذين يأتونك ويسلمون عليك أتفقه منهم قال : نعم وأرد عليهم ، قال : وكان صلى الله ﷺ يعلمهم أن يقولوا إذا دخلوا المقابر : السلام عليكم أهل الديار » الحديث . قال وهذا يدل على أن الميت يعرف سلام من يسلم عليه ودعاء من يدعو له .

قال أبو محمد : ويذكر عن الفضل بن الموفق قال : كنت آتى قبر أبى المرة بعد المرة، فأكثر من ذلك ، فشهدت يوماً جنازة فى المقبرة التى دفن فيها فتعجلت لحاجتى، ولم آته فلما كان من الليل رأيته فى المنام فقال لى : يا بنى لم لا تأتينى ؟ قلت له : يا أبت وإنك لتعلم بى إذا أتيتك قال : إى والله يا بنى ما أزال أطلع عليك حين تطلع من القنطرة حتى تصل إلى ، وتقعد عندى ، ثم تقوم فلا أزال أنظر إليك حتى تجوز القنطرة .

---

(1) ، (2) سبقا فى ص 5 .

(3) أخرجه أبو داود فى المناسك 2/ 224 (2041) .

قال ابن أبى الدنيا : حدثنى إبراهيم بن بشار الكوفى قال : حدثنى الفضل ابن الموفق فذكر القصة .

وصح عن عمرو بن دينار أنه قال : ما من ميت يموت إلا وهو يعلم ما يكون فى أهله بعده وإنهم ليغسلونه ويكفنونه وإنه لينظر إليهم . وصح عن مجاهد أنه قال : إن الرجل ليبشر فى قبره بصلاح ولده من بعده .

فصل

[الاستدلال على سماع الموتى التلقين فى القبر]

ويدل على هذا أيضا ما جرى عليه عمل الناس قديما وإلى الآن من تلقين الميت فى قبره ، ولولا أنه يسمع ذلك وينتفع به لم يكن فيه فائدة وكان عبثا ، وقد سئل عنه الإمام أحمد - رحمه الله - فاستحسنه واحتج عليه بالعمل ، ويروى فيه حديث ضعيف ذكره الطبرانى فى معجمه من حديث أبى أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا مات أحدكم فسويتم عليه التراب فليقم أحدكم على رأس قبره ، ثم يقول يا فلان ابن فلانة فإنه يسمع ولا يجيب ، ثم ليقل يا فلان ابن فلانة الثانية فإنه يستوى قاعدا ثم ليقل يا فلان ابن فلانة فإنه يقول أرشدنا رحمك الله ولكنكم لا تسمعون . فيقول اذكر ما خرجت عليه من الدنيا شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأنك رضيت بالله رباً وبالإسلام دينا ، وبمحمد نبياً ، وبالقرآن إماما . فإن منكراً ونكيراً يتأخر كل واحد منهما ويقول : انطلق بنا ما يقعدنا عند هذا وقد لقن حجته ويكون الله ورسوله حجيجه دونهما - فقال رجل يا رسول الله فإن لم يعرف أمه قال : ينسبه إلى أمه حواء » (1) .

فهذا الحديث وإن لم يثبت فاتصال العمل به فى سائر الأمصار والأعصار من غير إنكار كاف فى العمل به ، وما أجرى الله سبحانه العادة قط بأن أمة طبقت مشارق الأرض ومغاربها وهى أكمل الأمم عقولا وأوفرها معارف ، تطبق على مخاطبة من لا يسمع ولا يعقل وتستحسن ذلك لا ينكره منها منكر ؛ بل سنه الأول للآخر ويقتدى

(1) إسناده ضعيف ، وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ٢/ ٣٢٤ وعزاه للطبرانى فى الكبير وقال : وفيه من لم أعرفه جماعة . وذكره الزبيدى فى إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٣٦٨ . والعراقى فى المغنى عن حمل الأسفار ٤/ ١٧٦.

فيه الآخر بالأول ، فلولا أن المخاطب يسمع وإلا كان ذلك بمنزلة الخطاب للتراب والخشب والحجر والمعدوم ، وهذا وإن استحسنه واحد فالعلماء قاطبة على استقباحه واستهجانه .

وقد روى أبو داود فى سننه بإسناد لا بأس به أن النبى ﷺ حضر جنازة رجل فلما دفن قال : « سلوا لأخيكم التثبيت فإنه الآن يسأل » [1] . فأخبر أنه يسأل حينئذ وإذا كان يسأل فإنه يسمع التلقين .

وقد صح عن النبى ﷺ : « أن الميت يسمع قرع نعالهم إذا ولوا منصرفين » .

وذكر عبد الحق عن بعض الصالحين قال : مات أخ لى فرأيته فى النوم . فقلت : يا أخى ما كان حالك حين وضعت فى قبرك ؟ قال : أتانى آت بشهاب من نار فلولا أن داعياً دعا لى لهكلت .

وقال شبيب بن شيبة : أوصيتنى أمى عند موتها فقالت : يا بنى إذا دفنتنى فقم عند قبرى وقل : يا أم شبيب قولى لا إله إلا الله . فلما دفنتها قمت عند قبرها فقلت يا أم شبيب قولى : لا إله إلا الله ، ثم انصرفت . فلما كان من الليل رأيتها فى النوم فقالت : يا بنى كدت أن أهلك لولا أن تداركنى لا إله إلا الله فقد حفظت وصيتى يا بنى .

وذكر ابن أبى الدنيا عن تماضر بنت سهل - امرأة أيوب بن عيينة - قالت : رأيت سفيان بن عيينة فى النوم فقال : جزى الله أخى أيوب عنى خيراً فإنه يزورنى كثيراً ، وقد كان عندى اليوم فقال أيوب : نعم . حضرت الجبان اليوم فذهبت إلى قبره .

[إخبار الأموات بما حدث فى أهلهم بعدهم وبما يحدث]

وصح عن حماد بن سلمة ، عن ثابت عن شهر بن حوشب [2] أن الصعب بن جثامة وعوف بن مالك كانا متآخيين قال صعب لعوف : أى أخى أينا مات قبل صاحبه فليتراء له . قال : أو يكون ذلك ؟ قال : نعم . فمات صعب فرآه عوف فيما يرى النائم كأنه قد أتاه قال : قلت أى أخى . قال نعم . قلت: ما فعل بكم ؟ قال:

---

(١) أخرجه أبو داود فى الجنائز ٣/٢١٣ (٣٢٢١) .

(٢) شهر بن حوشب الأشعرى صدوق كثير الإرسال والأوهام . (التقريب ٢٦٩) .

غفر لنا بعد المصائب . قال : ورأيت لمعة سوداء فى عنقه . قلت : أى أخى ما هذا ؟ قال عشرة دنانير استسلفتها من فلان اليهودى فهن فى قرنى فأعطوه إياها ، واعلم أى أخى أنه لم يحدث فى أهلى حدث بعد موتى إلا قد لحق خبره حتى هرة لنا ماتت منذ أيام . واعلم أن بنتى تموت إلى ستة أيام فاستوصوا بها معروفاً . فلما أصبحت قلت إن فى هذا لمعلما فأتيت أهله فقالوا : مرحباً بعوف أهكذا تصنعون بتركة إخوانكم ؟ لم تقربنا منذ مات صعب ، قال : فاعتللت بما يعتل به الناس فنظرت إلى القرن فأنزلته فانتثلت ما فيه ، فوجدت الصرة التى فيها الدنانير فبعثت بها إلى اليهودى فقلت : هل كان لك على صعب شىء قال : رحم الله صعباً كان من خيار أصحاب رسول الله ﷺ وهى له قلت : لتخبرنى . قال : نعم أسلفته عشرة دنانير فنبذتها إليه ، قال : هى والله بأعيانها قال قلت : هذه واحدة قال : فقلت : هل حدث فيكم حدث بعد موت صعب ؟ قالوا : نعم حدث فينا كذا ، حدث فينا كذا قال : قلت : اذكروا . قالوا نعم هرة ماتت منذ أيام فقلت هاتان اثنتان قلت : أين ابنة أخى ؟ قالوا : تلعب . فأتيت بها فمسستها فإذا هى محمومة فقلت استوصوا بها معروفاً فماتت فى ستة أيام .

وهذا من فقه عوف رحمه الله وكان من الصحابة حيث نفذ وصية الصعب بن جثامة بعد موته ، وعلم صحة قوله بالقرائن التى أخبره بها من أن الدنانير عشرة وهى فى القرن ، ثم سأل اليهودى فطابق قوله لما فى الرؤيا فجزم عوف بصحة الأمر فأعطى اليهودى الدنانير . وهذا فقه إنما يليق بأفقه الناس وأعلمهم ، وهم أصحاب رسول الله ﷺ ، ولعل أكثر المتأخرين ينكر ذلك ويقول : كيف جاز لعوف أن ينقل الدنانير من تركة صعب وهى لأيتامه وورثته إلى يهودى بمنام ؟ ونظير هذا من الفقه الذى خصهم الله به دون الناس قصة ثابت بن قيس بن شماس وقد ذكرها أبو عمر ابن عبد البر وغيره .

[قصة وصية ثابت بن قيس رضى الله عنه بعد موته]

قال أبو عمر : أخبرنا عبد الوارث بن سفيان ، ثنا قاسم بن أصبغ ، ثنا أبو الزنباع روح بن الفرج ، ثنا سعيد بن عفير وعبد العزيز بن يحيى المدنى ، ثنا مالك ابن أنس عن ابن شهاب عن إسماعيل بن محمد بن ثابت الأنصارى عن ثابت بن

قيس بن شماس أن رسول الله ﷺ قال له : « يا ثابت أما ترضى أن تعيش حميداً وتقتل شهيداً وتدخل الجنة ؟ » قال مالك : فقتل ثابت بن قيس يوم اليمامة شهيداً .

قال أبو عمر : روى هشام بن عمار عن صدقة بن خالد ، ثنا عبد الرحمن بن يزيد ابن جابر قال : حدثنا عطاء الخراسانى ، حدثتنى ابنة ثابت بن قيس بن شماس قالت : « لما نزلت ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لا تَرْفَعُواْ أَصْوَتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ [1]. دخل أبوها بيته وأغلق عليه بابه ففقده رسول الله ﷺ وأرسل إليه يسأله ما خبره ؟ قال : أنا رجل شديد الصوت أخاف أن يكون قد حبط عملى ، قال : لست منهم ، بل تعيش بخير وتموت بخير ، قال ثم أنزل الله : ﴿ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾[2] فأغلق عليه بابه وطفق يبكى ففقده رسول الله ﷺ فأرسل إليه فأخبره ، فقال : يا رسول الله إنى أحب الجمال وأحب أن أسود قومى ، فقال : « لست منهم بل تعيش حميداً وتقتل شهيداً وتدخل الجنة » . قالت : فلما كان يوم اليمامة خرج مع خالد ابن الوليد إلى مسيلمة فلما التقوا وانكشفوا قال ثابت وسالم مولى أبى حذيفة : ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله ﷺ ثم حفر كل واحد له حفرة فثبتا وقاتلا حتى قتلا وعلى ثابت يومئذ درع له نفيسة ، فمر به رجل من المسلمين فأخذها فبينما رجل من المسلمين نائم إذ أتاه ثابت فى منامه فقال له : أوصيك بوصية فإياك أن تقول هذا حلم فتضيعه إنى لما قتلت أمس مر بى رجل من المسلمين فأخذ درعى ومنزله فى أقصى الناس وعند خبائه فرس يستن فى طوله ، وقد كفأ على الدرع برمة وفوق البرمة رحل فأت خالداً فمره أن يبعث إلى درعى فيأخذها ، وإذا قدمت إلى المدينة على خليفة رسول الله ﷺ - يعنى أبا بكر الصديق - فقل له : إن على من الدين كذا وكذا وفلان من رقيقى عتيق وفلان . فأتى الرجل خالداً فأخبره فبعث إلى الدرع فأتى بها وحدث أبا بكر برؤياه فأجاز وصيته [3] .

---

(١) الحجرات آية (٢) . (٢) الحديد آية (٢٣) .

(٣) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ٩/ ٣٢١ وعزاه للطبرانى وقال : فيه أبو ثابت بن قيس بن شماس لم أعرفه ، ولكنه قال : حدثنى أبى ثابت بن قيس فالظاهر أنه صحابى .

وانظر الإصابة للحافظ ابن حجر ١/ ١٩٧ وفى الإسناد عطاء الخراسانى وهو صدوق يهم كثيراً ويرسل ويدلس (التقريب ٣٩٢) .

[أنفذ أبو بكر رضى الله

وصية ثابت بن قيس التى أوصى بها فى المنام بعد الممات]

قال ولا نعلم أحداً أجيزت وصيته بعد موته غير ثابت بن قيس رحمه الله انتهى ما ذكره أبو عمر . فقد اتفق خالد وأبو بكر الصديق والصحابة معه على العمل بهذه الرؤيا وتنفيذ الوصية بها وانتزاع الدرع ممن هى فى يده وهذا محض الفقه .

وإذا كان أبو حنيفة وأحمد ومالك يقبلون قول المدعى من الزوجين ما يصلح له دون الآخر بقرينة صدقه فهذا أولى . وكذلك أبو حنيفة يقبل قول المدعى للحائط بوجود الآخر إلى جانبه ، وبمعاقد القمط . قد شرع الله حد المرأة بأيمان الزوج وقرينة تكون لها فإن ذلك من أظهر الأدلة على صدق الزوج .

وأبلغ من ذلك قتل المقسم عليه فى القسامة بأيمان المدعين مع القرينة الظاهرة من اللوث . وقد شرع الله سبحانه قبول قول المدعين لتركة ميتهم إذا مات فى السفر وأوصى إلى رجلين من غير المسلمين فأطلع الورثة على خيانة الوصيين فإنهما يحلفان بالله ويستحقانه وتكون أيمانهما أولى من أيمان الوصيين ، وهذا أنزله الله سبحانه فى آخر الأمر فى سورة المائدة وهى فى آخر القرآن نزولاً ولم ينسخها شىء
وعمل بها الصحابة بعده ، وهذا دليل على أنه يقضى فى الأموال باللوث وإذا كان الدم يباح باللوث فى القسامة فلأن يقضى باللوث وهو القرائن الظاهرة فى الأموال أولى وأحرى .

وعلى هذا عمل ولاة العدل فى استخراج السرقات من السراق ، حتى إن كثيراً ممن ينكر ذلك عليهم يستعين بهم إذا سرق ماله . وقد حكى الله سبحانه عن الشاهد الذى شهد بين يوسف الصديق وامرأة العزيز أنه حكم بالقرينة على صدق يوسف وكذب المرأة ، ولم ينكر الله سبحانه عليه ذلك بل حكاه عنه تقريراً له وأخبر النبى ﷺ عن نبى الله سليمان بن داود أنه حكم بين المرأتين اللتين ادعتا الولد للصغرى بالقرينة التى ظهرت له ، لما قال : ائتونى بالسكين أشق الولد بينكما ، فقالت الكبري : نعم ، رضيت بذلك للتسلى بفقد ابن صاحبتها ، وقالت الأخرى : لا تفعل هو ابنها فقضى به لها للشفقة والرحمة التى قامت بقلبها حتى سمحت به للأخرى ويبقى حياً وتنظر إليه [1] .

---

(١) أخرجه البخارى فى أحاديث الأنبياء ٦/٥٢٨ (٣٤٢٧) . ومسلم فى الأقضية ٣/١٣٤٤ - ١٣٤٥ (٢٠) .

وهذا من أحسن الأحكام وأعدلها . وشريعة الإسلام تقرر مثل هذا وتشهد بصحته وهل الحكم بالقافة [1] وإلحاق النسب بها للاعتماد على قرائن الشبه مع اشتباهها وخفائها غالباً ؟ والمقصود أن القرائن التى قامت فى رؤيا عوف بن مالك وقصة ثابت بن قيس لا تقصر عن كثير من هذه القرائن ، بل هى أقوى من مجرد وجود الآجر ومعاقد القمط وصلاحية المتاع للمدعى دون الآخر فى مسألة الزوجين والصانعين وهذا ظاهر لاخفاء به وفطر الناس وعقولهم تشهد بصحته ، وباللَّه التوفيق .

والمقصود جواب السائل ، وأن الميت إذا عرف مثل هذه الجزئيات وتفاصيلها فمعرفته بزيارة الحى له وسلامه عليه ودعائه له أولى وأحرى .

❊ ❊ ❊

فصل

﴿ المسألة الثانية ﴾

[أرواح الموتى هل تتلاقى وتتزاور وتتذاكر أم لا ؟]

وهى أيضاً مسألة شريفة كبيرة القدر وجوابها : أن الأرواح قسمان : أرواح معذبة وأرواح منعمة .

فالمعذبة : فى شغل بما هى فيه من العذاب عن التزاور والتلاقى .

والأرواح المنعمة المرسلة غير المحبوسة : تتلاقى وتتزاور وتتذاكر ما كان منها فى الدنيا وما يكون من أهل الدنيا ، فتكون كل روح مع رفيقها الذى هو على مثل عملها، وروح نبينا محمد ﷺ فى الرفيق الأعلى .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ والرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾[2] .

وهذه المعية ثابتة فى الدنيا وفى دار البرزخ وفى دار الجزاء ، والمرء مع من أحب فى هذه الدور الثلاثة .

---

(١) القافة : يقال : فلان يقوف الأثر ويقتافه قيافة ، مثل قفا الأثر واقتفاه ، والقائف : الذى يتتبع الآثار ويعرفها ويعرف شبه الرجل بأخيه وأبيه .

(٢) النساء آية ٦٩ .

وروى جرير ، عن منصور ، عن أبى الضحى عن مسروق قال : قال أصحاب محمد ﷺ : ما ينبغى لنا أن نفارقك فى الدنيا ، فإذا مت رفعت فوقنا ، فلم نرك فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾ (١) .

قال الشعبى : جاء رجل من الأنصار وهو يبكى إلى النبى فقال : « ما يبكيك يا فلان ؟ فقال : يا نبى الله واللَّه الذى لا إله إلا هو لأنت أحب إلى من أهلى ومالى واللَّه الذى لا إله إلا هو لأنت أحب إلى من نفسى ، وأنا أذكرك أنا وأهلى فيأخذنى كذا حتى أراك ، فذكرت موتك وموتى فعرفت أنى لن أجامعك إلا فى الدنيا ، وأنك ترفع بين النبيين ، وعرفت أنى إن دخلت الجنة كنت فى منزل أدنى من منزلك» فلم يرد النبى ﷺ شيئاً فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ﴾ إلى قوله : ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ (٣) .

أى ادخلى فى جملتهم وكونى معهم ، وهذا يقال للروح عند الموت .

[تذاكر الأرواح العلم ومقام النفس المطمئنة]

وفى قصة الإسراء من حديث عبد الله بن مسعود قال : لما أسرى بالنبى ﷺ لقى إبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فتذاكروا الساعة فبدأوا بإبراهيم فسألوه عنها فلم يكن عنده منها علم ، ثم بموسى فلم يكن عنده منها علم ، حتى أجمعوا الحديث إلى عيسى فقال عيسى : عهد الله إلىَّ فيما دون وجبتها ، فذكر

---

(١) النساء آية ٦٩ .

والحديث بهذا الإسناد مرسل ووصله الطبرانى وابن مردويه وأبو نعيم فى الحلية والضياء المقدسى فى صفة الجنة وحسنه عن عائشة . انظر الدر المنثور ٢/٥٨٨ .

(٢) النساء آية : ٦٩ - ٧٠

والحديث مرسل رفعه الشعبى لسيدنا رسول الله ﷺ ، ووصله الطبرانى وابن مردويه من طريق الشعبى عن عائشة فذكره ، الدر المنثور ٢/٥٨٨ . (٣) الفجر الآية : ٢٧ - ٣٠ .

خروج الدجال قال : فأهبط فأقتله ، ويرجع الناس إلى بلادهم فتستقبلهم يأجوج ومأجوج ، وهم من كل حدب ينسلون فلا يمرون بماء إلا شربوه ولا يمرون بشيء إلا أفسدوه فيجأرون إليَّ ﴿ فأدعو الله ﴾ فيميتهم ، فتجأر الأرض إلى الله من ريحهم ، ويجأرون إليَّ فأدعو ويرسل الله السماء بالماء فيحمل أجسامهم فيقذفها فى البحر ، ثم ينسف الجبال وتمد الأرض مد الأديم ، فعهد الله إليَّ إذا كان كذلك فإن الساعة من الناس كالحامل المتم لا يدرى أهلها متى تفجأهم بولادتها ليلا أو نهاراً (1) .

وهذا نص فى تذاكر الأرواح العلم ، وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن الشهداء بأنهم أحياء عند ربهم يرزقون ، وأنهم يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم، وأنهم يستبشرون بنعمة من الله وفضل ، وهذا يدل على تلاقيهم من ثلاثة أوجه :

أحدها : أنهم عند ربهم يرزقون ، وإذا كانوا أحياء فهم يتلاقون .

الثانى : أنهم إنما استبشروا بإخوانهم لقدومهم عليهم ولقائهم لهم .

الثالث : أن لفظ يستبشرون يفيد فى اللغة أنهم يبشر بعضهم بعضاً مثل يتباشرون وقد تواترت المرائى بذلك .

فمنها ما ذكره صالح بن بشير قال : رأيت عطاء السلمى فى النوم بعد موته فقلت له : يرحمك الله ، لقد كنت طويل الحزن فى الدنيا ، فقال : أما واللَّه لقد أعقبنى ذلك فرحاً طويلاً وسروراً دائماً ، فقلت : فى أى الدرجات أنت ؟ قال : مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

وقال عبد الله بن المبارك : رأيت سفيان الثورى فى النوم فقلت له : ما فعل الله بك ؟ قال : لقيت محمداً وحزبه .

وقال صخر بن راشد : رأيت عبد الله بن المبارك فى النوم بعد موته فقلت : أليس قد مت ؟ قال : بلى . قلت : فما صنع الله بك ؟ قال : غفر لى مغفرة أحاطت بكل ذنب ، قلت : فسفيان الثورى ؟ قال بخ بخ ، ذاك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

وذكر ابن أبى الدنيا من حديث حماد بن زيد ، عن هشام بن حسان ، عن يقظة

---

(1) أخرجه الحاكم فى المستدرك ٢/ ٣٨٤ .

ابنت راشد قالت : كان مروان المحلمى لى جاراً وكان قاضياً مجتهداً ، قالت : فمات فوجدت عليه وجداً شديداً ، قالت : فرأيته فيما يرى النائم قلت : أبا عبد الله ما صنع بك ربك ؟ قال : أدخلنى الجنة . قلت : ثم ماذا ؟ قال : ثم رفعت إلى أصحاب اليمين ، قلت : ثم ماذا ، قال : ثم رفعت إلى المقربين ، قلت : فمن رأيت من إخوانك ؟ قال : رأيت الحسن وابن سيرين وميمون بن سياه .

قال حماد : قال هشام بن حسان فحدثتنى أم عبد الله - وكانت من خيار نساء أهل البصرة - قالت : رأيت فيما يرى النائم كأنى دخلت داراً حسنة ثم دخلت بستاناً، فذكرت من حسنه ما شاء الله . فإذا أنا فيه برجل متكىء على سرير من ذهب وحوله الوصفاء بأيديهم الأكاويب ، قالت : فإنى لمتعجبة من حسن ما أرى ، إذ قيل : هذا مروان المحلمى أقبل ، فوثب فاستوى جالساً على سريره ، قالت : واستيقظت من منامى ، فإذا جنازة مروان قد مر بها على بابى تلك الساعة .

[الأحاديث الدالة على تلاقى أرواح الموتى وتعارفهم]

وقد جاءت سنة صريحة بتلاقى الأرواح وتعارفها .

قال ابن أبى الدنيا : حدثنى محمد بن عبد الله بن بزيع ، أخبرنى فضيل بن سليمان النميرى ، حدثنى يحيى بن عبد الرحمن بن أبى لبيبة عن جده قال : لما مات بشر بن البراء بن معرور وجدت عليه أم بشر وجداً شديداً ، فقالت : يا رسول الله إنه لا يزال الهالك يهلك من بنى سلمة ، فهل تتعارف الموتى فأرسل إلى بشر بالسلام ؟ فقال رسول الله ﷺ : « نعم والذى نفسى بيده يا أم بشر إنهم ليتعارفون كما تتعارف الطير فى رءوس الشجر » وكان لا يهلك هالك من بنى سلمة إلا جاءته أم بشر فقالت : يا فلان عليك السلام فيقول : وعليك ، فتقول : اقرأ على بشر السلام [1] .

وذكر ابن أبى الدنيا من حديث سفيان ، عن عمرو بن دينار ، عن عبيد بن عمير قال : أهل القبور يتوكفون الأخبار ، فإذا أتاهم الميت قالوا : ما فعل فلان ؟ فيقول :

---

(١) إسناده ضعيف فيه فضيل بن سليمان النميرى ، صدوق له خطأ كثير (التقريب ٤٤٧) وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد : ٣٢٩/٢ وعزاه للطبرانى فى الكبير وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ، وبقية رجاله رجال الصحيح . أ.هـ وشاهده فى الصحيح عن كعب .

صالح . ما فعل فلان ؟ يقول صالح . ما فعل فلان ؟ فيقول : ألم يأتكم أو ما قدم عليكم ؟ فيقولون : لا . فيقول : إنا لله وإنا إليه راجعون سلك به غير سبيلنا .

وقال صالح المرى : بلغنى أن الأرواح تتلاقى عند الموت فتقول أرواح الموتى للروح التى تخرج إليهم : كيف كان مأواك وفى أى الجسدين كنت فى طيب أم خبيث ؟ ثم بكى حتى غلبه البكاء .

وقال عبيد بن عمير : إذا مات الميت تلقته الأرواح يستخبرونه كما يستخبر الركب : ما فعل فلان ما فعل فلان ؟ ، فإذا قال توفى ولم يأتهم قالوا : ذهب به إلى أمه الهاوية .

وقال سعيد بن المسيب : إذا مات الرجل استقبله ولده كما يستقبل الغائب .

وقال عبيد بن عمير أيضاً : لو أنى آيس من لقاء من مات من أهلى لألفانى قد مت كمداً .

وذكر معاوية بن يحيى ، عن عبد الله بن سلمة ، أن أبا رهم المسمعى حدثه أن أبا أيوب الأنصارى حدثه أن رسول الله ﷺ قال : « إن نفس المؤمن إذا قبضت تلقاها أهل الرحمة من عند الله كما يتلقى البشير فى الدنيا . فيقولون : انظروا أخاكم حتى يستريح فإنه كان فى كرب شديد ، فيسألونه ماذا فعل فلان ؟ وماذا فعلت فلانة ؟ وهل تزوجت فلانة ، فإذا سألوه عن رجل مات قبله قال إنه قد مات قبلى قالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون ذهب به إلى أمه الهاوية ، فبئست الأم وبئست المربية [1] .

وقد تقدم حديث يحيى بن بسطام حدثنى مسمع بن عاصم قال : رأيت عاصماً الجحدرى فى منامى بعد موته بسنتين فقلت : أليس قدمت قال : بلى . قلت : وأين أنت قال : أنا واللّه فى روضة من رياض الجنة أنا ونفر من أصحابى نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى بكر بن عبد الله المزنى فنتقلى أخباركم . قلت : أجسامكم أم أرواحكم قال : هيهات بليت الأجسام وإنما تتلاقى الأرواح .

❊ ❊ ❊

---

(١) سنده ضعيف معاوية بن يحيى الصدفى : ضعيف (التقريب ص ٥٣٨) . وذكره السيوطى فى الدر المنثور ٦/ ١٥٤ . وفى إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٣٩٤ .

فصل

﴿ المسألة الثالثة ﴾

[هل تتلاقى أرواح الأحياء وأرواح الأموات أم[1] لا]

فشواهد هذه المسألة وأدلتها أكثر من أن يحصيها إلا الله تعالى ، والحسن والواقع من أعدل الشهود بها ، فتلتقى أرواح الأحياء والأموات كما تلتقى أرواح الأحياء ، وقد قال تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِى قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًى إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [2] .

قال أبو عبد الله بن منده : ثنا أحمد بن محمد بن إبراهيم ، ثنا عبد الله بن حسين الحرانى ، ثنا جدى أحمد بن شعيب ، ثنا موسى بن أعين عن مطرف عن جعفر ابن أبى المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى هذه الآية قال : بلغنى أن أرواح الأحياء والأموات تلتقى فى المنام فيتساءلون بينهم ، فيمسك الله أرواح الموتى ويرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها [3] .

وقال ابن أبى حاتم فى تفسيره : ثنا عبد الله بن سليمان ، ثنا الحسين ، ثنا عامر ثنا أسباط عن السدى فى قوله تعالى : ﴿ وَالَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾ . قال يتوفاها فى منامها فيلتقى روح الحى وروح الميت فيتذاكران ويتعارفان ، قال : فترجع روح الحى إلى جسده فى الدنيا إلى بقية أجلها ، وتريد روح الميت أن ترجع إلى جسده فتحبس وهذا أحد القولين فى الآية ، وهو أن الممسكة من توفيت وفاة الموت أولاً ، والمرسلة من توفيت وفاة النوم . والمعنى على هذا القول أنه يتوفى نفس الميت فيمسكها ولا يرسلها إلى جسدها قبل يوم القيامة ، ويتوفى نفس النائم ثم يرسلها إلى جسدها إلى بقية أجلها فيتوفاها الوفاة الأخرى . والقول الثانى فى الآية أن الممسكة والمرسلة فى الآية كلاهما توفى وفاة النوم ، فمن استكملت أجلها أمسكها عنده ، فلا يردها إلى جسدها ، ومن لم تستكمل أجلها ردها إلى جسدها لتستكمله . واختار

---

(١) أم : الصواب أو ، لأنها وردت بعد هل الاستفهامية . (٢) الزمر آية ٤٢ .

(٣) إسناده ضعيف ، فيه عبد الله بن حسين ، صدوق يخطئ (التقريب ٣٠٠) ، وجعفر بن أبى المغيرة صدوق يهم (التقريب ١٤١) .

شيخ الإسلام هذا القول وقال : عليه يدل القرآن والسنة ، قال : فإنه سبحانه ذكر إمساك التى قضى عليها الموت من هذه الأنفس التى توفاها وفاة النوم ، وأما التى توفاها حين موتها فتلك لم يصفها بإمساك ولا بإرسال ، بل هى قسم ثالث . والذى يترجح هو القول الأول ، لأنه سبحانه أخبر بوفاتين : وفاة كبرى وهى وفاة الموت ، ووفاة صغرى وهى وفاة النوم . وقسم الأرواح قسمين : قسماً قضى عليها بالموت فأمسكها عنده ، وهى التى توفاها وفاة الموت ، وقسماً لها بقية أجل فردها إلى جسدها إلى استكمال أجلها ، وجعل سبحانه الإمساك والإرسال حكمين للوفاتين المذكورتين أولاً ، فهذه ممسكة وهذه مرسلة . وأخبر أن التى لم تمت هى التى توفاها فى منامها، فلو كان قد قسم وفاة النوم إلى قسمى وفاة موت ووفاة نوم - ولم يقل والتى لم تمت فى منامها - فإنها من حين قبضت ماتت ، وهو سبحانه قد أخبر أنها لم تمت فكيف يقول بعد ذلك فيمسك التى قضى عليها الموت ولمن نصر هذا القول أن يقول قوله تعالى : ﴿ فَيُمْسِكُ الَّتِى قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ ﴾ [١] بعد أن توفاها وفاة النوم فهو سبحانه توفاها أولاً وفاة نوم ، ثم قضى عليها الموت بعد ذلك .

والتحقيق : أن الآية تتناول النوعين فإنه سبحانه ذكر وفاتين وفاة نوم ووفاة موت وذكر إمساك المتوفاة وإرسال الأخرى ، ومعلوم أنه سبحانه يمسك كل نفس ميت سواء مات فى النوم أو فى اليقظة [٢] ، ويرسل نفس من لم يمت فقوله : ﴿ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ يتناول من مات فى اليقظة ومن مات فى المنام ، وقد دل على التقاء أرواح الأحياء والأموات أن الحى يرى الميت فى منامه فيستخبره ويخبره الميت بما لا يعلم الحى ، فيصادف خبره كما أخبر فى الماضى والمستقبل ، وربما أخبره بمال دفنه الميت فى مكان لم يعلم به سواه ، وربما أخبره بدين عليه وذكر له شواهده وأدلته .

وأبلغ من هذا أنه يخبر بما عمله من عمل لم يطلع عليه أحد من العالمين . وأبلغ من هذا أنه يخبره أنك تأتينا إلى وقت كذا وكذا فيكون كما أخبر ، وربما أخبره عن أمور يقطع الحى أنه لم يكن يعرفها غيره ، وقد ذكرنا قصة الصعب بن جثامة وقوله لعوف بن مالك ما قال له . وذكرنا قصة ثابت بن قيس بن شماس إخباره لمن رآه

---

(١) الزمر آية ٤٢ .

(٢) الأولى أن يقال : سواء أمات فى النوم أم فى اليقظة . قال تعالى : ﴿ إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون ﴾ سورة البقرة : ٦ .

بدرعه وما عليه من الدين . وقصة صدقة بن سليمان الجعفرى وإخبار ابنة له بما عمل من بعده ، وقصة شبيب بن شيبة وبقول أمه له بعد الموت جزاك الله خيراً حيث لقنها لا إله إلا الله ، وقصة الفضل بن الموفق مع ابنه وإخباره إياه بعلمه بزيارته .

وقال سعيد بن المسيب [1] : التقى عبد الله بن سلام [2] وسلمان الفارسى [3] فقال أحدهما للآخر : إن مت قبلى فالقنى فأخبرنى ما لقيت من ربك ، وإن أنا مت قبلك لقيتك فأخبرتك ، فقال الآخر : وهل تلتقى الأموت والأحياء قال : نعم أرواحهم فى الجنة تذهب حيث شاءت ، قال : فمات فلان فلقيه فى المنام ، فقال توكل وأبشر فلم أر مثل التوكل قط .

وقال العباس بن عبد المطلب [4] : كنت أشتهى أن أرى عمر فى المنام ، فما رأيته إلا عند قرب الحول ، فرأيته يمسح العرق عن جبينه وهو يقول : هذا أوان فراغى إن كاد عرشى ليهد لولا أن لقيت رءوفاً رحيماً .

ولما حضرت شريح بن عابد الثمالى الوفاة دخل عليه غضيف بن الحارث وهو يجود بنفسه ، فقال : يا أبا الحجاج إن قدرت على أن تأتينا بعد الموت فتخبرنا بما ترى فافعل ، قال : وكانت كلمة مقبولة من أهل الفقه قال : فمكث زماناً لا يراه ثم رآه فى منامه فقال له : أليس قد مت قال : بلى . قال : فكيف حالك ؟ قال : تجاوز ربنا عن الذنوب فلم يهلك منا إلا الأحراض قلت : وما الأحراض قال : الذين يشار إليهم بالأصابع فى الشئ [5] .

وقال عبد الله بن عمر بن عبد العزيز : رأيت أبى فى النوم بعد موته كأنه فى حديقة فدفع إلى تفاحات فأوّلتهن الولد فقلت : أى الأعمال وجدت أفضل ؟ فقال : الاستغفار يا بنى . ورأى مسلمة بن عبد الملك عمر بن عبد العزيز بعد موته فقال : يا أمير المؤمنين ، ليت شعرى إلى أى الحالات صرت بعد الموت ؟ قال : يا مسلمة هذا أوان فراغى واللّه ما استرحت إلا الآن ، قال : قلت فأين أنت يا أمير المؤمنين قال : مع أئمة الهدى فى جنة عدن .

---

(١) سيد التابعين وأحد الفقهاء الكبار . (٢) صحابى جليل ، كان يهودياً فأسلم وحسن إسلامه .

(٣) صحابى جليل ، كان مجوسياً ، قال فى فضله النبى ﷺ : « سلمان منا أهل البيت » .

(٤) هو عم للنبى ﷺ ، أسلم عام الفتح .

(٥) لهل هؤلاء هم الذين يجهرون بالمعاصى والذنوب .

وقال صالح البراد : رأيت زرارة بن أوفى بعد موته فقلت : رحمك الله ماذا قيل لك ؟ وماذا قلت ؟ فأعرض عنى ، قلت : فما صنع الله بك ؟ قال : تفضل علىّ بجوده وكرمه ، قلت : فأبو العلاء بن يزيد أخو مطرف ؟ قال : ذاك فى الدرجات العلى قلت : فأى الأعمال أبلغ فيما عندكم ؟ قال : التوكل وقصر الأمل .

وقال مالك بن دينار : رأيت مسلم بن يسار بعد موته فسلمت عليه فلم يرد على السلام ، فقلت : ما يمنعك أن ترد السلام قال : أنا ميت فكيف أرد عليك السلام فقلت له : ماذا لقيت بعد الموت ؟ قال : لقيت واللّه أهوالاً وزلازلاً عظاماً شداداً . قال قلت له : فما كان بعد ذلك ؟ قال : وما تراه يكون من الكريم ؟! قبل منا الحسنات وعفا لنا عن السيئات ، وضمن عنا التبعات . قال : ثم شهق مالك شهقة خر مغشياً عليه . قال : فلبث بعد ذلك أياماً مريضاً ، ثم انصدع قلبه فمات .

[قصة وفاة مالك بن دينار رحمه الله تعالى][1]

وقال سهيل أخو حزم : رأيت مالك بن دينار بعد موته فقلت : يا أبا يحيى ليت شعرى ، ماذا قدمت به على الله ؟ قال : قدمت بذنوب كثيرة محاها عنى حسن الظن باللّه عز وجل .

[قصة رؤيا رجاء بن حَيْوة][2]

ولما مات رجاء بن حيوة رأته امرأة عابدة فقالت : يا أبا المقدام إلى ما صرتم ؟ قال: إلى خير ، ولكن فزعنا بعدكم فزعة ظننا أن القيامة قد قامت . قالت قلت : ومم ذلك ؟ قال : دخل الجراح وأصحابه الجنة بأثقالهم حتى ازدحموا على بابها .

وقال جميل بن مرة : كان مورق العجلى لى أخاً وصديقاً ، فقلت له ذات يوم : أينا مات قبل صاحبه فليأت صاحبه فليخبره بالذى صار إليه ، قال : فمات مورق فرأت أهلى فى منامها كأنه أتانا كما كان يأتى ، فقرع الباب كما كان يقرع ، قالت : فقمت ففتحت له كما كنت أفتح ، وقلت : ادخل يا أبا المعتمر إلى باب أخيك فقال: كيف أدخل وقد ذقت الموت ، إنما جئت لأعلم جميلاً بما صنع الله بى أعلميه أنه قد جعلنى فى المقربين .

---

(١) هو مالك بن دينار البصرى الزاهد ، أبو يحيى ، الصدوق العابد ، إمام الصوفية وسيدها توفى سنة ثلاثين ومائة .

(٢) هو رجاء بن حيوة الكندى ، أبو المقدام الفلسطينى الثقة الفقيه توفى سنة اثنتى عشرة ومائة .

ولما مات محمد بن سيرين حزن عليه بعض أصحابه حزناً شديداً فرآه فى المنام فى حال حسنة فقال : يا أخى قد أراك فى حال يسرنى فما صنع الحسن ؟ قال رفع فوقى بسبعين درجة ، قلت : ولِمَ ذاك وقد كنا نرى أنك أفضل منه ؟ قال : ذاك بطول حزنه .

وقال ابن عيينة : رأيت سفيان الثورى فى النوم فقلت : أوصنى ، قال : أقلّ من معرفة الناس .

وقال عمار بن سيف : رأيت الحسن بن صالح فى منامى فقلت : قد كنت متمنياً للقائك ، فماذا عندك فتخبرنا به ؟ فقال : أبشر فإنى لم أر مثل حسن الظن باللَّه شيئاً .

ولما مات ضيغم العابد رآه بعض أصحابه فى المنام فقال : أما صليت علىّ ؟ قال: فذكرت علة كانت ، فقال : أما لو كنت صليت علىّ ربحت رأسك .

[قصة رؤيا رابعة [1] رحمها الله بعد موتها]

ولما ماتت رابعة رأتها امرأة من أصحابها وعليها حلة استبرق وخمار من سندس، وكانت كفنت فى جبة وخمار من صوف ، فقالت لها : ما فعلت الجبة التي كفنتك فيها وخمار الصوف قالت : واللَّه إنه نزع عنى وأبدلت به هذا الذى ترين على وطويت أكفانى وختم عليها ورفعت فى عليين ، ليكمل لى ثوابها يوم القيامة ، قالت : فقلت لها : لهذا كنت تعملين أيام الدنيا ؟ فقالت : وما هذا عندما رأيت من كرامة الله لأوليائه ؟ فقلت لها : فما فعلت عبدة بنت أبى كلاب ؟ فقالت : هيهات هيهات سبقتنا واللَّه إلى الدرجات العلى ، قالت قلت : وبم وقد كنت عند الناس أعبد منها ؟ فقالت : إنها لم تكن تبالى على أى حال أصبحت من الدنيا أو أمست فقلت : فما فعل أبو مالك - تعنى ضيغماً - ؟ فقالت : يزور الله تبارك وتعالى متى شاء . قالت: قلت فما فعل بشر بن منصور ؟ قالت : بخ بخ [2] ، أعطى واللَّه فوق ما كان يأمل ، قالت قلت : مرينى بأمر أتقرب به إلى الله تعالى . قالت: عليك بكثرة ذكر الله فيوشك أن تغتبطى بذلك فى قبرك .

---

(1) هى الزاهدة العابدة السيدة رابعة العدوية ، أم الخير مولاة آل عتيك البصرية ، صالحة مشهورة من أهل البصرة ، ولدت بها ، لها أخبار فى العبادة والنسك ، ولها شعر . قال ابن خلكان : وقبرها يزار ، وهو بظاهر القدس من شرقيه ، توفيت سنة ١٣٥ هـ .

(٢) تقال عند المدح أو الرضا .

ولما مات عبد العزيز بن سليمان العابد رآه بعض أصحابه وعليه ثياب خضر ، وعلى رأسه إكليل من لؤلؤ ، فقال : كيف كنت بعدنا ؟ وكيف وجدت طعم الموت ؟ وكيف رأيت الأمر هناك ؟ قال : أما الموت فلا تسأل عن شدة كربه وغمه إلا أن رحمة الله وارت عنا كل عيب وما تلقانا إلا بفضله .

وقال صالح بن بشر : لما مات عطاء السلمى رأيته فى منامى فقلت : يا أبا محمد ألست فى زمرة الموتى ؟ قال : بلى ، قلت : فماذا صرت إليه بعد الموت ؟ قال : صرت واللّه إلى خير كثير ورب غفور شكور ، وقال : قلت أما واللّه لقد كنت طويل الحزن فى دار الدنيا ، فتبسم وقال : واللّه لقد أعقبنى ذلك راحة طويلة وفرحاً دائماً فقلت : ففى أى الدرجات أنت ؟ قال : مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .

[رؤيا بعض أهل عاصم الجحدرى [1] بعد مماته إياه]

ولما مات عاصم الجحدرى رآه بعض أهله فى المنام فقال : أليس قد مت ؟ قال : بلى ، قال : فأين أنت ؟ قال : أنا واللّه فى روضة من رياض الجنة ، أنا ونفر من أصحابى نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى بكر بن عبد الله المزنى ، فنتلقى أخباركم . قال قلت : أجسادكم أم أرواحكم ؟ قال : هيهات بليت الأجساد وإنما تتلاقى الأرواح .

ورئى الفضيل بن عياض بعد موته فقال : لم أر للعبد خيراً من ربه .

[قصة رؤيا مرة الهمدانى [2] رحمه الله]

وكان مرة الهمدانى قد سجد حتى أكل التراب جبهته ، فلما مات رآه رجل من أهله فى منامه وكأن موضع سجوده كهيئة الكوكب الدرى ، فقال : ما هذا الأثر الذى أرى بوجهك ؟ قال : كسى موضع السجود بأكل التراب له نوراً ، قال قلت : فما منزلتك فى الآخرة ؟ قال : خير منزل ، دار لا ينتقل عنها أهلها ولا يموتون .

---

(١) هو عاصم بن العجاج الجحدرى البصرى ، أبو المحشر المقرئ ، وهو عاصم بن أبى الصباح ، أخذ عنه سلام أبو المنذر وجماعة قراءة شاذة فيها ماينكر .

(٢) هو مرة بن شراحيل الهمدانى ، أبو إسماعيل الكوفى الثقة العابد ، مات سنة ست وسبعين .

[قصة رؤيا أويس القرنى [1] بعد وفاته رحمه الله]

وقال أبو يعقوب القارى : رأيت فى منامى رجلاً آدماً طوالاً والناس يتبعونه ، قلت : مَن هذا ؟ قالوا : أويس القرنى فاتبعته فقلت : أوصنى يرحمك الله فكلح [2] فى وجهى ، فقلت : مسترشد فأرشدنى رحمك الله ، فأقبل علىَّ فقال : ابتغ رحمة الله عند محبته ، واحذر نقمته عند معصيته ، ولا تقطع رجاءك منه فى خلال ذلك ، ثم ولى وتركنى .

وقال ابن السماك : رأيت مسعراً فى النوم فقلت : أى الأعمال وجدت أفضل قال : مجالس الذكر . وقال الأجلح : رأيت سلمة بن كهيل فى النوم فقلت : أى الأعمال وجدت أفضل ؟ قال : قيام الليل .

وقال أبو بكر ابن أبى مريم : رأيت وفاء بن بشر بعد موته فقلت : ما فعلت ياوفاء ؟ قال : نجوت بعد كل جهد . قلت : فأى الأعمال وجدتموها أفضل ؟ قال : البكاء من خشية الله عز وجل .

[ذكر عرض الحسنات والسيئات كلها على الأرواح]

وقال الليث بن سعد ، عن موسى بن وردان : أنه رأى عبد الله بن أبى حبيبة بعد موته فقال : عرضت علىّ حسناتى وسيئاتى فرأيت فى حسناتى حبات رمان التقطتهن فأكلتهن ، ورأيت فى سيئاتى خيطى حرير كانا فى قلنسوتى [3] .

وقال سنيد بن داود [4] : حدثنى ابن أخى جويرية بن أسماء قال : كنا بعبادان فقدم علينا شاب من أهل الكوفة متعبد فمات بها فى يوم شديد الحر ، فقلت : نبرد ثم نأخذ فى جهازه ، فنمت فرأيت كأنى فى المقابر فإذا بقبة جوهر تتلألأ حسناً وأنا أنظر إليها إذ انفلقت فأشرقت منها جارية ما رأيت مثل حسنها ، فأقبلت علىَّ فقالت:

---

(١) هو أويس - بالتصغير - ابن عامر القَرَنى ، سيد التابعين ،روى له مسلم من كلامه ، مخضرم ، قتل بصفين .

(٢) كَلَحَ : أى عبس فى وجهه .

(٣) الليث بن سعد : هو الثقة الثبت ، وموسى بن وردان : صدوق ربما أخطأ ، فالإسناد على ذلك حسن.

(٤) سنيد بن داود المصيصى ، المحتسب ، ضُعف مع إمامته ومعرفته ، (التقريب ٢٥٧) .

باللَّه لا تحبسه عنا إلى الظهر ، قال : فانتبهت فزعاً وأخذت فى جهازه وحفرت له قبراً فى الموضع الذى رأيت فيه القبة فدفنته فيه .

وقال عبد الملك بن عتاب الليثى : رأيت عامر بن عبد قيس فى النوم فقلت : أى الأعمال وجدت أفضل ؟ قال : ما أريد به وجه الله عز وجل .

وقال يزيد بن هارون : رأيت أبا العلاء أيوب بن مسكين فى المنام فقلت : ما فعل بك ربك قال غفر لى . قلت : بماذا ؟ قال : بالصوم والصلاة . قلت : أرأيت منصور بن زاذان ؟ قال : هيهات ذاك نرى قصره من بعيد .

وقال يزيد بن نعامة : هلكت جارية فى طاعون الجارف فلقيها أبوها بعد موتها فقال لها : يا بنية أخبرينى عن الآخرة . قالت : يا أبت قدمنا على أمر عظيم نعلم ولا نعمل وتعملون ولا تعلمون ، واللَّه لتسبيحة أو تسبيحتان أو ركعة أو ركعتان فى صحيفة عملى أحب إلىّ من الدنيا وما فيها .

وقال كثير بن مرة : رأيت فى منامى كأنى دخلت درجة علياء فى الجنة فجعلت أطوف بها وأتعجب منها ، فإذا أنا بنساء من نساء المسجد فى ناحية منها فذهبت حتى سلمت عليهن ، ثم قلت : بما بلغتن هذه الدرجة ؟ قلن : بسجدات وتكبيرات .

[رؤيا عمر بن عبد العزيز ، رحمه الله ، النبى ﷺ مع أصحابه الأربعة فى المنام]

وقال مزاحم مولى عمر بن عبد العزيز ، عن فاطمة بنت عبد الملك امرأة عمر بن عبد العزيز قالت : انتبه عمر بن عبد العزيز ليلة فقال : لقد رأيت رؤيا معجبة . قالت ، فقلت : جعلت فداك فأخبرنى بها . فقال : ما كنت لأخبرك بها حتى أصبح، فلما طلع الفجر خرج فصلى ثم عاد إلى مجلسه ، قالت : فاغتنمت خلوته فقلت : أخبرنى بالرؤيا التى رأيت . قال : رأيت كأنى رفعت إلى أرض خضراء واسعة كأنها بساط أخضر ، وإذا فيها قصر أبيض كأنه الفضة ، وإذا خارج قد خرج من ذلك القصر ، فهتف بأعلى صوته يقول : أين محمد بن عبد الله بن عبد المطلب؟ أين رسول الله ﷺ ؟ إذ أقبل رسول الله ﷺ ، حتى دخل ذلك القصر . قال : ثم إن آخر خرج من ذلك القصر ، فنادى : أين أبو بكر الصديق أين ابن أبى قحافة ؟ إذ أقبل أبو بكر حتى دخل ذلك القصر . ثم خرج آخر فنادى : أين عمر بن الخطاب ؟

فأقبل عمر حتى دخل ذلك القصر . ثم خرج آخر فنادى : أين عثمان بن عفان ؟ فأقبل حتى دخل ذلك القصر ، ثم خرج آخر فنادى أين علىّ بن أبى طالب ؟ فأقبل حتى دخل ذلك القصر . ثم إن آخر خرج فنادى أين عمر بن عبد العزيز ؟ قال عمر: فقمت حتى دخلت ذلك القصر ، قال : فدفعت إلى رسول الله ﷺ ، والقوم حوله فقلت بينى وبين نفسى : أين أجلس ؟ فجلست إلى جنب أبى عمر بن الخطاب ، فنظرت فإذا أبو بكر عن يمين النبى ﷺ ، وإذا عمر عن يساره ، فتأملت فإذا بين رسول الله ﷺ وبين أبى بكر رجل ، فقلت : مَن هذا الرجل الذى بين رسول الله ﷺ وبين أبى بكر فقال : هذا عيسى ابن مريم ، فسمعت هاتفاً يهتف وبينى وبينه ستر نور : يا عمر بن عبد العزيز تمسك بما أنت عليه ، واثبت على ما أنت عليه ، ثم كأنه أذن لى فى الخروج ، فقمت فخرجت من ذلك القصر ، فالتفت خلفى فإذا أنا بعثمان ابن عفان وهو خارج من ذلك القصر يقول : الحمد لله الذى نصرنى، وإذا علىّ بن أبى طالب فى أثره خارج من ذلك القصر وهو يقول : الحمد لله الذى غفر لى .

وقال سعيد بن أبى عروبة ، عن عمر بن عبد العزيز : رأيت رسول الله ﷺ ، وأبو بكر وعمر جالسان عنده فسلمت وجلست ، فبينما أنا جالس إذ أتى بعلىّ ومعاوية فأدخلا بيتاً وأجيف عليهما الباب وأنا أنظر فما كان بأسرع من أن خرج علىّ وهو يقول : قضى لى ورب الكعبة ، وما كان بأسرع من أن خرج معاوية على أثره وهو يقول : غفر لى ورب الكعبة .

وقال حماد بن أبى هاشم : جاء رجل إلى عمر بن عبد العزيز فقال : رأيت رسول الله ﷺ فى المنام وأبو بكر عن يمينه وعمر عن شماله ، وأقبل رجلان يختصمان وأنت بين يديه جالس ، فقال لك : يا عمر إذا عملت فاعلم بعمل هذين لأبى بكر وعمر ، فاستحلفه عمر باللَّه أرأيت هذه الرؤيا ؟ فحلف ، فبكى عمر .

[ذكر رؤية مُعَاذ بن جَبَل رضى الله عنه ، وما كان عليه من النعيم]

وقال عبد الرحمن بن غَنْم : رأيت معاذ بن جبل بعد وفاته بثلاث على فرس أبلق

وخلفه رجال بيض عليهم ثياب خضر على خيل بلق وهو قدامهم ، وهو يقول : ﴿ياليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين ﴾ [1] ثم التفت عن يمينه وشماله يقول : يا ابن رواحة يا ابن مظعون ﴿ الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء، فنعم أجر العاملين ﴾ [2] ثم صافحنى وسلم علىَّ.

وقال قبيصة بن عقبة : رأيت سفيان الثورى فى المنام بعد موته فقلت : ما فعل الله بك ؟ فقال :

نظرت إلـــى ربى عيانا فقال لى ... هنيئاً رضائى عنك يا ابن سعيد

فقد كنت قواماً إذا الليل قد دجى ... بعبرة محزون وقلـب عميـــد

فدونك فاختر أى قصـــر تريده ... وزرنى فإنك منك غير بعيـــد

وقال سفيان بن عيينة : رأيت سفيان الثورى بعد موته يطير فى الجنة من نخلة إلى شجرة ومن شجرة إلى نخلة ، وهو يقول : لمثل هذا فليعمل العاملون ، فقيل له: بما أدخلت الجنة قال : بالورع بالورع ، قيل له : فما فعل علىّ بن عاصم ؟ قال : ما نراه إلا مثل الكوكب .

وكان شعبة بن الحجاج ومسعر بن كدام حافظين وكانا جليلين ، قال أبو أحمد البريدى : فرأيتهما بعد موتهما فقلت : أبا بسطام ما فعل الله بك ؟ فقال : وفقك الله لحفظ ما أقول :

حبانى إلهى فى الجنان بقبـة ... لها ألف باب من لجين وجوهـرا

وقال لى الرحمن يا شعبة الذى ... تبحر فى جمـــع العلوم فأكثرا

تنعم بقربى إننى عنك ذو رضا ... وعن عبدى القوم فى الليل مسعرا

كفى مـسعراً عزا بأن سيزورنى ... وأكشف عن وجهى الكريم لينظرا

وهذا فعالى بالذين تنســـكوا ... ولم يألفوا فى سـالف الدهر منكر

---

(١) يس آية ٢٦ - ٢٧ .

(٢) الزمر آية ٧٤ .

[ذكر منزلة الإمام أحمد بن حنبل ، رحمه الله تعالى فى الآخرة]

وقال أحمد بن محمد اللبدى : رأيت أحمد بن حنبل فى النوم فقلت : يا أبا عبد الله ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لى ، ثم قال : يا أحمد ضُرِبْتَ فىَّ ستين سوطاً ؟ قلت : نعم يارب قال : هذا وجهى قد أبحتك فانظر إليه [1] .

وقال أبو بكر أحمد بن محمد بن الحجاج : حدثنى رجل من أهل طرسوس قال : دعوت الله عز وجل ، أن يرينى أهل القبور حتى أسألهم عن أحمد بن حنبل ما فعل الله به ، فرأيت بعد عشر سنين فى المنام كأن أهل القبور قد قاموا على قبورهم فبادرونى بالكلام ، فقالوا : يا هذا كم تدعو الله عز وجل أن يريك إيانا ؟ تسألنا عن رجل لم يزل منذ فارقكم تحليه الملائكة تحت شجرة طوبى .

قال أبو محمد عبد الحق : وهذا الكلام من أهل القبور إنما هو إخبار عن علو درجة أحمد بن حنبل وارتفاع مكانه وعظم منزلته ، فلم يقدروا أن يعبروا عن صفة حاله وعما هو فيه إلا بهذا وما هو فى معناه .

وقال أبو جعفر السقاء صاحب بشر بن الحارث : رأيت بشر الحافى ومعروف الكرخى وهما جائيان [2] فقلت : من أين ؟ فقالا : من جنة الفردوس زرنا كليم الله موسى .

وقال عاصم الجزرى : رأيت فى النوم كأنى لقيت بشر بن الحارث فقلت : من أين يا أبا نصر ؟ قال من عليين . قلت : فما فعل أحمد بن حنبل ؟ قال تركته الساعة مع عبد الوهاب الوراق بين يدى الله عز وجل يأكلان ويشربان ، قلت له : فأنت ؟ قال : علم قلة رغبتى فى الطعام فأباحنى النظر إليه .

[رؤية بشر الحافى ، رحمه الله تعالى ، بعد موته]

وقال أبو جعفر السقاء : رأيت بشر بن الحارث فى النوم بعد موته فقلت : أبا نصر ما فعل الله لك ؟ قال ألطفنى ورحمنى ، وقال لى : يا بشر لو سجدت لى فى الدنيا على الجمر ما أديت شكر ما حشوت قلوب عبادى منك ، وأباح لى نصف الجنة

---

(١) فى هذا إشارة إلى ما لاقاه الإمام أحمد من تعذيب على يد الخليفة الأموى « المعتصم » أبان فتنة القول بخلق القرآن .

(٢) جائيان : أى قادمان .

فأسرح فيها حيث شئت ، ووعدنى أن يغفر لمن تبع جنازتى ، فقلت : ما فعل أبو نصر التمار ؟ فقال : ذاك فوق الناس بصبره على بلائه وفقره .

قال عبد الحق : لعله أراد بقوله نصف الجنة : نصف نعيمها ؛ لأن نعيمها نصفان نصف روحانى ونصف جسمانى ، فيتنعمون أولاً بالروحانى فإذا ردت الأرواح إلى الأجساد أضيف لهم النعيم الجسمانى إلى الروحانى ، وقال غيره : نعيم الجنة مرتب على العلم والعمل ، وحظ بشر من العمل كان أوفى من حظه فى العلم . واللَّه أعلم.

وقال بعض الصالحين : رأيت أبا بكر الشبلى فى المنام وكأنه قاعد فى مجلس الرصافة بالموضع الذى كان يقعد فيه ، وإذا به قد أقبل وعليه ثياب حسان ، فقمت إليه وسلمت عليه وجلست بين يديه فقلت له : من أقرب أصحابك إليك قال : ألهجهم بذكر الله وأقومهم بحق الله وأسرعهم مبادرة فى مرضاة الله .

[اتباع الآثار وصحبة الأخيار ينجيان من النار ويقربان من الجبار]

وقال : أبو عبد الرحمن الساحلى : رأيت ميسرة بن سليم فى المنام بعد موته فقلت له : طالت غيبتك . فقال : السفر طويل . فقلت له : فما الذى قدمت عليه ؟ فقال : رخص لى لأنا كُنَّا نفتى بالرخص . فقلت : فما تأمرنى به ؟ قال : اتباع الآثار وصحبة الأخيار ينجيان من النار ويقربان من الجبار .

وقال أبو جعفر الضرير : رأيت عيسى بن زاذان بعد موته فقلت : ما فعل الله بك؟ فأنشأ يقول :

لو رأيت الحسان فى الخلد حولى   وأكاويب معها للشراب
يترنمن بالكتاب جميعاً   يتمشين مسبلات الثياب

وقال بعض أصحاب ابن جريج : رأيت كأنى جئت إلى هذه المقبرة التى بمكة ، فرأيت على عامتها سرادقاً (١) ورأيت منها قبراً عليه سرادق وفسطاط (٢) وسدرة (٣)،

---

(١) السرادق : كل ما أحاط بشىء من حائط أو مضرب .

(٢) الفسطاط : فى مختار الصحاح (٥٠٣) بيت من شَعْر ، وقيل هو : مكان يجتمع فيه الناس لعرس أو مأتم وغيرهما .

(٣) السدرة : جمع السدر : وهو شجر النَّبق .

فجئت حتى دخلت فسلمت عليه ، فإذا مسلم بن خالد الزنجى فسلمت عليه وقلت : يا أبا خالد ما بال هذه القبور عليها سرادق وقبرك عليه سرادق وفسطاط ، وفيه سدرة ؟ فقال: إنى كنت كثير الصيام . فقلت : فأين قبر ابن جريج وأين محله ، فقد كنت أجالسه وأنا أحب أن أسلم عليه ؟ فقال هكذا بيده : هيهات وأدار إصبعه السبابة وأين قبر ابن جريج رفعت صحيفته فى عليين .

[الدلائل العقلية على ملاقاة الأرواح]

ورأى حماد بن سلمة فى النوم بعض أصحابه فقال له : ما فعل الله بك ؟ فقال : قال لى : طال ما كددت نفسك فى الدنيا ، فاليوم أطيل راحتك وراحة المتعبين .

وهذا باب طويل جداً ، فإن لم تسمح نفسك بتصديقه أو قلت هذه منامات هى غير معصومة ، فتأمل من رأى صاحباً له أو قريباً أو غيره فأخبره بأمر لا يعلمه إلا صاحب الرؤيا ، أو أخبره بمال دفنه أو حذره من أمر يقع ، أو بشره بأمر يوجد فوقع كما قال ، أو أخبره بأنه يموت هو أو بعض أهله إلى كذا وكذا ، فيقع كما أخبر أو أخبره بخصب أو جدب أو عدو أو نازلة أو مرض أو بغرض له فوقع كما أخبره ، والواقع من ذلك لا يحصيه إلا الله ، والناس مشتركون فيه .

وقد رأينا نحن وغيرنا من ذلك عجائب . وأبطل من قال : إن هذه كلها علوم وعقائد فى النفس تظهر لصاحبها عند انقطاع نفسه عن الشواغل البدنية بالنوم ، وهذا عين الباطل والمحال ، فإن النفس لم يكن فيها قط معرفة هذه الأمور التى يخبر بها الميت ، ولا خطرت ببالها ولا عندها علامة عليها ولا أمارة بوجه ما . ونحن لا ننكر أن الأمر قد يقع كذلك . وإن من الرؤيا ما يكون من حديث النفس وصورة الاعتقاد؛ بل كثير من مرائى الناس إنما هى من مجرد صور اعتقادهم المطابق وغير المطابق .

[الرؤيا على ثلاثة أنواع]

فإن الرؤيا على ثلاثة أنواع :

رؤيا من الله ، ورؤيا من الشيطان ؛ ورؤيا من حديث النفس .

والرؤيا الصحيحة أقسام :

منها : إلهام يلقيه الله سبحانه فى قلب العبد ، وهو كلام يكلم به الرب عبده فى المنام ، كما قال عبادة بن الصامت وغيره .

ومنها مثل يضربه له ملك الرؤيا الموكل بها .

ومنها : التقاء روح النائم بأرواح الموتى من أهله وأقاربه وأصحابه وغيرهم كما ذكرناه .

ومنها : عروج روحه إلى الله ، سبحانه ، وخطابها له .

ومنها : دخول روحه إلى الجنة ومشاهدتها وغير ذلك ، فالتقاء أرواح الأحياء والموتى نوع من أنواع الرؤيا الصحيحة التى هى عند الناس من جنس المحسوسات، وهذا موضع اضطرب فيه الناس .

فمن قائل : إن العلوم كلها كامنة فى النفس ، وإنما اشتغالها بعالم الحس يحجب عنها مطالعتها ، فإذا تجردت بالنوم رأت منها بحسب استعدادها ، ولما كان تجردها بالموت أكمل كانت علومها ومعارفها هناك أكمل ، وهذا فيه حق وباطل ، فلا يرد كله ولا يقبل كله ، فإن تجرد النفس يطلعها على علوم ومعارف لا تحصل بدون التجرد ، لكن لو تجردت كل التجرد لم تطلع على علم الله الذى بعث به رسوله ، وعلى تفاصيل ما أخبر به عن الرسل الماضية والأمم الخالية ، وتفاصيل المعاد وأشراط الساعة ، وتفاصيل الأمر والنهى ، والأسماء والصفات والأفعال ، وغير ذلك مما لا يعلم إلا بالوحى ، ولكن تجرد النفس عون لها على معرفة ذلك ، وتلقيه من معدنه أسهل وأقرب وأكثر مما يحصل للنفس المنغمسة فى الشواغل البدنية .

ومن قائل : إن هذه المرائى علوم علقها الله فى النفس ابتداء بلا سبب ، وهذا قول منكرى الأسباب والحكم والقوى ، وهو قول مخالف للشرع والعقل والفطرة .

ومن قائل : إن الرؤيا أمثال مضروبة يضربها الله للعبد بحسب استعداده ألفه على يد ملك الرؤيا ، فمرة يكون مثلاً مضروباً ، ومرة يكون نفس ما رآه الرائى فيطابق الواقع مطابقة العلم لمعلومه ، وهذا أقرب من القولين قبله ، ولكن الرؤيا ليست مقصورة عليه ؛ بل لها أسباب أخر كما تقدم من ملاقاة الأرواح وإخبار بعضها بعضاً، ومن إلقاء الملك الذى فى القلب والروع ومن رؤية الروح للأشياء مكافحة بلا واسطة [1] .

---

(١) صوابه أن يقال : بلا وساطة ، أما الواسطة فهى الوسط ، وواسطة العقد : وسطه وأجوده .

[الأسئلة الثلاثة العجيبة عن عليّ كرم الله وجهه مع جواباتها]

وقد ذكر أبو عبد الله بن منده الحافظ فى [كتاب النفس والروح] من حديث محمد بن حميد : ثنا عبد الرحمن بن مغراء الدوسى ، ثنا الأزهر بن عبد الله الأزدى، عن محمد بن عجلان ، عن سالم بن عبد الله ، عن أبيه قال : لقى عمر ابن الخطاب عليّ بن أبى طالب ، فقال له : يا أبا الحسن ربما شهدت وغبنا وشهدنا وغبت ، ثلاث أسألك عنهن فهل عندك منهن علم ؟

فقال عليّ بن أبى طالب : وما هن ؟ فقال الرجل يحب الرجل ولم ير منه خيراً. والرجل يبغض الرجل ولم ير منه شراً . فقال عليّ : نعم سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « إن الأرواح جنود مجندة تلتقى فى الهواء فتشأم فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » فقال عمر واحدة . قال عمر : والرجل يحدث الحديث إذا نسيه فبينا هو وما نسيه إذ ذكره ، فقال : نعم ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « ما فى القلوب قلب إلا وله سحابة كسحابة القمر بينا القمر مضئ إذا تجللته سحابة فأظلم إذ تجلت فأضاء ، وبينا القلب يتحدث إذ تجلت عنه فيذكر » قال عمر : اثنتان . قال : والرجل يرى الرؤيا فمنها ما يصدق ومنها ما يكذب فقال : نعم ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « ما من عبد ينام يتملى نوماً إلا عرج بروحه إلى العرش ، فالذى لا يستيقظ دون العرش فتلك الرؤيا التى تصدق ، والذى يستيقظ دون العرش فهى التى تكذب » فقال عمر : ثلاث كنت فى طلبهن فالحمد لله الذى أصبتهن قبل الموت .

وقال بقية بن الوليد : حدثنا صفوان بن عمرو ، عن سليم بن عامر الحضرمى قال: قال عمر بن الخطاب : عجبت لرؤيا الرجل يرى الشئ لم يخطر له على بال ، فيكون كآخذ بيد ، ويرى الشئ فلا يكون شيئاً . فقال عليّ بن أبى طالب : يا أمير المؤمنين يقول الله عز وجل : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِى قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ ، قال : والأرواح يعرج بها فى منامها ، فما رأت وهى فى السماء فهو الحق ، فإذا ردت أجسادها تلقتها الشياطين فى الهواء فكذبتها فما رأت من ذلك فهو الباطل . قال: فجعل عمر يتعجب من قول عليّ .

قال ابن منده : هذا خبر مشهور عن صفوان بن عمرو وغيره ، وروى عن أبى الدرداء .

وذكر الطبرانى من حديث علىّ بن أبى طلحة ، أن عبد الله بن عباس قال لعمر ابن الخطاب : يا أمير المؤمنين أشياء أسألك عنها قال : سل عما شئت ، قال : يأمير المؤمنين مم يذكر الرجل ومم ينسى . ومم تصدق الرؤيا ، ومم تكذب ؟ فقال له عمر : إن على القلب طخاوة كطخاوة القمر ، فإذا تغشت القلب نسى ابن آدم فإذا انجلت ذكر ما كان نسى ، وأما مم تصدق الرؤيا ومم تكذب، فإن الله عز وجل يقول: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾ فمن دخل منها فى ملكوت السماء فهى التى تصدق ، وما كان منها دون ملكوت السماء فهى التى تكذب[1] .

[يعرج بروح النائم إلى العرش ويؤذن لها بالسجود إن كان طاهراً]

وروى ابن لهيعة ، عن عثمان بن نعيم الرعينى ، عن أبى عثمان الأصبحى ، عن أبى الدرداء قال : إذا نام الإنسان عرج بروحه حتى يؤتى بها العرش ، فإن كان طاهراً أذن لها بالسجود ، وإن كان جنباً لم يؤذن لها بالسجود [2] .

وروى جعفر بن عون ، عن إبراهيم الهجرى ، عن أبى الأحوص ، عن عبد الله ابن مسعود أنه قال : « إن الأرواح جنود مجندة ، تتلاقى فتشأم كما تشأم الخيل فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » [3] .

ولم يزل الناس قديماً وحديثاً تعرف هذا وتشاهده ، قال جميل بن معمر العذرى :

أظـــل نهـــارى مستهاما وتلتقى   مع الليل روحى فى المنام وروحها

[كيف تلتقى روح النائم وروح اليقظان]

فإن قيل : فالنائم يرى غيره من الأحياء يحدثه ويخاطبه وربما كان بينهما مسافة بعيدة ، ويكون المرء يقظانا روحه لم تفارق جسده فكيف التقت روحاهما ؟ قيل : هذا إما أن يكون مثلاً مضروباً ضربه ملك الرؤيا للنائم ، أو يكون حديث نفس من الرائى تجرد له فى منامه ، كما قال حبيب بن أوس :

---

(١) إسناده منقطع لأن على بن أبى طلحة أرسل عن ابن عباس ولم يره (التقريب ٤٠٢) .

(٢) إسناده ضعيف ، فيه ابن لهيعة ضُعف .

(٣) إسناده ضعيف فيه إبراهيم بن مسلم العبدى ، أبو إسحاق الهَجَرى ، لين الحديث (التقريب ٩٤) والحديث صحيح أخرجه البخارى فى أحاديث الأنبياء ٦/ ٤٢٦ (٣٣٣٦) عن عائشة ومسلم فى البر والصله ٤/ ٢٠٣١ - ٢٠٣٢ (١٥٩ - ١٦٠) عن أبى هريرة .

وقد تتناسب الروحان وتشتد علاقة إحداهما بالأخرى ، فيشعر كل منهما ببعض ما يحدث لصاحبه ، وإن لم يشعر بما يحدث لغيره لشدة العلاقة بينهما ، وقد شاهد الناس من ذلك عجائب . والمقصود أن أرواح الأحياء تتلاقى فى النوم كما تتلاقى أرواح الأحياء والأموات .

قال بعض السلف : إن الأرواح تتلاقى فى الهواء فتتعارف أو تتذاكر فيأتيها ملك الرؤيا بما هو لاقيها من خير أو شر ، قال : وقد وكل الله بالرؤيا الصادقة ملكاً علمه وألهمه معرفة كل نفس بعينها واسمها ومتقلبها فى دينها ودنياها وطبعها ومعارفها ، لا يشتبه عليه منها شئ ، ولا يغلط فيها فتأتيه نسخة من علم غيب الله من أم الكتاب بما هو مصيب لهذا الإنسان من خير وشر فى دينه ودنياه ، ويضرب له فيها الأمثال والأشكال على قدر عادته ، فتارة يبشره بخير قدمه أو يقدمه ، وينذره من معصية ارتكبها أو هم بها ويحذره من مكروه انعقدت أسبابه ليعارض تلك الأسباب بأسباب تدفعها ، ولغير ذلك من الحكم والمصالح التى جعلها الله فى الرؤيا نعمة منه ورحمة وإحساناً وتذكيراً وتعريفاً ، وجعل أحد طرق ذلك تلاقى الأرواح وتذاكرها وتعارفها، وكم ممن كانت توبته وصلاحه وزهده وإقباله على الآخرة عن منام رآه أو رؤى له ، وكم ممن استغنى وأصاب كنزاً دفيناً عن منام .

[ذكر الحكم والمصالح من الله تعالى للعباد فى الرؤيا]

وفى [كتاب المجالسة] لأبى بكر أحمد بن مروان المالكى ، عن ابن قتيبة ، عن أبى حاتم ، عن الأصمعى ، عن المعتمر بن سليمان عمن حدثه قال : خرجنا مرة فى سفر وكنا ثلاثة نفر فنام أحدنا ، فرأينا مثل المصباح خرج من أنفه فدخل غاراً قريباً منه ثم رجع ، فدخل أنفه فاستيقظ يمسح وجهه ، وقال : رأيت عجباً ، رأيت فى هذا الغار كذا ، وكذا ، فدخلناه فوجدنا فيه بقية من كنز كان .

وهذا عبد المطلب ، دُلَّ فى النوم على زمام وأصاب الكنز الذى كان هناك .

وهذا عمير بن وهب ، أوتى فى منامه فقيل له : قم إلى موضع كذا وكذا من البيت ، فاحفره تجد مال أبيك ، وكان أبوه قد دفن مالاً ومات ولم يوص به ، فقام عمير من نومه فاحتفر حيث أمره ، فأصاب عشرة آلاف درهم وتبراً كثيراً ، فقضى

دينه وحسن حاله وحال أهل بيته ، وكان ذلك عقيب إسلامه ، فقالت له الصغرى من بناته : يا أبت ربنا هذا الذى حيانا بدينه خير من هبل والعزى ، ولولا أنه كذلك ما ورثك هذا المال ، وإنما عبدته أياماً قلائل .

[نوادر رؤيا أبى محمد التعايشى]

قال علىّ بن أبى طالب القيروانى العابد : وما حديث عمير هذا واستخراجه المال بالمنام بأعجب مما كان عندنا وشاهدناه فى عصرنا بمدينتنا من أبى محمد عبد الله التعايشى ، وكان رجلاً صالحاً مشهوراً برؤية الأموات وسؤالهم عن الغائبات ، ونقله ذلك إلى أهلهم وقراباتهم حتى اشتهر بذلك ، وكثر منه فكان المرء يأتيه فيشكو إليه أن حميمه قد مات من غير وصية وله مال لا يهتدى مكانه ، فيعده خيراً ويدعو الله تعالى فى ليلته فيتراءى له الميت الموصوف فيسأله عن الأمر فيخبره به .

فمن نوادره أن امرأة عجوزاً من الصالحات توفيت ولامرأة عندها سبعة دنانير وديعة، فجاءت إليه صاحبة الوديعة وشكت إليه ما نزل بها ، وأخبرته باسمها واسم الميتة صاحبتها ، ثم عادت إليه من الغد ، فقال لها : تقول لك فلانة عدى من سقف بيتى سبع خشبات تجدى الدنانير فى السابعة فى خرقة صوف ، ففعلت ذلك فوجدتها كما وصف لها .

قال : وأخبرنى رجل لا أظن به كذباً قال : استأجرتنى امرأة من أهل الدنيا على هدم دار لها وبنائها بمال معلوم ، فلما أخذت فى الهدم لزمت الفعلة هى ومن معها فقلت : مالك ؟ قالت : واللّه ما لى إلى هدم هذه الدار من حاجة ، لكن أبى مات وكان ذا يسار كثير فلم نجد له كثير شئ ، فخلت أن ماله مدفون فعمدت إلى هدم الدار لعلى أجد شيئاً ، فقال لها بعض من حضرنا : لقد فاتك ما هو أهو عليك من هذا . قالت : وما هو ؟ قال : فلان تمضين إليه وتسألينه أن يبيت قصتك الليلة فلعله يرى أباك فيدلك على مكان ماله بلا تعب ولا كلفة ، فذهبت إليه ثم عادت إلينا فزعمت أنه كتب اسمها واسم أبيها عنده ، فلما كان من الغد بكرت إلى العمل وجاءت المرأة من عند الرجل ، فقالت : إن الرجل قال لى : رأيت أباك وهو يقول المال فى الحنية، قال : فجعلنا نحفر تحت الحنية وفى جوانبها حتى لاح لى شق ، وإذا المال فيه ، قال : فأخذنا فى التعجب والمرأة تستخف بما وجدت وتقول : مال

أبى كان أكثر من هذا ، ولكنى أعود إليه ، فمضت فأعلمته ثم سألته المعاودة، فلما كان من الغد أتت وقالت : إنه قال لها إن أباك يقول لك احفرى تحت الجابية المربعة التى في مخزن الزيت ، قالت : ففتحت المخزن فإذا بجابية مربعة فى الركن فأزلناها وحفرنا تحتها ، فوجدنا كوزاً كبيراً فأخذته ثم دام بها الطمع فى المعاودة ففعلت فرجعت من عنده وعليها الكآبة فقالت : زعم أنه رآه وهو يقول له قد أخذت ما قدر لها وأما ما بقى فقد جلس عليه عفريت من الجن يحرسه إلى من قدر له .

والحكايات فى هذا الباب كثيرة جداً . وأما من حصل له الشفاء باستعمال دواء رأى من وصفه له فى منامه فكثير جداً .

وقد حدثنى غير واحد ممن كان غير مائل إلى شيخ الإسلام ابن تيمية أنه رآه بعد موته وسأله عن شئ كان يشكل عليه من مسائل الفرائض وغيرها فأجابه بالصواب، وبالجملة فهذا أمر لا ينكره إلا من هو أجهل الناس بالأرواح وأحكامها وشأنها ، وباللّه التوفيق .

* * *

فصل

المسألة الرابعة

[هل تموت الروح أم الموت للبدن وحده ؟]

اختلف الناس فى هذا فقالت طائفة : تموت الروح وتذوق الموت لأنها نفس وكل نفس ذائقة الموت ، قالوا : وقد دلت الأدلة على أنه لا يبقى إلا الله وحده قال تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالإِكْرَامِ ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلاَّ وَجْهَهُ ﴾(٢) قالوا : وإذا كانت الملائكة تموت فالنفوس البشرية أولى بالموت . قالوا : وقد قال تعالى عن أهل النار أنهم قالوا : ﴿ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ﴾ (٣) ، فالموتة الأولى هذه المشهودة وهى للبدن والأخرى للروح . وقال آخرون : لا تموت الأرواح فإنها خلقت للبقاء وإنما تموت الأبدان ، قالوا : وقد

---

(١) الرحمن آية : ٢٦ - ٢٧ . (٢) القصص : آية : ٨٨ . (٣) غافر آية : ١١ .

دلت على هذا الأحاديث الدالة على نعيم الأرواح وعذابها بعد المفارقة إلى أن يرجعها الله فى أجسادها ، ولو ماتت الأرواح لانقطع عنها النعيم والعذاب ، وقد قال تعالى : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ (1) .

هذا مع القطع بأن أرواحهم قد فارقت أجسادهم وقد ذاقت الموت .

[بحث فى معنى موت النفوس]

والصواب أن يقال : موت النفس هو مفارقتها لأجسادها وخروجها منها . فإن أريد بموتها هذا القدر فهى ذائقة الموت . وإن أريد أنها تعدم وتضمحل وتصير عدماً محضاً فهى لا تموت بهذا الاعتبار ؛ بل هى باقية بعد خلقها فى نعيم أو فى عذاب ، كما سيأتى إن شاء الله تعالى بعد هذا ، وكما صرح به النص أنها كذلك حتى يردها الله فى جسدها .

وقد نظم أحمد بن الحسين الكندى هذا الاختلاف فى قوله :

تنازع الناس حتى لا اتفاق لهم ... إلا على شجب والخلف فى الشجب

فقيل تخلص نفس المرء سالمة ... وقيل تشرك جسم المرء فى العطب

[ذكر نفخ الصور والصعق ومن هو مستثنى منه]

فإن قيل : فعند النفخ فى الصور هل تبقى الأرواح حية كما هى أو تموت ثم تحيا ؟ قيل : قد قال تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى السَّمَوَاتِ وَمَن فِى الأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ﴾ (2) .

فقد استثنى الله سبحانه بعض من فى السموات ومن فى الأرض من هذا الصعق فقيل : هم الشهداء ، هذا قول أبى هريرة وابن عباس وسعيد بن جبير ، وقيل : هم جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت ، وهذا قول مقاتل وغيره ، وقيل هم الذين فى الجنة من الحور العين وغيرهم ، ومن فى النار من أهل العذاب وخزنتها . قاله أبو إسحاق بن شاقلا من أصحابنا .

---

(1) آل عمران آية : ١٦٩ - ١٧٠ .

(2) الزمر آية : ٦٨ .

وقد نص الإمام على أن الحور العين والولدان لا يمتن عند النفخ فى الصور ، وقد أخبر سبحانه أن أهل الجنة لا يذوقون الموت فيها إلا الموتة الأولى ، وهذا نص على أنهم لا يموتون غير تلك الموتة الأولى ، فلو ماتوا مرة ثانية لكانت موتتين ، وأما قول أهل النار ﴿ رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ﴾ (1) فتفسير هذه الآية التى فى البقرة وهى قوله تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ (2) . فكانوا أمواتاً وهم نطف فى أصلاب آبائهم وفى أرحام أمهاتهم ثم أحياهم بعد ذلك ثم أماتهم ثم يحييهم يوم النشور ، وليس فى ذلك إماتة أرواحهم قبل يوم القيامة ، وإلا كانت ثلاث موتات ، وصعق الأرواح عند النفخ فى الصور لا يلزم منه موتها .

[بيان حديث : الناس يصعقون فى يوم القيامة فأكون أول من يفيق]

ففى الحديث الصحيح : « إن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق ، فإذا موسى آخذ بقائمة العرش فلا أدرى أفاق قبلى أم جوزى بصعقة يوم الطور » (3) فهذا صعق فى موقف القيامة إذا جاء الله لفصل القضاء وأشرقت الأرض بنوره ، فحينئذ تصعق الخلائق كلهم قال تعالى : ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَقُواْ يَوْمَهُمُ الَّذِى فيه يُصْعَقُونَ ﴾ (4) .

ولو كان هذا الصعق موتاً لكانت موتة أخرى ، وقد تنبه لهذا جماعة من الفضلاء فقال أبو عبد الله القرطبى : ظاهر هذا الحديث أن هذه صعقة غشى تكون يوم القيامة لا صعقة الموت الحادثة عن نفخ الصور .

قال : وقد قال شيخنا أحمد بن عمرو : ظاهر حديث النبى ، صلى الله عليه وآله وسلم ، يدل على أن هذه الصعقة إنما هى بعد النفخة الثانية ، نفخة البعث ، ونص القرآن يقتضى أن ذلك الاستثناء إنما هو بعد نفخة الصعق ، ولما كان هذا قال بعض العلماء : يحتمل أن يكون موسى ممن لم يمت من الأنبياء ، وهذا باطل .

---

(1) غافر آية : ١١ . (2) البقرة آية : ٢٨ .

(3) أخرجه البخارى فى أحاديث الأنبياء ٥٠٨/٦ (٣٤٠٧) . ومسلم فى الفضائل ١٨٤٤/٤ (١٦٠) .

(4) الطور آية : ٤٥ .

وقال القاضى عياض : يحتمل أن يكون المراد بهذه صعقة فزع بعد النشور حين تنشق السموات والأرض قال : فتستقل الأحاديث والآثار . ورد عليه أبو العباس القرطبى فقال : يرد هذا قوله فى الحديث الصحيح « إنه حين يخرج من قبره يلقى موسى آخذاً بقائمة العرش » . قال : وهذا إنما هو عند نفخة الفزع .

قال أبو عبد الله : وقال شيخنا أحمد بن عمرو : والذى يزيح هذا الإشكال - إن شاء الله - أن الموت ليس بعدم محض ، وإنما انتقال من حال إلى حال ، ويدل على ذلك أن الشهداء بعد قتلهم وموتهم أحياء عند ربهم يرزقون فرحين مستبشرين ، وهذه صفة الأحياء فى الدنيا .

[بحث فى معنى الموت ما هو ؟]

وإذا كان هذا فى الشهداء كان الأنبياء بذلك أحق وأولى ، مع أنه قد صح عن النبى ﷺ : « أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء [1] ، وأنه صلى الله عليه وسلم : اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء فى بيت المقدس ، وفى السماء وخصوصاً بموسى ، وقد أخبر بأنه ما من مسلم يسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام إلى غير ذلك مما يحصل من جملته القطع بأن موت الأنبياء إنما هو راجع إلى أن غيبوا عنا بحيث لا ندركهم وإن كانوا موجودين أحياء وذلك كالحال فى الملائكة فإنهم أحياء موجودون ولا نراهم . وإذا تقرر أنهم أحياء فإذا نفخ فى الصور نفخة الصعق صعق كل من فى السموات والأرض ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، فأما صعق غير الأنبياء فموت . وأما صعق الأنبياء فالأظهر أنه غشية ، فإذا نفخ فى الصور نفخة البعث فمن مات حيى ، ومن غشى عليه أفاق ، ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم ، فى الحديث المتفق على صحته : « فأكون أول من يفيق » فنبينا أول من يخرج من قبره قبل جميع الناس إلا موسى . فإنه حصل فيه تردد هل بعث قبله من غشيته أو بقى على الحالة التى كان عليها قبل نفخة الصعق مفيقاً لأنه حوسب بصعقة يوم الطور ، وهذه فضيلة عظيمة لموسى ولا يلزم من فضيلة عظيمة لموسى ولا يلزم من فضيلة واحدة أفضليته على نبينا مطلقاً لأن الشئ الجزئى لا يوجب أمراً كليا . انتهى.

---

(١) أخرجه أبو داود فى الجمعة ١/ ٢٧٥ (١٠٤٧) . والنسائى فى الجمعة ٣/ ٩١-٩٢ . وابن ماجه فى الصلاة ١/ ٣٤٥ (١٠٨٥) . والحاكم ١/٢٧٨ وصححه ووافقه الذهبى ، وصححه النووى فى الأذكار .

قال أبو عبد الله القرطبى : إن حمل الحديث على صعقة الخلق يوم القيامة فلا إشكال ، وإن حمل على صعقة الموت عند النفخ فى الصور فيكون ذكر يوم القيامة يراد به أوائله ، فالمعنى إذا نفخ فى الصور نفخة البعث « كنت أول من يرفع رأسه فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدرى أفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور».

قلت : وحمل الحديث على هذا لا يصح لأنه ، صلى الله عليه وآله وسلم ، تردد هل أفاق موسى قبله أم لم يصعق ؛ بل جوزى بصعقة الطور ، فالمعنى : لا أدرى أصعق أم لم يصعق . وقد قال فى الحديث : « فأكون أول من يفيق » .

وهذا يدل على أنه ، صلى الله عليه وآله وسلم ، يصعق فيمن يصعق ، وأن التردد حصل فى موسى : هل صعق وأفاق قبله من صعقته أم لم يصعق ولو كان المراد به الصعقة الأولى وهى صعقة الموت ، لكان ، صلى الله عليه وآله وسلم ، قد جزم بموته . وتردد هل مات موسى أم لم يمت ، وهذا باطل لوجوه كثيرة .

فعلم أنها صعقة فزع لا صعقة موت ، وحينئذ فلا تدل الآية على أن الأرواح كلها تموت عند النفخة الأولى ، نعم تدل على أن موت الخلائق عند النفخة الأولى ، وكل من لم يذق الموت قبلها فإنه يذوقه حينئذ ، وأما من ذاق الموت أو من لم يكتب عليه الموت فلا تدل الآية على أنه يموت مرة ثانية ، والله أعلم .

فإن قيل : فكيف تصنعون بقوله فى الحديث : « إن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من تنشق عنه الأرض فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش » ؟

قيل : لا ريب أن هذا اللفظ قد ورد هكذا ، ومنه نشأ الإشكال ، ولكنه دخل فيه على الراوى حديث فى حديث فركب بين اللفظين فجاء هذا والحديثان هكذا .

أحدهما : أن الناس يصعقون يوم القيامة ، فأكون أول من يفيق .

والثانى : هكذا أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة .

ففى الترمذى وغيره من حديث أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر وبيدى لواء الحمد ولا فخر ، وما من نبى يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائى ، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر » [١] .

---

(١) أخرجه أبو دادو فى السنة ٤/ ٢١٨ (٤٦٧٣) . وابن ماجه فى الزهد ٢/ ١٤٤٠ (٤٣٠٨) .

قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح ، فدخل على الراوى هذا الحديث فى الحديث الآخر ، وكان شيخنا أبو الحجاج الحافظ يقول ذلك .

فإن قيل : فما تصنعون بقوله : « فلا أدرى أفاق قبلى أم كان ممن استثنى الله عز وجل » ، والذين استثناهم الله إنما هم مستثنون من صعقة النفخة لا من صعقة يوم القيامة ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى السَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ﴾ (١) . ولم يقع الاستثناء من صعقة الخلائق يوم القيامة .

قيل : هذا - واللّه أعلم - غير محفوظ ، وهو وهم من بعض الرواة ، والمحفوظ ما تواطأت الروايات الصحيحة من قوله : « فلا أدرى أفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور » فظن بعض الرواة أن هذه الصعقة هى صعقة النفخة ، وأن موسى داخل فيمن استثنى منها ، وهذا لا يلتئم على مساق الحديث قطعاً ، فإن الإفاقة حينئذ هى إفاقة البعث ، فكيف يقول : « لا أدرى أبعث قبلى أم جوزى بصعقة الطور » . فتأمله . وهذا بخلاف الصعقة التى يصعقها الخلائق يوم القيامة إذا جاء سبحانه لفصل القضاء بين العباد وتجلى لهم ، فإنهم يصعقون جميعاً . وأما موسى ﷺ ، فإن كان لم يصعق معهم فيكون قد حوسب بصعقته يوم تجلى ربه للجبل فجعله دكا ، فجعلت صعقة هذا التجلى عوضا من صعقة الخلائق لتجلى الرب يوم القيامة ، فتأمل هذا المعنى العظيم . ولو لم يكن فى الجواب إلا كشف هذا الحديث وشأنه لكان حقيقاً أن يعض عليه بالنواجذ ، وللّه الحمد والمنة وبه التوفيق .

* * *

فصل

﴿ المسألة الخامسة ﴾

[الأرواح كيف تتميز بعد مفارقة الأبدان بعضها من بعض ؟]

فهذه مسألة لا تكاد تجد من تكلم فيها ، ولا يظفر فيها من كتب الناس بطائل ولا غير طائل ، ولا سيما على أصول من يقول بأنها مجردة عن المادة وعلائقها ، وليست بداخل العالم ولا خارجه ، ولا لها شكل ولا قدر ولا شخص ، فهذا السؤال على أصولهم مما لا جواب لهم عنه .

---

(١) الزمر آية : ٦٨

وكذلك من يقول : هى عرض من أعراض البدن ، فتميزها عن غيرها مشروط بقيامها ببدنها ، فلا تميز لها بعد الموت ؛ بل لا وجود لها على أصولهم ؛ بل تعدم وتبطل باضمحلال البدن ، كما تبطل سائر صفات الحى ، ولا يمكن جواب هذه المسألة إلا على أصول أهل السنة التى تظاهرت عليها أدلة القرآن والسنة والآثار والاعتبار والعقل .

[الروح ذات قائمة بنفسها على أصول أهل السنة]

والقول إنها ذات قائمة بنفسها تصعد وتنزل وتتصل وتنفصل وتخرج وتذهب وتجيء وتتحرك وتسكن ، وعلى هذا أكثر من مائة دليل قد ذكرناها فى كتابنا الكبير فى [معرفة الروح والنفس] وبينا بطلان ما خالف هذا القول من وجوه كثيرة وأن من قال غيره لم يعرف نفسه ، وقد وصفها الله سبحانه وتعالى بالدخول والخروج والقبض والتوفى والرجوع وصعودها إلى السماء وفتح أبوابها وغلقها عنها فقال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَٰئِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا أَنفُسَكُمْ ﴾ (١) . وقال تعالى : ﴿ يَٰأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِى إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِى فِى عِبَٰدِى * وَادْخُلِى جَنَّتِى ﴾ (٢) . وهذا يقال لها عند المفارقة للجسد وقال تعالى : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ (٣) . فأخبر أنه سوى النفس ، كما أخبر أنه سوى البدن فى قوله : ﴿ الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴾ (٤) . فهو سبحانه سوى نفس الإنسان كما سوى بدنه ؛ بل سوى بدنه كالقالب لنفسه ، فتسوية البدن تابع لتسوية النفس ، والبدن موضوع لها كالقالب لما هو موضوع له . ومن ههنا يعلم أنها تأخذ من بدنها صورة لتميز بها عن غيرها ، فإنها تتأثر وتنتقل عن البدن ، كما يتأثر البدن وينتقل عنها فيكتسب الطيب والخبيث من طيب النفس وخبثها ، وتكتسب النفس الطيب والخبيث من طيب البدن وخبثه ، فأشد الأشياء ارتباطاً وتناسباً وتفاعلاً، وتأثراً من أحدهما بالآخر الروح والبدن ، ولهذا يقال لها عند المفارقة : اخرجى أيتها النفس الطيبة كانت فى الجسد الطيب ، واخرجى أيتها النفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث ، وقال الله تعالى : ﴿ اللَّهُ

---

(١) الأنعام آية : ٩٣ .
(٢) الفجر آية ٢٧ - ٣٠ .
(٣) الشمس : آية : ٧ ، ٨ .
(٤) الانفطار آية : ٧ .

يَتَوَفَّى الأنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا والَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِى قَضَى عَلَيهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأخْرَى إلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[1] . فوصفها بالتوفى والإمساك والإرسال ، كما وصفها بالدخول والخروج والرجوع والتسوية ، وقد أخبر النبى ﷺ : أن بصر الميت يتبع نفسه إذا قبضت [2] ، وأخبر : أن الملك يقبضها فتأخذها الملائكة من يده فيوجد لها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض ، أو كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض . والأعراض لا ريح لها ولا تمسك ولا تؤخذ من يد إلى يد . وأخبر : أنها تصعد إلى السماء ويصلى عليها كل ملك لله بين السماء والأرض وأنها تفتح لها أبواب السماء فتصعد من سماء إلى سماء حتى ينتهى بها إلى السماء التى فيها الله عز وجل ، فتوقف بين يديه ويأمر : بكتابة اسمه فى ديوان أهل عليين أو ديوان أهل سجين ، ثم ترد إلى الأرض ، وأن روح الكافر تطرح طرحا ، وأنها تدخل مع البدن فى قبره للسؤال .

وقد أخبر النبى ﷺ : بأن نسمة المؤمن – وهى روحه – طائر يعلق فى شجر الجنة حتى يردها الله إلى جسدها [3]، وأخبر أن أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها [4]، وأخبر أن الروح تنعم وتعذب فى البرزخ إلى يوم القيامة .

وقد أخبر سبحانه عن أرواح قوم فرعون : أنها تعرض على النار غدواً وعشياً [5] قبل يوم القيامة . وقد أخبر سبحانه عن الشهداء : بأنهم أحياء عند ربهم يرزقون . وهذه حياة أرواحهم ورزقها دار وإلا فالأبدان قد تمزقت ، وقد فسر رسول الله ﷺ هذه الحياة بأن أرواحهم فى جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى تلك القناديل ، فاطلع إليهم ربهم إطلاعه فقال : هلى تشتهون شيئاً ؟ قالوا : أى شىء نشتهى ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ؟ ففعل بهم ذلك ثلاث مرات ، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا . قالوا : نريد أن ترد أرواحنا فى أجسادنا حتى نقتل فى سبيلك مرة أخرى » .

---

(١) الزمر آية : ٤٢ .

(٢) أخرجه مسلم فى الجنائز : ٢/ ٦٣٤ (٧ ، ٨) . وابن ماجه فى الجنائز ١/ ٤٦٧ (١٤٥٤) .

(٣) أخرجه أحمد فى المسند ٦/ ٣٨٦ . وذكره الهيثمى فى المجمع ٢/ ٣٢٩ وعزاه لأحمد والطبرانى فى الكبير وفيه ابن لهيعة وفيه كلام .

(٤) أخرجه مسلم فى الإمارة ٣/ ١٥٠٢ (١٢١) . وأحمد فى المسند : ٦/ ٣٨٦ .

(٥) امتثالاً لقوله تعالى : ﴿ النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ سورة غافر .

وصح عنه صلى الله عليه وآله وسلم : « أن أرواح الشهداء فى طير خضر ، تعلق بشجر الجنة » . وتعلق - بضم اللام - أى : تأكل العلقة .

وقال ابن عباس : قال رسول الله ﷺ : « لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ، ترد أنهار الجنة تأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديل من ذهب فى ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحسن مقيلهم قالوا : يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا لئلا يزهدوا فى الجهاد ، ولا ينكلوا عن الحرب ، فقال الله عز وجل : أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله تعالى على رسوله ﷺ : ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلَ أَحْيَاء عِندَ رَبِهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [1] . الآيات . وهذا صريح فى أكلها وشربها وحركتها وانتقالها وكلامها : وسيأتى مزيد تقرير لذلك عن قريب إن شاء الله تعالى .

وإذا كان هذا شأن الأرواح فتميزها بعد المفارقة يكون أظهر من تميز الأبدان ، والاشتباه بينها أبعد من اشتباه الأبدان ، فإن الأبدان تشتبه كثيراً ، وأما الأرواح فقل ما تشتبه .

يوضح هذا أنا لم نشاهد أبدان الأنبياء والصحابة والأئمة وهم متميزون فى علمنا أظهر تميز ، وليس ذلك التميز راجعاً إلى مجرد أبدانهم وإن ذكر لنا من صفات أبدانهم ما يختص به أحدهم عن الآخر ؛ بل التميز الذى عندنا بما علمناه وعرفناه من صفات أرواحهم وما قام بها ، وتميز عن الروح بصفاتها أعظم من تميز البدن عن البدن بصفاته . ألا ترى أن بدن المؤمن والكافر قد يشتبهان كثيراً وبين روحيهما أعظم التباين والتميز ، وأنت ترى أخوين شقيقين مشتبهين فى الخلقة غاية الاشتباه وبين روحيهما غاية التباين ، فإذا تجردت هاتان الروحان كان تميزهما فى غاية الظهور .

وأخبرك بأمر : إذا تأملت أحوال الأنفس والأبدان شاهدته عياناً ، قل أن ترى بدناً قبيحاً وشكلاً شنيعاً إلا وجدته مركباً على نفس تشاكله وتناسبه ، وقل أن ترى آفة فى بدن إلا وفى روح صاحبه آفة تناسبها ، ولهذا تأخذ أصحاب الفراسة أحوال النفوس من أشكال الأبدان وأحوالها ، فقل أن تخطىء ذلك .

ويحكى عن الشافعى رحمه الله فى ذلك عجائب .

---

(١) أخرجه أبو داود فى الجهاد ٣/ ١٤ - ١٥ (٢٥٢٠) . ورجاله جميعاً ثقات غير أن محمد بن إسحاق عنعنه وهو مدلس . والآية فى آل عمران رقم ١٦٩ .

وقل أن ترى شكلا حسناً وصورة جميلة وتركيباً لطيفاً ، إلا وجدت الروح المتعلقة به مناسبة له ، هذا ما لم يعارض ذلك ما يوجب خلافه من تعلم وتدرب واعتياد .

وإذا كانت الأرواح العلوية - وهم الملائكة - متميزاً بعضهم عن بعض من غير أجسام تحملهم ، وكذلك الجن ، فتميز الأرواح البشرية أولى .

* * *

فصل

﴿ المسألة السادسة ﴾

[هل تعاد الروح إلى الميت فى قبره وقت السؤال أم لا ؟]

فقد كفانا رسول الله ﷺ ، أمر هذه المسألة وأغنانا عن أقوال الناس حيث صرح بإعادة الروح إليه ، فقال البراء بن عازب : « كنا فى جنازة فى بقيع الغرقد ، فأتانا النبى ﷺ فقعد وقعدنا حوله كأن على رءوسنا الطير ، وهو يلحد له فقال : أعوذ باللَّه من عذاب القبر ثلاث مرات ، ثم قال : إن العبد إذا كان فى إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا نزلت إليه ملائكة كأن وجهوهم الشمس ، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الطيبة ، اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان ، قال : فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من السقاء ، فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يأخذوها ، فيجعلوها فى ذلك الكفن وذلك الحنوط ، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض ، قال : فيصعدون بها فلا يمرون بها - يعنى على ملأ من الملائكة - إلا قالوا : ما هذا الروح الطيب ؟ فيقولون : فلان ابن فلان بأحسن أسمائه التى كانوا يسمونه فى الدنيا ، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح له فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التى تليها ، حتى تنتهى بها السماء التى فيها الله تعالى ، فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتاب عبدى فى عليين وأعيدوه إلى الأرض ، فإنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى ، قال : فتعاد روحه فى جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول ربى الله . فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : دينى الإسلام ؟ فيقولان له : ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول هو رسول الله . فيقولان له : وما علمك بهذا ؟ فيقول : قرأت كتاب الله

فآمنت به وصدقت . فينادى مناد من السماء : أن صدق عبدى فافرشوه من الجنة وافتحوا له باباً من الجنة ، قال : فيأتيه من ريحها وطيبها ويفسح له فى قبره مد بصره، قال : ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول : أبشر بالذى يسرك ، هذا يومك الذى كنت توعد ، فيقول له : من أنت فوجهك الوجه الذى يجيء بالخير ؟ فيقول : أنا عملك الصالح ، فيقول : رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى .

قال : وإن العبد الكافر إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح [١] ، فيجلسون منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الخبيثة اخرجى إلى سخط من الله وغضب ، قال : فتتفرق فى جسده فينتزعها . كما ينتزع السفود [٢] من الصوف المبلول . فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يجعلوها فى تلك المسوح ، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الريح الخبيث؟ فيقولون : فلان ابن فلان بأقبح أسمائه التى كان يسمى بها فى الدنيا حتى ينتهى به إلى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَبُ السَّمَاءِ وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِى سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ [٣] . فيقول الله عز وجل اكتبوا كتابه فى سجين فى الأرض السفلى ، فتطرح روحه طرحاً ثم قرأ : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ الرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [٤] . فتعاد روحه فى جسده ويأتيه ملكان فيقولان له : من ربك ؟ فيقول هاه هاه لا أدرى . فيقولان له : ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول : هاه هاه لا أدرى . فينادى مناد من السماء : أن كذب عبدى فأفرشوه من النار ، وافتحوا له باب إلى النار ، فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول : أبشر بالذى يسوؤك ، هذا يومك الذى كنت توعد فيقول: من أنت فوجهك الوجه الذى يجيء بالشر ؟ فيقول : أنا عملك الخبيث ، فيقول : « رب لا تقم الساعة » .

---

(١) المسوح : لفظ فارسى معرب ، وهو ثوب من الشعر غليظ .

(٢) السَّفُود : الحديدة ينذف بها الصوف ويشوى بها اللحم .

(٣) الأعراف آية : ٤٠ (٤) الحج آية ٣١ .

وذهب إلى القول بموجب هذا الحديث جميع أهل السنة والحديث من سائر الطوائف .

وقال أبو محمد بن حزم فى [كتاب الملل والنحل] له : وأما من ظن أن الميت يحيا فى قبره قبل يوم القيامة فخطأ لأن الآيات التى ذكرناها تمنع من ذلك يعنى قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ﴾ (١) . وقوله تعالى : ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ (٢) . قال : ولو كان الميت يحيا فى قبره لكان تعالى قد أماتنا ثلاثاً وأحيانا ثلاثاً ، وهذا باطل وخلاف القرآن إلا من أحياه الله تعالى آية لنبى من الأنبياء كالذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم . والذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها ومن خصه نص ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِى قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ (٣) . فصح بنص القرآن أن أرواح سائر من ذكرنا لا ترجع إلى جسده إلا إلى الأجل المسمى وهو يوم القيامة ، وكذلك أخبر رسول الله ﷺ ، أنه رأى الأرواح ليلة أسرى به عند سماء الدنيا من عن يمين آدم أرواح أهل السعادة ، وعن شماله أرواح أهل الشقاوة ، وأخبر يوم بدر إذ خاطب الموتى (٤) أنهم قد سمعوا قوله قبل أن تكون لهم قبور ، ولم ينكر على الصحابة قولهم : قد جيفوا وأعلم أنهم سامعون قوله مع ذلك فصح أن الخطاب والسماع لأرواحهم فقط بلا شك ، وأما الجسد فلا حس له، وقد قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى الْقُبُورِ ﴾ . فنفى السمع عمن فى القبور وهى الأجساد بلا شك ، ولا يشك مسلم أن الذى نفى الله عز وجل عنه السمع هو غير الذى أثبت له رسول الله ﷺ السمع . قال : ولم يأت قط عن رسول الله ﷺ، فى خبر صحيح أن أرواح الموتى ترد إلى أجسادهم عند المساءلة، ولو صح ذلك عنه لقلنا به ، قال : وإنما تفرد بهذه الزيادة من رد الأرواح فى القبور إلى الأجساد المنهال بن عمرو وحده وليس بالقوى تركه شعبة وغيره ، وقال فيه المغيرة بن مقسم الضبى : وهو أحد الأئمة : ما جازت للمنهال بن عمرو قط شهادة فى الإسلام على ما قد نقل وسائر الأخبار الثابتة على خلاف ذلك .

---

(١) غافر آية : ١١ . (٢) البقرة آية : ٢٨ . (٣) الزمر آية ٤٢ .

(٤) أخرجه من حديث أنس مسلم فى الصحيح فى الجنة وصفة نعيمها ٢٢٠٣/٤ (٧٧) .

قال : وهذا الذى قلنا هو الذى صح أيضا عن الصحابة ، ثم ذكر من طريق ابن عيينة ، عن منصور بن صفية ، عن أمه صفية بنت شيبة قالت : دخل ابن عمر المسجد فأبصر ابن الزبير مطروحاً قبل أن يقبر ، فقيل له : هذه أسماء بنت أبى بكر الصديق فمال ابن عمر إليها فعزاها ، وقال : إن هذه الجثث ليست بشىء وإن الأرواح عند الله . فقالت أمه : وما يمنعنى وقد أهدى رأس يحيى بن زكريا إلى بغى من بغايا بنى إسرائيل .

قلت : ما ذكره أبو محمد فيه حق وباطل . أما قوله : من ظن أن الميت يحيا فى قبره فخطأ ، فهذا فيه إجمال . إن أراد به الحياة المعهودة فى الدنيا التى تقوم فيها الروح بالبدن وتدبره وتصرفه ويحتاج معها إلى الطعام والشراب واللباس فهذا خطأ كما قال والحس والعقل يكذبه كما يكذبه النص . وإن أراد به حياة أخرى غير هذه الحياة ؛ بل تعاد الروح إليه إعادة غير الإعادة فى الدنيا ليسأل ويمتحن فى قبره فهذا حق ونفيه خطأ ، وقد دل عليه النص الصحيح والصريح وهو قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « فتعاد روحه فى جسده » .

وسنذكر الجواب عن تضعيفه للحديث إن شاء الله تعالى .

وأما استدلاله بقوله تعالى : ﴿ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ﴾ [1] . فلا ينفى ثبوت هذه الإعادة العارضة للروح فى الجسد ، كما أن قتيل بنى إسرائيل الذى أحياه الله بعد قتله ثم أماته ، لم تكن تلك الحياة العارضة له للمساءلة معتدا بها فإنه حيى لحظة بحيث قال : فلان قتلنى ثم خر ميتاً ، على أن قوله : ثم تعاد روحه فى جسده ، لا يدل على حياة مستقرة ، وإنما يدل على إعادة لها إلى البدن وتعلق به والروح لم تزل متعلقة ببدنها وإن بلى وتمزق .

[الروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق]

وسر ذلك أن الروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق متغايرة الأحكام :

أحدها : تعلقها به فى بطن الأم جنيناً .

الثانى : تعلقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض .

---

(١) غافر آية : ١١ .

الثالث : تعلقها به فى حال النوم ، فلها به تعلق من وجه ومفارقة من وجه .

الرابع : تعلقها به فى البرزخ [1] ، فإنها وإن فارقته وتجردت عنه فإنها لم تفارقه فراقاً كلياً ، بحيث لا يبقى لها التفات إليه ألبتة ، وقد ذكرنا فى أول الجواب من الأحاديث والآثار ما يدل على ردها إليه وقت سلام المسلم ، وهذا الرد إعادة خاصة لا يوجب حياة البدن قبل يوم القيامة .

الخامس : تعلقها به يوم بعث الأجساد ، وهو أكمل أنواع تعلقها بالبدن ، ولا نسبة لما قبله من أنواع التعلق إليه ، إذ هو تعلق لا يقبل البدن معه موتاً ولا نوماً ولا فساداً .

وأما قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا والَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِى قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأخْرَى إلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [2] . فإمساكه سبحانه التى قضى عليها الموت لا ينافى ردها إلى جسدها الميت فى وقت ما رداً عارضاً لا يوجب له الحياة المعهودة فى الدنيا . وإذا كان النائم روحه فى جسده وهو حى ، وحياته غير حياة المستيقظ ، فإن النوم شقيق الموت ، فهكذا الميت إذا أعيدت روحه إلى جسده كانت له حال متوسطة بين الحى وبين الميت الذى لم ترد روحه إلى بدنه ، كحال النائم المتوسطة بين الحى والميت . فتأمل هذا يزيح عنك إشكالات كثيرة .

[رؤيته ، صلى الله عليه وآله وسلم ، الأنبياء ليلة الإسراء]

وأما إخبار النبى ﷺ عن رؤية الأنبياء ليلة أسرى به ، فقد زعم بعض أهل الحديث أن الذى رآه أشباحهم وأرواحهم ، قال : فإنهم أحياء عند ربهم ، وقد رأى إبراهيم مسنداً ظهره إلى البيت المعمور ، ورأى موسى قائما فى قبره يصلى . وقد نعت الأنبياء لما رآهم نعت الأشباح ، فرأى موسى آدماً ضربا طوالا كأنه من رجال شنوءة ، ورأى عيسى يقطر رأسه كأنما أخرج من ديماس ، ورأى إبراهيم فشبهه بنفسه ونازعهم فى ذلك آخرون ، وقالوا : هذه الرؤية إنما هى لأرواحهم دون أجسادهم ، والأجساد فى الأرض قطعاً ، إنما تبعث يوم بعث الأجساد ، ولم تبعث قبل ذلك ، إذ لو بعثت قبل ذلك لكانت قد انشقت عنها الأرض قبل يوم القيامة وكانت تذوق

---

(١) البرزخ : الحاجز بين شيئين ، وهو فى الإسلام : الدار الفاصلة بين الدنيا والآخرة ، أو بين الموت والبعث .

(٢) الزمر آية : ٤٢

الموت عند نفخة الصور ، وهذه موتة ثالثة ، وهذا باطل قطعاً ، ولو كانت قد بعثت الأجساد من القبور لم يعدهم الله إليها ؛ بل كانت فى الجنة . وقد صح عن النبى ﷺ ، أن الله حرم الجنة على الأنبياء حتى يدخلها هو ، وهو أول من يستفتح باب الجنة ، وهو أول من تنشق عنه الأرض على الإطلاق لن تنشق عن أحد قبله ، ومعلوم بالضرورة أن جسده صلى الله عليه وآله وسلم فى الأرض طرى مطراً وقد سأله الصحابة كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت ؟ فقال : « إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » (١). ولو لم يكن جسده فى ضريحه لما أجاب بهذا الجواب.

وقد صح عنه أن الله وكل بقبره ملائكة يبلغونه عن أمته السلام (٢) .

وصح عنه أنه خرج بين أبى بكر وعمر وقال : هكذا نبعث (٣) . هذا مع القطع بأن روحه الكريمة فى الرفيق الأعلى فى أعلى عليين ، مع أرواح الأنبياء ، وقد صح عنه أنه رأى موسى قائماً يصلى فى قبره ليلة الإسراء ، ورآه فى السماء السادسة أو السابعة، فالروح كانت هناك ولها اتصال بالبدن فى القبر وإشراف عليه ، وتعلق به بحيث يصلى فى قبره ويرد سلام من سلم عليه ، وهى فى الرفيق الأعلى .

ولا تنافى بين الأمرين ، فإن شأن الأرواح غير شأن الأبدان ، وأنت تجد الروحين . المتماثلتين المتناسبتين فى غاية التجاور والقرب ، وإن كان بينهما بعد المشرقين ، وتجد الروحين المتنافرتين المتباغضتين بينهما غاية البعد وإن كان جسداهما متجاورين متلاصقين وليس نزول الروح وصعودها وقربها وبعدها من جنس ما للبدن ، فإنها تصعد إلى ما فوق السموات ثم تهبط إلى الأرض ، ما بين قبضها ووضع الميت فى قبره وهو زمن يسير ، لا يصعد البدن وينزل فى مثله ، وكذلك صعودها وعودها إلى البدن فى النوم واليقظة ، وقد مثلها بعضهم بالشمس وشعاعها ، فإنها فى السماء وشعاعها فى الأرض .

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه النسائى فى كتاب السهو ٣/ ٤٣ . والدارمى فى الرقاق ٢/ ٤٠٩ . وأحمد ١/ ٣٨٧ ، ٤٤١ ، ٤٥٢ . وصححه الألبانى فى صحيح الجامع ٢/ ٢٣٤ .

وقوله : « كأنما أخرج من ديماس » والديماس : بيت فى الأرض ، والمقصود أن باطن الأرض مصدر كثرة الماء .

(٣) أخرجه الترمذى فى المناقب ٥/ ٥٧٢ (٣٦٦٩) وفيه سعيد بن مسلمة ليس عندهم بالقوى.وابن ماجه فى المقدمة ١/ ٣٨ (٩٩) .

قال شيخنا [(١)] : وليس هذا مثلا مطابقاً ، فإن نفس الشمس لا تنزل من السماء والشعاع الذى على الأرض ليس هو الشمس ولا صفتها ، بل هو عرض حصل بسبب الشمس والجرم المقابل لها ، والروح نفسها تصعد وتنزل .

وأما قول الصحابة للنبى ﷺ ، فى قتلى بدر : كيف تخاطب أقواماً قد جيفوا[(٢)] - مع إخباره بسماعهم كلامه - فلا ينفى ذلك رد أرواحهم إلى أجسادهم ذلك الوقت رداً يسمعون به خطابه والأجساد قد جيفت . فالخطاب للأرواح المعلقة بتلك الأجساد التى قد فسدت .

[تحقيق سماع الموتى]

وأما قوله تعالى : ﴿ وَمَا أنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى الْقُبُورِ ﴾ [(٣)] . فسياق الآية يدل على أن المراد منها أن الكافر الميت القلب لا تقدر على إسماعه إسماعاً ينتفع به ، كما أن من فى القبور لا تقدر على إسماعهم إسماعاً ينتفعون به ، ولم يرد سبحانه أن أصحاب القبور لا يسمعون شيئاً ألبتة ، كيف وقد أخبر النبى ﷺ ، أنهم يسمعون خفق نعال المشيعين . وأخبر أن قتلى بدر سمعوا كلامه وخطابه ، وشرع السلام عليهم بصيغة الخطاب للحاضر الذى يسمع . وأخبر أن من سلم على أخيه المؤمن رد عليه السلام . وهذه الآية نظير قوله : ﴿ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ [(٤)] . وقد يقال : نفى إسماع الصم مع نفى إسماع الموتى ، يدل على أن المراد عدم أهلية كل منهما للسماع وأن قلوب هؤلاء لما كانت ميتة صماء كان إسماعها ممتنعاً بمنزلة خطاب الميت والأصم ، وهذا حق ، ولكن لا ينفى إسماع الأرواح بعد الموت إسماع توبيخ وتقريع بواسطة تعلقها بالأبدان فى وقت ما ، فهذا غير الإسماع المنفى والله أعلم .

وحقيقة المعنى : أنك لا تستطيع أن تسمع من لم يشأ الله أن يسمعه ، إن أنت إلا نذير . أى إنما جعل الله لك الاستطاعة على الإنذار الذى كلفك إياه لا على إسماع من لم يشأ الله إسماعه . وأما قوله : إن الحديث لا يصح لتفرد المنهال بن عمرو وحده به وليس بالقوى . فهذا من مجازفته رحمه الله ، فالحديث صحيح لا شك فيه .

---

(١) الإمام الجليل ابن تيمية رحمه الله .
(٢) سبق تخريجه .
(٣) فاطر آية ٢٢ .
(٤) سورة النمل الآية : ٨٠ .

وقد رواه عن البراء بن عازب جماعة غير زاذان ، منهم عدى بن ثابت ومحمد بن عقبة ومجاهد [1] .

[ذكر حالة النزع لروح المؤمن ولروح الكافر وما يمضى عليهما فى القبر مفصلا]

قال الحافظ أبو عبد الله بن منده فى [كتاب الروح والنفس] أخبرنا محمد بن يعقوب بن يوسف ، ثنا محمد بن إسحاق الصفار ، أنا أبو النضر هاشم بن القاسم، حدثنا عيسى بن المسيب ، عن عدى بن ثابت ، عن البراء بن عازب قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ فى جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولما يلحد ، فجلسنا وجلس كأن على أكتافنا فلق الصخر وعلى رءوسنا الطير فأرم قليلا - والإرمام السكوت - فلما رفع رأسه قال : « إن المؤمن إذا كان فى قبل من الآخرة ودبر من الدنيا وحضره ملك الموت ، نزلت عليه ملائكة معهم كفن من الجنة وحنوط من الجنة ، فجلسوا منه مد البصر ، وجاء ملك الموت فجلس عند رأسه ثم قال : اخرجى أيتها النفس المطمئنة ، اخرجى إلى رحمه الله ورضوانه فتنسل [2] نفسه كما تقطر القطرة من السقاء ، فإذا خرجت نفسه صلي عليه كل من بين السماء والأرض إلا الثقلين [3] ، ثم يصعد به إلى السماء فتفتح له السماء ويشيعه مقربوها إلى السماء الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة إلى العرش ، مقربو كل سماء فإذا انتهى إلى العرش كتب كتابه فى عليين ، ويقول الرب عز وجل : ردوا عبدى إلى مضجعه ، فإنى وعدتهم أنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى ، فيرد إلى مضجعه فيأتيه منكر ونكير يثيران الأرض بأنيابهما ، ويفحصان الأرض بأشعارهما ، فيجلسانه ثم يقال له : يا هذا من ربك ؟ فيقول : ربى الله . فيقولان : صدقت ، ثم يقال له : ما دينك ؟ فيقول : دينى الإسلام . فيقولان : صدقت . ثم يقال له : من نبيك ؟ فيقول : محمد رسول الله . فيقولان : صدقت . ثم يفسح له فى قبره مد بصره ، ويأتيه رجل حسن الوجه طيب الريح حسن الثياب فيقول : جزاك الله خيراً ، فوالله ما علمت إن كنت لسريعاً فى طاعة الله بطيئاً عن معصية الله ، فيقول : وأنت فجزاك الله خيراً فمن أنت ؟ فيقول : أنا عملك الصالح ، ثم يفتح له

(١) الحديث سبق تخريجه . (٢) فتنسل : أى تتسرب وتسيل . (٣) المراد بها الإنس والجن .

باب إلى الجنة، فنظر إلى مقعده ومنزله منها حتى تقوم الساعة . وإن الكافر إذا كان فى دبر من الدنيا وقبل من الآخرة وحضره الموت نزلت عليه من السماء ملائكة معهم كفن من النار وحنوط من نار ، قال : فيجلسون منه مد بصره وجاء ملك الموت فجلس عند رأسه ثم قال : اخرجى أيتها النفس الخبيثة اخرجى إلى غضب الله وسخطه ، فتفرق روحه فى جسده كراهية أن تخرج لما ترى وتعاين ، فيستخرجها كما يستخرج السفود من الصوف المبلول : فإذا خرجت نفسه لعنه كل شىء بين السماء والأرض إلا الثقلين، ثم يصعد به إلى السماء فتغلق دونه ، فيقول الرب عز وجل : ردوا عبدى إلى مضجعه ، فإنى وعدتهم أنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى ، فترد روحه إلى مضجعه فيأتيه منكر ونكير يثيران الأرض بأنيابهما ويفحصان الأرض بأشعارهما ، وأصواتهما كالرعد القاصف ، وأبصارهما كالبرق الخاطف ، فيجلسانه ثم يقولان : يا هذا من ربك ؟ فيقول : لا أدرى ، فينادى من جانب القبر: لا دريت فيضربانه بمرزبة [١] من حديد لو اجتمع عليها من بين الخافقين [٢] لم تقل ، يضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه ، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول : جزاك الله شرا فواللَّه ما علمت إن كنت لبطيئاً عن طاعة الله سريعاً فى معصية الله ، فيقول : ومن أنت ؟ فيقول : أنا عملك الخبيث ، ثم يفتح له باب إلى النار ، فينظر إلى مقعده فيها حتى تقوم الساعة » [٣] رواه الإمام أحمد ومحمود بن غيلان وغيرهما عن أبى النضرة ، ففيه أن الأرواح تعاد إلى القبر وأن الملكين يجلسان الميت ويستنطقانه .

ثم ساقه ابن منده من طريق محمد بن سلمة ، عن خصيف الجزرى ، عن مجاهد عن البراء بن عازب قال : كنا فى جنازة رجل من الأنصار ، ومعنا رسول الله ﷺ فانتهينا إلى القبر ولم يلحد ووضعت الجنازة ، وجلس رسول الله ﷺ ، فقال : « إن المؤمن إذا احتضر أتاه ملك الموت فى أحسن صورة وأطيبه ريحاً فجلس عنده لقبض روحه ، وأتاه ملكان بحنوط من الجنة وكفن من الجنة وكانا منه على بعد ، فاستخرج ملك الموت روحه من جسده رشحاً ، فإذا صارت إلى ملك الموت ابتدرها الملكان فأخذاها منه فحنطاها بحنوط من الجنة وكفناها بكفن من الجنة ، ثم عرجا به إلى

(١) المرزبة : المطرقة الكبيرة التى تكسر بها الحجارة .

(٢) الخافقان : المشرق والمغرب .

(٣) سبق تخريجه عن البراء .

الجنة، فتفتح له أبواب السماء ، وتستبشر الملائكة بها ، ويقولون : لمن هذه الروح الطيبة التى فتحت لها أبواب السماء ، ويسمى بأحسن الأسماء التى كان يسمى بها فى الدنيا ، فيقال : هذه روح فلان ، فإذا صعد بها إلى السماء شيعها مقربو كل سماء حتى توضع بين يدى الله عند العرش فيخرج عملها من عليين ، فيقول الله عز وجل للمقربين : اشهدوا إنى قد غفرت لصاحب هذا العمل ، ويختم كتابه فيرد فى عليين فيقول الله عز وجل : ردوا روح عبدى إلى الأرض ، فإنى وعدتهم أنى أردهم فيها ، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾[1] فإذا وضع المؤمن فى قبره فتح له باب عند رجليه إلى الجنة فيقال له : انظر إلى ما أعد الله لك من الثواب ، ويفتح له باب عند رأسه إلى النار ، فيقال له : انظر ما صرف الله عنك من العذاب ، ثم يقال له : نم قرير العين فليس شىء أحب إليه من قيام الساعة » وقال رسول الله ﷺ : « إذا وضع المؤمن فى لحده تقول له الأرض : إن كنت لحبيباً إلى وأنت على ظهرى ، فكيف إذا صرت اليوم فى بطنى سأريك ما أصنع بك فيفسح له فى قبره مد بصره » وقال رسول الله ﷺ : « إذا وضع الكافر فى قبره أتاه منكر ونكير فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : لا أدرى . فيقولان له : لا دريت فيضربانه ضربة فيصير رماداً ثم يعاد فيجلس فيقال له : ما قولك فى هذا الرجل ؟ فيقول أى رجل ؟ فيقولان : محمد ﷺ فيقول : قال الناس إنه رسول الله ﷺ فيضربانه ضربة فيصير رماداً »[2] هذا حديث ثابت مشهور مستفيض صححه جماعة من الحفاظ ، ولا نعلم أحداً من أئمة الحديث طعن فيه ، بل رووه فى كتبهم وتلقوه بالقبول وجعلوه أصلاً من أصول الدين فى عذاب القبر ، ونعيمه ومساءلة منكر ونكير وقبض الأرواح وصعودها إلى بين يدى الله ثم رجوعها إلى القبر . وقول أبى محمد لم يروه غير زاذان فوهم منه ، بل رواه عن البراء غير زاذان ورواه عنه عدى بن ثابت ومجاهد بن جبير ومحمد ابن عقبة وغيرهم ، وقد جمع الدارقطنى طرقه فى مصنف مفرد ، وزاذان من الثقات ، روى عن أكابر الصحابة كعمر وغيره وروى له مسلم فى صحيحه .

---

(١) سورة طه آية : ٥٥ .

(٢) إسناده ضعيف فيه حصيف بن عبد الرحمن الجزرى صدوق سىء الحفظ خلط بأخره ورمى بالارجاء . (التقريب ١٩٣) . وانظر الحديث سابقه .

قال يحيى بن معين : ثقة ، وقال حميد بن هلال وقد سئل عنه : هو ثقة ، لا تسأل عن مثل هؤلاء ، وقال ابن عدى : أحاديثه لا بأس بها إذا روى عن ثقة ، وقله إن المنهال بن عمرو تفرد بهذه الزيادة وهى قوله : فتعاد روحه فى جسده وضعفه ، فالمنهال أحد الثقات العدول .

قال ابن معين : المنهال ثقة ، وقال العجلى : كوفى ثقة . وأعظم ما قيل فيه : إنه سمع من بيته صوت غناء وهذا لا يوجب القدح فى روايته واطراح حديثه وتضعيف ابن حزم له لا شيء ، فإنه لم يذكر موجباً لتضعيفه غير تفرده بقوله : « فتعاد روحه فى جسده » ، وقد بينا أنه لم يتفرد بها ؛ بل قد رواها غيره وقد روى ما هو أبلغ منها أو نظيرها ، كقوله : « فترد إليه روحه » وقوله : « فتصير إلى قبره » . وقوله : « فيستوى جالساً » . وقوله : « فيجلسانه » . وقوله : « فيجلس فى قبره » . وكلها أحاديث صحاح لا مغمز فيها . وقد أعل غيره بأن زاذان لم يسمعه من البراء وهذه العلة باطلة فإن أبا عوانة الاسفرائينى رواه فى صحيحه بإسناده .

وقال عن أبى عمرو زاذان الكندى قال سمعت البراء بن عازب .

وقال الحافظ أبو عبد الله بن منده : هذا إسناد متصل مشهور رواه جماعة عن البراء، ولو نزلنا عن حديث البراء فسائر الأحاديث الصحيحة صريحة فى ذلك . مثل حديث ابن أبى ذئب ، عن محمد بن عمرو بن عطاء عن سعيد بن يسار ، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ ، قال : « إن الميت تحضره الملائكة فإذا كان الرجل الصالح قالوا : اخرجى أيتها النفس الطيبة كانت فى الجسد الطيب ، اخرجى حميدة وأبشرى بروح وريحان ورب غير غضبان ، قال : فيقولون ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال من هذا ؟ فيقولون : فلان فيقولن : مرحبا بالنفس الطيبة كانت فى الجسد الطيب ، ادخلى حميدة وأبشرى بروح وريحان ورب غير غضبان ، فيقال لها ذلك حتى ينتهى بها إلى السماء التى فيها الله عز وجل . وإذا كان الرجل السوء قال : اخرجى أيتها النفس الخبيثة كانت فى الجسد ، اخرجى ذميمة وأبشرى بحميم وغساق [1] وآخر من شكلة أزواج ، فيقولون ذلك حتى تخرج ، ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال : من هذا ؟ فلان ، فيقولون : لا مرحباً بالنفس

(١) الغساق : البارد المنتن .

الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث ، ارجعى ذميمة ، فإنها لن تفتح لك أبواب السماء فترسل بين السماء والأرض ، فتصير إلى القبر ؛ فجلس الرجل الصالح فى قبره غير فزع ولا معوق ثم يقال : فما كنت تقول فى الإسلام يا هذا الرجل ؟ فيقول : محمدا رسول الله جاءنا بالبينات من قبل الله فآمنا وصدقنا » (١) . وذكر تمام الحديث .

قال الحافظ أبو نعيم : هذا حديث متفق على عدالة ناقليه ، اتفق الإمامان محمد ابن إسماعيل البخارى ومسلم بن الحجاج عن ابن أبى ذئب ومحمد بن عمرو بن عطاء وسعيد بن يسار وهم من شرطهما . ورواه المتقدمون الكبار عن ابن أبى ذئب مثل بن أبى فديك ، وعبد الرحيم بن إبراهيم انتهى . ورواه عن ابن أبى ذئب غير واحد . وقد احتج أبو عبد الله بن منده ، على إعادة الروح إلى البدن بأن قال : حدثنا محمد ابن الحسين بن الحسن ، ثنا محمد بن يزيد النيسابوري ، ثنا حماد بن قيراط ثنا محمد بن الفضل ، عن يزيد بن عبد الرحمن الصائغ البلخى ، عن الضحاك بن مزاحم ، عن ابن عباس أنه قال : بينما رسول الله ﷺ ، ذات يوم قاعدا تلا هذه الآية : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ ﴾ (٢) . قال : والذى نفس محمد بيده ما من نفس تفارق الدنيا حتى ترى مقعدها من الجنة والنار ، ثم قال: فإذا كان عند ذلك صف له سماطان من الملائكة ينتظمان ما بين الخافقين ، كأن وجوههم الشمس فينظر إليهم ما يرى غيرهم وإن كنتم ترون أنه ينظرون إليكم مع كل منهم أكفان وحنوط فإن كان مؤمناً بشروه بالجنة وقالوا : اخرجى أيتها النفس الطيبة إلى رضوان الله وجنته ، فقد أعد الله لك من الكرامة ما هو خير لك من الدنيا وما فيها ، فلا يزالون يبشرونه ويحفون به ، فهم ألطف به وأرأف من الوالدة بولدها ثم يسلون (٣) روحه من تحت كل ظفر ومفصل ويموت الأول فالأول ، ويهون عليه وإن كنتم ترونه شديداً حتى تبلغ ذقنه . قال : فلهى أشد كراهية للخروج من الجسد من الولد حين يخرج من الرحم ، فيبتدرها كل ملك منهم أيهم يقبضها فيتولى قبضها ملك الموت ، ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ (٤) . فيتلقاها بأكفان بيض يحتضنها إليه فلهو أشد لزوماً لها من المرأة لولدها ثم يفوح منها ريح أطيب من المسك فيستنشقون ريحها ويتباشرون بها

---

(١) أخرجه النسائى فى الجنائز ٤/٨-٩ .

(٢) الأنعام آية : ٩٣ .

(٣) يسلون : أى ينتزعون روحه .

(٤) السجدة آية : ١١ .

ويقولون: مرحباً بالروح الطيبة والروح الطيب ، اللَّهم صل عليه روحاً وعلى جسد خرجت منه ، قال : فيصعدون بها ولله عز وجل خلق فى الهواء لا يعلم عدتهم إلا هو ، فيفوح لهم منها ريح أطيب من المسك ، فيصلون عليها ويتباشرون ويفتح لهم أبواب السماء فيصلى عليها كل ملك فى كل سماء تمر بهم حتى ينتهى بها بين يدى الملك الجبار ، فيقول الجبار جل جلاله : مرحباً بالنفس الطيبة وبجسد خرجت منه ، وإذا قال الرب عز وجل للشيء : مرحباً رحب له كل شيء ، ويذهب عنه كل ضيق، ثم يقول لهذه النفس الطيبة : أدخلوها الجنة وأروها مقعدها من الجنة واعرضوا عليها ما أعددت لهاَ من الكرامة والنعيم ، ثم اذهبوا بها إلى الأرض فإنى قضيت أنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى ، فوالذى نفس محمد بيده لهى أشد كراهية للخروج منها حين كانت تخرج من الجسد ، وتقول : أين تذهبون بى إلى ذلك الجسد الذى كنت فيه ؟ قال : فيقولون إنا مأمورون بهذا فلابد لك منه فيهبطون به على قدر فراغهم من غسله وأكفانه فيدخلون ذلك الروح بين جسده وأكفانه» .

فدل هذا الحديث أن الروح تعاد بين الجسد والأكفان ، وهذا عود غير التعلق الذى كان لها فى الدنيا بالبدن ، وهو نوع آخر وغير تعلقها به حال النوم ، وغير تعلقها به وهى فى مقرها ؛ بل هو عود خاص للمساءلة .

قال شيخ الإسلام : الأحاديث الصحيحة المتواترة تدل على عود الروح إلى البدن وقت السؤال ، وسؤال البدن بلا روح قول قاله طائفة من الناس وأنكره الجمهور ، وقابلهم آخرون ، فقالوا : السؤال للروح بلا بدن ، وهذا قاله ابن مرة وابن حزم وكلاهما غلط ، والأحاديث الصحيحة ترده ، ولو كان ذلك على الروح فقط لم يكن للقبر بالروح اختصاص .

فصل

[هل عذاب القبر يقع على النفس والبدن أو على أحدهما دون الآخر]

وهذا يتضح بجواب المسألة ، وهى قول السائل هل عذاب القبر على النفس والبدن أو على النفس دون البدن ؛ أو على البدن دون النفس ؟ وهل يشارك البدن النفس فى النعيم والعذاب أم لا ؟

وقد سئل شيخ الإسلام عن هذه المسألة ، ونحن نذكر لفظ جوابه فقال : بل العذاب والنعيم على النفس والبدن جميعاً باتفاق أهل السنة والجماعة .

تنعم النفس وتعذب منفردة عن البدن وتنعم وتعذب متصلة بالبدن ، والبدن متصل بها فيكون النعيم والعذاب عليهما فى هذه الحال مجتمعين ، كما تكون الروح منفردة عن البدن ، وهل يكون العذاب والنعيم للبدن بدون الروح ؟ هذا فيه قولان مشهوران لأهل الحديث والسنة وأهل الكلام .

وفى المسألة أقوال شاذة ليست من أقوال أهل السنة والحديث .

قول من يقول : إن النعيم والعذاب لا يكون إلا على الروح ، وأن البدن لا ينعم ولا يعذب . وهذا تقوله الفلاسفة المنكرون لمعاد الأبدان ، وهؤلاء كفار بإجماع المسلمين ، ويقوله كثير من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم الذين يقرون بمعاد الأبدان، لكن يقولون لا يكون ذلك فى البرزخ ، وإنما يكون عند القيام من القبور ، لكن هؤلاء ينكرون عذاب البدن فى البرزخ فقط ، ويقولون إن الأرواح هى المنعمة أو المعذبة فى البرزخ ، فإذا كان يوم القيامة عذبت الروح والبدن معاً . وهذا القول قاله طوائف من المسلمين من أهل الكلام والحديث وغيرهم ، وهو اختيار ابن حزم وابن مرة .

فهذا القول ليس من الأقوال الثلاثة الشاذة ؛ بل هو مضاف إلى قول من يقول بعذاب القبر ويقر بالقيامة ، ويثبت معاد الأبدان والأرواح ، ولكن هؤلاء لهم فى عذاب القبر ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه على الروح فقط .

الثانى : أنه عليها وعلى البدن بواسطتها .

الثالث : أنه على البدن فقط ، وقد يضم إلى ذلك القول الثانى وهو قول من يثبت عذاب القبر ويجعل الروح هى الحياة ، ويجعل الشاذ قول منكر عذاب الأبدان مطلقاً ، وقول من ينكر عذاب الروح مطلقاً ، فإذا جعلت الأقوال الشاذة ثلاثة فالقول الثانى الشاذ، قول من يقول : إن الروح بمفردها لا تنعم ولا تعذب وإنما الروح هى الحياة ، وهذا يقوله طوائف من أهل الكلام من المعتزلة والأشعرية كالقاضى أبى بكر وغيره ، وينكرون أن الروح تبقى بعد فراق البدن ، وهذا قول باطل .

وقد خالف أصحابه أبو المعالى الجوينى وغيره ، بل قد ثبت بالكتاب والسنة واتفاق

الأمة أن الروح تبقى بعد فراق البدن ، وأنها منعمة أو معذبة ، والفلاسفة الإلهيون يقرون بذلك لكن ينكرون معاد الأبدان ، وهؤلاء يقرون بمعاد الأبدان لكن ينكرون معاد الأرواح ونعيمها وعذابها بدون الأبدان . وكلا القولين خطأ وضلال ، لكن قول الفلاسفة أبعد عن أقوال أهل الإسلام ، وإن كان قد يوافقهم عليه من يعتقد أنه متمسك بدين الإسلام ، بل من يظن أنه من أهل المعرفة والتصوف والتحقيق والكلام.

والقول الثالث الشاذ : قول من يقول إن البرزخ ليس فيه نعيم ولا عذاب ، بل لا يكون ذلك حتى تقوم الساعة الكبرى ، كما يقول ذلك من يقوله من المعتزلة ونحوهم ، ممن ينكر عذاب القبر ونعيمه ، بناء على أن الروح لا تبقى بعد فراق البدن ، وأن البدن لا ينعم ولا يعذب ، فجميع هؤلاء الطوائف ضلال فى أمر البرزخ ، لكنهم خير من الفلاسفة فإنهم مقرون بالقيامة الكبرى .

فصل
[مذهب السلف أن الميت إذا مات يكون فى نعيم أو عذاب مع الروح والبدن]

فإذا عرفت هذه الأقوال الباطلة فلتعلم أن مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الميت إذا مات يكون فى نعيم أو عذاب ، وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه ، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة ، وأنها تتصل بالبدن أحياناً ويحصل له معها النعيم أو العذاب ، ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى أعيدت الأرواح إلى الأجساد ، وقاموا من قبورهم لرب العالمين . ومعاد الأبدان متفق عليه بين المسلمين واليهود والنصارى .

فصل
[ذكر أحاديث عذاب القبر ومساءلة منكر ونكير]

ونحن نثبت ما ذكرناه . فأما أحاديث عذاب القبر ومساءلة منكر ونكير فكثيرة، ومتواترة عن النبى ﷺ ، كما فى الصحيحين عن ابن عباس : أن النبى ﷺ مر بقبرين فقال : « إنهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير . أما أحدهما فكان لا يستبرئ من البول ، وأما الآخر فكان يمشى بالنميمة ، ثم دعا بجريدة رطبة فشقها نصفين فقال : لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا » [1] .

---

(١) أخرجه البخارى فى الجنائز ٣/ ٢٨٦ (١٣٧٨) . ومسلم فى الطهارة ١/ ٢٤٠-٢٤١ (١١١) . وباقى التسعة

وفى صحيح مسلم عن زيد بن ثابت قال : « بينما رسول الله ﷺ فى حائط لبنى النجار على بغلته ونحن معه إذ حادت به فكادت تلقيه ، فإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة ، فقال : مَن يعرف أصحاب هذه القبور فقال رجل : أنا ، قال : فمتى مات هؤلاء ؟ قال : ماتوا فى الإشراك ، فقال : إن هذه الأمة تبتلى فى قبورها فلولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذى أسمع منه ثم أقبل علينا بوجهه فقال : تعوذوا باللَّه من عذاب النار . قالوا : نعوذ باللَّه من عذاب النار . قال : تعوذوا باللَّه من عذاب القبر ، قالوا : نعوذ باللَّه من عذاب القبر . قال : تعوذوا باللَّه من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، قالوا : نعوذ باللَّه من الفتن ما ظهر منها وما بطن. قال : تعوذوا باللَّه من فتنة الدجال . قالوا: نعوذ باللَّه من فتنة الدجال » (١).

وفى صحيح مسلم ، وجميع السنن عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « إذا فرغ أحدكم من التشهد الأخير ، فليتعوذ باللَّه من أربع : من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن فتنة المسيح الدجال » (٢) .

وفى صحيح مسلم أيضاً وغيره عن ابن عباس : أن النبى ﷺ كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن يقول : « قولوا : اللَّهم إنى أعوذ بك من عذاب جهنم ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال » (٣) .

وفى الصحيحين عن أبى أيوب قال : خرج النبى ﷺ ، وقد وجبت الشمس فسمع صوتاً فقال : « يهود تعذب فى قبورها » .

[عذاب القبر تسمعه البهائم]

وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها قالت : دخلت علىَّ عجوز من عجائز يهود المدينة فقالت : إن أهل القبور يعذبون فى قبورهم . قالت : فكذبتها ، ولم أنعم أن أصدقها قالت : فخرجت ودخل على رسول الله ﷺ ، فقلت : يا رسول الله إن عجوزاً من عجائز يهود أهل المدينة دخلت فزعمت أن أهل القبور يعذبون فى قبورهم ، قال : « صدقت إنهم يعذبون عذاباً تسمعه البهائم كلها » قالت : فما رأيته بعد فى صلاة إلا يتعوذ من عذاب القبر .

وفى صحيح ابن حبان عن أم مبشر قالت : دخل علىّ رسول الله ﷺ وهو يقول :

---

(١) أخرجه مسلم فى الجنة وصفة نعيمها ٤/٢١٩٩ - ٢٢٠٠ (٦٧) .

(٢) أخرجه البخارى فى الجنائز ٣ / ٢٨٤ (١٣٧٧) .

(٣) أخرجه مسلم فى المساجد ١/٤١٣ (١٣٤) .

« تعوذوا باللَّه من عذاب القبر » فقلت : يا رسول الله وللقبر عذاب ؟ قال : « إنهم ليعذبون فى قبورهم عذاباً تسمعه البهائم » [1] .

وقال بعض أهل العلم : ولهذا السبب يذهب الناس بدوابهم إذا مغلت إلى قبور اليهود والنصارى والمنافقين كالإسماعيلية والنصيرية والقرامطة من بنى عبيد وغيرهم الذين بأرض مصر والشام ، فإن أصحاب الخيل يقصدون قبورهم لذلك كما يقصدون قبور اليهود والنصارى ، قال : فإذا سمعت الخيل عذاب القبر أحدث لها ذلك فزعاً وحرارة تذهب بالمغل .

[حكاية عجيبة لاستماع الدابة عذاب القبر بمرأى الناس]

وقد قال عبد الحق الإشبيلى : حدثنى الفقيه أبو الحكم بن برجان – وكان من أهل العلم والعمل – أنهم دفنوا ميتاً بقريتهم فى شرف إشبيلية ، فلما فرغوا من دفنه قعدوا ناحية يتحدثون ودابة ترعى قريباً منهم ، فإذا بالدابة قد أقبلت مسرعة إلى القبر ، فجعلت أذنها عليه كأنها تسمع ، ثم ولت فارة ثم عادت إلى القبر ، فجعلت أذنها عليه كأنها تسمع ، ثم ولت فارة ، فعلت ذلك مرة بعد مرة أخرى ، قال أبو الحكم: فذكرت عذاب القبر ، وقول النبى ﷺ : « إنهم ليعذبون عذاباً تسمعه البهائم » [2] .

ذكر لنا هذه الحكاية ونحن نسمع عليه كتاب مسلم لما انتهى القارئ إلى قول النبى ﷺ : « إنهم ليعذبون عذاباً تسمعه البهائم » ، وهذا السماع واقع على أصوات المعذبين .

قال هناد بن السرى فى (كتاب الزهد) : حدثنا وكيع عن الأعمش ، عن شقيق، عن عائشة رضى الله عنها قالت : دخلت على يهودية فذكرت عذاب القبر فكذبتها فدخل النبى ﷺ علىّ فذكرت ذلك له ، فقال : « والذى نفسى بيده إنهم ليعذبون فى قبورهم حتى تسمع البهائم أصواتهم » [3] .

قلت : وأحاديث المساءلة فى القبر كثيرة ، كما فى الصحيحين والسنن .

---

(١) أخرجه ابن حبان فى صحيحه كما جاء فى الإحسان ٣/ ٢٨١ – ٢٨٢ (١٠٠٠) لكن عند أبى سعيد الخدرى .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) أخرجه مسلم فى المساجد ١/ ٤١٠ (١٢٣) .

[تمثل الأعمال فى القبر لوقاية صاحبها]

عن البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ قال : « المسلم إذا سئل فى قبره فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قول الله : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِى الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَفِى الآخِرَةِ ﴾ [1] ، وفى لفظ : « نزلت فى عذاب القبر يقال له من ربك ؟ فيقول : الله ربى ، ومحمد نبيى فذلك قول الله : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِى الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَفِى الآخِرَةِ ﴾ » [2] .

وهذا الحديث قد رواه أهل السنن والمسانيد مطولاً كما تقدم ، وقد صرح فى هذا الحديث بإعادة الروح إلى البدن وباختلاف أضلاعه ، وهذا بين فى أن العذاب على الروح والبدن مجتمعين ، وقد روى مثل حديث البراء فى قبض الروح والمساءلة والنعيم والعذاب أبو هريرة .

[تتمثل الشمس فى القبر كأنها تغرب]

وحديثه فى المسند وصحيح أبى حاتم أن النبى ﷺ قال : « إن الميت إذا وضعفى قبره إنه يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه ، فإن كان مؤمناً كانت الصلاة عند رأسه والصيام عن يمينه والزكاة عن شماله وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان عند رجليه ، فيؤتى من قبل رأسه فتقول الصلاة : ما قبلى مدخل ، ثم يؤتى من يمينه فيقول الصيام : ما قبلى مدخل ، ثم يؤتى عن يساره فتقول الزكاة : ما قبلى مدخل ، ثم يؤتى من قبل رجليه فيقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان : ما قبلى مدخل ، فيقال له : إجلس فيجلس قد مثلت له الشمس ، وقد أخذت للغروب ، فيقال له : هذا الرجل الذى كان فيكم ما تقول فيه، وماذا تشهد به عليه ؟ فيقول : دعونى حتى أصلى ، فيقولون : إنك ستصلى أخبرنا عما نسألك عنه ، أرأيت هذا الرجل الذى كان فيكم ما تقول فيه وما تشهد عليه ؟ فيقول : محمد ، أشهد أنه رسول الله جاء بالحق من عند الله . فيقال له : على ذلك حييت ، وعلى ذلك مت وعلى ذلك تبعث إن شاء الله . ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقال له : هذا مقعدك وما أعد الله لك فيها ، فيزداد غبطة وسروراً ، ثم يفسح له فى قبره سبعون ذراعاً وينور له فيه ويعاد الجسد لما بدى منه وتجعل نسمته فى النسيم

(١ ، ٢) إبراهيم آية ٢٧ . والحديث سبق تخريجه .

الطيب وهى طير معلق فى شجر الجنة قال : فذلك قول الله تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِى الأخِرَةِ ﴾ .

وذكر فى الكافر ضد ذلك إلى أن قال : ثم يضيق عليه فى قبره إلى أن تختلف فيه أضلاعه فتلك المعيشة الضنك التى قال الله تعالى : ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴾ (١) .

وفى الصحيحين من حديث قتادة عن أنس أن النبى ﷺ ، قال : « إن الميت إذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه ، إنه ليسمع خفق نعالهم ، أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له : ما كنت تقول فى هذا الرجل محمد ؟ فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله . قال فيقول : انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة، قال رسول الله ﷺ : فيراهما جميعاً » . قال قتادة : وذكر لنا أنه يفسح له فى قبره سبعون ذراعاً ويملأ عليه خضراً إلى يوم يبعثون . ثم رجع إلى حديث أنس قال: فأما الكافر والمنافق فيقولان له ما كنت تقول فى هذا الرجل فيقول : لا أدرى كنت أقول ما يقول الناس . فيقولان لا دريت ولا تليت ، ثم يضرب بمطراق من حديد بين أذنيه فيصيح صيحة فيسمعها من عليها غير الثقلين (٢) .

وفى صحيح أبى حاتم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا قبر أحدكم أو الإنسان أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما : المنكر وللأخر النكير فيقولان له : ما كنت تقول فى هذا الرجل محمد ﷺ فهو قائل ما كان يقول ، فإن كان مؤمناً قال : هو عبد الله ورسوله أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، فيقولان له : إن كنا لنعلم أنك تقول ذلك ، ثم يفسح له فى قبره سبعون ذراعاً فى سبعين ذراعاً وينور له فيه ، ويقال له : نم ، فيقول : أرجع إلى أهلى ومالى فأخبرهم فيقولان : نم كنومة العروس الذى لا يوقظه إلا أحب أهله إليه حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك . وإن كان منافقاً قال : لا أدرى كنت أسمع الناس يقولون شيئاً ، فكنت أقوله ، فيقولان له : كنا نعلم أنك تقول ذلك ، ثم يقال للأرض التئمى عليه فتلتئم عليه حتى تختلف فيها أضلاعه فلا يزال معذباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك » . وهذا صريح فى أن البدن يعذب .

---

(١) سبق تخريجه والآية فى سورة طه : ٢٤ .

(٢) أخرجه البخارى فى الجنائز ٣/ ٢٤٤ (١٣٣٨) .

وعن أبى هريرة أن النبى ﷺ ، قال : « إذا احتضر المؤمن أتته الملائكة بحريرة بيضاء فيقولون : اخرجى أيتها الروح الطيبة راضية مرضياً عنك إلى روح وريحان ورب غير غضبان ، فتخرج كأطيب ريح المسك حتى إنه ليناوله بعضهم بعضاً ، حتى يأتوا به باب السماء فيقولون ما أطيب هذه الريح التى جاءتكم من الأرض : فيأتون به أرواح المؤمنين ، فلهم أشد فرحا به من أحدكم بغائبه يقدم عليه ، فيسألونه ماذا فعل فلان . قال : فيقولون دعوه يستريح فإنه كان فى غم الدنيا .

فإذا قال : أتاكم فيقولون : إنه ذهب به إلى أمه الهاوية . وإن الكافر إذا احتضر أتته ملائكة العذاب بمسح فيقولون : أخرجى مسخوطاً عليك إلى عذاب الله فتخرج كأنتن ريح جيفة حتى يأتوا به باب الأرض فيقولون : ما أنتن هذه الروح حتى يأتوا به أرواح الكفار » [1] .

وأخرجه أبو حاتم فى صحيحه قال : إن المؤمن إذا حضره الموت حضرته ملائكة الرحمة ، فإذا قبض جعلت روحه فى حريرة بيضاء ، فينطلق بها إلى باب السماء فيقولون : ما وجدنا ريحاً أطيب من هذه ، فيقال : ما فعل فلان ؟ ما فعلت فلانة ؟ فيقال دعوه يستريح ، فإنه كان فى غم الدنيا .

وأما الكافر إذا قبضت نفسه ذهب بها إلى الأرض فتقول خزنة الأرض : ما وجدنا ريحا أنتن من هذه ، فيبلغ بها إلى الأرض السفلى .

وروى النسائى فى سننه من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، عن النبى ﷺ قال : « هذا الذى تحرك له العرش ، وفتحت له أبواب السماء وشهد له سبعون ألفاً من الملائكة ، لقد ضم ضمة ثم فرج عنه » [2] . قال النسائى : يعنى سعد بن معاذ .

وروى من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « للقبر ضغطة لو نجا منها أحد لنجا سعد بن معاذ » (رواه فى حديث شعبة) [3] .

وقال هناد بن السرى ، ثنا محمد بن فضل ، عن أبيه ، عن ابن أبى مليكة قال : ما أجير من ضغطة القبر أحد ولا سعد بن معاذ ، الذى منديل من مناديله خير من الدنيا وما فيها .

---

(١) أخرجه النسائى فى الجنائز ٤/ ٨ - ٩ .

(٢) أخرجه النسائي فى الجنائز ٤ / ١٠٠ - ١٠١ .   (٣) أخرجه أحمد فى المسند ٦ / ٥٥ .

قال : وحدثنا عبدة ، عن عبيد الله بن عمر ، عن نافع قال : لقد بلغنى أنه شهد جنازة سعد بن معاذ سبعون ألف ملك لم ينزلوا إلى الأرض قط ، ولقد بلغنى أن رسول الله ﷺ ، قال : « لقد ضم صاحبكم فى القبر ضمة » (١) .

وقال على بن معبد : ثنا عبيد الله ، عن زيد بن أبى أنيسة ، عن جابر ، عن نافع قال : أتينا صفية بنت أبى عبيد امرأة عبد الله بن عمر وهى فزعة فقلنا : ما شأنك ؟ فقالت : جئت من عند بعض نساء النبى ﷺ ، قالت : « فحدثتنى أن رسول الله ﷺ ، قال : « إن كنت لأرى لو أن أحداً أعفى من عذاب القبر لأعفى منه سعد بن معاذ ، لقد ضم فيه ضمة » (٢) .

وحدثنا مروان بن معاوية ، عن العلاء بن المسيب ، عن معاوية العبسى ، عن زاذان بن عمرو .

قال : لما دفن رسول الله ﷺ ، ابنته جلس عند القبر فتربد وجهه ثم سرى عنه فقال له أصحابه : رأينا وجهك آنفا ، ثم سرى عنك ، فقال النبى ﷺ : « ذكرت ابنتى وضعفها وعذاب القبر فدعوت الله ففرج عنها ، وأيم الله لقد ضمت ضمة سمعها من بين الخافقين » (٣) .

وحدثنا شعيب عن ابن دينار ، عن إبراهيم الغنوى ، عن رجل قال : كنت عند عائشة رضى الله عنها فمرت جنازة صبى صغير فبكت ، فقلت لها : ما يبكيك يا أم المؤمنين ؟ فقالت : هذا الصبى بكيت له شفقة عليه من ضمة القبر (٤) .

ومعلوم أن هذا كله للجسد بواسطة الروح .

❊ ❊ ❊

---

(١) ضعيف رواه نافع بلاغاً . ووصله النسائى وأحمد كما سبق فى الحديثين السابقين .

(٢) سبق تخريجه من حديث ابن عمر عند النسائي .

(٣) مرسل رفعه زاذان عن سيدنا رسول ﷺ ، ذكره الزبيدى فى إتحاف السادة المتقين ١٠/٤٢٣ ، والسيوطى فى اللآلى المصنوعة ٢/٢٣١ .

(٤) ضعيف لجهالة الرجل الذى روى عن عائشة .

فصل

[عذاب القبر حق باتفاق أهل السنة]

وهذا كما أنه مقتضى السنة الصحيحة فهو متفق عليه بين أهل السنة . قال المروزى: قال أبو عبد الله : عذاب القبر حق لا ينكره إلا ضال مضل .

وقال ابن حنبل : قلت لأبى عبد الله فى عذاب القبر فقال : هذه أحاديث صحاح نؤمن بها ونقر بها كلها جاءت عن النبى ﷺ ، بإسناد جيد ، أقررنا به ، إذا لم نقر بما جاء به رسول الله ﷺ ، ودفعناه ورددناه رددنا على الله أمره . قال الله تعالى : ﴿وَمَآ آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ (1) . قلت له : وعذاب القبر حق ؟ قال : حق يعذبون فى القبور . قال : وسمعت أبا عبد الله يقول : نؤمن بعذاب القبر وبمنكر ونكير ، وأن العبد يسأل فى قبره ، فـ ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِى الآخِرَةِ ﴾ (2) فى القبر . وقال أحمد بن القاسم قلت : يا أبا عبد الله نقر بمنكر ونكير ، وما يروى فى عذاب القبر . فقال : سبحان الله نعم ، نقر بذلك ونقوله ، قلت : هذه اللفظة تقول منكر ونكير هكذا أو نقول ملكين ، قال : منكر ونكير ، قلت : يقولون ليس فى الحديث منكر ونكير قال : هو هكذا . يعنى أنهما منكر ونكير .

وأما أقوال أهل البدع والضلال ، فقال أبو الهذيل والمريسى : من خرج عن سمة الإيمان ، فإنه يعذب بين النفختين ، والمسألة فى القبر إنما تقع فى ذلك الوقت . وأثبت الجبائى وابنه والبلخى عذاب القبر ، ولكنهم نفوه عن المؤمنين وأثبتوه لأصحاب التخليد من الكفار والفساق على أصولهم . وقال كثير من المعتزلة : لا يجوز تسمية ملائكة الله بمنكر ونكير ، وإنما المنكر ما يبدو من تلجلجه إذا سئل والنكير تقريع الملكين له .

وقال الصالحى : عذاب القبر يجرى على المؤمن من غير رد الأرواح إلى الأجساد والميت يجوز أن يألم ويحس ويعلم بلا روح ، وهذا قول جماعة من الكرامية .

وقال بعض المعتزلة : إن الله سبحانه يعذب الموتى فى قبورهم ، ويحدث فيهم الآلام وهم لا يشعرون ، فإذا حشروا وجدوا تلك الآلام وأحسوا بها ، قالوا : وسبيل

---

(1) الحشر آية : ٧ .　　(2) إبراهيم آية : ٢٧ .

المعذبين من الموتى كسبيل السكران والمغشى عليه لو ضربوا لم يجدوا الآلام ، فإذا عاد إليهم العقل أحسوا بألم الضرب . وأنكر جماعة منهم عذاب القبر رأسا ، مثل ضرار ابن عمرو ويحيى بن كامل وهو قول المريسى ، فهذه أقوال أهل الحيرة والضلاة .

* * *

فصل

[عذاب القبر ينال من هو مستحق له قبر أو لم يقبر ولو أكلته السباع]

ومما ينبغى أن يعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ ، فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه قبر أو لم يقبر ، فلو أكلته السباع أو أحرق حتى صار رمادا ونسف فى الهواء أو صلب أو غرق فى البحر وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى القبور .

[ذكر عذاب القبر لمن يحدث بالكذب]

وفى صحيح البخارى عن سمرة بن جندب قال : كان النبى ﷺ ، إذا صلى صلاة أقبل علينا بوجهه فقال : « من رأى منكم الليلة رؤيا ؟ قال : فإن رأى أحد رؤيا قصها فيقول : ما شاء الله . فسألنا يوما فقال : هل رأى أحد منكم رؤيا ؟ قلنا : لا، قال : لكنى رأيت الليلة رجلين أتيانى فأخذا بيدى وأخرجانى إلى الأرض المقدسة، فإذا رجل جالس ورجل قائم بيده كلوب [١] من حديد يدخله فى شدقه حتى يبلغ قفاه ، ثم يفعل بشدقه الآخر مثل ذلك ، ويلتئم شدقه هذا فيعود فيصنع مثله قلت : ما هذا ؟ قالا : انطلق ، فانطلقنا حتى أتينا على رجل مضطجع على قفاه ورجل قائم على رأسه بصخرة أو فهر [٢] فيشدخ بها رأسه فإذا ضربه تدهده الحجر فانطلق إليه ليأخذه فلا يرجع إلى هذا حتى يلتئم رأسه ، وعاد رأسه كما هو فعاد إليه فضربه ، قلت : ما هذا ؟ قالا : انطلق فانطلقنا إلى نقب مثل التنور أعلاه ضيق وأسفله واسع يوقد تحته نار فإذا فيه رجال ونساء عراة فيأتيهم اللهب من تحتهم ، فإذا اقترب ارتفعوا حتى كادوا يخرجوا فإذا خمدت رجعوا ، فقلت : ما هذا ؟ قالا : انطلق فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم فيه رجل قائم وعلى وسط النهر رجل بين يديه

(١) كلوب : أى خشبة فى رأسها عقافة من حديد . (٢) الفهر : الحجر الناعم الصلب .

حجارة ، فأقبل الرجل الذى فى النهر ، فإذا أراد أن يخرج رمى الرجل بحجر فى فيه فرده حيث كان ، فجعل كلما جاء ليخرج رمى فى فيه بحجر فرجع كما كان فقلت : ما هذا ؟ قالا : انطلق فانطلقنا حتى أتينا إلى روضة خضراء فيها شجرة عظيمة وفى أصلها شيخ وصبيان ، وإذا رجل قريب من الشجرة بين يديه نار يوقدها فصعدا بى الشجرة وأدخلانى داراً لم أر قط أحسن منها ، فيها شيوخ وشبان ثم صعدا بى فأدخلانى داراً هى أحسن وأفضل ، قلت : طوفتمانى الليلة فأخبرانى عما رأيت قالا: نعم الذى رأيته يشق شدقه كذاب يحدث بالكذبة فتحمل عنه حتى تبلغ الآفاق فيصنع به إلى يوم القيامة . والذى رأيته يشدخ رأسه فرجل علمه الله القرآن فنام عنه بالليل ولم يعمل به بالنهار ، يفعل به إلى يوم القيامة . وأما الذى رأيت فى النقب فهم الزناة ، والذى رأيته فى النهر فآكل الربا ، وأما الشيخ الذى فى أصل الشجرة فإبراهيم والصبيان حوله فأولاد الناس ، والذى يوقد النار فمالك خازن النار ، والدار الأولى دار عامة المؤمنين ، وأما هذه فدار الشهداء ، وأنا جبريل وهذا ميكائيل فارفع رأسك فرفعت رأسى فإذا قصر مثل السحابة قالا : ذلك منزلك قلت : دعانى أدخل منزلى قالا : إنه بقى لك عمر لم تستكمله فلو استكملته أتيت منزلك [(١)] .

وهذا نص فى عذاب البرزخ ، فإن رؤيا الأنبياء وحى مطابق لما فى نفس الأمر .

[عذاب من صلى بغير طهور أو مر على مظلوم فلم ينصره]

وقد ذكر الطحاوى عن ابن مسعود عن النبى ﷺ ، قال : « أمر بعبد من عباد الله أن يضرب فى قبره مائة جلدة فلم يزل يسأل الله ويدعوه حتى صارت واحدة فامتلأ قبره عليه ناراً فلما ارتفع عنه أفاق فقال علام جلدتمونى ؟ قالوا : إنك صليت صلاة بغير طهور ، ومررت على مظلوم فلم تنصره » [(٢)] .

[ذكر قصة الإسراء]

وذكر البيهقى حديث الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فى هذه الآية : ﴿ سُبْحَٰنَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾ [(٣)]. أنه قال : « أتى بفرس

---

(١) أخرجه البخارى فى الجنائز ٣/ ٢٦٥ - ٢٩٦ (١٣٨٦) وأحمد فى السمند : ٥/ ١٤ .

(٢) أخرجه الطحاوى فى شرح الآثار ٤/ ٢٣١ وابن عبد البر فى التمهيد ٤/ ٢٣٩ .

(٣) الإسراء آية : ١ .

فحمل عليه – قال كل خطوة منتهى أقصى بصره – فسار وسار معه جبريل ، فأتى على قوم يزرعون فى يوم ويحصدون فى يوم ، كلما حصدوا عاد كما كان ، فقال : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء المجاهدون فى سبيل الله يضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ، وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين .

[عذاب متهاونى الصلاة]

ثم أتى على قوم ترضخ رءوسهم بالصخرة كلما رضخت عادت كما كانت لا يفتر عنهم شىء من ذلك ، قال : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الذين تتثاقل رءوسهم عن الصلاة .

[عذاب مانعى الزكاة]

قال : ثم أتى على قوم على أقبالهم رقاع وعلى أدبارهم رقاع يسرحون كما تسرح الأنعام على الضريع والزقوم ، ورضف جهنم وحجارتها قال : ما هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم وما ظلمهم الله وما الله بظلام للعبيد .

ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم من قدر نضيج ولحم آخر خبيث ، فجعلوا يأكلون من الخبيث ويدعون النضيج الطيب ، فقال : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : هذا الرجل يقوم – وعنده امرأة حلالاً طيباً – فيأتي المرأة الخبيثة فتبيت معه حتى تصبح .

ثم أتى على خشبة على الطريق لا يمر بها شىء إلا قصفته . يقول الله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ ﴾ (١) . ثم مر على رجل قد جمع حزمة عظيمة لا يستطيع حملها وهو يريد أن يزيد عليها ، قال : يا جبريل ما هذا ؟ قال : هذا رجل من أمتك عليه أمانة لا يستطيع أداءها وهو يزيد عليها .

ثم أتى على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من حديد كلما قرضت عادت كما كانت لا يفتر عنهم شىء ، قال : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء خطباء الفتن .

ثم أتى على حجر صغير يخرج منه ثور عظيم فجعل الثور يريد أن يدخل من حيث خرج ولا يستطيع ، قال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الرجل يتكلم بالكلمة فيندم عليها فيريد أن يردها فلا يستطيع ، وذكر الحديث .

---

(١) الأعراف آية : ٨٦ .

وذكر البيهقى أيضا فى حديث الإسراء من رواية أبى سعيد الخدرى ، عن النبى ﷺ قال : « فصعدت أنا وجبريل فاستفتح جبريل فإذا بآدم كهيئته يوم خلقه الله على صورته تعرض عليه أرواح ذريته المؤمنين فيقول : روح طيبة ونفس طيبة اجعلوها فى عليين . ثم تعرض عليه أرواح ذريته الفجار فيقول : روح خبيثة ونفس خبيثة اجعلوها فى سجين ، ثم مضيت هنيهة فإذا أنا بأخونة عليها لحم مشرح ليس بقربها أحد وإذا بأخونة أخرى عليها لحم قد أروح ونتن وعندها ناس يأكلون منها ، قلت : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء يتركون الحلال ويأتون الحرام . قال : ثم مضيت هنيهة فإذا أنا بأقوام بطونهم أمثال البيوت كلما نهض أحدهم خر يقول : اللهم لا تقم الساعة قال : وهم على سابلة آل فرعون ، قال : فتجيء السابلة فتطؤهم فيصيحون . قلت : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال هؤلاء : الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس . قال ثم مضيت هنيهة فإذا أنا بقوم مشافرهم كمشافر الإبل فتفتح أفواههم فيلقمون الجمر . ثم يخرج من أسافلهم فسمعتهم يصيحون قلت : من هؤلاء ؟ قال الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما . ثم مضيت هنيهة فإذا أنا بنساء معلقات بثديهن فسمعتهن يصحن قلت من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الزوانى . ثم مضيت هنيهة فإذا أنا بقوم يقطع من جنوبهم اللحم فيلقمون ، فيقال : كل كما كنت تأكل من لحم أخيك ، قلت من هؤلاء ؟ قال الهمازون من أمتك » وذكر الحديث بطوله(١) .

وفى سنن أبى داود من حديث أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « لما عرج بى مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم ، فقلت يا جبريل : من هؤلاء ؟ قال : الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون فى أعراضهم » (٢) .

وقال أبو داود الطيالسى فى مسنده : حدثنا شعبة عن الأعمش ، عن مجاهد ، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ ، أتى على قبرين فقال : « إنهما ليعذبان فى غير كبير أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس ، وأما الآخر فكان صاحب نميمة ، ثم دعا

---

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة ٢/ ٣٩٠ - ٣٩٦ . وأخرجه كذلك ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى هارون العبدى عن أبى سعيد الخدرى وأبو هارون العبدى : متروك الحديث .

(٢) أخرجه أبو داود فى الأدب ٤/ ٢٧١ (٤٨٧٨) . أحمد فى المسند : ٣/ ٢٢٤ .

بجريدة فشقها نصفين فوضع نصفها على هذا القبر ونصفها على هذا القبر ، وقال : عسى أن يخفف عنهما ما دامتا رطبتين » .

وقد اختلف الناس فى هذين هل كانا كافرين أو مؤمنين ، فقيل : كانا كافرين ، وقوله : وما يعذبان فى كبير يعنى بالإضافة إلى الكفر والشرك ، قالوا : ويدل عليه أن العذاب لم يرتفع عنهما وإنما خفف ، وأيضاً فإنه خفف مدة رطوبة الجريدة فقط ، وأيضاً فإنهما لو كان مؤمنين لشفع فيهما ودعا لهما النبى ﷺ ، فرفع عنهما بشفاعته، وأيضاً ففى بعض طرق الحديث أنهما كانا كافرين وهذا التعذيب زيادة على تعذيبهما بكفرهما وخطاياهما ، وهو دليل على أن الكافر يعذب بكفره وذنوبه جميعاً، وهذا اختيار أبى الحكم بن برجان . وقيل : كانا مسلمين لنفيه ، صلى الله عليه وآله وسلم ، التعذيب بسبب غير السببين المذكورين ، ولقوله : وما يعذبان فى كبير والكفر والشرك أكبر الكبائر على الإطلاق ، ولا يلزم أن يشفع النبى ﷺ ، لكل مسلم يعذب فى قبره على جريمة من الجرائم ، فقد أخبر عن صاحب الشملة الذى قتل فى الجهاد أن الشملة تشتعل عليه ناراً فى قبره ، وكان مسلماً مجاهداً ولا يعلم ثبوت هذه اللفظة وهى قوله : وكانا كافرين ، ولعلها لو صحت فهى من قول بعض الرواة والله أعلم . وهذا اختيار أبى عبد الله القرطبى .

❊ ❊ ❊

فصل

المسألة السابعة

[جواب الملاحدة والزنادقة المنكرين لعذاب القبر ونعيمه وما يتعلق بهما]

وأما المسألة السابعة : وهى قول السائل : ما جوابنا للملاحدة والزنادقة المنكرين لعذاب القبر وسعته وضيقه وكونه حفرة من حفر النار ، أو روضة من رياض الجنة وكون الميت لا يجلس ولا يقعد فيه ؟ .

قالوا : فإنا نكشف القبر فلا نجد فيه ملائكة عمياً صماً يضربون الموتى بمطارق من حديد ، ولا نجد هناك حيات ولا ثعابين ولا نيرانا تأجج ، ولو كشفنا حاله فى حالة من الأحوال لوجدناه لم يتغير ، ولو وضعنا على عينيه الزئبق وعلى صدره الخردل لوجدناه على حاله ، وكيف يفسح مد بصره أو يضيق عليه ، ونحن نجده بحاله ونجد

مساحته على حد ما حفرناها لم يزد ولم ينقص ، وكيف يسع ذلك اللحد الضيق له وللملائكة وللصورة التى تؤنسه أو توحشه .

قال إخوانهم من أهل البدع والضلال : وكل حديث يخالف متقضى العقول والحس يقطع بتخطئة قائله .

قالوا : ونحن نرى المصلوب على خشبة مدة طويلة لا يسأل ولا يجيب ولا يتحرك ولا يتوقد جسمه ناراً ، ومن افترسته السباع ونهشته الطيور وتفرقت أجزاؤه فى أجواف السباع وحواصل الطيور وبطون الحيتان ، ومدارج الرياح ، كيف تسأل أجزاؤه مع تفرقها ؟ وكيف يتصور مسألة الملكين لمن هذا وصفه ؟ وكيف يصير القبر على هذا روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النار ؟ وكيف يضيق عليه حتى تلتئم أضلاعه ؟ ونحن نذكر أموراً يعلم بها الجواب .

[ذكر الأمور التى يعلم بها الجواب للملاحدة والزنادقة]

أن يعلم أن الرسل ، صلوات الله وسلامه عليهم ، لم يخبروا بما تحيله العقول وتقطع باستحالته بل إخبارهم قسمان :

أحدهما : ما تشهد به العقول والفطر .

والثانى : ما لا تدركه العقول بمجردها ، كالغيوب التى أخبروا بها عن تفاصيل البرزخ واليوم الآخر ، وتفاصيل الثواب والعقاب ، ولا يكون خبرهم محالاً فى العقول أصلاً ، وكل خبر يظن أن العقل يحيله فلا يخلو من أحد أمرين : إما أن يكون الخبر كذباً عليهم ، أو يكون ذلك العقل فاسداً ، وهو شبهة خيالية يظن صاحبها أنها معقول صريح قال تعالى : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِى إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ (١) .

قال تعالى : ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ ﴾ (٣) . والنفوس لا تفرح بالمحال .

---

(١) سبأ آية : ٦ . (٢) الرعد آية : ١٩ . (٣) الرعد آية ٣٦ .

وقال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِى الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ * قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وبِرَحْمَتِهِ * فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾ [1] .

والمحال لا يشفى ولا يحصل به هدى ولا رحمة ولا يفرح به . فهذا أمر من لم يستقر فى قلبه خير ولم يثبت له على الإسلام قدم ، وكان أحسن أحواله الحيرة والشك .

فصل

﴿ ضابط فى فهم كلام الله ورسوله ﴾

أن يفهم عن الرسول ﷺ ، مراده من غير غلو ولا تقصير ، فلا يحمل كلامه ما لا يحتمله ولا يقصر به عن مراده ، وما قصده من الهدى والبيان . وقد حصل بإهمال ذلك والعدول عنه من الضلال والعدول عن الصواب ما لا يعلمه إلا الله ، بل سوء الفهم عن الله ورسوله أصل كل بدعة وضلالة نشأت فى الإسلام ، بل هو أصل كل خطأ فى الأصول والفروع ، ولا سيما إن أضيف إليه سوء القصد ، فيتفق سوء الفهم فى بعض الأشياء من المتبوع مع حسن قصده وسوء القصد من التابع ، فيما محنة الدين وأهله واللَّه المستعان .

وهل أوقع القدرية [2] والمرجئة [3] والخوارج [4] والمعتزلة [5] والجهمية [6] والرافضة[7] وسائر طوائف أهل البدع إلا سوء الفهم عن الله ورسوله ، حتى صار الدين بأيدى أكثر الناس هو موجب هذه الأفهام ، والذى فهمه الصحابة ومن تبعهم عن الله ورسوله فمهجور ، لا يلتفت إليه ، ولا يرفع هؤلاء به رأساً . ولكثرة أمثلة هذه القاعدة تركناها ، فإنا لو ذكرناها لزادت على عشرة ألوف ، حتى إنك لتمر على

(١) يونس آية : ٥٧ - ٥٨ .

(٢) القدرية : فرقة تنكر القَدَر وتقول إن كل إنسان خالق لفعله .

(٣) المرجئة : فرقة تقول بإرجاء الحكم على المخطئ من المسلمين إلى يوم القيامة .

(٤) الخوارج : هم الذين خرجوا على الإمام على بن أبى طالب أثر موافقته على التحكيم بعد موقعة صفين.

(٥) المعتزلة : فرقة من المتكلمين خالفت أهل السنة فقالت بخلق القرآن .

(٦) الجهمية : نسبة إلى جهم بن صفوان ، وهم فرقة تقول بالتشبيه والتجسيم .

(٧) الرافضة : فرقة من الشيعة تطعن فى الصحابة رضى الله عنهم .

الكتاب من أوله إلى آخره فلا تجد صاحبه فهم عن الله ورسوله مراده ، كما ينبغى فى موضع واحد . وهذا إنما يعرفه من عرف ما عند الناس وعرضه على ما جاء به الرسول ، وأما من عكس الأمر بعرض ما جاء به الرسول على ما اعتقده وانتحله ، وقلد فيه من أحسن به الظن فليس يجدى الكلام معه شيئاً ، فدعه وما اختاره لنفسه ووله ما تولى ، واحمد الذى عافاك مما ابتلاه به .

* * *

فصل

[توجيه لطيف فى إثبات عذاب القبر]

إن الله سبحانه جعل الدور ثلاثاً : دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار القرار ، وجعل لكل دار أحكاماً تختص بها ، وركب هذا الإنسان من بدن ونفس ، وجعل أحكام دار الدنيا على الأبدان والأرواح تبعاً لها ، ولهذا جعل أحكامه الشرعية مرتبة على ما يظهر من حركات اللسان والجوارح ، وإن أضمرت النفوس خلافه . وجعل أحكام البرزخ على الأرواح والأبدان تبعاً لها فكما تبعت الأرواح الأبدان فى أحكام الدنيا ، فتألمت بألمها والتذت براحتها ، وكانت هى التى باشرت أسباب النعيم والعذاب تبعت الأبدان الأرواح فى نعيمها وعذابها ، والأرواح حينئذ هى التى تباشر العذاب والنعيم، فالأبدان هنا ظاهرة والأرواح خفية ، والأبدان كالقبور لها والأرواح هناك ظاهرة ، والأبدان خفية فى قبورها تجرى أحكام البرزخ على الأرواح فتسرى إلى أبدانها نعيماً أو عذاباً ، كما تجرى أحكام الدنيا على الأبدان فتسرى إلى أرواحها نعيماً أو عذاباً ، فأحط بهذا الموضع علماً واعرفه كما ينبغى ، يزيل عنك كل إشكال يورد عليك من داخل وخارج ، وقد أرانا الله سبحانه بلطفه ورحمته وهدايته من ذلك أنموذجاً فى الدنيا من حال نائم ، فإن ما ينعم به أو يعذب فى نومه يجرى على روحه أصلا ، والبدن تبع له ، وقد يقوى حتى يؤثر فى البدن تأثيراً مشاهداً ، فيرى النائم فى نومه أنه ضرب فيصبح وأثر الضرب فى جسمه ، ويرى أنه قد أكل أو شرب فيستيقظ وهو يجد أثر الطعام والشراب فى فيه ، ويذهب عنه الجوع والظمأ وأعجب من ذلك أنك ترى النائم يقوم فى نومه ويضرب ويبطش ، ويدافع كأنه يقظان ، وهو نائم لا شعور له بشىء من ذلك أن الحكم لما جرى على الروح استعانت بالبدن من خارجه ، ولو

دخلت فيه لاستيقظ وأحس ، فإذا كانت الروح تتألم وتتنعم ويصل ذلك إلى بدنها بطريق الاستتباع ، فهكذا فى البرزخ بل أعظم ، فإن تجرد الروح هناك أكمل وأقوى، وهى متعلقة ببدنها لم تنقطع عنه كل الانقطاع ، فإذا كان يوم حشر الأجساد وقيام الناس من قبورهم ، صار الحكم والنعيم والعذاب على الأرواح والأجساد ظاهراً بادياً أصلا ، ومتى أعطيت هذا الموضع حقه تبين لك أن ما أخبر به الرسول من عذاب القبر ونعيمه وضيقه وسعته وضمه ، وكونه حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة [1] مطابق للعقل وأنه حق لامرية فيه ، وأن من أشكل عليه ذلك فمن سوء فهمه وقلة علمه أُتِىَ كما قيل :

وكم من عائب قولا صحيحاً　　　وآفته من الفهم السقيم

وأعجب من ذلك أنك تجد النائمين فى فراش واحد وهذا روحه فى النعيم ويستيقظ وأثر النعيم على بدنه . وهذا روحه فى العذاب ويستيقظ وأثر العذاب على بدنه ، وليس عند أحدهما خبر بما عند الآخر ، فأمر البرزخ أعجب من ذلك .

* * *

فصل

[قصة سلام الملائكة على المحتضر وجوابه]

أن الله سبحانه جعل أمر الآخرة وما كان متصلا بها غيباً وحجبها عن إدراك المكلفين فى هذه الدار ، وذلك من كمال حكمته ، وليتميز المؤمنون بالغيب من غيرهم .

فأول ذلك أن الملائكة تنزل على المحتضر وتجلس قريباً منه ويشاهدهم عياناً ، ويتحدثون عنده ومعهم الأكفان والحنوط ، إما من الجنة وإما من النار ، ويؤمنون على دعاء الحاضرين بالخير والشر وقد يسلمون على المحتضر ويرد عليهم تارة بلفظه وتارة بإشارته وتارة بقلبه ، حيث لا يتمكن من نطق ولا إشارة .

وقد سمع بعض المحتضرين يقول : أهلاً وسهلا ومرحباً بهذه الوجوه .

وأخبرنى شيخنا عن بعض المحتضرين - فلا أدرى أشاهده أو أخبر عنه - أنه سُمِعَ وهو يقول : عليك السلام هاهنا فاجلس ، وعليك السلام هاهنا فاجلس .

---

(١) أخرجه الترمذى فى كتاب صفة القيامة ٤/٥٥١ (٢٤٦٠) عن أبى سعيد الخدرى وقال : حديث غريب .

[قصة خير النساج رحمه الله]

وقصة خير النساج رحمه الله مشهورة حيث قال عند الموت : اصبر عافاك الله ، فإن ما أمرت به لا يفوت وما أمرت به يفوت ، ثم استدعى بماء فتوضأ وصلى ، ثم قال : امض لما أمرت به ، ومات .

[قصة وفاة عمر بن عبد العزيز]

وذكر ابن أبى الدنيا أن عمر بن عبد العزيز لما كان فى يومه الذى مات فيه قال : أجلسونى فأجلسوه ، فقال : أنا الذى أمرتنى فقصرت ونهيتنى فعصيت ثلاث مرات، ولكن لا إله إلا الله ، ثم رفع رأسه فأحد النظر فقالوا : إنك لتنظر نظراً شديداً يا أمير المؤمنين ، فقال : إنى لأرى حضرة ما هم بإنس ولا جن ثم قبض .

وقال مسلمة بن عبد الملك : لما احتضر عمر بن عبد العزيز كنا عنده فى قبة ، فأومى إلينا أن اخرجوا ، فخرجنا فقعدنا حول القبة وبقى عنده وصيف فسمعناه يقرأ هذه الآية : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوا فِى الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (1) . ما أنتم بإنس ولا جان ، ثم خرج الوصيف فأومى إلينا أن ادخلوا فدخلنا فإذا هو قد قبض .

وقال فضالة بن دينار : حضرت محمد بن واسع وقد سجى للموت ، فجعل يقول : مرحباً بملائكة ربى ولا حول ولا قوة إلا باللَّه ، وشممت رائحة طيب لم أشم قط أطيب منها ، ثم شخص ببصره ، فمات .

والآثار فى ذلك أكبر من أن تحصر وأبلغ ، ويكفى من ذلك قول الله عز وجل: ﴿ فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنتُم حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لا تُبْصِرُونَ ﴾ (2) . أى أقرب إليه بملائكتنا ورسلنا ، ولكنكم لا ترونهم ، فهذا أول الأمر وهو غير مرئى لنا ولا مشاهد ، وهو فى هذه الدار . ثم يمد الملك يده إلى الروح فيقبضها ويخاطبها ، والحاضرون لا يرونه ولا يسمعونه . ثم تخرج فيخرج لها نور مثل شعاع الشمس ورائحة المسك والحاضرون لا يرون ذلك ولا يشمونه . ثم تصعد بين سماطين (3) من الملائكة والحاضرون لا يرونهم . ثم تأتى الروح فتشاهد غسل البدن وتكفينه وحمله وتقول : قدمونى قدمونى أو إلى أين تذهبون بى ؟ ولا

---

(1) القصص آية : ٨٣ .   (2) الواقعة آية : ٨٣ - ٨٥ .   (3) السماط : الصف .

يسمع الناس ذلك ، فإذا وضع فى لحده وسوى عليه التراب لم يحجب التراب الملائكة عن الوصول إليه . بل لو نقر له حجر فأودع فيه وختم عليه بالرصاص ، لم يمنع وصول الملائكة إليه ، فإن هذه الأجسام الكثيفة لا تمنع خرق الأرواح لها ، بل الجن لا يمنعها ذلك ؛ بل قد جعل الله سبحانه الحجارة والتراب للملائكة بمنزلة الهواء للطير ، واتساع القبر وانفساحه للروح بالذات والبدن تبعاً ، فيكون البدن فى لحد أضيق من ذراع وقد فسح له مد بصره تبعا لروحه ، وأما عصرة القبر حتى تختلف بعض أجزاء الموتى فلا يرده حس ولا عقل ولا فطرة ولو قدر أن أحداً نبش عن ميت فوجد أضلاعه كما هى لم تختلف لم يمنع أن تكون قد عادت إلى حالها بعد العصرة فليس مع الزنادقة والملاحدة إلا مجرد تكذيب الرسول .

ولقد أخبر بعض الصادقين أنه حفر ثلاثة أقبر فلما فرغ منها اضطجع ليتسريح فرأى فيما يرى النائم ملكين نزلا فوقفا على أحد الأقبر ، فقال أحدهما لصاحبه : أكتب فرسخا فى فرسخ . ثم وقفا على الثانى فقال : أكتب ميلا فى ميل . ثم وقفا على الثالث فقال : أكتب فترا فى فتر . ثم انتبه فجيء برجل غريب لا يؤبه له فدفن فى القبر الأول . ثم جيء برجل آخر فدفن فى القبر الثانى . ثم جيء بامرأة مترفة من وجوه البلد حولها ناس كثير فدفنت فى القبر الضيق ، الذى سمعه يقول : فتراً فى فتر . والفتر : ما بين الإبهام والسبابة .

❊ ❊ ❊

فصل

﴿ نعيم القبر وعذابه ليسا من جنس ما فى الدنيا ﴾

إن النار فى القبر والخضرة ليست من نار الدنيا ولا من زروع الدنيا ، نشاهده من شاهد نار الدنيا وخضرها ، وإنما هى من نار الآخرة وخضرها وهى أشد من نار الدنيا، فلا يحس به أهل الدنيا فإن الله سبحانه يحمى عليه ذلك التراب والحجارة التى عليه وتحته حتى يكون أعظم حراً من جمر الدنيا ، ولو مسها أهل الدنيا لم يحسوا بذلك ؛ بل أعجب من هذا أن الرجلين يدفنان أحدهما إلى جنب الآخر وهذا فى حفرة من حفر النار لا يصل حرها إلى جاره ، وذلك فى روضة من رياض الجنة لا يصل روحها ونعيمها إلى جاره ، وقدرة الرب تعالى أوسع وأعجب من ذلك ، وقد أرانا الله من آيات قدرته فى هذه الدار ما هو أعجب من ذلك بكثير ، ولكن النفوس

مولعة بالتكذيب بما لم تحط به علماً إلا من وفقه الله وعصمه ، فيفرش للكافر لوحان من نار فيشتعل عليه قبره بهما كما يشتعل التنور ، فإذا شاء الله سبحانه أن يطلع على ذلك بعض عبيده أطلعه وغيبه عن غيره ، إذ لو أطلع العباد كلهم لزالت كلمة التكليف والإيمان بالغيب ، ولما تدافن الناس كما فى الصحيحين عنه ﷺ : « لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر ما أسمع » (١) .

[ذكر الحكمة فى ستر العذاب عن الناس دون البهائم]

ولما كانت هذه الحكمة منفية فى حق البهائم ، سمعت ذلك وأدركته كما حادت برسول الله ﷺ ، بغلته وكادت تلقيه لما مر بمن يعذب فى قبره (٢) .

وحدثنى صاحبنا أبو عبد الله محمد بن الرزيز الحرانى أنه خرج من داره بعد العصر بآمد إلى بستان قال : فلما كان قبل غروب الشمس توسطت القبور ، فإذا بقبر منها وهو جمرة نار مثل كوز الزجاج ، والميت فى وسطه ، فجعلت أمسح عينى وأقول : أنائم أنا أم يقظان ؟ ثم التفت إلى سور المدينة وقلت : واللَّه ما أنا بنائم ثم ذهبت إلى أهلى وأنا مدهوش ، فأتونى بطعام فلم أستطع أن آكل ، ثم دخلت البلد فسألت عن صاحب القبر فإذا به مكاس قد توفى ذلك اليوم ، فرؤية هذه النار فى القبر كرؤية الملائكة والجن تقع أحياناً لمن شاء الله أن يريه ذلك .

[عذاب القبر يظهر أحياناً إذا شاء الله]

وقد ذكر ابن أبى الدنيا فى (كتاب القبور) عن الشعبى أنه ذكر رجلا قال للنبى ﷺ : مررت ببدر فرأيت رجلا يخرج من الأرض فيضربه رجل بمقمعة حتى يغيب فى الأرض ، ثم يخرج فيفعل به ذلك ، فقال رسول الله ﷺ : « ذلك أبو جهل بن هشام يعذب إلى يوم القيامة » .

وذكر من حديث حماد بن سلمة عن عمرو بن دينار عن سالم بن عبد الله عن أبيه قال : بينما أسير بين مكة والمدينة على راحلة وأنا محقب إداوة ، إذ مررت بمقبرة فإذا رجل خارج من قبره يلتهب ناراً وفى عنقه سلسلة يجرها فقال : يا عبد الله انضح ، يا عبد الله انضح ، فواللَّه ما أدرى أعرفنى باسمى أم كما تدعو الناس ، قال : فخرج آخر فقال : يا عبد الله لا تنضح يا عبد الله لا تنضح ثم اجتذب السلسلة فأعاده فى قبره .

---

(١) أخرجه مسلم فى الجنة وصفة نعيمها ٤/ ٢٢٠٠ (٦٨) . وأحمد : ٥/ ١٩٠ ، والنسائى فى الجنائز ٤/ ١٠٢ .

(٢) سبق تخريجه .

قال ابن أبى الدنيا : وحدثنى أبى ، ثنا موسى بن داود ، ثنا حماد بن سلمة ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه قال : بينما راكب يسير بين مكة والمدينة ، إذ مر بمقبرة فإذا برجل قد خرج من قبر يلتهب ناراً مصفداً فى الحديد ، فقال : يا عبد الله انضح، يا عبد الله انضح ، قال : وخرج آخر يتلوه فقال : يا عبد الله لا تنضح ، يا عبد الله لا تنضح ، قال : وغشى على الراكب وعدلت به راحلته إلى العرج ، قال : وأصبح قد ابيض شعره فأخبر عثمان بذلك فنهى أن يسافر الرجل وحده [1] .

وذكر من حديث سفيان ، ثنا داود بن شابور ، عن أبى قزعة قال : مررنا فى بعض المياه التى بيننا وبين البصرة فسمعنا نهيق حمار فقلنا لهم : ما هذا النهيق ؟ قالوا : هذا رجل كان عندنا كانت أمه تكلمه بالشىء فيقول لها نهقى نهيقك ، فلما مات سمع هذا النهيق من قبره كل ليلة .

[عذاب تأخير الصلاة والصلاة بغير طهور]

وذكر أيضاً عن عمرو بن دينار قال : كان رجل من أهل المدينة وكانت له أخت فى ناحية المدينة ، فاشتكت وكان يأتيها يعودها ثم ماتت فدفنها ، فلما رجع ذكر أنه نسى شيئاً فى القبر كان معه ، فاستعان برجل من أصحابه ، قال : فنبشنا القبر ووجدت ذلك المتاع ، فقال للرجل : تنح حتى أنظر على أى حال أختى ، فرفع بعض ما على اللحد فإذا القبر مشتعل ناراً فرده وسوى القبر ، فرجع إلى أمه فقال : ما كان حال أختى ؟ فقالت : ما تسأل عنها وقد هلكت ؟ فقال : لتخبرينى ، قالت : كانت تؤخر الصلاة ولا تصلى فيما أظن بوضوء ، وتأتى أبواب الجيران فتلقم أذنها أبوابهم وتخرج حديثهم .

[عذاب المشى تبختراً]

وذكر عن حصين الأسدى قال : سمعت مرثد بن حوشب قال : كنت جالساً عند يوسف بن عمر وإلى جنبه رجل كأن شقة وجهه صفحة من حديد ، فقال له يوسف: حدث مرثدا بما رأيت ؟ فقال : كنت شاباً قد أتيت هذه الفواحش ، فلما وقع الطاعون قلت : أخرج إلى ثغر من هذه الثغور ، ثم رأيت أن أحفر القبور، فإذا بى

---

(١) فى إسناده موسى بن داود الضبى : صدوق فقيه له أوهام مات سنة سبع عشرة ومائتين (التقريب ٥٥٠) .

ليلية بين المغرب والعشاء قد حفرت قبراً وأنا متكئ على تراب قبر آخر ، إذ جئ بجنازة رجل حتى دفن فى ذلك وسووا عليه ، فأقبل طائران أبيضان من المغرب مثل البعيرين حتى سقط أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه ، ثم أثاراه ثم تدلى أحدهما فى القبر والآخر على شفيره ، فجئت حتى جلست على شفير القبر ، وكنت رجلاً لا يملأ جوفى شئ ، قال : فسمعته يقول : ألست الزائر أصهارك فى ثوبين ممصرين[1] تسحبهما كبراً تمشى الخيلاء ، فقال : أنا أضعف من ذلك . قال : فضربه ضربة امتلأ القبر حتى فاض ماء ودهناً ، ثم عاد فأعاد إليه القول حتى ضربه ثلاث ضربات ، كل ذلك يقول ذلك ، ويذكر أن القبر يفيض ماء ودهناً . قال : ثم رفع رأسه فنظر إلىّ فقال : انظر أين هو جالس بلسه [2] الله ، قال : ثم ضرب جانب وجهى فسقطت فمكثت ليلتى حتى أصبحت ، قال : ثم أخذت أنظر إلى القبر فإذا هو على حاله .

فهذا الماء والدهن فى رأى العين لهذا الرائى وهو نار تأجج للميت كما أخبر النبى ﷺ عن الدجال « أنه يأتى معه بماء ونار ، فالنار ماء بارد والماء نار تأجج » [3] .

وذكر ابن أبى الدنيا أن رجلاً سأل أبا إسحاق الفزارى عن النباش هل له توبة ؟ فقال : نعم ، إن صحت نيته ، وعلم الله منه الصدق ، فقال له الرجل : كنت أنبش القبور وكنت أجد قوماً وجوههم لغير القبلة فلم يكن عند الفزارى فى ذلك شئ، فكتب إلى الأوزاعى يخبره بذلك ، فكتب إليه الأوزاعى : تقبل توبته إذا صحت نيته ، وعلم الله الصدق من قلبه ، وأما قوله إنه كان يجد قوماً وجوههم لغير القبلة فأولئك قوم ماتوا على غير السُنة .

وقال ابن أبى الدنيا : حدثنى عبد المؤمن بن عبد الله بن عيسى القيسى أنه قيل لنباش قد تاب : ما أعجب ما رأيت ؟ قال : نبشت رجلاً ، قال : فإذا هو مسمر بالمسامير فى سائر جسده ومسمار كبير فى رأسه ، وآخر فى رجليه ، قال : وقيل لنباش آخر : ما أعجب ما رأيت ؟ قال رأيت جمجمة إنسان مصبوب فيها رصاص . قال : وقيل لنباش آخر ما كان سبب توبتك ؟ قال : عامة من كنت أنبش كنت أراه محول الوجه عن القبلة .

---

(١) ثوب ممصر : أى مصبوغ بحمرة خفيفة . (٢) لعله أبلسه . أى سكت لحيرة وانقطاع حجة .

(٣) أخرجه البخارى فى الفتن ١٣/ ٩٧ (٧١٣٠) عن حذيفة .

قلت : وحدثنى صاحبنا أبو عبد الله محمد بن مساب السلامى - وكان من خيار عباد الله ، وكان يتحرى الصدق - قال : جاء رجل إلى سوق الحدادين ببغداد ، فباع مسامير صغاراً المسمار برأسين ، فأخذها الحداد وجعل يحمى عليها فلا تلين معه حتى عجز عن ضربها فطلب البائع فوجده فقال : من أين لك هذه المسامير ؟ فقال : لقيتها فلم يزل به حتى أخبره أنه وجد قبراً مفتوحاً وفيه عظام ميت منظومة بهذه المسامير ، قال : فعالجتها على أن أخرجها فلم أقدر ، فأخذت حجراً فكسرت عظامه وجمعتها ، قال : وأنا رأيت تلك المسامير ، قلت له : فكيف صفتها ؟ قال: المسمار صغير برأسين .

وقال ابن أبى الدنيا : وحدثنى أبى عن أبى الحريس عن أمه قالت : لما حفر أبو جعفر خندق الكوفة حول الناس موتاهم ، فرأينا شاباً ممن حول عاضاً على يده .

وذكر عن سماك بن حرب قال : مر أبو الدرداء بين القبور ، فقال : ما أسكن ظواهرك ، وفى داخلك الدواهى [1] .

وقال ثابت البنانى : بينما أمشى فى المقابر : وإذا صوت خلفى وهو يقول : ياثابت لا يغرنك سكوتها فكم من مغموم فيها ، فالتفت فلم أر أحداً .

ومر الحسن على مقبرة فقال : يا لهم من عسكر ما أسكنهم ، وكم فيهم من مكروب .

وذكر ابن أبى الدنيا أن عمر بن عبد العزيز قال لمسلمة بن عبد الملك : يا مسلمة من دفن أباك ؟ قال : مولاى فلان ، قال : فمن دفن الوليد ؟ قال : مولاى فلان ، قال : فأنا أحدثك ما حدثنى به ، أنه لما دفن أباك والوليد فوضعهما فى قبورهما ، وذهب ليحل العقد عنهما وجد وجوههما قد حولت فى أقفيتهما ، فانظر يا مسلمة إذا أنا مت فالتمس وجهى ، فانظر هل نزل بى ما نزل بالقوم ، أو هل عوفيت من ذلك، قال مسلمة : فلما مات عمر وضعته فى قبره فلمست وجهه فإذا هو مكانه .

وذكر ابن أبى الدنيا عن بعض السلف قال : ماتت ابنة لى فأنزلتها القبر فذهبت أصلح اللبنة ، فإذا هى قد حولت عن القبلة ، فاغتممت لذلك غمـا شديداً ، فرأيتها

---

(١) فيه سماك بن حرب وهو صدوق وروايته عن عكرة خاصة مضطربة وقد تغير بأخره فكان ربما تلقن (التقريب ٢٥٥) .

فى النوم فقالت : يا أبت اغتممت لما رأيت فإن عامة من حولى محولين [1] عن القبلة ، قال : كأنها تريد الذين ماتوا مصرين على الكبائر .

وقال عمرو بن ميمون : سمعت عمر بن عبد العزيز يقول : كنت فيمن دلى الوليد اابن عبد الملك فى قبره ، فنظرت إلى ركبتيه قد جمعتا فى عنقه فقال ابنه : عاش أبى ورب الكعبة ، فقلت : عوجل أبوك ورب الكعبة ، فاتعظ بها عمر بعده .

وقال عمر بن عبد العزيز ليزيد بن المهلب لما استعمله على العراق : يا يزيد اتق الله ، فإنى حين وضعت الوليد فى لحده فإذا هو يركض فى أكفانه .

وقال يزيد بن هارون : أخبرنا هشام بن حسان ، عن واصل مولى ابن عيينة ، عن عمرو بن زهدم ، عن عبد الحميد بن محمود قال : كنت جالساً عند ابن عباس ، فأتاه قوم فقالوا : إنا خرجنا حجاجاً ومعنا صاحب لنا إذ أتينا فإذا الصفاح مات ، فهيأناه ثم انطلقنا فحفرنا له ولحدنا له ، فلما فرغنا من لحده ، إذا نحن بأسود قد ملأ اللحد، فحفرنا له آخر فإذا به قد ملأ لحده فحفرنا له آخر فإذا به ، فقال ابن عباس : ذاك الغل الذى يغل به ، انطلقوا فادفنوه فى بعضها فوالذى نفسى بيده لو حفرتم الأرض كلها لوجدتموه فيه ، فانطلقنا فوضعناه فى بعضها فلما رجعنا أتينا أهله بمتاع له معنا فقلنا لامرأته : ما كان يعمل زوجك ؟ قالت : كان يبيع الطعام فيأخذ منه كل يوم قوت أهله ثم يقرض الفضل مثله فيلقيه فيه [2] .

[عذاب سوء الأدب فى شأن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين]

وقال ابن أبى الدنيا : حدثنى محمد بن الحسين قال : حدثنى أبو إسحاق صاحب الشاط قال : ذهبت إلى ميت لأغسله ، فلما كشفت الثوب عن وجهه إذا بحية قد تطوقت على حلقه ، فذكر من غلظها قال : فخرجت فلم أغسله فذكروا أنه كان يسب الصحابة رضى الله عنهم .

وذكر ابن أبى الدنيا ، عن سعيد بن خالد بن يزيد الأنصارى ، عن رجل من أهل البصرة كان يحفر القبور ، قال : حفرت قبراً ذات يوم ووضعت رأسى قريباً منه فأتتنى امرأتان فى منامى ، فقالت إحداهما : يا عبد الله نشدتك باللَّه إلا صرفت عنا

(١) صوابه : محولون ، لأنه خبر إن .

(٢) فى إسناده عمرو بن زهدم ، لم أقف عليه وبقية رواته ثقات عدا واصل مولى بن عيينة : صدوق عابد.

هذه المرأة ولم تجاورنا بها ، فاستيقظت فزعاً فإذا بجنازة امرأة قد جئ بها فقلت: القبر وراءكم فصرفتهم عن ذلك القبر ، فلما كان بالليل إذا أنا بالمرأتين فى منامى تقول إحداهما : جزاك الله عنا خيراً ، فلقد صرفت عنا شراً طويلاً ، قلت : ما لصاحبتك لا تكلمنى كما تكلميننى أنت ؟ قالت : إن هذه ماتت عن غير وصية وحق لمن مات عن غير وصية أن لا يتكلم إلى يوم القيامة .

وهذه الأخبار وأضعافها وأضعاف أضعافها مما لا يتسع لها الكتاب مما أراه الله سبحانه لبعض عباده من عذاب القبر ونعيمه عياناً . وأما رؤية المنام فلو ذكرناها لجاءت عدة أسفار ، ومن أراد الوقوف عليها فعليه (بكتاب المنامات) لابن أبى الدنيا (وكتاب البستان) للقيروانى وغيرهما من الكتب المتضمنة لذلك ، وليس عند الملاحدة والزنادقة إلا التكذيب بما لم يحيطوا بعلمه .

فصل

[يحجب الله عن خلقه كثيراً مما يحدث فى الأرض]

أن الله سبحانه وتعالى يحدث فى هذه الدار ما هو أعجب من ذلك ، فهذا جبريل كان ينزل على النبى ﷺ ويتمثل له رجلاً ، فيكلمه بكلام يسمعه ، ومن إلى جانب النبى ﷺ لا يراه ولا يسمعه ، وكذلك غيره من الأنبياء ، وأحياناً يأتيه الوحى فى مثل صلصلة الجرس ولا يسمعه غيره من الحاضرين ، وهؤلاء الجن يتحدثون ويتكلمون بالأصوات المرتفعة بيننا ونحن لا نسمعهم . وقد كانت الملائكة تضرب الكفار بالسياط وتضرب رقابهم وتصيح بهم ، والمسلمون معهم لا يرونهم ولا يسمعون كلامهم ، واللَّه سبحانه قد حجب بنى آدم عن كثير مما يحدث فى الأرض وهو بينهم ، وقد كان جبريل يقرئ النبى ﷺ ويدارسه القرآن [١] والحاضرون لا يسمعونه ، وكيف يستنكر من يعرف الله سبحانه ويقر بقدرته أن يحدث حوادث يصرف عنها أبصار بعض خلقه حكمة منه ورحمة بهم ، لأنهم لا يطيقون رؤيتها وسماعها ، والعبد أضعف بصراً وسمعاً من أن يثبت لمشاهدة عذاب القبر ، وكثيراً ممن أشهده الله ذلك صعق وغشى عليه ولم ينتفع بالعيش زمناً ، وبعضهم كشف قناع قلبه فمات ، فكيف ينكر فى الحكمة الإلهية إسبال غطاء يحول بين المكلفين وبين

---

(١) أخرجه البخارى فى بدء الوحى ١/ ٤٠ (٦) عن ابن عباس .

مشاهدة ذلك حتى إذا كشف الغطاء رأوه وشاهدوه عياناً ؟! ثم إن العبد قادر على أن يزيل الزئبق والخردل من عين الميت وصدره ثم يرده بسرعة ، فكيف يعجز عنه الملك وكيف لا يقدر عليه مَن هو على كل شئ قدير ، وكيف تعجز قدرته عن إبقائه فى عينيه وعلى صدره لا يسقط عنه ؟! وهل قياس أمر البرزخ على ما يشاهده الناس فى الدنيا إلا محض الجهل والضلال وتكذيب أصدق الصادقين ، وتعجيز رب العالمين ! وذلك غاية الجهل والظلم ، وإذا كان أحدنا يمكنه توسعة القبر عشرة أذرع ومائة ذراع وأكثر طولاً وعرضاً وعمقاً ، ويستر توسيعه عن الناس ويطلع عليه من يشاء فكيف يعجز رب العالمين أن يوسعه ما يشاء على مَن يشاء ويستر ذلك عن أعين بنى آدم ، فيراه بنو آدم ضيقاً وهو أوسع شئ وأطيبه ريحاً وأعظمه إضاءة ونوراً وهم لا يرون ذلك .

[عدم كشف عذاب القبر رحمة للعباد]

وسر المسألة أن هذه السعة والضيق والإضاءة والخضرة والنار ليس من جنس المعهود فى هذا العالم ، واللّه سبحانه إنما أشهد بنى آدم فى هذه الدار ما كان فيها ومنها ، فأما ما كان من أمر الآخر فقد أسبل عليه الغطاء ليكون الإقرار به والإيمان سبباً لسعادتهم ، فإذا كشف عنهم الغطاء صار عياناً مشاهداً فلو كان الميت بين الناس موضوعاً لم يمتنع أن يأتيه الملكان ويسألانه من غير أن يشعر الحاضرون بذلك ويجيبهما من غير أن يسمعوا كلامه ، ويضربانه من غير أن يشاهد الحاضرون ضربه ، وهذا الواحد منا ينام إلى جنب صاحبه فيعذب فى النوم ويضرب ويألم وليس عند المستيقظ خبر من ذلك ألبتة ، وقد سرى أثر الضرب والألم إلى جسده ، ومن أعظم الجهل استبعاد شق الملك الأرض والحجر ، وقد جعلهما الله سبحانه له كالهواء للطير ولا يلزم من حجبها للأجسام الكثيفة أن تتولج فيها حجبها للأرواح اللطيفة وهل هذا إلا من أفسد القياس ، وبهذا وأمثاله كذبت الرسل ، صلوات الله وسلامه عليهم .

فصل

[الروح ترد إلى الميت وإن اختلفت أسباب الموت]

أنه غير ممتنع أن ترد الروح إلى المصلوب والغريق والمحرق ، ونحن لا نشعر بها، لأن ذلك الرد نوع آخر غير المعهود ، فهذا المغمى عليه والمسكوت والمبهوت أحياء

وأرواحهم معهم ، ولا نشعر بحياتهم ، ومن تفرقت أجزاؤه لا يمتنع على من هو على كل شئ قدير أن يجعل للروح اتصالاً بتلك الأجزاء على تباعد ما بينها وقربه ، ويكون فى تلك الأجزاء شعور بنوع من الألم واللذة .

[تفسير آية ﴿ وإن من شئ إلا يسبح بحمده ﴾]

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد جعل فى الجمادات شعوراً وإدراكاً تسبح ربها به ، وتسقط الحجارة من خشيته ، وتسجد له الجبال والشجر ، وتسبحه الحصى والمياه والنبات قال : ﴿ وَإِنَّ مِن شَىْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ (١) .

ولو كان التسبيح هو مجرد دلالتها على صانعها لم يقل : ﴿ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ (١) فإن كل عاقل يفقه دلالتها على صانعها ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ ﴾ (٢) . والدلالة على الصانع لا تختص بهذين الوقتين ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ يَجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُ ﴾ (٣) . والدلالة لا تختص معيته وحده ، وكذب على الله من قال : التأويب رجع الصدى فإن هذا يكون لكل مصوت، وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِى السَّمَوَتِ وَمَن فِى الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ﴾ (٤) .

والدلالة على الصانع لا تختص بكثير من الناس ، وقد قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِى السَّمَوَتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَفَّتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ (٥) .

فهذه صلاة وتسبيح حقيقة يعلمها الله وإن جحدها الجاهلون المكذبون ، وقد أخبر تعالى عن الحجارة أن بعضها يزول عن مكانه ويسقط من خشيته ، وقد أخبر عن الأرض والسماء أنهما يأذنان له وقولهما ذلك أى يستمعان كلامه ، وأنه خاطبهما فسمعا خطابه ، وأحسنا جوابه ، فقال لهما : ﴿ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ (٦) .

---

(١) الإسراء آية : ٤٤ . (٢) ص آية : ١٨ . (٣) سبأ آية : ١٠ .
(٤) الحج آية : ١٨ (٥) النور آية : ٤١ . (٦) فصلت آية ١١ .

[إذا وقع الشعور للأشجار والأحجار فالأجسام ذات الأرواح أولى بذلك]

وقد كان الصحابة يسمعون تسبيح الطعام وهو يؤكل [(١)] ، وسمعوا حنين الجذع اليابس [(٢)] فى المسجد فإذا كانت هذه الأجسام فيها الإحساس والشعور فالأجسام التى كانت فيها الروح والحياة أولى بذلك . وقد أشهد الله سبحانه عباده فى هذه الدار إعادة حياة كاملة إلى بدن قد فارقته الروح ، فتكلم ومشى وأكل وشرب وتزوج وولد له كـ ﴿ الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ﴾ [(٣)] . ﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ [(٤)] .

وكقتيل بنى إسرائيل ، أو كالذين قالوا لموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأماتهم الله ثم بعثهم من بعد موتهم ، وكأصحاب الكهف .

وكقصة إبراهيم فى الطيور الأربعة . فإذا أعاد الله الحياة التامة إلى هذه الأجساد بعد ما بردت بالموت فكيف يمتنع على قدرته الباهرة أن يعيد إليها بعد موتها حياة ما غير مستقرة تقضى بها ما أمرها فيها ، ويستنطقها بها ويعذبها أو ينعمها بأعمالها ؟! وهل إنكار ذلك إلا مجرد تكذيب وعناد وجحود ؟ وباللَّه التوفيق .

فصل

﴿ الأمر التاسع ﴾

[عذاب القبر هو عذاب البرزخ]

أنه ينبغى أن يعلم أن عذاب القبر ونعيمه اسم لعذاب البرزخ ونعيمه ، وهو ما بين الدنيا والآخرة ، وقال تعالى : ﴿ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [(٥)] . وهذا البرزخ يشرف أهله فيه على الدنيا والآخرة ، وسمى عذاب القبر ونعيمه ، وأنه روضة أو حفرة نار ، باعتبار غالب الخلق . فالمصلوب والحرق والغرق وأكيل السباع

---

(١) أخرجه البخارى فى المناقب ٦/ ٦٧٩ (٣٥٧٩) . والترمذى فى المناقب ٥/ ٥٩٧ (٣٦٣٣) . والدارمى فى المقدمة ١/ ٢٨ (٢٩) .

(٢) البخارى فى المناقب ٦/ ٦٩٦ (٣٥٨٣) .

(٣) البقرة آية : ٢٤٣ . (٤) البقرة آية : ٢٥٩ . (٥) المؤمنون آية : ١٠٠

والطيور له من عذاب البرزخ ونعيمه قسطه الذى تقتضيه أعماله ، وإن تنوعت أسباب النعيم والعذاب وكيفياتهما ، فقد ظن بعض الأوائل أنه إذا حرق جسده بالنار وصار رماداً ، وذرى بعضه فى البحر وبعضه فى البر فى يوم شديد الريح أنه ينجو من ذلك فأوصى بنيه أن يفعلوا به ذلك . فأمر الله البحر فجمع ما فيه ، وأمر البر فجمع ما فيه ثم قال : قم فإذا هو قائم بين يدى الله ، فسأله : ما حملك على ما فعلت فقال : خشيتك يارب وأنت أعلم ، فما تلافاه أن رحمه ، فلم يفت عذاب البرزخ ونعيمه لهذه الأجزاء التى صارت فى هذه الحال ، حتى لو علق الميت على رءوس الأشجار فى مهاب الرياح لأصاب جسده من عذاب البرزخ حظه ونصيبه ، ولو دفن الرجل الصالح فى أتون من النار لأصاب جسده من نعيم البرزخ وروحه نصيبه وحظه ، فيجعل الله النار على هذا برداً وسلاماً ، والهواء على ذلك ناراً وسموماً ، فعناصر العالم ومواده منقادة لربها وفاطرها وخالقها يصرفها كيف يشاء ، ولا يستعصى عليه منها شئ أراده ؛ بل هى طوع مشيئته مذللة منقادة لقدرته ، ومن أنكر هذا فقد جحد رب العالمين وكفر به وأنكر ربوبيته .

فصل

﴿ الأمر العاشر ﴾

[أن الموت معاد وبعث أول]

فإن الله سبحانه وتعالى جعل لابن آدم معادين وبعثين يجزى فيهما الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى .

فالبعث الأول : مفارقة الروح للبدن ومصيرها إلى دار الجزاء الأول .

والبعث الثانى : يوم يرد الله الأرواح إلى أجسادها ، ويبعثها من قبورها إلى الجنة أو النار ، وهو الحشر الثانى ، ولهذا فى الحديث الصحيح .

« وتؤمن بالبعث الآخر » (1) فإن البعث الأول لا ينكره أحد ، وإن أنكر كثير من الناس الجزاء فيه والنعيم والعذاب .

---

(1) آخرجه البخارى فى الإيمان ١/ ١٤٠ (٥٠) عن أبى هريرة من حديث جبريل المشهور الطويل . وابن ماجه فى المقدمة ١/ ٢٥ (٦٤) . وأحمد : ١٠٧/٢ وغيرهم .

[ذكر القيامة الصغرى والقيامة الكبرى]

وقد ذكر سبحانه وتعالى هاتين القيامتين - وهما الصغرى والكبرى - فى سورة المؤمنين ، وسورة الواقعة ، وسورة القيامة ، وسورة المطففين ، وسورة الفجر وغيرها من السور . وقد اقتضى عدله وحكمته أن جعلها دارى جزاء المحسن والمسئ ولكن توفية الجزاء إنما يكون يوم المعاد الثانى فى دار القرار كما قال تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ (١) ، وقد اقتضى عدله وأوجبت أسماؤه الحسنى وكماله المقدس تنعيم أبدان أوليائه وأرواحهم ، وتعذيب أبدان أعدائه وأرواحهم ، فلا بد أن يذيق بدن المطيع له وروحه من النعيم واللذة ما يليق به ، ويذيق بدن الفاجر العاصى له وروحه من الألم والعقوبة ما يستحقه . هذا موجب عدله وحكمته وكماله المقدس .

[البرزخ أول دار الجزاء]

ولما كانت هذه الدار دار تكليف وامتحان لا دار جزاء لم يظهر فيها ذلك . وأما البرزخ فأول دار الجزاء فظهر فيها من ذلك ما يليق بتلك الدار وتقتضى الحكمة إظهاره ، فإذا كان يوم القيامة الكبرى ، وُفِّيَ أهل الطاعة وأهل المعصية ما يستحقونه من نعيم الأبدان والأرواح وعذابهما ، فعذاب البرزخ ونعيمه أول عذاب الآخرة ونعيمها وهو مشتق منه وواصل إلى أصل البرزخ هناك ، كما دل عليه القرآن والسنة الصحيحة الصريحة فى غير موضع دلالة صريحة كقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « فيفتح له باب إلى الجنة فيأتيه من روحها ونعيمها ، وفى الفاجر فيفتح له باب إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها » (٢) .

ومعلوم قطعاً أن البدن يأخذ حظه من هذا الباب ، كما تأخذ الروح حظها . فإذا كان يوم القيامة دخل من ذلك الباب إلى مقعده الذى هو داخله ، وهذان البابان يصل منهما إلى العبد فى هذه الدار أثر خفى محجوب بالشواغل والغواشى الحسية والعوارض ، ولكن يحس به كثير من الناس وإن لم يعرف سببه ولا يحسن التعبير عنه ، فوجود الشيء غير الإحساس به والتعبير عنه . فإذا مات كان وصول ذلك الأثر إليه من ذينك البابين أكمل . فإذا بعث كمل وصول ذلك الأثر إليه فحكمة الرب تعالى منتظمة لذلك أكمل انتظام فى الدور الثلاث .

---

(١) آل عمران آية : ١٨٥ .   (٢) سبق تخريجه .

فصل

﴿ المسألة الثامنة ﴾

[الحكمة فى عدم ذكر عذاب القبر فى القرآن مع شدة الحاجة إليه]

وأما المسألة الثامنة : وهى قول السائل : ما الحكمة فى كون عذاب القبر لم يذكر فى القرآن ، مع شدة الحاجة إلى معرفته والإيمان به ليحذر ويتقى ؟

فالجواب من وجهين : مجمل . ومفصل .

أما المجمل : فهو أن الله سبحانه وتعالى أنزل على رسوله وحيين وأوجب على عباده الإيمان بهما والعمل بما فيهما وهما الكتاب والحكمة وقال تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَبَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ (١) . وقال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الأُمِّيِّنَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَبَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ (٢) . وقال تعالى : ﴿وَاذْكُرْنَ مَايُتْلَى فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ (٣) . والكتاب : هو القرآن والحكمة : هى السنة باتفاق السلف ، وما أخبر به الرسول عن الله فهو فى وجوب تصديقه والإيمان به ، كما أخبر به الرب تعالى على لسان رسوله . هذا أصل متفق عليه بين أهل الإسلام لا ينكره إلا من ليس منهم . وقد قال النبى ﷺ : « إنى أوتيت الكتاب ومثله معه » (٤) .

وأما الجواب المفصل : فهو أن نعيم البرزخ وعذابه مذكور فى القرآن فى غير موضع، فمنها قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّلِمُونَ فِى غَمَرَتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَاكُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ كُنتُمْ عَنْ ءَايَتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (٥) . وهذا خطاب لهم عند الموت وقد أخبرت الملائكة وهم الصادقون أنهم حينئذ يجزون عذاب الهون ، ولو تأخر عنهم ذلك إلى انقضاء الدنيا لما صح أن يقال لهم تجزون . ومنها قوله تعالى : ﴿ فَوَقَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ

---

(١) النساء آية : ١١٣ . (٢) الجمعة آية : ٢ . (٣) الأحزاب آية : ٣٤ .

(٤) أخرجه أبو داود في السنة ٤/١٩٩ (٤٦٠٤) . والترمذى فى العلم ٥/٣٧ (٢٦٦٤) وقال حسن غريب وابن ماجه فى المقدمة ١/٦ (١٢) . وأحمد فى المسند : ٤/ ١٣١ ، ١٣٢ .

(٥) الأنعام آية ٩٣ .

مَامَكَرُواْ وَحَاقَ بِئَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُواً وَعَشِياً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُواْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ (١) . فذكر عذاب الدارين ذكراً صريحاً لا يحتمل غيره منها قوله تعالى : ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَقُواْ يَوْمَهُمُ الَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ * يَوْمَ لاَ يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ * وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) . وهذا يحتمل أن يراد به عذابهم بالقتل وغيره فى الدنيا وأن يراد به عذابهم فى البرزخ وهو أظهر . لأن كثيراً منهم مات ولم يعذب فى الدنيا ، وقد يقال وهو أظهر : إن من مات منهم عذب فى البرزخ ، ومن بقى منهم عذب فى الدنيا بالقتل وغيره ، فهو وعيد بعذابهم فى الدنيا وفى البرزخ ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾(٣). وقد احتج بهذه الآية جماعة منهم عبد الله بن عباس على عذاب القبر ، وفى الاحتجاج بها شىء لأن هذا عذاب فى الدنيا يستدعى به رجوعهم عن الكفر ، ولم يكن هذا مما يخفى على حبر الأمة وترجمان القرآن ، لكن من فقهه فى القرآن ودقة فهمه فيه فهم منها عذاب القبر ، فإنه سبحانه أخبر أن له فيهم عذابين أدنى وأكبر ، فأخبر أنه يذيقهم بعض الأدنى ليرجعوا ، فدل على أنه بقى لهم من الأدنى بقية يعذبون بها بعد عذاب الدنيا ، ولهذا قال من العذاب الأدنى ولم يقل ولنذيقنهم العذاب الأدنى . فتأمله .

وهذا نظير قول النبى ﷺ : « فيفتح له طاقة إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها » ولم يقل فيأتيه حرها وسمومها ، فإن الذى وصل إليه بعض ذلك وبقى له أكثره والذى ذاقه أعداء الله فى الدنيا بعض العذاب الأدنى ، وبقى لهم ما هو أعظم منه .
ومنها قـوله تعالى : ﴿ فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لا تُبْصِرُونَ * فَلَوْلاَ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَدِقِينَ * فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَبِ الْيَمِينِ * فَسَلَمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَبِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّآلِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ

(١) غافر آية : ٤٥ – ٤٦ . الطور آية : ٤٥ – ٤٧ (٣) السجدة آية : ٢١ .

الْعَظِيمِ﴾ (١) . فذكر هاهنا أحكام الأرواح عند الموت . وذكر فى أول السورة أحكامها يوم المعاد الأكبر . وقدم ذلك على هذا تقديم الغاية ، إذ هى أهم وأولى بالذكر . وجعلهم عند الموت ثلاثة أقسام ، كما جعلهم فى الآخرة ثلاثة أقسام . ومنها قوله تعالى : ﴿ يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِى إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِى فِى عِبَادِى* وَادْخُلِى جَنَّتِى ﴾ (٢) .

وقد اختلف السلف متى يقال لها ذلك فقالت طائفة : يقال لها عند الموت . وظاهر اللفظ مع هؤلاء فإنه خطاب للنفس التى قد تجردت عن البدن وخرجت منه ، وقد فسر ذلك النبى ﷺ ، بقوله فى حديث البراء وغيره : « فيقال لها اخرجى راضية مرضياً عنك » وسيأتى تمام تقرير هذا فى المسألة التى يذكر فيها مستقر الأرواح فى البرزخ إن شاء الله تعالى ، وقوله تعالى : ﴿ فَادْخُلِى فِى عِبَادِى ﴾ مطابق لقوله ﷺ: « اللهم الرفيق الأعلى » (٣) . وأنت إذا تأملت أحاديث عذاب القبر ونعيمه وجدتها تفصيلاً وتفسيراً لما دل عليه القرآن . وبالله التوفيق .

* * *

فصل

﴿ المسألة التاسعة ﴾

[ما الأسباب التى يعذب بها أصحاب القبور ؟]

فجوابها من وجهين : مجمل ومفصل .

أما المجمل : فإنهم يعذبون على جهلهم وإضاعتهم لأمره وارتكابهم لمعاصيه ، فلا يعذب الله روحاً عرفته وأحبته وامتثلت أمره ، واجتنبت نهيه ، ولا بدناً كانت فيه أبداً فإن عذاب القبر وعذاب الآخرة أثر غضب الله وسخطه على عبده . فمن أغضب الله وأسخطه فى هذه الدار ثم لم يتب ومات على ذلك كان له من عذاب البرزخ بقدر غضب الله وسخطه عليه . فمستقل ومستكثر ومصدق ومكذب .

---

(١) الواقعة الآيات ٨٣ - ٩٦ . (٢) الفجر آية ٢٧ - ٣٠ .

(٣) أخرجه البخارى فى المرضى ١٠/١٣٣ (٥٦٧٤) . ومسلم فى السلام ٤/ ١٧٢١ (٤٦) . وغيرهما .

وأما الجواب المفصل : فقد أخبر النبى ﷺ ، عن الرجلين اللذين رآهما يعذبان فى قبروهما يمشى أحدهما بالنميمة بين الناس ، ويترك الآخر الاستبراء من البول ، فهذا ترك الطهارة الواجبة وذلك ارتكب السبب الموقع للعداوة بين الناس بلسانه ، وإن كان صادقاً . وفى هذا تنبيه على أن الموقع بينهم العداوة بالكذب والزور والبهتان أعظم عذاباً ، كما أن فى ترك الاستبراء من البول تنبيهاً على أن من ترك الصلاة التى الاستبراء من البول بعض واجباتها وشروطها فهو أشد عذاباً .

وفى حديث شعبة : أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس . فهذا مغتاب وذلك نمام . وقد تقدم حديث ابن مسعود رضى الله عنه [1] : فى الذى ضرب سوطاً امتلأ القبر عليه به ناراً لكونه صلى صلاة واحدة بغير طهور ، ومر على مظلوم فلم ينصره . وقد تقدم حديث سمرة فى صحيح البخارى [2] : فى تعذيب من يكذب الكذبة فتبلغ الآفاق. وتعذيب من يقرأ القرآن ثم ينام عنه بالليل ولا يعمل به بالنهار . وتعذيب الزناة والزوانى . وتعذيب آكل الربا كما شاهدهم النبى ﷺ ، فى البرزخ . وتقدم حديث أبى هريرة رضى الله عنه الذى فيه : « رضخ رءوس أقوام بالصخر لتثاقل رءوسهم عن الصلاة ، والذين يسرحون بين الضريع والزقوم لتركهم زكاة أموالهم . والذين يأكلون اللحم المنتن الخبيث لزناهم . والذين تقرض شفاههم بمقاريض من حديد لقيامهم فى الفتن بالكلام والخطب . وتقدم حديث أبى سعيد وعقوبة أرباب تلك الجرائم : فمنهم من بطونهم أمثال البيوت وهم على سابلة آل فرعون وهم أكلة الربا . ومنهم : من تفتح أفواههم فيلقمون الجمر حتى يخرج من أسافلهم ، وهم أكلة أموال اليتامى . ومنهم : المعلقات بثديهن وهن الزوانى . ومنهم : من تقطع جنوبهم ويطعمون لحومهم وهم المغتابون . ومنهم : من لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم وهم الذين يغمزون أعراض الناس . وقد أخبر النبى ﷺ ، عن صاحب الشملة التى غلها من المغنم أنها تشتعل عليه ناراً فى قبره . هذا وله فيها حق فكيف بمن ظلم غيره مالا حق له فيه ، فعذاب القبر من معاصى القلب والعين والأذن والفم واللسان والبطن والفرج واليد والرجل والبدن كله . فالنمام والكذاب والمغتاب وشاهد الزور وقاذف المحصن والموغل فى الفتنة ، والداعى إلى

(١، ٢) سبق تخريجها من قبل .

البدعة والقائل على الله ورسوله مالا علم له به ، والمجازف فى كلامه وآكل الربا وآكل أموال اليتامى وآكل السحت من الرشوة والبرطيل ونحوهما ، وآكل مال أخيه المسلم بغير حق أو مال المعاهد وشارب السكر وآكل لقمة الشجرة الملعونة والزانى واللوطى والسارق والخائن والغادر والمخادع والماكر ، وآخذ الربا ومعطيه وكاتبه وشاهداه والمحلل والمحلل له ، والمحتال على إسقاط فرائض الله وارتكاب محارمه ، ومؤذى المسلمين ومتتبع عوراتهم، والحاكم بغير ما أنزل الله والمفتى بخلاف ما شرعه الله والمعين على الإثم والعدوان ، وقاتل النفس التى حرم الله ، والملحد فى حرم الله ، والمعطل لحقائق أسماء الله وصفاته الملحد فيها ، والمقدم رأيه وذوقه وسياسته على سنة رسول الله ﷺ ، والنائحه والمستمع إليها ، ونواحو جهنم وهم المغنون الغناء الذى حرمه الله ورسوله والمستمع إليهم والذين يبنون المساجد على القبور ويوقدون عليها القناديل والسرج ، والمطففون فى استيفاء ما لهم إذا أخذوه وهضم ما عليهم إذا بذلوه، والجبارون والمتكبرون والمراءون والهمازون والطاعنون على السلف ، والذين يأتون الكهنة والمنجمين والعرافين ، فيسألونهم ويصدقونهم ، وأعوان الظلمة الذين قد باعوا آخرتهم بدنيا غيرهم ، والذى إذا خوفته باللَّه وذكرته به لم يرعو ولم ينزجر فإذا خوفته بمخلوق مثله خاف وارعوى وكف عما هو فيه ، والذى يهدى بكلام الله ورسوله فلا يهتدى ولا يرفع به رأساً فإذا بلغه عمن يحسن به الظن ممن يصيب ويخطىء عض عليه بالنواجذ ولم يخالفه ، والذى يقرأ عليه القرآن فلا يؤثر فيه وربما استثقل به فإذا سمع قرآن الشيطان ورقية الزنا ومادة النفاق طاب سره وتواجد وهاج من قلبه دواعى الطرب وود أن المغنى لا يسكت ، والذى يحلف باللَّه ويكذب فإذا حلف بالبندق أو برأس شيخه أو قريبه أو سراويل الفتوة أو حياة من يحبه ويعظمه من المخلوقين لم يكذب ولو هدد وعوقب ، والذى يفتخر بالمعصية ويتكثر بها بين إخواته وأضرابه وهو المجاهر والذى لا تأمنه على مالك وحرمتك ، والفاحش اللسان البذىء الذى تركه الخلق إتقاء شره وفحشه ، والذى يؤخر الصلاة إلى آخر وقتها وينقرها ولا يذكر الله فيها إلا قليلاً ، ولا يؤدى زكاة ماله طيبة بها نفسه ، ولا يحج مع قدرته على الحج ، ولا يؤدى ما عليه من الحقوق مع قدرته عليها ، ولا يتورع من لحظة ولا لفظة ولا أكلة ولا خطوة ، ولا يبالى مما حصل المال من حلال أو حرام ، ولا يصل رحمه ولا يرحم المسكين ولا الأرملة ولا اليتيم ولا الحيوان البهيم ، بل يَدُعُّ اليتيم ولا يحض على طعام المسكين ويرائى للعالمين ويمنع الماعون ، ويشتغل بعيوب

الناس عن عيبه وبذنوبهم عن ذنبه ، فكل هؤلاء وأمثالهم يعذبون فى قبورهم بهذه الجرائم بحسب كثرتها وقلتها ، وصغيرها وكبيرها .

ولما كان أكثر الناس كذلك كان أكثر أصحاب القبور معذبين والفائز منهم قليل ، فظواهر القبور تراب ، وبواطنها حسرات وعذاب ، ظواهرها بالتراب والحجارة والمنقوشة مبنيات . وفى باطنها الدواهى والبليات . تغلى بالحسرات كما تغلى القدور بما فيها . ويحق لها وقد حيل بينها وبين شهواتها وأمانيها . تاللَّه لقد وعظت فما تركت لواعظ مقالاً . ونادت يا عُمار الدنيا لقد عمرتم داراً موشكة بكم زوالا ، وخربتم داراً أنتم مسرعون إليها انتقالا . عمرتم بيوتاً لغيركم منافعها وسكناها . وخربتم بيوتاً ليس لكم مساكن سواها . هذه دار الاستباق ومستودع الأعمال وبذر الزرع وهذه محل للعبر رياض من رياض الجنة أو حفر من حفر النار .

* * *

فصل

﴿ المسألة العاشرة ﴾

[الأسباب المنجية من عذاب القبر]

فجوابها أيضا من وجهين : مجمل ومفصل .

أما المجمل : فهو تجنب تلك الأسباب التى تقتضى عذاب القبر ، ومن أنفعها أن يجلس الرجل عندما يريد النوم لله ساعة يحاسب نفسه فيها على ما خسره وربحه فى يومه ، ثم يجدد له توبة نصوحاً بينه وبين الله ، فينام على تلك التوبة ويعزم على أن لا يعاود الذنب إذا استيقظ ، ويفعل هذا كل ليلة ، فإن مات من ليلته مات على توبة وإن استيقظ استيقظ مستقبلا للعمل مسروراً بتأخير أجله ، حتى يستقبل ربه ويستدرك ما فاته وليس للعبد أنفع من هذه التوبة ، ولا سيما إذا عقب ذلك بذكر الله واستعمال السنن التى وردت عن رسول الله ﷺ ، عند النوم حتى يغلبه النوم ، فمن أراد الله به خيراً وفقه لذلك ، ولا قوة إلا باللَّه .

[ذكر محاسبة النفس عند النوم]

أما الجواب المفصل : فنذكر أحاديث عن رسول الله ﷺ ، فيما ينجى من عذاب القبر .

فمنها : ما رواه مسلم فى صحيحه عن سلمان رضى الله عنه قال : سمعت رسول

الله ﷺ يقول : « رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه ، وإن مات أجرى عليه عمله الذى كان يعمله وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان » [١] .

وفى جامع الترمذى من حديث فضالة بن عبيد عن رسول الله ﷺ قال : « كل ميت يختم على عمله إلا الذى مات مرابطا فى سبيل الله ، فإنه ينمى له عمله إلى يوم القيامة ويأمن من فتنة القبر » [٢] . قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

وفى سنن النسائى عن راشد بن سعد عن رجل من أصحاب النبى ﷺ ، أن رجلا قال : يا رسول الله ما بال المؤمنين يفتنون فى قبورهم إلا الشهيد ؟ قال : « كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة » [٣] .

[ذكر فضائل الشهداء]

وعن المقدام بن معد يكرب قال : قال رسول الله ﷺ : « للشهيد عند الله ست خصال : يغفر له فى أول دفعة من دمه ، ويرى مقعده من الجنة ، ويجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ويوضع على رأسه تاج الوقار ، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها ، ويزوج ثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ويشفع فى سبعين من أقاربه » .

[فضيلة سورة الملك]

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : ضرب رجل من أصحاب رسول الله ﷺ ، خباءه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر ، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها، فأتى النبى ﷺ ، فقال : يا رسول الله ضربت خبائى على قبر وأنا لا أحسب أنه قبر ، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها ، فقال النبى ﷺ : « هى المانعة المنجية، تنجيه من عذاب القبر » . قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب [٤] .

---

(١) أخرجه مسلم فى الإمارة ٣/ ١٥٢٠ (١٦٣) . وأخرج البخارى نحوه فى الجهاد ٦/ ١٠٠ (٢٨٩٢) .

(٢) أخرجه الترمذى فى فضائل الجهاد ٤/ ١٤٢ (١٦٢١) وقال : حديث حسن صحيح وأبو داود فى الجهاد ٣/ ٩ (٢٥٠٠) .

(٣) أخرجه النسائى فى الجنائز ٤/ ٩٩ . وفى كنز لعمال برقم ١٠٦١٠ ، ١١١٣٨ ، ١١٧٤١ . والسيوطى فى الدر المنثور ٢/ ٩٩ ، ٣٢٤ ، والقرطبى فى تفسيره : ٤/ ٢١٨ .

(٤) أخرجه الترمذى فى فضائل القرآن ٥/ ١٥١ (٢٨٩٠) وقال حسن غريب .

ورويناً فى مسند عبد بن حميد ، عن إبراهيم بن الحكم ، عن أبيه عن عكرمة ، عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال لرجل : ألا أتحفك بحديث تفرح به ؟ قال الرجل : بلى ، قال : اقرأ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير ، احفظها وعلمها أهلك وولدك وصبيان بيتك وجيرانك ، فإنها المنجية ، والمجادلة تجادل أو تخاصم يوم القيامة عند ربها لقارئها ، وتطلب له إلى ربها أن ينجيه من عذاب النار إذا كانت فى جوفه ، وينجى الله بها صاحبها من عذاب القبر ، قال رسول الله ﷺ : «لوددت أنها فى قلب كل إنسان من أمتى » (١) .

قال أبو عمر بن عبد البر : وصح عن رسول الله ﷺ ، أنه قال : إن سورة ثلاثين آية شفعت فى صاحبها حتى غفر له ، تبارك الذى بيده الملك » (٣) .

وفى سنن ابن ماجه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه يرفعه : « من مات مريضاً مات شهيداً ، ووقى فتنة القبر وغدى وريح عليه برزق من الجنة » (٣) .

وفى سنن النسائى عن جامع بن شداد قال : سمعت عبد الله بن يشكر يقول : كنت جالساً مع سليمان بن صرد وخالد بن عرفطة ، فذكروا أن رجلا مات ببطنه فإذا هما يشتهيان أن يكونا شهدا جنازته فقال أحدهما للآخر ألم يقل رسول الله ﷺ: « من قتله بطنه لم يعذب فى قبره » (٤) .

وقال أبو داود الطيالسى فى مسنده : حدثنا شعبة . حدثنى أحمد بن جامع بن شداد قال : حدثنى أبى فذكره وزاد فقال الآخر : بلى .

[من مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة أجير من عذاب القبر]

وفى الترمذى من حديث ربيعة بن سيف عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مسلم يموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة إلا وقاه الله فتنة القبر » قال الترمذى هذا حديث حسن غريب وليس إسناده بمتصل . ربيعة بن سيف إنما يروى

---

(١) أخرجه عبد بن حميد فى المنتخب من مسند ابن عباس ص ٢٠٦ - ٢٠٧ رقم ٦٠٣ . وذكره الحافظ ابن كثير فى التفسير ٤/ ٣٩٥ وعزاه للطبرانى .

(٢) أخرجه الترمذى فى فضائل القرآن ٥/ ١٥١ (٢٨٩١) وقال حديث حسن .

(٣) أخرجه ابن ماجه فى الجنائز ١/ ٥١٦ (١٦١٥) وأعله ابن الجوزى بالوضع ، وضعفه الدارقطنى.

(٤) أخرجه النسائى فى الجنائز ٤/ ٩٨ .

عن أبى عبد الرحمن الختلى ، عن عبد الله بن عمرو . ولا يعرف لربيعة بن سيف سماع من عبد الله بن عمرو . انتهى .

وقد روى الترمذى الحكيم من حديث ربيعة بن سيف هذا ، عن عياض بن عقبة الفهرى ، عن عبد الله بن عمرو ، وقد رواه أبو نعيم الحافظ عن محمد بن المنكدر ، عن جابر مرفوعاً ، ولفظه : « من مات ليلة الجمعة أو يوم الجمعة أجير من عذاب القبر ، وجاء يوم القيامة وعليه طابع الشهداء » [١] .تفرد به عمر بن موسى الوجيهى ، وهو مدنى ضعيف ، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة » [٢] . معناه والله أعلم : قد امتحن نفاقه من إيمانه ببارقة السيف على رأسه فلم يفر ، فلو كان منافقا لما صبر لبارقة السيف على رأسه ، فدل على أن إيمانه هو الذى حمله على بذل نفسه لله وتسليمها له ، وهاج من قلبه حمية الغضب لله ورسوله، وإظهار دينه وإعزاز كلمته ، فهذا قد أظهر صدق ما فى ضميره حيث برز للقتل فاستغنى بذلك عن الامتحان فى قبره . قال أبو عبد الله القرطبى إذا كان الشهيد لا يفتن فالصديق أجل خطراً وأعظم أجراً أن لا يفتن . لأنه مقدم ذكره فى التنزيل على الشهداء ، وقد صح فى المرابط الذى هو دون الشهيد أنه لا يفتن فكيف بمن هو أعلى رتبة منه ومن الشهيد ؟ ! . والأحاديث الصحيحة ترد هذا القول وتبين أن الصديق يسأل فى قبره كما يسأل غيره .

وهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأس الصديقين ، وقد قال للنبى ﷺ ، لما أخبره عن سؤال الملك فى قبره فقال : « وأنا على مثل حالتى هذه ؟ فقال : نعم » وذكر الحديث .

وقد اختلف فى الأنبياء هل يسألون فى قبورهم على قولين ؛ وهما وجهان فى مذهب أحمد وغيره ، ولا يلزم من هذه الخاصية التى اختص بها الشهيد أن يشاركه الصديق فى حكمها ، وإن كان أعلى منه فخواص الشهداء قد تنتفى عمن هو أفضل منهم ، وإن كان أعلى منهم درجة ، وأما حديث ابن ماجه : « من مات مريضاً مات

---

(١) إسناده ضعيف فيه عمر بن موسى الوجيهى ، قال عنه ابن حبان فى المتروكين ٢/٨٦ فى روايته عن الثقات مالايشبه حديث الأثبات حتى خرج عن حد العدالة إلى الجرح فاستحق الترك .

(٢) أخرجه النسائى فى الجنائز ٤/٩٩ ، وصححه السيوطى فى الجامع الصغير ٢/٣٨٩ (٦٢٤٨).

شهيداً ووقى فتنة القبر »[1] ، فمن أفراد ابن ماجه وفى أفراده غرائب ومنكرات ومثل هذا الحديث مما يتوقف فيه ولا يشهد به على رسول الله ﷺ ، فإن صح فهو مقيد بالحديث الآخر ، وهو الذى يقتله بطنه ، فإن صح عنه أنه قال: « المبطون شهيد»[2]، فيحمل هذا المطلق على ذلك المقيد ، واللَّه أعلم .

[ذكر مدافعة أنواع العذاب بأنواع الأعمال مفصلا]

وقد جاء فيما ينجى من عذاب القبر حديث فيه الشفاء ، رواه أبو موسى المدينى وبين علته فى كتابه (الترغيب والترهيب) وجعله شرحا له ، رواه من حديث الفرج ابن فضالة ، ثنا هلال أبو جبلة ، عن سعيد بن المسيب ، عن عبد الرحمن بن سمرة ، قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ، ونحن فى صفة بالمدينة فقام علينا فقال : « إنى رأيت البارحة عجبا ، رأيت رجلا من أمتى أتاه ملك الموت ليقبض روحه فجاءه بره بوالديه فرد ملك الموت عنه . ورأيت رجلا من أمتى قد بسط عليه عذاب القبر فجاءه وضوؤه فاستنقذه من ذلك . ورأيت رجلا من أمتى قد احتوشته الشياطين فجاء ذكر الله فطرد الشياطين عنه . ورأيت رجلا من أمتى قد احتوشته ملائكة العذاب فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم . ورأيت رجلا من أمتى يلهث عطشاً كلما دنا من حوض منع وطرد ، فجاءه صيام شهر رمضان فأسقاه أرواه . ورأيت رجلا من أمتى ورأيت النبيين جلوساً حلقاً حلقاً ، كلما دنا إلى حلقة طرد ومنع ، ومن تحته ظلمه ، فجاءه غسله من الجنابة فأخذ بيده فأقعده إلى جنبى . ورأيت رجلا من أمتى من بين يديه ظلمة ومن خلفه ظلمة ، وعن يمينه ظلمة ، وعن يساره ظلمة ، ومن فوقة ظلمة ، وهو متحير فيها فجاءه حجه وعمرته فاستخرجاه من الظلمة وأدخلاه فى النور. ورأيت رجلا من أمتى يتقى وهج النار وشررها فجاءته صدقته فصارت ستراً بينه وبين النار وظللت على رأسه . ورأيت رجلا من أمتى يكلم المؤمنين ولا يكلمون فجاءته صلته لرحمه فقالت : يا معشر المؤمنين إنه كان وصولا لرحمه فكلموه فكلمه المؤمنون وصافحوه وصافحهم . ورأيت رجلا من أمتى قد احتوشته الزبانية فجاءه أمره

---

(١) سبق فى الصفحة السابقة .

(٢) أخرجه البخارى فى الجهاد ٦/ ٥٠ (٢٨٢٩) . ومسلم فى الإمارة ٣/ ١٥٢١ (١٦٤) وباقى التسعة عدا الدارمى . والمطعون : هو الذى مات بالطاعون ، زوالمبطون : صاحب داء المبطون ، وقيل : هو الذى يشتكى بطنه .

بالمعروف ونهيه عن المنكر فاستنقذه من أيديهم وأدخله فى ملائكة الرحمة . ورأيت رجلا من أمتى جاثيا على ركبتيه وبينه وبين الله حجاب فجاءه حسن خلقه فأخذه بيده فأدخله على الله عز وجل ورأيت رجلا من أمتى قد ذهبت صحيفته من قبل شماله فجاءه خوفه من الله عز وجل فأخذ صحيفته فوضعها فى يمينه . ورأيت رجلا من أمتى خف ميزانه فجاءه أفراطه فثقلوا ميزانه . ورأيت رجلا من أمتى قائماً على شفير جهنم فجاءه رجاؤه من الله عز وجل فاستنقذه من ذلك ومضى . ورأيت رجلاً من أمتى قد هوى فى النار فجاءته دمعته التى قد بكى من خشية الله عز وجل فاستنقذته من ذلك . ورأيت رجلاً من أمتى قائماً على الصراط ، يرعد كما ترعد السعفة فى ريح عاصف فجاءه حسن ظنه باللَّه عز وجل فسكن روعه ومضى . ورأيت رجلاً من أمتى يزحف على الصراط يحبو أحياناً ويتعلق أحياناً فجاءته صلاته علىَّ فأقامته على قدميه وأنقذته . ورأيت رجلاً من أمتى انتهى إلى أبواب الجنة فغلقت الأبواب دونه فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ففتحت له الأبواب وأدخلته الجنة [1] » قال الحافظ أبو موسى : هذا حديث حسن جداً ، رواه عن سعيد بن المسيب ، وعمر بن ذر ، وعلى ابن زيد بن جدعان ، ونحو هذا الحديث مما قيل فيه أن رؤيا الأنبياء وحى على ظاهرها لا كنحو ما روى عنه صلى الله عليه وآله وسلم ، أنه قال : « رأيت كأن سيفى انقطع فأولته كذا وكذا . ورأيت بقراً تنحر. ورأيت كأنا فى دار عقبة بن رافع».

[رؤيا الأنبياء وحى]

وقد روى فى رؤياه الطويلة من حديث سمرة فى الصحيح ، ومن حديث على وأبى أمامة ، وروايات هؤلاء الثلاثة قريب بعضها من بعض ، مشتملة على ذكر عقوبات جماعة من المعذبين فى البرزخ ، فأما فى هذه الرواية فذكر العقوبة وأتبعها بما ينجى صاحبها من العمل . وراوى هذا الحديث عن ابن المسيب هلال أبو جبلة مدنى ، لا يعرف بغير هذا الحديث . ذكره ابن أبى حاتم عن أبيه هكذا وذكره الحاكم أبو أحمد

---

(١) إسناده ضعيف وليس كما نقل المؤلف رحمه الله عن أبى موسى أنه حسن جداً ، لأن فيه فرج بن فضاله وهو ضعيف الحديث (تقريب التهذيب ص ٤٤٤) .

والحديث ذكره السيوطى بطوله فى الجامع الصغير ١/١٥٨ (٢٦٥٢) وعزاه للطبرانى والحكيم عن عبدالرحمن ابن سمرة وضعفه .

والحاكم أبو عبد الله أبو جبل بلا هاء وحكياه عن مسلم ، ورواه عن الفرج بن فضالة وهو وسط فى الرواية ليس بالقوى ولا المتروك ورواه عنه بشر بن الوليد الفقيه المعروف بأبى الخطيب ، وكان حسن المذهب جميل الطريقة وسمعت شيخ الإسلام يعظم أمر هذا الحديث ، وقال : أصول السنة تشهد له وهو من أحسن الأحاديث .

* * *

فصل

﴿ المسألة الحادية عشرة ﴾

[السؤال فى القبر هل هو عام فى حق المسلمين والمنافقين والكفار أو يختص بالمسلم والمنافق ؟]

فقال أبو عمر بن عبد البر فى (كتاب التمهيد) : والآثار تدل على أن الفتنة فى القبر لا تكون إلا لمؤمن أو منافق ، كان منسوباً إلى أهل القبلة ودين الإسلام بظاهر الشهادة .

وأما الكافر الجاحد المبطل فليس ممن يسأل عن ربه ودينه ونبيه ، وإنما يسأل عن هذا أهل الإسلام ، فيثبت الله الذين آمنوا ويرتاب المبطلون . والقرآن والسنة تدل على خلاف هذا القول ، وأن السؤال للكافر والمسلم ، قال الله تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِى الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَفِى الآخِرَةِ وَيُضِلُّ الله الظَّلمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ (١) . وقد ثبت فى الصحيح أنها نزلت فى عذاب القبر حين يسأل : من ربك وما دينك ومن نبيك ؟ (٢)

وفى الصحيحين عن أنس بن مالك ، عن النبى ﷺ ، أنه قال : « إن العبد إذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه إنه ليسمع قرع نعالهم » (٣) وذكر الحديث .

زاد البخارى : « وأما المنافق والكافر فيقال له : ما كنت تقول فى هذا الرجل ؟ فيقول : لا أدرى كنت أقول ما يقول الناس ، فيقال : لا دريت ولا تليت ويضرب بمطرقة من حديد يصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين » .

---

(١) إبراهيم آية : ٢٧ . (٢) الحديث أخرجه البخارى فى التفسير ٨/ ٢٢٩ (٤٦٩٩) عن البراء بن عازب .
(٣) الحديث سبق تخريجه .

وقد تقدم فى حديث أبى سعيد الخدرى الذى رواه ابن ماجه ، والإمام أحمد : كنا فى جنازة مع النبى ﷺ فقال : « يا أيها الناس ، إن هذ الأمة تبتلى فى قبورها فإذا الإنسان دفن وتولى عنه أصحابه جاءه ملك وفى يده مطراق فأقعده ، فقال : ما تقول فى هذا الرجل ؟ فإن كان مؤمناً قال : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، فيقول له : صدقت ، فيفتح له باب إلى النار فيقول هذا منزلك لو كفرت بربك ، وأما الكافر والمنافق فيقول له : ما تقول فى هذا الرجل؟ فيقول : لا أدرى ، فيقال : لا دريت ولا اهتديت ، ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقول له هذا منزلك لو آمنت بربك ، فأما إذ كفرت فإن الله أبدلك به هذا ، ثم يفتح له باب إلى النار ثم يقمعه الملك بالمطراق قمعة يسمعه خلق الله إلا الثقلين». فقال بعض الصحابة : يا رسول الله ما أحد يقوم على رأسه ملك إلا هيل عند ذلك ، فقال رسول الله ﷺ : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِى الآخِرَةِ وَيُضِلُّ الله الظَّلِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ (١) .

وفى حديث البراء بن عازب الطويل : « وأما الكافر إذا كان فى قبل الآخرة وانقطاع من الدنيا ، نزل عليه ملائكة من السماء معهم مسوح » ، وذكر الحديث إلى أن قال : ثم تعاد روحه فى جسده فى قبره (٢) ، وذكر الحديث .

وفى لفظ : « فإذا كان كافراً جاءه ملك الموت فجلس عند رأسه » . فذكر الحديث إلى قوله : ما هذه الروح الخبيثة فيقولون فلان بأسوأ أسمائه ، فإذا انتهى به إلى سماء الدنيا أغلقت دونه ، قال : فيرمى به من السماء ثم قرأ قول تعالى : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خر مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ الرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾(٣) . قال : فتعاد روحه فى جسده ، ويأتيه ملكان شديدا الانتهار فيجلسانه وينتهرانه ، فيقولان : من ربك ؟ فيقول : هاه لا أدرى ، فيقولان : لادريت ، فيقولان : ما هذا النبى الذى بعث فيكم ؟ فيقول : سمعت الناس يقولون ذلك لا أدرى ، فيقولان له : لا دريت ، وذلك قوله تعالى : ﴿ وَيُضِلُّ الله الظَّلِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ (٤) ، وذكر الحديث واسم الفاجر فى عرف القرآ والسنة يتناول الكافر

---

(١) إبراهيم آية : ٢٧ .
(٢) الحديث بطوله سبق تخريجه .
(٣) الحج آية : ٣١ .
(٤) إبراهيم آية : ٢٧ .

قطعاً كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ [١] . وقوله تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَبَ الْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴾ [٢] .

وفى لفظ آخر فى حديث البراء : « وإن الكافر إذا كان فى قبل من الآخرة وانقطاع من الدنيا ، نزل إليه ملائكة شداد غضاب معهم ثياب من نار وسرابيل من قطران ، فيحتوِشُونه فتنزع روحه كما ينزع السفود الكثير الشعب من الصوف المبتل فإذا خرجت لعنه كل ملك بين السماء والأرض ، وكل ملك فى السماء » . وذكر الحديث إلى أن قال : إنه ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين ، فيقال : يا هذا ، من ربك وما دينك ومن نبيك ؟ فيقول : لا أدرى فيقال : لا دريت » ، وذكر الحديث رواه حماد ابن سلمة ، عن يونس بن خباب ، عن المنهال بن عمرو ، وعن زاذان عن البراء .

وفى حديث عيسى بن المسيب ، عن عدى بن ثابت عن البراء : خرجنا مع رسول الله ﷺ فى جنازة رجل من الأنصار . وذكر الحديث إلى أن قال : « وإن الكافر إذا كان فى دُبُرٍ من الدنيا ، وقُبُلٍ من الآخرة ، وحضره الموت ، نزلت عليه ملائكة معهم كفن من نار وحنوط من نار » . فذكر الحديث إلى أن قال : « فترد روحه إلى مضجعه ، فيأتيه منكر ونكير يثيران الأرض بأنيابهما ويفحصان الأرض بأشعارهما أصواتهما كالرعد القاصف وأبصارهما كالبرق الخاطف ، فيجلسانه ثم يقولان : يا هذا من ربك ؟ فيقول : لا أدرى ، فينادى من جانب القبر لا دريت ، فيضربانه بمرزبة من حديد لو اجتمع عليها ما بين الخافقين لم يُقِلُّوها ، ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه » . وذكر الحديث . ورواه الإمام أحمد فى مسنده ، عن أبى النضر هاضم بن القاسم ، حدثنا عيسى ابن المسيب فذكره .

وفى حديث محمد بن سلمة ، عن خصيف ، عن مجاهد ، عن البراء ، قال : كنا فى جنازة رجل من الأنصار ، ومعنا رسول الله ﷺ : فذكر الحديث ، إلى أن قال : وقال رسول الله ﷺ : « وإذا وضع الكافر أتاه منكر ونكير فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : لا أدرى ، فيقولان له : لا دريت » الحديث وقد تقدم .

وبالجملة فعامة من روى حديث البراء بن عازب قال فيه : وأما الكافر بالجزم وبعضهم قال : وأما الفاجر ، وبعضهم قال : وأما المنافق والمرتاب ، وهذه اللفظة

---

(١) الانفطار آية : ١٣ ، ١٤ .   (٢) المطففين آية : ٧ .

من شك بعض الرواة ، وهكذا فى الحديث لا أدرى أى ذلك قال ، وأما من ذكر الكافر والفاجر فلم يشك ، ورواية من لم يشك مع كثرتهم أولى من رواية من شك مع إنفراده على أنه لا تناقض بين الروايتين ، فإن المنافق يسأل كما يسأل الكافر والمؤمن ، فيثبت الله أهل الإيمان ويضل الله الظالمين ، وهم الكفار والمنافقون .

وقد جمع أبو سعيد الخدرى فى حديثه الذى رواه أبو عامر العقدى ، ثنا عباد بن راشد عن داود بن أبى هند ، عن أبى نضرة ، عن أبى سعيد ، قال : شهدنا مع رسول الله ﷺ جنازة فذكر الحديث ، وقال : وإن كان كافراً أو منافقاً يقول له : ما تقول فى هذا الرجل ؟ فيقول : لا أدرى ، وهذا صريح فى أن السؤال للكافر والمنافق، وقول أبى عمر رحمه الله : وأما الكافر الجاحد المبطل فليس ممن يسأل عن ربه ودينه ونبيه ، فيقال له : ليس كذلك بل هو من جملة المسئولين وأولى بالسؤال من غيره ، وقد أخبر الله فى كتابه أنه يسأل الكافر يوم القيامة ، قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١) . وقال تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢) . وقال تعالى : ﴿ فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٣) فإذا سئلوا يوم القيامة فكيف لا يسألون فى قبورهم، فليس لما ذكره أبو عمر رحمه الله وجه .

❋ ❋ ❋

فصل

﴿ المسألة الثانية عشرة ﴾

[سؤال منكر ونكير هل هو مختص بهذه الأمة أو يكون لها ولغيرها]

وأما المسألة الثانية عشرة وهى : أن سؤال منكر ونكير هل هو مختص بهذه الأمة أو يكون لها ولغيرها ؟

فهذا موضع قد تكلم فيه الناس ، فقال أبو عبد الله الترمذى : إنما سؤال الميت فى هذه الأمة خاصة ، لأن الأمم قبلنا كانت الرسل تأتيهم بالرسالة ، فإذا أبوا كفت الرسل واعتزلوهم وعوجلوا بالعذاب ، فلما بعث الله محمداً ﷺ بالرحمة إماماً

---

(١) القصص آية : ٦٥ . (٢) الحجر آية : ٩١ . (٣) الأعراف آية : ٦ .

للخلق، كما قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [1] . أمسك عنهم العذاب وأعطى السيف حتى يدخل فى دين الإسلام من دخل لمهابة السيف ، ثم يرسخ الإيمان في قلبه فأمهلوا ، فمن هاهنا ظهر أمر النفاق ، وكانوا يسرون الكفر ويعلنون الإيمان ، فكانوا بين المسلمين فى ستر ، فلما ماتوا قيض الله لهم فَتَّانيَ القبر، ليستخرج سرهم بالسؤال ، وليميز الله الخبيث من الطيب ، فـ ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِى الآخِرَةِ وَيُضِلُّ الله الظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ [2] .

وخالف فى ذلك آخرون منهم عبد الحق الإشبيلى والقرطبى ، وقالوا : السؤال لهذه الأمة ولغيرها ، وتوقف فى ذلك آخرون منهم أبو عمر بن عبد البر فقال : فى حديث زيد بن ثابت ، عن النبى ﷺ أنه قال: « إن هذه الأمة تبتلى فى قبورها »[3].

وعلى هذا اللفظ يحتمل أن تكون هذه الأمة خصت بذلك ، فهذا أمر لا يقطع عليه. وقد احتج من خصه بهذه الأمة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن هذه الأمة تبتلى فى قبورها » . وبقوله : « أوحى إلىّ أنكم تفتنون فى قبوركم » وهذا ظاهر فى الاختصاص بهذه الأمة .

قالوا : ويدل عليه قول الملكين له : ما كنت تقول فى هذا الرجل الذى بعث فيكم؟ فيقول المؤمن : أشهد أنه عبد الله ورسوله ، فهذا خاص بالنبى ﷺ ، وقوله فى الحديث الآخر : « إنكم بى تمتحنون وعنى تسألون » ، وقال آخرون : لا يدل هذا على اختصاص السؤال بهذه الأمن دون سائر الأمم ، فإن قوله « إن هذه الأمة » إما أن يراد به أمة الناس ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الأَرْضِ وَلاَ طَائِرَ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ [4] .

وكل جنس من أجناس الحيوان يسمى أمة ، وفى الحديث : « لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها » [5] . وفيه أيضاً حديث النبى الذى قرصته نملة فأمر بقرية

---

(1) الأنبياء آية : ١٠٧ . (2) إبراهيم آية : ٢٧ .

(3) أخرجه مسلم فى الجنة وصفة نعيمها ٤/ ٢٢٠٠ (٦٧) . وأحمد فى المسند : ٣/٣، ٢٣٣ .

(4) الأنعام : آية ٣٨ .

(5) أخرجه ابن ماجه فى الصيد ٢/ ١٠٦٩ (٣٢٠٥) .

النمل فأحرقت ، فأوحى الله إليه من أجل أن قرصتك نملة واحدة أحرقت أمة من الأمم تسبح الله [١] . وإن كان المراد به أمتى صلى الله عليه وآله وسلم ، الذى بعث فيهم لم يكن فيه ما ينفى سؤال غيرهم من الأمم ، بل قد يكون ذكرهم إخباراً بأنهم مسئولون فى قبورهم ، وأن ذلك لا يختص بمن قبلهم لفضل رسول الله هذه الأمة وشرفها على سائر الأمم ، وكذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « أوحى إلى أنكم تفتنون فى قبوركم » [٢] . وكذلك إخباره عن قول الملكين : ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ هو إخبار لأمته بما تمتحن به فى قبورها ، والظاهر واللَّه أعلم أن كل نبى مع أمته كذلك وأنهم معذبون فى قبورهم بعد السؤال لهم وإقامة الحجة عليهم ، كما يعذبون فى الآخرة بعد السؤال وإقامة الحجة . واللَّه سبحانه وتعالى أعلم .

* * *

فصل

﴿ المسألة الثالثة عشرة ﴾

[الأطفال هل يمتحنون فى قبورهم ؟]

وأما المسألة الثالثة عشرة وهى أن الأطفال هل يمتحنون فى قبورهم .

اختلف الناس فى ذلك على قولين : هما وجهان لأصحاب أحمد .

وحجة من قال إنهم يسألونه أنه يشرع الصلاة عليهم والدعاء لهم وسؤال الله أن يقيهم عذاب القبر وفتنة القبر .

كما ذكر مالك فى موطئه عن أبى هريرة رضى الله عنه : « أنه صلى الله عليه وآله وسلم صلى على جنازة صبى فسمع من دعائه : اللهم أعذه من عذاب القبر »[٣] .

واحتجوا بما رواه على بن معبد عن عائشة رضى الله عنها ، أنه مر عليها بجنازة صبى صغير فبكت ، فقيل لها : ما يبكيك يا أم المؤمنين ؟ فقالت : هذا الصبى بكيت له شفقة عليه من ضمة القبر [٤] .

---

(١) أخرجه البخارى فى الجهاد ٦/١٧٨ (٣٠١٩) . ومسلم فى السلام ٤/١٧٥٩ (١٤٨) . وغيرهما .

(٢) سبق تخريجه فى الصفحة السابقة .

(٣) أخرجه مالك فى الموطأ .   (٤) سبق تخريجه .

واحتجوا بما رواه هناد بن السرى : ثنا أبو معاوية ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : إن كان ليصلى على النفوس ما إن عمل خطيئة قط ، فيقول : اللهم أجره من عذاب القبر . قالوا واللّه سبحانه يكمل لهم عقولهم ليعرفوا بذلك منزلتهم ويلهمون الجواب عما يسألون عنه . قالوا: وقد دل على ذلك الأحاديث الكثيرة ، التى فيها أنهم يمتحنون فى الآخرة .

وحكاه الأشعرى عن أهل السنة والحديث : فإذا امتحنوا فى الآخرة لم يمتنع امتحانهم فى القبور .

قال الآخرون : السؤال إنما يكون لمن عقل الرسول والمرسل ، فيسأل هل آمن بالرسول وأطاعه أم لا ؟ فيقال له : ما كنت تقول فى هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فأما الطفل الذى لا تمييز له بوجه ما فكيف يقال له : ما كنت تقول فى هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ ولو رد إليه عقله فى القبر ، فإنه لا يسأل عما لم يتمكن من معرفته والعلم به ، ولا فائدة فى هذا السؤال ، وهذا بخلاف امتحانهم فى الآخرة ، فإن الله سبحانه يرسل إليهم رسولاً ويأمرهم بطاعة أمره وعقولهم معهم ، فمن أطاعه منهم نجا ، ومن عصاه أدخله النار ، فذلك امتحان بأمر يأمرهم به ويفعلونه ذلك الوقت لأنه سؤال عن أمر مضى لهم فى الدنيا من طاعة أو عصيان ، كسؤال الملكين فى القبر .

وأما حديث أبى هريرة رضى الله عنه فليس المراد بعذاب القبر في عقوبة الطفل على ترك طاعة أو فعل معصية قطعاً ، فإن الله لا يعذب أحداً بلا ذنب عمله ، بل عذاب القبر قد يراد به الألم الذى يحصل للميت بسبب غيره ، وإن لم يكن عقوبة على عمل عمله ، ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه » . أى يتألم بذلك ويتوجه منه لا أنه يعاقب بذنب الحى ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ . وهذا كقول النبى ﷺ : « السفر قطعة من العذاب » فالعذاب أعم من العقوبة .

ولا ريب أن فى القبر من الآلام والهموم والحسرات ما قد يسرى أثره إلى الطفل، فيتألم به فيشرع للمصلى عليه أن يسأل الله تعالى له أن يقيه ذلك العذاب . واللّه أعلم .

❊ ❊ ❊

فصل

﴿ المسألة الرابعة عشرة ﴾

[هل عذاب القبر دائم أو منقطع ؟]

وأما المسألة الرابعة عشرة وهى قوله : هل عذاب القبر دائم أو منقطع ؟

فجوابها أنه نوعان : نوع دائم . سوى ما ورد فى بعض الأحاديث أنه يخفف عنهم ما بين النفختين ، فإذا قاموا من قبورهم قالوا : ﴿ يَوَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا من مَّرْقَدِنَا هَذَا ﴾ (١) .

ويدل على دوامه قوله تعالى : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًا وَعَشِيًا ﴾ (٢) ويدل عليه ما تقدم فى حديث سمرة ، الذى رواه البخارى فى رؤيا النبى ﷺ ، وفيه : «فهو يفعل به ذلك إلى يوم القيامة » (٣) . وفى حديث ابن عباس فى قصة الجريدتين لعله يخفف عنهما ما لم تيبسا (٤) . فجعل التخفيف مقيداً بمدة رطوبتهما فقط . وفى حديث الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى هريرة : « ثم أتى على قوم ترضخ رءوسهم بالصخر ، كلما رضخت عادت ، لا يفتر عنهم من ذلك شئ » (٥) . وقد تقدم. فى الصحيح فى قصة الذى لبس بردين وجعل يمشى يتبختر فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة .

وفى حديث البراء بن عازب فى قصة الكافر : « ثم يفتح له باب النار فينظر إلى مقعده فيها حتى تقوم الساعة » . رواه الإمام أحمد فى بعض طرقه : « ثم يخرق له خرقاً إلى النار فيأتيه من غمها ودخانها إلى يوم القيامة » (٦) .

النوع الثانى : إلى مدة ثم ينقطع ، وهو عذاب بعض العصاة الذين خفت جرائمهم فيعذب بحسب جرمه ، ثم يخفف عنه كما يعذب فى النار مدة ، ثم يزول عنه العذاب . وقد ينقطع عنه العذاب بدعاء أو صدقة أو استغفار أو ثواب حج أو قراءة تصل إليه من بعض أقاربه أو غيرهم ، وهذا كما يشفع الشافع فى المعذب فى الدنيا فيخلص من العذاب بشفاعته ، ولكن هذه شفاعة قد لا تكون بذلك بإذن

---

(١) يس آية : ٥٢ . (٢) غافر آية : ٤٦ .

(٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦) هذه الأحاديث سبق تخريجها .

المشفوع عنده ، واللّه سبحانه وتعالى لا يتقدم أحد بالشفاعة بين يديه إلا من بعد إذنه، فهو الذى يأذن للشافع أن يشفع إذا أراد أن يرحم المشفوع له ، ولا تغتر بغير هذا ، فإنه شرك وباطل يتعالى الله عنه ، ﴿ مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ (١) .
﴿وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى ﴾ (٢) . ﴿ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ (٣) .
﴿وَلاَ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ (٤) . ﴿ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (٥) .

وقد ذكر ابن أبى الدنيا : حدثنى محمد بن موسى الصائغ ، ثنا عبد الله بن نافع قال : مات رجل من أهل المدينة ، فرآه رجل كأنه من أهل النار ، فاغتم لذلك ثم إنه بعد ساعة أو ثانية رآه كأنه من أهل الجنة ، فقال : ألم تكن قلت إنك من أهل النار؟ قال : قد كان ذلك إلا أنه دفن معنا رجل من الصالحين فشفع فى أربعين من جيرانه، فكنت أنا منهم .

قال ابن أبى الدنيا : وحدثنا أحمد بن يحيى قال : حدثنى بعض أصحابنا قال : مات أخى فرأيته فى النوم ، فقلت : ما كان حالك حين وضعت فى قبرك ؟ قال : أتانى آت بشهاب من نار فلولا أن داعياً دعا لى لرأيت أنه سيضربنى به .

وقال عمرو بن جرير : إذا دعا العبد لأخيه الميت أتاه بها ملك إلى قبره فقال : ياصاحب القبر الغريب ، هدية من أخ عليك شفيق .

وقال بشار بن غالب : رأيت رابعة فى منامى ، وكنت كثير الدعاء لها ، فقالت لى : يا بشار بن غالب هداياك تأتينا على أطباق من نور مخمرة بمناديل الحرير ، قلت: وكيف ذلك ؟ قالت : هكذا دعاء المؤمنين الأحياء ، إذا دعوا للموتى استجيب لهم وجعل ذلك الدعاء على أطباق النور وخمر بمناديل الحرير ، ثم أتى بها الذى دعى له من الموتى ، فقيل : هذه هدية فلان إليك .

قال ابن أبى الدنيا : وحدثنا أبو عبد بن بحير ، قال : حدثنى بعض أصحابنا ، قال : رأيت أخاً لى فى النوم بعد موته فقلت : أيصل إليكم دعاء الأحياء ؟ قال :

---

(١) البقرة آية : ٢٥٥ . (٢) الأنبياء آية : ٢٨ . (٣) يونس آية : ٣ .
(٤) سبأ آية : ٢٣ . (٥) الزمر آية : ٤٤ .

أى واللّه يترفرف مثل النور ثم نلبسه . وسيأتى - إن شاء الله تعالى - تمام لهذه فى جواب السؤال عن انتفاع الأموات بما تهديه إليهم الأحياء .

* * *

فصل

﴿ المسألة الخامسة عشرة ﴾

[أين مستقر الأرواح ما بين الموت إلى يوم القيامة ؟]

وأما المسألة الخامسة عشرة وهى : أين مستقر الأرواح ما بين الموت إلى يوم القيامة؟ هل هى فى السماء أم فى الأرض ؟ وهل هى فى الجنة والنار أم لا ؟ وهل تودع فى أجساد غير أجسادها التى كانت فيها فتنعم وتعذب فيها أم تكون مجردة ؟

فهذه مسألة عظيمة تكلم فيها الناس واختلفوا فيها ، وهى إنما تتلقى من السمع فقط، واختلف فى ذلك . فقال قائلون : أرواح المؤمنين عند الله فى الجنة شهداء كانوا أم غير شهداء ، إذا لم يحبسهم عن الجنة كبيرة ولا دين ، وتلقاهم ربهم بالعفو عنهم والرحمة لهم ، وهذا مذهب أبى هريرة وعبد الله بن عمر رضى الله عنهم .

وقالت طائفة : هم بفناء الجنة على بابها يأتيهم من روحها ونعيمها ورزقها .

وقالت طائفة : الأرواح على أفنية قبورها .

وقال مالك : بلغنى أن الروح مرسلة تذهب حيث شاءت .

وقال الإمام أحمد فى رواية ابنه عبد الله : أرواح الكفار فى النار . وأرواح المؤمنين فى الجنة .

وقال أبو عبد الله بن منده : وقالت طائفة من الصحابة والتابعين : أرواح المؤمنين عند الله عز وجل ، ولم يزيدوا على ذلك . قال : وروى عن جماعة من الصحابة والتابعين أن أرواح المؤمنين بالجابية وأرواح الكفار ببرهوت بئر بحضرموت .

وقال صفوان بن عمرو : سألت عامر بن عبد الله أبا اليمان : هل لأنفس المؤمنين مجتمع ؟ فقال : إن الأرض التى يقول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصَّـٰلِحُونَ ﴾ . قال : هى الأرض التى يجتمع إليها

أرواح المؤمنين حتى يكون البعث ، وقالوا : هى الأرض التى يورثها الله المؤمنين فى الدنيا . وقال كعب : أرواح المؤمنين فى عليين فى السماء السابعة . وأرواح الكفار فى سجين فى الأرض السابعة تحت خد إبليس .

وقالت طائفة : أرواح المؤمنين ببئر زمزم ، وأرواح الكفار ببئر برهوت .

وقال سلمان الفارسى : أرواح المؤمنين فى برزخ من الأرض تذهب حيث شاءت وأرواح الكفار فى سجين . وفى لفظ عنه : نسمة المؤمنين تذهب فى الأرض حيث شاءت . وقالت طائفة : أرواح المؤمنين عن يمين آدم وأرواح الكفار عن شماله .

وقالت طائفة أخرى ، منهم ابن حزم : مستقرها حيث كانت قبل خلق أجسادها . قال : والذى نقول به فى مستقر الأرواح هو ما قاله الله عز وجل ونبيه ﷺ ، لا نتعداه ، فهو البرهان الواضح ، وهو أن الله عز وجل قال : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ اسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ ﴾ . فصح أن الله تعالى خلق الأرواح جملة ، وكذلك أخبر صلى الله عليه وآله وسلم : « أن الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » ، وأخذ الله عهدها وشهادتها له بالربوبية وهى مخلوقة مصورة عاقلة ، قبل أن يأمر الملائكة بالسجود لآدم ، وقبل أن يدخلها فى الأجساد - والأجساد يومئذ تراب وماء - ثم أقرها حيث شاء ، وهو البرزخ الذى ترجع إليه عند الموت ، ثم لا يزال يبعث منها الجملة بعد الجملة فينفخها فى الأجساد المتولدة من المنى ، إلى أن قال : فصح أن الأرواح أجساد حاملة لأعراضها من التعارف والتناكر ، وأنها عارفة مميزة فيبلوهم الله فى الدنيا كما يشاء ثم يتوفاها فترجع إلى البرزخ الذى رآها فيه رسول الله ﷺ ليلة أسرى به عند سماء الدنيا أرواح أهل السعادة عن يمين آدم وأرواح أهل الشقاوة عن يساره ، وذلك عند منقطع العناصر ، ويعجل أرواح الأنبياء والشهداء إلى الجنة .

وقال : وقد ذكر محمد بن نصر المروزى ، عن إسحاق بن راهويه أنه ذكر هذا الذى قلنا بعينه . قال : وعلى هذا أجمع أهل العلم . قال ابن حزم - وهو قول جميع أهل الإسلام - قال : وهذا هو قول الله تعالى : ﴿ فَأَصْحَـٰبُ الْمَيْمَنَةِ مَا

أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْئَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْئَمَةِ * وَالسَّبِقُونَ السَّبِقُونَ * أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ ﴾ (1) . وقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ (2) إلى آخرها. فلا تزال الأرواح هنالك حتى يتم عدد الأرواح كلها بنفخها فى الأجساد ، ثم برجوعها إلى البرزخ ، فتقوم الساعة ويعيد الله عز وجل الأرواح إلى أجسادها ثانية ، وهى الحياة الثانية ويحاسب الخلق : فريق فى الجنة وفريق فى السعير مخلدين أبداً ، انتهى .

وقال أبو عمر بن عبد البر : أرواح الشهداء فى الجنة وأرواح عامة المؤمنين على أفنية قبورهم ، ونحن نذكر كلامه وما احتج به ، ونبين ما فيه .

وقال ابن المبارك عن ابن جريج ، فيما قرئ عليه عن مجاهد : ليس هى فى الجنة ولكن يأكلون من ثمارها ويجدون ريحها .

وذكر معاوية بن صالح ، عن سعيد بن سويد ، أنه سأل ابن شهاب عن أرواح المؤمنين فقال : بلغنى أن أرواح الشهداء كطير خضر معلقة بالعرش تغدو وتروح إلى رياض الجنة ، تأتى ربها فى كل يوم تسلم عليه .

وقال أبو عمر بن عبد البر فى شرح حديث ابن عمر : « إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، يقال له : مقعدك حتى يبعثك الله إلى يوم القيامة »(3) .

قال : وقد استدل به من ذهب إلى أن الأرواح على أفنية القبور وهو أصح ما ذهب إليه فى ذلك . والله أعلم .

[الأرواح على أفنية القبور سبعة أيام]

قال : والمعنى عندى أنها قد تكون على أفنية قبورها ، لا على أنها تلزم ولا تفارق أفنية القبور ، كما قال مالك رحمه الله : إنه بلغنا أن الأرواح تسرح حيث شاءت .

---

(1) الواقعة الآيات : ٨ - ١٤ . (2) الواقعة الآيات : ٨٨ - ٨٩ . (3) سبق تخريجه .

قال : وعن مجاهد أنه قال : الأرواح على أفنية القبور سبعة أيام من يوم دفن الميت لا تفارق ذلك . والله أعلم .

وقالت فرقة : مستقرها العدم المحض ، وهذا قول من يقول : إن النفس عرض من أعراض البدن . كحياته وإدراكه فتعدم بموت البدن ، كما تعدم سائر الأعراض المشروطة بحياته ، وهذا قول مخالف لنصوص القرآن والسنة وإجماع الصحابة والتابعين ، كما سنذكر ذلك إن شاء الله .

والمقصود : أن عند هذه الفرقة المبطلة أن مستقر الأرواح بعد الموت العدم المحض وقالت فرقة : مستقرها بعد الموت أرواح أخر تناسب أخلاقها وصفاتها التى اكتسبتها فى حال حياتها ، فتصير كل روح إلى بدن حيوان يشاكل تلك الأرواح ، فتصير النفس السبعية إلى أبدان السباع ، والكلبية إلى أبدان الكلاب ، والبهيمية إلى أبدان البهائم ، والدنية والسفلية إلى أبدان الحشرات ، وهذا قول المناخسة منكرى المعاد ، وهو قول خارج عن أقوال أهل الإسلام كلهم . فهذا ما تلخص لى من جمع أقوال الناس فى مصير أرواحهم بعد الموت ، ولا تظفر به مجموعاً فى كتاب واحد ، غير هذا ألبتة ، ونحن نذكر مأخذ هذه الأقوال ، وما لكل قول وما عليه ، وما هو الصواب من ذلك الذى دل عليه الكتاب والسنة على طريقتنا التى من الله بها ، وهو مرجو الإعانة والتوفيق .

فصل

[بيان قول من قال إن الأرواح فى الجنة]

فأما من قال هى فى الجنة فاحتج بقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ (١) قال وهذا ذكره سبحانه عقيب ذكر خروجهما من البدن بالموت . وقسم الأرواح إلى ثلاثة أقسام : (مقربين ﴾ وأخبر أنها فى جنة النعيم ، وأصحاب يمين وحكم لها بالسلام ، وهو يتضمن سلامتها من العذاب ،ومكذبة ضالة وأخبر أن لها نزلاً من حميم وتصلية جحيم ، قالوا : وهذا بعد مفارقتها للبدن قطعاً.

---

(١) الواقعة الآيات : ٨٨ - ٨٩ .

وقد ذكر سبحانه حالها يوم القيامة فى أول السورة فذكر حالها بعد الموت ، وبعد البعث واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ يَأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِى إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِى فِى عِبَدِى * وَادْخُلِى جَنَّتِى ﴾ .

وقد قال غير واحد من الصحابة والتابعين : أن هذا يقال لها عند خروجها من الدنيا يبشرها الملك بذلك ، ولا ينافى ذلك قول من قال : إن هذا يقال لها فى الآخرة فإنه يقال لها عند الموت ، وعند البعث ، وهذه من البشرى التى قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ الْمَلَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُواْ ولاَ تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِالْجَنَّةِ الَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (١) .

وهذا التنزل يكون عند الموت ويكون فى القبر ويكون عند البعث ، وأول بشارة الآخرة عند الموت . وقد تقدم فى حديث البراء بن عازب : أن الملك يقول لها عند قبضها : أبشرى بروح وريحان ، وهذا من ريحان الجنة .

واحتجوا بما رواه مالك فى الموطأ عن ابن شهاب عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك أنه أخبره أن أباه كعب بن مالك ، كان يحدث أن رسول الله ﷺ قال : « إنما نسمة المؤمن طير يَعْلَقْ فى شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه » (٢) .

قال أبو عمر فى رواية مالك هذه : بيان سماع الزهرى لهذا الحديث من عبد الرحمن بن كعب بن مالك ، وكذلك رواه يونس عن الزهرى ، قال : سمعت عبد الرحمن بن كعب بن مالك يحدث عن أبيه . وكذلك رواه الأوزاعى عن الزهرى حدثنى عبد الرحمن بن كعب . وقد أعل محمد بن يحيى الذهلى هذا الحديث بأن شعيب بن أبى حمزة ومحمد بن أخى الزهرى ، وصالح بن كيسان ، رووه عن الزهرى عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك ، عن جده كعب ، فيكون منقطعاً .

وقال صالح بن كيسان : عن ابن شهاب عن عبد الرحمن أنه بلغه أن كعب بن مالك كان يحدث ، قال الذهلى : وهذا المحفوظ عندنا ، وهو الذى يشبهه حديث

(١) فصلت آية : ٣ .

(٢) أخرجه النسائى فى الجنائز ١٠٨/٤ . وابن ماجه فى الزهد ١٤٢٨/٢ (٤٢٧١) . ومالك فى الموطأ ٢٤٠/١ (٤٩) . وأحمد: ٤٥٥/٣ ، ٤٥٦ ، ٤٦٠ . ونسمة المؤمن : قال القرطبى : أى روح المؤمن الشهيد.

صالح وشعيب ، وابن أخى الزهرى ، وخالفه فى هذا غيره من الحفاظ ، فحكموا لمالك والأوزاعى ، قال أبو عمر : فاتفق مالك ويونس بن يزيد الأوزاعى والحارث ابن فضيل على رواية الحديث عن الزهرى عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه وصححه الترمذى وغيره .

قال أبو عمر : ولا وجه عندى لما قاله محمد بن يحيى من ذلك ولا دليل عليه ، واتفاق مالك ويونس بن يزيد والأوزاعى ومحمد بن إسحاق أولى بالصواب ، والنفس إلى قولهم وروايتهم أسكن ، وهم من الحفظ والإتقان بحيث لا يقاس بهم من خالفهم فى هذا الحديث . انتهى .

وقد قال محمد الذهلى : سمعت على بن المدينى ، يقول : ولد كعب خمسة : عبد الله ، وعبيد الله ، ومعبد ، وعبد الرحمن ، ومحمد ، قال الذهلى : فسمع الزهرى من عبد الله بن كعب وكان قائد أبيه حين عمى ، وسمع من عبد الرحمن بن عبد الله ابن كعب ، وروى عن بشير بن عبد الرحمن بن كعب ولا أراه سمع منه . انتهى .

فالحديث إن كان لعبد الرحمن عن أبيه كعب كما قال مالك ومن معه فظاهر ، وإن كان لعبد الرحمن بن عبد الله بن كعب عن جده كما قال شعيب ومن معه فنهايته أن يكون مرسلاً من هذا الطريق ، وموصولاً من الأخرى والذين وصلوه ليسوا بدون الذين أرسلوه قدراً ولا عدداً ، فالحديث من صحاح الأحاديث وإنما لم يخرجه صاحبا الصحيح لهذه العلة ، واللَّه أعلم .

قال أبو عمر : وأما قوله : نسمة المؤمن ، فالنسمة هاهنا الروح يدل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم فى الحديث نفسه « حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه » .

وقيل : النسمة الروح والنفس والبدن ، وأصل هذه اللفظة أعنى النسمة الإنسان بعينه ، وإنما قيل للروح نسمة واللَّه أعلم . لأن حياة الإنسان بروحه ، وإذا فارقه عدم أو صار كالمعدوم ، والدليل على أن النسمة الإنسان قوله صلى الله عليه وسلم « من أعتق نسمة مؤمنة » [1] .

---

(١) أخرجه البخارى فى العتق ٥/ ١٧٤ (٢٥١٧) . ومسلم فى العتق ٢/ ١١٤٧ (٢١-٢٣) . لكن بلفظ : امرأ ، أو رجل .

وقول على رضى الله عنه : والذى فلق الحبة وبرأ النسمة .

وقال الشاعر :

بأعظم منك تقى فى الحساب ... إذا النسمـــات نفضن الغبارا

يعنى إذا بعث الناس من قبورهم يوم القيامة .

وقال الخليل بن أحمد : النسمة الإنسان ، قال : والنسمة الروح ، والنسيم : هبوب الريح ، وقوله : تعلق فى شجر الجنة : تروى بفتح اللام ، وهو الأكثر ، وتروى بضم اللام والمعنى واحد ، وهو الأكل والرعى ، يقول تأكل من ثمار الجنة وتسرح بين أشجارها ، والعلوقة والعلوق : الأكل والرعى ، تقول العرب : ما ذاق اليوم علوقا أى طعاما .

قال الربيع بن زياد يصف الخيل :

ومجنبـــات مـا يذقن علوقة ... يمصعن بالمهـــرات والأمهار

وقال الأعشى :

وفلاة كـــأنها ظهر تـرس ... ليس فيها إلا الرجيع علاق

قلت : ومنه قول عائشة : والنساء إذ ذاك خفاف لم يغشهن اللحم إنما يأكلن العلقة من الطعام ، وأصل اللفظة من التعلق وهو ما يعلق القلب والنفس من الغذاء .

قال : واختلف العلماء فى معنى هذا الحديث فقال قائلون منهم : أرواح المؤمنين عند الله فى الجنة شهداء كانوا أم غير شهداء إذا لم يحبسهم عن الجنة كبيرة ولا دين، وتلقاهم ربهم بالعفو عنهم والرحمة لهم . قال : واحتجوا بأن هذا الحديث لم يخص فيه شهيداً من غير شهيد .

واحتجوا أيضاً بما روى عن أبى هريرة : أن أرواح الأبرار فى عليين ، وأرواح الفجار فى سجين .

وعن عبد الله بن عمر مثل ذلك . قال أبو عمر : وهذا قول يعارضه من السنة ما لا يدفع فى صحة نقله وهو قوله : « إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده بالغداة والعشى ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار يقال له : هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة » .

وقال آخرون : إنما معنى هذا الحديث فى الشهداء دون غيرهم ، لأن القرآن والسنة إنما يدلان على ذلك .

أما القرآن فقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَتَا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَآءَاتَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ (1) .

وأما الآثار فذكر حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، من طريق بقى بن مخلد مرفوعاً : « الشهداء يغدون ويروحون ، ثم يكون مأواهم إلى قناديل معلقة بالعرش ، فيقول لهم الرب تبارك وتعالى : هل تعلمون كرامة أفضل من كرامة أكرمتكموها ؟ فيقولون : لا . غير أنا وددنا أنك أعدت أرواحنا فى أجسادنا حتى نقاتل مرة أخرى ، فنقتل فى سبيلك » رواه عن هناد ، عن إسماعيل بن المختار ، عن عطية عنه .

ثم ساق حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « لما أصيب إخوانكم يعنى يوم أُحد ، جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب مدلاة فى ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا : من يبلغ إخواننا أننا أحياء فى الجنة نرزق لئلا ينكلوا عن الحرب ولا يزهدوا فى الجهاد . فقال الله عز وجل : أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَتَا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ .

والحديث فى مسند أحمد وسنن أبى داود .

ثم ذكر حديث الأعمش ، عن عبد الله بن مرة ، عن مسروق قال : سألنا عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه عن هذه الآية ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَتَا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ فقال : أما إنَّا قد سألنا عن ذلك فقال : أرواحهم فى جوف طير خضر تسرح فى الجنة فى أيها شاءت ، ثم تأوى إلى تلك القناديل ، فاطلع إليهم ربك إطلاعة فقال : هل تشتهون شيئاً ؟ قالوا : وأى شئ نشتهى ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات ، فلما رأوا أنهم لم يتركوا من أن يسألوا قالوا : يارب نريد أن نرد أرواحنا فى أجسادنا حتى نقتل فى سبيلك مرة أخرى ، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا ، والحديث فى صحيح مسلم .

---

(1) آل عمران آية : ١٦٩ - ١٧٠ .

قلت : وفى صحيح البخارى عن أنس ، أن أم الربيع بنت البراء - وهى أم حارثة ابن سراقة - أتت النبى ﷺ ، فقال : يا نبى الله ، ألا تحدثنى عن حارثة - وكان قتل يوم بدر أصابه سهم غرب - فإن كان فى الجنة صبرت ، وإن كان فى غير ذلك اجتهدت عليه فى البكاء ، قال : « يا أم حارثة إنها جنان ، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى » .

ثم ساق من طريق بقى بن مخلد ، حدثنا يحيى بن عبد الحميد ، ثنا ابن عيينة ، عن عبيد الله بن أبى يزيد ، سمع ابن عباس يقول : أرواح الشهداء تجول فى أجواف طير خضر تعلق فى ثمر الجنة .

ثم ذكر عن معمر ، عن قتادة قال : بلغنا أن أرواح الشهداء فى صور طير بيض تأكل من ثمار الجنة .

ومن طريق أبى عاصم النبيل ، عن ثور بن يزيد ، عن خالد بن معدان ، عن عبد الله ابن عمرو : أرواح الشهداء فى طير كالزرازير ، يتعارفون ويرزقون من ثمر الجنة .

قال أبو عمر : هذه الآثار كلها تدل على أنهم الشهداء دون غيرهم ، وفى بعضها فى صور طير ، وفى بعضها : فى أجواف طير ، وفى بعضها : كطير خضر . قال: والذى يشبه عندى - واللَّه أعلم - أن يكون القول قول من قال : كطير أو صور طير لمطابقته لحديثنا المذكور - يريد حديث كعب بن مالك - وقوله : فيه نسمة المؤمن كطائر ولم يقل فى جوف طائر .

قال : وروى عيسى بن يونس حديث ابن مسعود ، عن الأعمش ، عن عبد الله بن مرة ، عن مسروق ، عن عبد الله : كطير خضر .

قلت : والذى فى صحيح مسلم : فى أجواف طير خضر .

قال أبو عمر : فعلى هذا التأويل كأنه صلى الله عليه وآله وسلم قال : « إنما نسمة المؤمن من الشهداء طائر يعلق فى شجر الجنة » .

قلت : لا تنافى بين قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « نسمة المؤمن طائر يعلق فى شجر الجنة » وبين قوله : « إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى إن كان من أهل الجنة ، فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار » وهذا الخطاب يتناول الميت على فراشه والشهيد .

كما أن قوله : « نسمة المؤمن طائر يعلق فى شجر الجنة » يتناول الشهيد وغيره ومع كونه يعرض عليه مقعده بالغداة والعشى ، ترد روحه أنهار الجنة وتأكل من ثمارها . وأما المقعد الخاص به والبيت الذى أعد له ، فإنه إنما يدخله يوم القيامة ويدل عليه أن منازل الشهداء ودورهم وقصورهم التى أعد الله لهم ليست هى تلك القناديل التى تأوى إليها أرواحهم فى البرزخ قطعاً ، فهم يرون منازلهم ومقاعدهم من الجنة ، ويكون مستقرهم فى تلك القناديل المعلقة بالعرش ، فإن الدخول التام الكامل إنما يكون يوم القيامة ، ودخول الأرواح الجنة فى البرزخ أمر دون ذلك .

ونظير هذا أهل الشقاء تعرض أرواحهم على النار غدواً وعشياً ، فإذا كان يوم القيامة دخلوا منازلهم ومقاعدهم التى كانوا يعرضون عليها فى البرزخ ، فتنعم الأرواح بالجنة فى البرزخ شئ وتنعمها مع الأبدان بها يوم القيامة شئ آخر ، فغذاء الروح من الجنة فى البرزخ دون غذائها مع بدنها يوم البعث . ولهذا قال : « تعلق فى شجر الجنة » أى تأكل العلقة ، وتمام الأكل والشرب واللبس والتمتع فإنما يكون إذا ردت إلى أجسادها يوم القيامة ، فظهر أنه لا يعارض هذا القول من السنن شئ وإنما تعاضده السنة وتوافقه .

وأما قول من قال : إن حديث كعب فى الشهداء دون غيرهم ، فتخصيص ليس فى اللفظ ما يدل عليه ، وهو حمل اللفظ العام على أقل مسمياته ، فإن الشهداء بالنسبة إلى عموم المؤمنين قليل جداً ، والنبى ﷺ علق هذا الجزاء بوصف الإيمان فهو المقتضى له ولم يعلقه بوصف الشهادة . ألا تري أن الحكم الذى بالشهداء علق بوصف الشهادة . كقوله فى حديث المقدام بن معديكرب : « للشهيد عند الله ست خصال : يغفر له فى أول دُفْعَة من دمه . ويرى مقعده من الجنة . ويحلى حلة الإيمان ويزوج من الحور العين . ويجار من عذاب القبر . ويأمن من الفزع الأكبر . ويوضع على رأسه تاج الوقار الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها . ويزوج اثنتين وسبعين من الحور العين . ويشفع فى سبعين إنساناً من أقاربه » [١] .

فلما كان هذا يختص بالشهيد قال : إن للشهيد ، ولم يقل إن للمؤمن .

---

(١) أخرجه الترمذى من فضائل الجهاد ٤/ ١٦١ (١٦٦٣) وقال حسن صحيح غريب وابن ماجه فى الجهاد ٢/ ٩٣٦ (٢٧٩٩) . وأحمد فى المسند : ٤/ ١٣١ ، ٢٠٠ .

وكذلك قوله فى حديث قيس الجذامى : « يعطى الشهيد ست خصال » ، وكذلك سائر الأحاديث والنصوص التى علق فيها الجزاء بالشهادة ، وأما ما علق فيه الجزاء بالإيمان ، فإنه يتناول كل مؤمن شهيداً أو غير شهيد .

وأما النصوص والآثار التى ذكرت فى رزق الشهداء وكون أرواحهم فى الجنة ، فكلها حق ، وهى لا تدل على انتفاء دخول أرواح المؤمنين الجنة ، ولا سيما الصديقين الذين هم أفضل من الشهداء بلا نزاع بين الناس ، فيقال لهؤلاء : ما تقولون فى أرواح الصديقين هل هى فى الجنة أم لا ؟ فإن قالوا : إنها فى الجنة ، ولا يسوغ لهم غير هذا القول ، فثبت أن هذه النصوص لا تدل على اختصاص أرواح الشهداء بذلك.

وإن قالوا : ليست فى الجنة ، لزمهم من ذلك أن تكون أرواح سادات الصحابة كأبى بكر الصديق ، وأبى بن كعب ، وعبد الله بن مسعود ، وأبى الدرداء وحذيفة ابن اليمان وأشباههم رضى الله عنهم ليست فى الجنة وأرواح شهداء زماننا فى الجنة . وهذا معلوم البطلان ضرورة . فإن قيل : فإذا كان هذا حكم [1] لا يختص بالشهداء، فما الموجب لتخصيصهم بالذكر فى هذه النصوص ؟

قلت : التنبيه على فضل الشهادة وعلو درجتها ، وأن هذا مضمون لأهلها ولابد وأن لهم منه أوفر نصيب . فنصيبهم من هذا النعيم فى البرزخ أكمل من نصيب غيرهم من الأموات على فرشهم ، وإن كان الميت على فراشه أعلى درجة منهم فله نعيم يختص به ولا يشاركه فيه من هو دونه ؛ ويدل على هذا أن الله سبحانه جعل أرواح الشهداء فى أجواف طير خضر ، فإنهم بذلوا أنفسهم لله حتى أتلفها أعداؤه فيه أعاضهم منها فى البرزخ أبداناً خيراً منها تكون فيها إلى يوم القيامة ، ويكون نعيمها بواسطة تلك الأبدان أكمل من نعيم الأرواح المجردة عنها ، ولهذا كانت نسمة المؤمن فى صورة طير أو كطير ، ونسمة الشهيد فى جوف طير ، وتأمل لفظ الحديثين فإنه قال : « نسمة المؤمن طير » فهذا يعم الشهيد وغيره ، ثم خص الشهيد بأن قال : «فى جوف طير » ، ومعلوم أنها إذا كانت فى جوف طير صدق عليها أنها طير ، فصلوات الله وسلامه على من يصدق كلامه بعضه بعضاً ، ويدل على أنه حق من عند الله ، وهذا الجمع أحسن من جمع أبى عمر وترجيحه رواية من روى أرواحهم ،

---

(١) صوابه : حكماً : لأنه خبر كان .

كطير خضر ، بل الروايتان حق وصواب ، فهى كطير خضر ، وفى أجواف طير خضر .

❊ ❊ ❊

فصل

[بيان قول مجاهد إن الأرواح ليست فى الجنة]

وأما قول مجاهد ليس هى فى الجنة ، ولكن يأكلون ثمارها ويجدون ريحها ، فقد يحتج لهذا القول بما رواه الإمام أحمد فى مسنده من حديث ابن إسحاق عن عاصم ابن عمرو ، عن محمود بن لبيد ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «الشهداء على بارق [1] نهر بباب الجنة فى قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشية » وهذا لا ينافى كونهم فى الجنة ، فإن ذلك النهر من الجنة ورزقهم يخرج عليهم من الجنة ؛ فهم فى الجنة ، وإن لم يصيروا إلى مقاعدهم منها ، فمجاهد نفى الدخول الكامل من كل وجه والتعبير يقصر عن الإحطاة بتمييز هذا من هذا وأكمل العبارة وأدلها على المراد عبارة رسول الله ﷺ ، ثم عبارة أصحابه ؛ وكلما علوت رأيت الشفاء والهدى والنور وكلما نزلت رأيت الحيرة والدعاوى والقول بلا علم [2] .

قال أبو عبد الله بن منده ، وروى موسى بن عبدة عن عبد الله بن يزيد عن أم كبشة بنت المعرور قالت : دخل علينا رسول الله ﷺ ، فسألناه عن هذه الأرواح ؛ فوصفها صفة أبكى أهل البيت ، فقال : « إن أرواح المؤمنين فى حواصل طير خضر ترعى فى الجنة ، وتأكل من ثمارها وتشرب من مائها ، وتأوى إلى قناديل من ذهب تحت العرش ؛ يقولون : ربنا ألحق بنا إخواننا وآتنا ما وعدتنا . وإن أرواح الكفار فى حواصل طير سود تأكل من النار وتشرب من النار وتأوى إلى حجر فى النار . يقولون : ربنا لا تلحق بنا إخواننا ولا تؤتنا ما وعدتنا » .

وقال الطبرانى : حدثنا أبو زرعة الدمشقى ، ثنا عبد الله بن صالح ، حدثنى معاوية ابن صالح ، عن ضمرة بن حبيب ، قال سئل النبى ﷺ عن أرواح المؤمنين ، فقال : « فى طير خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت » ، قالوا : يا رسول الله ؛ أرواح الكفار ؟

---

(١) بارق : البريق : اللمعان

(٢) أخرجه أحمد فى المسند : ١/٢٦٦ .

قال : « محبوسة فى سجين » رواه أبو الشيخ عن هشام بن يونس عن عبد الله بن صالح ، ورواه أبو المغيرة عن أبى بكر بن أبى مريم عن ضمرة بن حبيب .

وذكر أبو عبد الله بن منده من حديث غنجار عن الثورى عن ثور بن يزيد عن خالد ابن معدان عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « أرواح المؤمنين فى طير خضر كالزرازير تأكل من ثمر الجنة » .

ورواه غيره موقوفاً ، وذكر يزيد الرقاشى عن أنس وأبو عبد الله الشامى ، عن تميم الدارى عن النبى ﷺ : « إذا عرج ملك الموت بروح المؤمن إلى السماء استقبله جبرائيل فى سبعين ألفاً من الملائكة ، كل منهم يأتيه ببشارة من السماء سوى بشارة صاحبه ، فإذا انتهى به إلى العرش خر ساجداً فيقول الله عز وجل لملك الموت : انطلق بروح عبدى فضعه فى سدر مخضود [1] وطلح منضود [2] ، وظل ممدود ، وماء مسكوب » رواه بكر بن خنيس ، عن ضرار بن عمرو ، عن يزيد وأبى عبد الله .

فصل

[قول من قال : الأرواح على أفنية قبورها]

وأما قول من قال : الأرواح على أفنية قبورها .

فإن أراد أن هذا أمر لازم لا تفارق أفنية القبور أبداً ، فهذا خطأ ترده نصوص الكتاب والسنة من وجوه كثيرة ، قد ذكرنا بعضها ، وسنذكر منها ما لم نذكره - إن شاء الله - وإن أراد أنها تكون على أفنية القبور وقتا ، أو لها إشراف على قبورها وهى فى مقرها فهذا حق ، ولكن لا يقال مستقرها أفنية القبور .

وقد ذهب إلى هذا المذهب جماعة منهم أبو عمر بن عبد البر قال فى كتابه فى شرح حديث ابن عمر : « إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشدى » وقد استدل به من ذهب إلى أن الأرواح على أفنية القبور ، وهو أصح ما ذهب إليه فى ذلك من طريق الأثر . ألا ترى أن الأحاديث الدالة على ذلك ثابتة متواترة ، وكذلك أحاديث السلام على القبور ؟

---

(١) سدر مخضود : نوع من أنواع الشجر يسمى النبق ، لاشوك فيه .

(٢) طلح منضود : الطلح : الموز ، ومنضود : من نضد الشىء نضداً : ضم بعضه إلى بعض متسقاً.

قلت : يريد الأحاديث المتواترة مثل حديث ابن عمر هذا ، ومثل حديث البراء بن عازب الذى تقدم وفيه : « هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة » .

ومثل حديث أنس : « أن العبد إذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه ، إنه ليسمع قرع نعالهم » .

وفيه « أنه يرى مقعده من الجنة والنار ، وأنه يفسح للمؤمن فى قبره سبعين ذراعاً ويضيق على الكافر » .

ومثل حديث جابر : « إن هذه الأمة تبتلى فى قبورها ، فإذا دخل المؤمن قبره وتولى عنه أصحابه أتاه ملك » الحديث « وأنه يرى مقعده من الجنة فيقول : دعونى أبشر أهلى ، فيقال له : اسكن فهذا مقعدك أبداً » ومثل سائر أحاديث عذاب القبر ونعيمه التى تقدمت ، ومثل أحاديث السلام على أهل القبور وخطابهم ومعرفتهم بزيارة الأحياء لهم ، وقد تقدم ذكر ذلك كله ، وهذا القول ترده السنة الصحيحة والآثار التى لا مدفع لها ، وقد تقدم ذكرها ، وكل ما ذكره من الأدلة فهو يتناول الأرواح التى هى فى الجنة بالنص ، وفى الرفيق الأعلى . وقد بينا أن عرض مقعد الميت عليه من الجنة أو النار لا يدل على أن الروح فى القبر ، ولا على فنائه دائماً من جميع الوجوه ، بل لها إشراف واتصال بالقبر وفنائه وذلك القدر منها يعرض عليه مقعده ، فإن للروح شأناً آخر تكون فى الرفيق الأعلى فى أعلى عليين ، ولها اتصال بالبدن بحيث إذا سلم المسلم على الميت رد الله عليه روحه فيرد عليه السلام وهى فى الملأ الأعلى ، وإنما يغلط أكثر الناس فى هذا الموضع ، حيث يعتقد أن الروح من جنس ما يعهد من الأجسام التى إذا شغلت مكاناً لم يمكن أن تكون فى غيره ، وهذا غلط محض ؛ بل الروح تكون فوق السموات فى أعلى عليين ، وترد إلى القبر فترد السلام وتعلم بالمسلم ، وهى فى مكانها هناك وروح رسول الله ﷺ فى الرفيق الأعلى دائماً ، ويردها الله سبحانه إلى القبر فترد السلام على من سلم عليه ، وتسمع كلامه، وقد رأى رسول الله ﷺ موسى قائماً يصلى فى قبره ورآه فى السماء السادسة أو السابعة، فإما أن تكون سريعة الحركة والانتقال كلمح البصر ، وإما أن يكون المتصل منها بالقبر وفنائه بمنزلة شعاع الشمس وجرمها فى السماء .

[روح النائم تصعد فتسجد بين يدى العرش]

وقد ثبت أن روح النائم تصعد حتى تخترق السبع الطباق وتسجد لله بين يدى العرش ، ثم ترد إلى جسده فى أيسر زمان ، وكذلك روح الميت تصعد بها الملائكة حتى تجاوز السموات السبع ، وتقف بين يدى الله فتسجد له ويقضى فيها قضاءه ، ويريها الملك ما أعد الله لها فى الجنة ، ثم تهبط فتشهد غسله وحمله ودفنه . وقد تقدم فى حديث البراء بن عازب : « أن النفس يصعد بها حتى توقف بين يدى الله فيقول تعالى : « اكتبوا كتاب عبدى فى عليين ، ثم أعيدوه إلى الأرض » [1] فيعاد إلى القبر ، وذلك فى مقدار تجهيزه وتكفينه ، فقد صرح به فى حديث ابن عباس حيث قال : « فيهبطون على قدر فراغهم من غسله وأكفانه ، فيدخلون ذلك الروح بين جسده وأكفانه » [2] .

وقد ذكر أبو عبد الله بن منده ، من حديث عيسى بن عبد الرحمن ، ثنا ابن شهاب ، ثنا عامر بن سعد ، عن إسماعيل بن طلحة بن عبيد الله ، عن أبيه ، قال: أردت مالى بالغابة فأدركنى الليل ، فأويت إلى قبر عبد الله بن عمرو بن حرام فسمعت قراءة من القبر ما سمعت أحسن منها ، فجئت إلى رسول الله ﷺ ، فذكرت ذلك له فقال : « ذلك عبد الله ألم تعلم قبض أرواحهم فجعلها فى قناديل من زبرجد وياقوت ، ثم علقها وسط الجنة ، فإذا كان الليل ردت إليهم أرواحهم ، فلا يزال كذلك حتى إذا طلع الفجر ردت أرواحهم إلى مكانهم الذى كانت به » .

ففى هذا الحديث بيان سرعة انتقال أرواحهم من العرش إلى الثرى ، ثم انتقالها من الثرى إلى مكانها ، ولهذا قال مالك وغيره من الأئمة : إن الروح مرسلة تذهب حيث شاءت ، وما يراه الناس من أرواح الموتى ومجيئهم إليهم من المكان البعيد أمر يعلمه عامة الناس ولا يشكون فيه . واللَّه أعلم .

وأما السلام على أهل القبور وخطابهم فلا يدل على أن أرواحهم ليست فى الجنة وأنها على أفنية القبور ، فهذا سيد ولد آدم الذى روحه فى أعلى عليين مع الرفيق الأعلى ، صلى الله عليه وآله وسلم ، يسلم عليه عند قبره ويرد سلام المسلم عليه ، وقد وافق أبو عمر رحمه الله على أن أرواح الشهداء فى الجنة ، ويسلم عليهم عند

(١ ، ٢) سبق تخريجه .

قبورهم كما يسلم على غيرهم كما علمنا النبى ﷺ ، أن نسلم عليهم ، وكما كان الصحابة يسلمون على شهداء أُحد ، وقد ثبت أن أرواحهم فى الجنة تسرح حيث شاءت كما تقدم ولا يضيق بطانك عن كون الروح فى الملأ الأعلى . تسرح فى الجنة حيث شاءت وتسمع سلام المسلم عليها عند قبرها . وتدنو حتى ترد عليه السلام . وللروح شأن آخر غير شأن البدن ، وهذا جبريل ، صلوات الله وسلامه عليه رآه النبى ﷺ وله ستمائة جناح ، منها جناحان قد سد بهما ما بين المشرق والمغرب ، وكان من النبى ﷺ يضع ركبتيه بين ركبتيه ، ويديه على فخذيه ، وما أظنك يتسع بطانك أنه كان حينئذ فى الملأ الأعلى فوق السموات حيث هو مستقره ، وقد دنا من النبى ﷺ هذا الدنو ، فإن الصديق بهذا له قلوب خلقت له وأهلت لمعرفته ، ومن لم يتسع بطانه لهذا فهو أضيق أن يتسع للإيمان بالنزول الإلهى إلى سماء الدنيا كل ليلة وهو فوق سماواته على عرشه لا يكون فوقه شئ ألبتة . بل هو العالى على كل شئ وعلوه من لوازم ذاته . وكذلك دنوه عشية عرفة من أهل الموقف ، وكذلك مجيئه يوم القيامة لمحاسبة خلقه وإشراق الأرض بنوره . وكذلك مجيئه إلى الأرض حين دحاها وسواها ومدها وبسطها وهيأها لما يراد منها . وكذلك مجيئه إليها قبل يوم القيامة حين يقبض من عليها ولا يبقى بها أحد . كما قال النبى ﷺ : « فأصبح ربك يطوف فى الأرض وقد خلت عليه البلاد ، هذا وهو فوق سماواته على عرشه » .

فصل

[شأن الروح يختلف بحسب حال الأرواح]

ومما ينبغى أن يعلم أن ما ذكرناه من شأن الروح يختلف بحسب حال الأرواح من القوة والضعف والكبر والصغر .

فللروح العظيمة من ذلك ما ليس لمن هو دونها ، وأنت ترى أحكام الأرواح فى الدنيا كيف تتفاوت أعظم تفاوت ، بحسب تفارق الأرواح فى كيفياتها وقواها وإبطائها وإسراعها والمعاونة لها ، فللروح المطلقة من أسر البدن وعلائقه وعوائقه من التصرف والقوة والنفاد والهمة وسرعة الصعود إلى الله والتعلق باللّه ، ما ليس للروح المهينة المحبوسة فى علائق البدن وعوائقه ، فإذا كان هذا وهى محبوسة فى بدنها فكيف إذا تجردت وفارقته واجتمعت فيها قواها ، وكانت فى أصل شأنها روحاً علية زكية كبيرة ذات همة عالية ؟! فهذه لها بعد مفارقة البدن شأن آخر ، وفعل آخر .

وقد تواترت الرؤيا من أصناف بنى آدم على فعل الأرواح بعد موتها ما لا تقدر على مثله حال اتصالها بالبدن فى هزيمة الجيوش الكثيرة بالواحد والاثنين والعدد القليل ونحو ذلك ، وكم قد رؤى النبى ﷺ ومعه أبو بكر وعمر في النوم قد هزمت أرواحهم عساكر الكفر والظلم ، فإذا بجيوشهم مغلوبة مكسورة ، مع كثرة عددهم وعُددهم [1] وضعف المؤمنين وقلتهم ، ومن العجب أن أرواح المؤمنين المتحابين المتعارفين تتلاقى وبينها أعظم مسافة وأبعدها ، فتسالم وتتعارف فيعرف بعضها بعضاً كأنه جليسه وعشيره ، فإذا رآه طابق ذلك ما كان عرفته روح قبل رؤيته .

قال عبد الله بن عمرو : إن أرواح المؤمنين تتلاقى على مسيرة يوم وما رأى أحدهما صاحبه قط [2] . ورفعه بعضهم إلى النبى ﷺ .

وقال عكرمة ومجاهد : إذا نام الإنسان فإن له سبباً يجرى فيه الروح وأصله فى الجسد فيبلغ حيث شاء الله ما دام ذاهباً ، فالإنسان نائم فإذا رجع إلى البدن انتبه الإنسان ، وكان بمنزلة شعاع الشمس الذى هو ساقط بالأرض فأصله متصل بالشمس .

وقد ذكر أبو عبد الله بن منده عن بعض أهل العلم أنه قال : إن الروح يمتد من منخر الإنسان ومركبه وأصله فى بدنه ، فلو خرج الروح بالكلية لمات : كما أن السراج لو فرق بينه وبين الفتيلة ، ألا ترى أن مركب النار فى الفتيلة وضوؤها وشعاعها يملأ البيت ، فكذلك الروح تمتد من منخر الإنسان فى منامه حتى تأتى السماء وتجول في البلدان ، وتلتقى مع أرواح الموتى ، فإذا أراه الملك الموكل بأرواح العباد ما أحب أن يريه ، وكان المرئى [3] فى اليقظة عاقلاً ذكياً صدوقاً ، لايلتفت فى يقظته إلى شئ من الباطل ، رجع إليه روحه فأدى إلى قلبه الصدق مما أراه الله عز وجل على حسب خلقه ، وإن كان خفيفاً نزقا يحب الباطل والنظر إليه فإذا نام وأراه الله أمراً من خير أو شر ، رجعت روحه إليه فحيث ما رأى شيئاً من مخاريق الشيطان أو الباطل وقفت روحه عليه كما تقف فى يقظته . فكذلك لا يؤدى إلى قلبه فلا يعقل ما رأى لأنه خلط الحق بالباطل ، فلا يمكن معبر أن يعبر له وقد خلط الحق بالباطل وهذا من أحسن الكلام ، وهو دليل على معرفة قائله وبصيرته بالأرواح وأحكامها .

---

(١) وعددهم - الصواب وعدتهم . ويفهم هذا من السياق .

(٢) أخرجه أحمد فى المسند ٢/ ١٧٥ ، ٢٢٠ .

(٣) أى الشخص النائم ، فالذى أراه هو الملك .

وأنت ترى الرجل يسمع العلم والحكمة وما هو أنفع شئ له ثم يمر بباطل ولهو من غناء أو شبهة أو زور أو غيره فيصغى إليه ، ويفتح له قلبه حتى يتأدى إليه فيتخبط عليه ذلك الذى سمعه من العلم والحكمة ويلتبس عليه الحق بالباطل ، فهكذا شأن الأرواح عند النوم .

وأما بعد المفارقة فإنها تعذب بتلك الاعتقادات والشبه الباطلة التى كانت حظها حال اتصالها بالبدن ، وينضاف إلى ذلك عذابها بتلك الإرادات والشهوات التى حيل بينها وبينها ، وينضاف إلى ذلك عذاب آخر ينشئه الله لها ولبدنها من الأعمال التى اشتركت معه فيها ، وهذه هى المعيشة الضنك فى البرزخ والزاد الذى تزود به إليه والروح الزكية العلوية المحقة التى لا تحب الباطل ولا تألفه ، بضد ذلك كله تنعم بتلك الاعتقادات الصحيحة والعلوم والمعارف التى تلقتها من مشكاة النبوة وتلك الإرادات والهمم الزكية ، وينشئ الله سبحانه لها من أعمالها نعيماً ينعمها به فى البرزخ ، فتصير لها روضة من رياض الجنة ، ولتلك حفرة من حفر النار .

فصل

[قول من قال : أرواح المؤمنين عند الله تعالى]

وأما قول من قال : أرواح المؤمنين عند الله تعالى ولم يزد على ذلك فإنه تأدب مع لفظ القرآن حيث يقول الله عز وجل : ﴿ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [1] . وقد احتج أرباب هذا القول بحجج .

منها : ما رواه محمد بن إسحاق الصنعانى ، ثنا يحيى بن أبى بكير ، ثنا محمد ابن عبد الرحمن بن أبى ذئب ، عن محمد بن عمرو بن عطاء ، عن سعيد بن يسار ، عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « إن الميت إذا خرجت نفسه يعرج بها إلى السماء ، حتى ينتهى بها إلى السماء التى فيها الله عز وجل ، وإذا كان الرجل السوء يعرج بها إلى السماء فإنه لا يفتح لها أبواب السماء ، فترسل من السماء فتصير إلى القبر » [2] وهذا إسناد لا تسأل عن صحته ، وهو فى مسند أحمد وغيره .

---

(١) آل عمران آية : ١٦٩ .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى الزهد ٢/١٤٢٣ - ١٤٢٤ (٤٢٦٢) . وأحمد فى المسند ٢/٣٦٤ .

وقال أبو داود الطيالسى : ثنا حماد بن سلمة ، عن عاصم بن بهدلة ، عن أبى وائل عن أبى موسى الأشعرى قال : تخرج روح المؤمن أطيب من ريح المسك ، فتنطلق بها الملائكة الذين يتوفونه ، فتتلقاه الملائكة من دون السماء فيقولون : ما هذا ؟ فيقولون : هذا فلان ابن فلان ، كان يعمل كيت وكيت لمحاسن عمله ، فيقولون : مرحباً بكم وبه ، فيقبضونها منهم فيصعد بها من الباب الذى كان يصعد منه عمله، فتشرق فى السموات ولها برهان كبرهان الشمس ، حتى ينتهى إلى العرش .

وأما الكافر ، فإذا قبض انطلق بروحه فيقولون : ما هذا ؟ فيقولون : هذا فلان ابن فلان ، كان يعمل كيت وكيت لمساوئ عمله ، فيقولون : لا مرحباً لا مرحباً ردوه ، فيرد إلى أسلف الأرض إلى الثرى .

وقال المكى بن إبراهيم ، عن داود بن يزيد الأودى قال : أراه عن عامر الشعبى ، عن حذيفة بن اليمان أنه قال : الأرواح موقوفة عند الرحمن عز وجل ، تنتظر موعدها حتى ينفخ فيها .

وذكر سفيان بن عيينة ، عن منصور بن صفية ، عن أمه أنه دخل ابن عمر المسجد بعد قتل ابن الزبير وهو مصلوب ، فأتى أسماء يعزيها فقال لها : عليك بتقوى الله والصبر ، فإن هذه الجثث ليست بشئ ، وإنما الأرواح عند الله ، فقالت : وما يمنعنى من الصبر وقد أهدى رأس يحيى بن زكريا إلى بغى من بغايا بنى إسرائيل .

[بيان سدرة المنتهى وسجين وعليين]

وذكر جرير ، عن الأعمش ، عن شمر بن عطية ، عن هلال بن يساف قال : كنا جلوساً إلى كعب والربيع بن خثيم ، وخالد بن عرعرة فى أناس ، فجاء ابن عباس فقال : هذا ابن عم نبيكم . قال : فأوسع له ، فجلس فقال : يا كعب كل ما فى القرآن قد عرفت غير أربعة أشياء فأخبرنى عنهن : ما سجين ، وما عليون ، وما سدرة المنتهى ، وما قول الله لإدريس ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيّاً ﴾ [1] .

قال : أما عليون : فالسماء السابعة فيها أرواح المؤمنين . وأما سجين : فالأرض السابعة السفلى وأرواح الكفار فيها تحت خد إبليس .

(١) مريم آية : ٥٧ .

[قصة قبض روح إدريس عليه السلام فى السماء الرابعة]

وأما قول الله سبحانه لإدريس : ﴿ ورفعناه مكاناً علياً ﴾ فأوحى الله إليه أنى رافع لك كل يوم مثل أعمال بنى آدم ، وكلم صديقاً له من الملائكة أن يكلم له ملك الموت، فيؤخره حتى يزداد عملاً ، فحمله بين جناحيه ، فعرج به حتى إذا كان فى السماء الرابعة لقيه ملك الموت فكلمه فى حاجته فقال : وأين هو ؟ قال : هو ذا بين جناحى ، قال : فالعجب أنى أمرت أن أقبض روحه فى السماء الرابعة فقبض روحه .

[وجه تسمية سدرة المنتهى]

وأما سدرة المنتهى فإنها سدرة على رءوس حملة العرش ينتهى إليها علم الخلائق ، ثم ليس لأحد وراءها علم ، فلذلك سميت سدرة المنتهى [١] . قال ابن منده : ورواه وهب بن جرير ، عن أبيه ، ورواه يعقوب القمى عن شمر ، ورواه خالد بن عبد الله بن حوشب ، عن القاسم بن عوف ، عن الربيع بن خثيم ، قال : كنا جلوساً عند كعب فذكره .

وذكر يعلى بن عبيد عن الأَجْلَح عن الضحاك قال : إذا قبض روح العبد المؤمن عرج به إلى السماء الدنيا ، فينطلق معه المقربون إلى السماء الثانية ، ثم الثالثة ، ثم الرابعة ، ثم الخامسة ، ثم السادسة ، ثم السابعة ، حتى ينتهى إلى سدرة المنتهى . قلت للضحاك : لم سميت سدرة المنتهى ؟ قال : لأنه ينتهى إليها كل شىء من أمر الله عز وجل لا يعدوها . فيقول : ربى عبدك فلان وهو أعلم به منهم فيبعث الله إليه بصك مختوم يؤمنه من العذاب ، وذلك قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَـٰبَ الأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ [٢] وهذا القول لا ينافى قول من قال : هم فى الجنة ، فإن الجنة عند سدرة المنتهى ، والجنة عند الله ، وكأن قائله رأى أن هذه العبارة أسلم وأوفق ، وقد أخبر الله سبحانه أن أرواح الشهداء عنده ، وأخبر النبى ﷺ ، أنها تسرح فى الجنة حيث شاءت .



---

(١) أخرجه ابن جرير فى التفسير ٣٠/٦٥ .

(٢) المطففين الآيات ١٨ - ٢١ . وفى هذا الإسناد إلى الضحاك الأجلح بن عبد الله وهو صدوق شيعى من السابعة (التقريب ٩٦) وأما يعلى بن عبيد فهو ثقة . فالإسناد إلى الضحاك حسن .

فصل

[قول من قال : إن أرواح المؤمنين بالجابية]

وأما قول من قال : إن أرواح المؤمنين بالجابية [(١)] ، وأرواح الكفار بحضرموت ببرهوت .

فقال أبو محمد بن حزم : هذا من قول الرافضة ، وليس كما قال ؛ بل قد قاله جماعة من أهل السنة .

قال أبو عبد الله بن منده ، وروى عن جماعة من الصحابة والتابعين أن أرواح المؤمنين بالجابية ، ثم قال : أخبرنا محمد بن محمد بن يونس ، ثنا أحمد بن عاصم ثنا أبو داود سليمان بن داود ، ثنا همام ، حدثنى قتادة ، حدثنى رجل عن سعيد بن المسيب ، عن عبد الله بن عمرو أنه قال : إن أرواح المؤمنين تجتمع بالجابية ، وإن أرواح الكفار تجتمع فى سبخة [(٢)] بحضرموت ، يقال لها : برهوت . ثم ساق من طريق حماد بن سلمة ، عن عبد الجليل بن عطية عن شهر بن حوشب : أن كعباً رأى عبد الله بن عمرو وقد تكاب الناس عليه يسألونه فقال له رجل : سله أين أرواح المؤمنين وأرواح الكفار . فسأله ، فقال : أرواح المؤمنين بالجابية وأرواح الكفار ببرهوت [(٣)] .

قال ابن منده ، ورواه أبو داود وغيره عن عبد الجليل ، ثم ساق من حديث سفيان عن فرات القزاز عن أبى الطفيل ، عن على ، قال : خير بئر فى الأرض زمزم ، وشر بئر فى الأرض برهوت بئر فى حضرموت ، وخير واد فى الأرض وادى مكة ، والوادى الذى أهبط فيه آدم بالهند منه طيبكم ، وشر واد فى الأرض الأحقاف ، وهو فى حضرموت ترده أرواح الكفار .

قال ابن منده : وروى حماد بن سلمة عن على بن زيد ، عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس ، عن على ، قال : أبغض بقعة فى الأرض واد بحضرموت يقال له : برهوت ، فيه أرواح الكفار ، وفيه بئر ماؤها بالنهار أسود كأنه قيح ، تأوى إليه الهوام . ثم ساق من طريق إسماعيل بن إسحاق القاضى : ثنا على بن عبد الله ،

---

(١) الجابية : الحوض الذى يجبى فيه الماء . (٢) سبخة : أرض ذات ملح ، ولاتكاد تنبت .

(٣) هذا الإسناد منقطع رواه قتادة عن رجل - مجهول - عن سعيد بن المسيب .

ثنا سفيان ، ثنا أبان بن تغلب ، قال ، قال : قال رجل رأيت فيه - يعنى وادى برهوت - فكأنما حشرت فيه أصوات الناس ، وهم يقولون : يا دومه يا دومه ، قال أبان : فحدثنا رجل من أهل الكتاب أن دومه هو الملك الذى على أرواح الكفار ؛ وقال سفيان : وسألنا الحضرميين . فقالوا : لا يستطيع أحد يبيت فيه بالليل (١) .

فهذا جملة ما علمته فى هذا القول ، فإن أراد عبد الله بن عمر بالجابية التمثيل والتشبيه ، وأنها تجمع فى مكان فسيح يشبه الجابية لسعته وطيب هوائه ، فهذا قريب، وإن أراد نفس الجابية دون سائر الأرض ، فهذا لا يعلم إلا بالتوقيف ، ولعله مما تلقاه عن بعض أهل الكتاب .

فصل

[قول من قال إن الأرواح تجتمع فى الأرض التى قال الله فيها يرثها عبادى الصالحين]

وأما قول من قال : إنها تجتمع فى الأرض التى قال الله فيها : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصَّـٰلِحُونَ ﴾ (٢) فهذا إن كان قاله تفسيرا للآية ، فليس هو تفسيراً لها ، وقد اختلف الناس فى الأرض المذكورة هنا فقال سعيد بن جبير عن ابن عباس : هى أرض الجنة . وهذا قول أكثر المفسرين . وعن ابن عباس قول آخر أنها الدنيا التى فتحها الله على أمة محمد ﷺ ، وهذا القول هو الصحيح ، ونظيره قوله تعالى فى سورة النور : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ (٣) وفى الصحيح عن النبى ﷺ : « زويت لى الأرض مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها» (٤) .

وقالت طائفة من المفسرين : المراد بذلك أرض بيت المقدس ، وهى من الأرض التى أورثها الله عباده الصالحين ، وليست الآية مختصة بها .

* * *

---

(١) انظر الفتاوى (٦) .　　(٢) الأنبياء آية : ١٠٥　　(٣) النور آية : ٥٥ .

(٤) أخرجه مسلم فى الفتن ٤/ ٢٢١٥ (١٩) . وأبو داود والترمذى وابن ماجه وأحمد .

فصل

[قول من قال : إن أرواح المؤمنين فى عليين]

وأما قول من قال : إن أرواح المؤمنين فى عليين فى السماء السابعة ، وأرواح الكفار فى سجين فى الأرض السابعة . فهذا قول قد قاله جماعة من السلف والخلف ويدل عليه قول النبى ﷺ : « اللهم الرفيق الأعلى » وقد تقدم حديث أبى هريرة : « إن الميت إذا خرجت روحه عرج بها إلى السماء حتى ينتهى بها إلى السماء السابعة التى فيها الله عز وجل » .

وتقدم قول أبى موسى : إنها تصعد حتى تنتهى إلى العرش .

وقول حذيفة : إنها موقوفة عند الرحمن . وقول عبد الله بن عمر : إن هذه الأرواح عند الله . وتقدم قول النبى ﷺ : « إن أرواح الشهداء تأوى إلى قناديل تحت العرش» .

وتقدم حديث البراء بن عازب : « إنها تصعد من سماء إلى سماء ، ويشيعها من كل سماء مقربوها حتى ينتهى بها إلى السماء السابعة » وفى لفظ : « إلى السماء التى فيها الله عز وجل » ، ولكن هذا لا يدل على استقرارها هناك ، بل يصعد بها إلى هنالك للعرض على ربها فيقضى فيها أمره ويكتب كتابه من أهل عليين أو من أهل سجين ، ثم تعود إلى القبر للمسألة ، ثم ترجع إلى مقرها التى أودعت فيه ، فأرواح المؤمنين فى عليين بحسب منازلهم ، وأرواح الكفار فى سجين بحسب منازلهم .

❊ ❊ ❊

فصل

[فى إبطال كون الأرواح فى بئر زمزم]

وأما قول من قال : إن أرواح المؤمنين تجتمع ببئر زمزم .

فلا دليل على هذا القول من كتاب ولا سنة يجب التسليم لها ، ولا قول صاحب يوثق به ، وليس بصحيح ، فإن تلك البئر لا تسع أرواح المؤمنين جميعهم وهو مخالف لما ثبتت به السنة الصريحة ، من أن نسمة المؤمن طائر يعلق فى شجر الجنة .

وبالجملة فهذا من أبطل الأقوال وأفسدها ، وهو أفسد من قول من قال إنها بالجابية، فإن ذلك مكان متسع فضاء بخلاف البئر الضيقة .

فصل

[قول من قال : إن أرواح المؤمنين فى برزخ من الأرض]

وأما قول من قال : إن أرواح المؤمنين فى برزخ من الأرض تذهب حيث شاءت .

فهذا مروى عن سلمان الفارسى ، والبرزخ هو الحاجز بين شيئين . وكأن سلمان أراد بها فى أرض بين الدنيا والآخرة مرسلة هناك ، تذهب حيث شاءت ، وهذا قول قوى ، فإنها قد فارقت الدنيا ولم تلج الآخرة ؛ بل هى فى برزخ بينهما ، فأرواح المؤمنين فى برزخ واسع فيه الروح والريحان والنعيم ، وأرواح الكفار فى برزخ ضيق فيه الغم والعذاب قال تعالى : ﴿ وَمِنْ وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [1] . فالبرزخ هنا ما بين الدنيا والآخرة ، وأصله الحاجز بين الشيئين .

فصل

[قول من قال : إن أرواح المؤمنين عن يمين آدم]

وأما قول من قال : إن أرواح المؤمنين عن يمين آدم ، وأرواح الكفار عن يساره .

فلعمر الله ، لقد قال قولا يؤيده الحديث الصحيح وهو حديث الإسراء : فإن النبى ﷺ رآهم كذلك . ولكن لا يدل ذلك على تعادلهم فى اليمين والشمال ، بل يكون هؤلاء عن يمينه فى العلو والسعة ، وهؤلاء عن يساره فى السفل والسجن . وقد قال أبو محمد بن حزم : إن ذلك البرزخ الذى رآها فيه رسول الله ﷺ ، ليلة أسرى به عند سماء الدنيا قال : وذلك عند منقطع العناصر ، قال : وهذا يدل على أنها عنده تحت السماء حيث تنقطع العناصر ، وهى الماء والتراب والنار والهواء ، وهو دائماً يشنع على من قال قولا لا دليل عليه ، فأى دليل له على هذا القول من كتاب وسنة ؟ ! وسيأتى إشباع الكلام على قوله ، إذا انتهينا إليه إن شاء الله تعالى .

فإن قيل : فإذا كانت أرواح أهل السعادة عن يمين آدم وآدم فى السماء الدنيا ، وقد ثبت أن أرواح الشهداء فى ظل العرش ، والعرش فوق السماء السابعة ، فكيف تكون عن يمينه وكيف يراها النبى ﷺ ، هناك فى السماء الدنيا .

فالجواب : من وجوه :

---

(١) المؤمنون آية : ١٠٠ .

أحدها : أنه لا يمتنع كونها عن يمينه فى جهة العلو كما كانت أرواح الأشقياء عن يساره فى جهة السفل .

الثانى : أنه غير ممتنع أن تعرض على النبى ﷺ ، فى سماء الدنيا وإن كان مستقرها فوق ذلك .

الثالث : أنه لم يخبر أنه رأى أرواح السعداء جميعاً هناك ؛ بل قال : فإذا عن يمينه أسودة [1] وعن يساره أسودة ، ومعلوم قطعاً أن روح إبراهيم وموسى فوق ذلك فى السماء السادسة والسابعة ، وكذلك الرفيق الأعلى أرواحهم فوق ذلك ، وأرواح السعداء بعضها أعلى من بعض بحسب منازلهم ، كما أن أرواح الأشقياء بعضها أسفل من بعض بحسب منازلهم . واللَّه أعلم .

* * *

فصل

﴿ الكلام على مستقر الأرواح بعد الموت ﴾

[ومذهب ابن حزم]

وأما قول أبى محمد بن حزم : إن مستقرها حيث كانت قبل خلق أجسادها .

فهذا بناء منه على مذهبه الذى اختاره ، وهو أن الأرواح مخلوقة قبل الأجساد ، وهذا فيه قولان للناس وجمهورهم . على أن الأرواح خلقت بعد الأجساد ، والذين قالوا : إنها خلقت قبل الأجساد ليس معهم على ذلك دليل من كتاب ولا سنة ولا إجماع ، إلا ما فهموه من نصوص لا تدل على ذلك أو أحاديث لا تصح ، كما احتج به أبو محمد ابن حزم من قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا ﴾ [2] الآية . وبقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا ﴾ [3] قال : فصح أن الله خلق الأرواح جملة وهى الأنفس ، وكذلك أخبر ، عليه السلام : « أن الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » [4] قال :

---

(١) أى : خلقاً كثيراً .

(٢) الأعراف آية : ١٧٢ .

(٣) الأعراف آية : ١١ .

(٤) سبق تخريجه فى الصحيحين .

وأخذ عز وجل عهدها وشهادتها ، وهى مخلوقة مصورة عاقلة قبل أن يأمر الملائكة بالسجود لآدم وقبل أن يدخلها فى الأجساد ، والأجساد يومئذ تراب ، وقال : لأن الله تعالى خلق ذلك بلفظة - ثم التى توجب التعقيب والمهلة - ثم أقرها سبحانه وتعالى، حيث شاء ، وهو البرزخ الذى ترجع إليه عند الموت ، وسنذكر ما فى هذا الاستدلال عند جواب سؤال السائل عن الأرواح هى مخلوقة مع الأبدان أم قبلها ؟ إذ الغرض هنا الكلام على مستقر الأرواح بعد الموت ، وقوله : إنها تستقر فى البرزخ الذى كانت فيه قبل خلق الأجساد ، مبنى على هذا الاعتقاد الذى اعتقدوه ، وقوله : إن أرواح السعداء عن يمين آدم وأرواح الكفار الأشقياء عن يساره حق أخبر به النبى ﷺ ، وقوله : إن ذلك عند منقطع العناصر لا دليل عليه من كتاب ولا سنة ولا يشبه أقوال أهل الإسلام ، والأحاديث الصحيحة تدل على أن الأرواح فوق العناصر فى الجنة عند الله، وأدلة القرآن تدل على ذلك . وقد وافق أبو محمد على أن أرواح الشهداء فى الجنة . ومعلوم أن الصديقين أفضل منهم ، فكيف تكون روح أبى بكر الصديق ، وعبد الله ابن مسعود وأبى الدرداء ، وحذيفة ابن اليمان ، وأشباههم رضى الله عنهم ، عند منقطع العناصر وذلك تحت هذا الفلك الأدنى وتحت السماء الدنيا ، وتكون أرواح شهداء زماننا وغيرهم فوق العناصر وفوق السماوات .

وأما قوله : قد ذكر محمد بن نصر المروزى ، عن إسحاق بن راهوية ، أنه ذكر هذا الذى قلناه بعينه . قال : وعلى هذا جميع أهل العلم وهو قول جميع أهل الإسلام .

قلت : محمد بن نصر المروزى ذكر فى كتاب ﴿ الرد على ابن قتيبة ﴾ فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ (١) . الآثار التى ذكرها السلف من استخراج ذرية آدم من صلبه ثم أخذ الميثاق عليهم وردهم فى صلبه ، وأنه أخرجهم مثل الذر ، وأنه سبحانه قسمهم إذ ذاك إلى شقى وسعيد ، وكتب آجالهم وأرزاقهم وأعمالهم وما يصيبهم من خير وشر .

ثم قال إسحاق : أجمع أهل العلم أن الأرواح قبل الأجساد ، استنطقهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ، شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن

---

(١) الأعراف آية : ١٧٢ .

هذا غافلين ، أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل . هذا نص كلامه . وهو كما ترى لا يدل على أن مستقر الأرواح ما ذكر أبو محمد حيث تنقطع العناصر بوجه من الوجوه ؛ بل ولا يدل على أن الأرواح كائنة قبل خلق الأجساد ؛ بل إنما يدل على أنه سبحانه أخرجها حينئذ فخاطبها ثم ردها إلى صلب آدم ، وهذا القول وإن كان قد قاله جماعة من السلف والخلف فالقول الصحيح غيره كما ستقف عليه إن شاء الله ، إذ ليس الغرض فى جواب هذه المسألة الكلام فى الأرواح هل هى مخلوقة قبل الأجساد أم لا ؟ حتى لو سلم لأبى محمد هذا كله لم يكن فيه دليل على أن مستقرها حيث تنقطع العناصر ، ولا أن ذلك الموضع كان مستقرها أو لا .

* * *

فصل

[قول من قال : الروح مستقرها العدم المحض]

وأما قول من قال ، مستقرها العدم المحض .

فهذا قول من قال : إنها عرض من أعراض البدن وهو الحياة . وهذا قول بن الباقلانى ومن تبعه .

وكذلك قال أبو الهذيل العلاف : النفس عرض من الأعراض ولم يعينه بأنه الحياة كما عينه ابن الباقلانى ، ثم قال : هى عرض كسائر أعراض الجسم وهؤلاء عندهم أن الجسم إذا مات عدمت روحه كما تقدم وسائر أعراضه المشروطة بالحياة ومن يقول منهم إن العرض لا يبقى زمانين كما يقوله أكثر الأشعرية ، فمن قولهم إن روح الإنسان الآن هى غير روحه قبل ، وهو لا ينفك يحدث له روح ثم تغير ثم روح ثم تغير هكذا أبدا ، فيبدل له ألف روح فأكثر فى مقدار ساعة من الزمان فما دونها ، فإذا مات فلا روح تصعد إلى السماء وتعود إلى القبر وتقبضها الملائكة ويستفتحون لها أبواب السماوات ، ولا تنعم ولا تعذب ، وإنما ينعم ويعذب الجسد إذا شاء الله تنعيمه وتعذيبه رد إليه الحياة فى وقت يريد نعيمه وعذابه ، وإلا فلا روح هناك قائمة بنفسها ألبتة .

وقال بعض أرباب هذا القول : ترد الحياة إلى عجب الذنب ، فهو الذى يعذب وينعم وحسب . وهذا قول يرده الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأدلة العقول والفطن

والفطرة ، وهو قول من لم يعرف روحه فضلا عن روح غيره ، وقد خاطب الله سبحانه النفس بالرجوع والدخول والخروج ، ودلت النصوص الصحيحة الصريحة على أنها تصعد وتنزل وتقبض وتمسك وترسل وتستفتح لها أبواب السماء وتسجد وتتكلم ، وأنها تخرج تسيل كما تسيل القطرة من فيِّ السقاء ، وتكفن وتحنط فى أكفان الجنة والنار ، وأن ملك الموت يأخذها بيده ثم تتناولها الملائكة من يده ، ويشم لها كأطيب نفحة مسك أو أنتن جيفة ، وتشيع من سماء إلى سماء ، ثم تعاد إلى الأرض مع الملائكة ، وأنها إذا خرجت تبعها البصر بحيث يراها وهى خارجة . ودل القرآن على أنها تنتقل من مكان إلى مكان حتى تبلغ الحلقوم فى حركتها ، وجميع ما ذكرنا من الأدلة الدالة على تلاقى الأرواح وتعارفها وأنها أجناد مجندة إلى غير ذلك ، تبطل هذا القول .

وقد شاهد النبى ﷺ ، الأرواح ليلة الإسراء عن يمين آدم وشماله ، وأخبر النبى ﷺ : «أن نسمة المؤمن طائر يعلق فى شجر الجنة » .

« وأن أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر » [1] .

وأخبر تعالى عن أرواح آل فرعون أنها تعرض على النار غدواً وعشياً . ولما أورد ذلك على ابن الباقلانى لج فى الجواب ، وقال : يخرج على هذا أحد وجهين ، إما بأن يوضع عرض من الحياة فى أول جزء من أجزاء الجسم ، وإما أن يخلق لتلك الحياة والنعيم والعذاب جسد آخر . وهذا قول فى غاية الفساد من وجوه كثيرة . وأى قول أفسد من قول من يجعل روح الإنسان عرضا من الأعراض تتبدل كل ساعة ألوفاً من المرات ، فإذا فارقه هذا العرض ، لم يكن بعد المفارقة روح تنعم ولا تعذب ولا تصعد ولا تنزل ولا تمسك ولا ترسل ، فهذا قول مخالف للعقل ونصوص الكتاب والسنة والفطرة ، وهو قول من لم يعرف نفسه .

وسيأتى ذكر الوجوه الدالة على بطلان هذا القول فى موضعه من هذا الجواب إن شاء الله – وهو قول لم يقل به أحد من سلف الأمة ، ولا من الصحابة والتابعين ولا أئمة الإسلام .

❊ ❊ ❊

(١) سبق تخريجه فى الصحيحين .

فصل

﴿ قول من قال : الأرواح مستقرها بعد الموت أبدان أخر غير هذه الأبدان ﴾

وأما قول من قال : إن مستقرها بعد الموت أبدان أخر غير هذه الأبدان .

فهذا القول فيه حق وباطل . فأما الحق : فما أخبر الصادق المصدوق ، صلى الله عليه وآله وسلم ، عن أرواح الشهداء أنها فى حواصل طير خضر تأوى إلى قناديل معلقة بالعرش هى لها كالأوكار للطائر وقد صرح بذلك فى قوله : « جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر » وأما قوله ، صلى الله عليه وآله وسلم : « نسمة المؤمن طائر يعلق فى شجر الجنة » ، يحتمل أن يكون هذا الطائر مركبا للروح كالبدن لها ويكون ذلك لبعض المؤمنين والشهداء ، ويحتمل أن يكون الروح فى صورة طائر، وهذا اختيار أبى محمد بن حزم ، وأبى عمر بن عبد البر ، وقد تقدم كلام أبى عمر والكلام عليه ، وأما ابن حزم فإنه قال : معنى قوله ، صلى الله عليه وآله وسلم : «نسمة المؤمن طائر يعلق » . وهو على ظاهره لا على ظن أهل الجهل وإنما أخبر ، صلى الله عليه وآله وسلم ، أن نسمة المؤمن طائر يعلق ، بمعنى أنها تطير فى الجنة لا أنها تمسخ فى صورة الطير .

قال : فإن قيل : إن النسمة مؤنثة قلنا : قد صح عن عربى فصيح أنه قال : أتتك كتابى فاستخففت بها ، فقيل له : أتؤنث الكتاب ؟ قال : أو ليس صحيفة ، وكذلك النسمة تذكر كذلك .

قال : وأما الزيادة فيها أنها فى حواصل طير خضر فإنها صفة تلك القناديل التى تأوى إليها ، والحديثان معا حديث واحد ، وهذا الذى قاله فى غاية الفساد لفظاً ومعنى فإن حديث « نسمة المؤمن طائر يعلق فى شجر الجنة » ، غير حديث « أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر » والذى ذكره محتمل فى الحديث الأول ، وأما الحديث الثانى فلا يحتمله بوجه ، فإنه صلى الله عليه وآله وسلم ، أخبر أن أرواحهم فى حواصل طير . وفى لفظ « فى أجواف طير خضر » وفى لفظ « بيض » وأن تلك الطير تسرح فى الجنة فتأكل من ثمارها وتشرب من أنهارها ، ثم تأوى إلى قناديل تحت العرش هى لها كالأوكار للطائر ، وقوله : إن حواصل تلك الطير هى صفة

القناديل التى تأوى إليها خطأ قطعاً ؛ بل تلك القناديل مأوى لتلك الطير فهاهنا ثلاثة أمور صرح بها الحديث : أرواح ، وطير هى فى أجوافها ، وقناديل هى مأوى لتلك الطير ، والقناديل مستقرة تحت العرش لا تسرح ، والطير تسرح وتذهب وتجىء والأرواح فى أجوافها .

فإن قيل : يحتمل أن تجعل نفسها فى صورة طير ، لا أنها تركب فى بدن طير كما قال تعالى : ﴿ فِى أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [(١)] . ويدل عليه قوله فى اللفظ الآخر : « أرواحهم كطير خضر » كذلك رواه ابن أبى شيبة ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن عبد الله بن مرة ، عن مسروق ، عن عبد الله ، قال أبو عمر : والذى يشبه عندى والله أعلم ، أن يكون القول قول من قال : كطير أو صورة طير لمطابقته لحديثنا المذكور ، يعنى حديث كعب بن مالك فى نسمة المؤمن .

فالجواب : أن هذا الحديث قد روى بهذين اللفظين ، والذى رواه مسلم فى الصحيح من حديث الأعمش عن مسروق فلم يختلف حديثهما أنها فى أجواف طير خضر .

وأما حديث ابن عباس فقال عثمان بن أبى شيبة : ثنا عبد الله بن إدريس ، عن محمد بن إسحاق ، عن إسماعيل بن أمية ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لما أصيب إخوانكم - يعنى يوم أحد - جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ، ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديل من ذهب مدلاة فى ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم ، قالوا : من يبلغ إخواننا عنا أنا أحياء فى الجنة ، نرزق لئلا ينكلوا عن الحرب ، ولا يزهدوا فى الجهاد ، فقال الله تعالى : أنا أبلغهم عنكم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَتًا بَلْ أَحْيَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [(٢)] .

وأما حديث كعب بن مالك فهو فى السنن الأربعة ومسند أحمد ولفظه للترمذى : أن رسول الله ﷺ قال : « إن أرواح الشهداء فى طير خضر تعلق من ثمر الجنة أو شجر الجنة » [(٣)] قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح .

---

(١) الانفطار آية : ٨ .

(٢) آل عمران آية ١٦٩ والحديث سبق تخريجه وفيه محمد بن إسحاق مدلس وعنعنه .

(٣) سبق تخريجه .

ولا محذور فى هذا ولا يبطل قاعدة من قواعد الشرع ولا يخالف نصاً من كتاب ولا سنة عن رسول الله ﷺ ، بل هذا من تمام إكرام الله للشهداء أن أعاضهم من أبدانهم التى مزقوها لله أبداناً خيراً منها تكون مركباً لأرواحهم ليحصل بها كمال تنعمهم ، فإذا كان يوم القيامة رد أرواحهم إلى تلك الأبدان التى كانت فيها فى الدنيا .

فإن قيل : فهذا هو القول بالتناسخ وحلول الأرواح فى أبدان غير أبدانها التى كانت فيها . قيل : هذا المعنى الذى دلت عليه السنة الصريحة حق يجب اعتقاده ، ولا يبطله تسمية المسمى له تناسخاً ، كما أن إثبات ما دل عليه العقل والنقل من صفات الله عز وجل ، وحقائق أسمائه الحسنى حق لا يبطله تسمية المعطلين لها تركيباً وتجسيماً . وكذلك ما دل عليه العقل والنقل من إثبات أفعاله وكلامه بمشيئته . ونزوله كل ليلة إلى سماء الدنيا . ومجيئه يوم القيامة للفصل بين عباده حق. لا يبطله تسمية المعطلين له حلول حوادث ، وكما أن ما دل عليه العقل والنقل من علو الله على خلقه ، ومباينته لهم . واستوائه على عرشه ، وعروج الملائكة والروح إليه ونزولها من عنده ، وصعود الكلم الطيب إليه ، وعروج رسوله إليه ودنوه منه حتى صار قاب قوسين أو أدنى ، وغير ذلك من الأدلة حق لا يبطله تسمية الجهمية له حيزاً أو جهة أو تجسيماً .

قال الإمام أحمد : لا تزيل عن الله صفة من صفاته لأجل شناعة المشنعين ، فإن هذا شأن أهل البدع يلقبون أهل السنة وأقوالهم بالألقاب التى ينفرون منها الجهال ويسمونها حشواً وتركيباً وتجسيماً ، ويسمون عرش الرب تبارك وتعالى حيزاً أو جهة ليتوصلوا بذلك إلى نفى علوه على خلقه واستوائه على عرشه ، كما تسمى الرافضة موالاة أصحاب رسول الله ﷺ ، كلهم ومحبتهم والدعاء لهم نصبا ، وكما تسمى القدرية المجوسية إثبات القدر جبرا . فليس الشأن فى الألقاب وإنما الشأن فى الحقائق.

والمقصود : أن تسمية ما دلت عليه السنة الصريحة من جعل أرواح الشهداء فى أجواف طير خضر تناسخاً لا يبطل هذا المعنى . وإنما التناسخ الباطل ما تقوله أعداء الرسل من الملاحدة وغيرهم الذين ينكرون المعاد : أن الأرواح تصير بعد مفارقة الأبدان إلى أجناس الحيوان والحشرات والطيور التى تناسبها وتشاكلها ، فإذا فارقت هذه الأبدان انتقلت إلى أبدان تلك الحيوانات فتنعم فيها أو تعذب ثم تفارقها ، وتحل

فى أبدان أخر تناسب أعمالها وأخلاقها . وهكذا أبدا فهذا معادها عندهم ونعيمها وعذابها لا معاد لها عندهم غير ذلك .

فهذا هو التناسخ الباطل المخالف لما اتفقت عليه الرسل والأنبياء من أولهم إلى آخرهم ، وهو كفر باللّٰه واليوم الآخر وهذه الطائفة يقولون : إن مستقر الأرواح بعد المفارقة أبدان الحيوانات التى تناسبها ، وهو أبطل قول وأخبثه ، ويليه قول من قال : إن الأرواح تعدم جملة بالموت ، ولا تبقى هناك روح تنعم ولا تعذب ؛ بل النعيم والعذاب يقع على أجزاء الجسد أو على جزء منه إما عجب أو غيره ، فيخلق الله فيه الألم واللذة . إما بواسطة رد الحياة إليه كما قاله بعض أرباب هذا القول أو بدون رد الحياة كما قاله آخرون منهم ، فهؤلاء عندهم لا عذاب فى البرزخ إلا على الأجساد، ومقابلهم من يقول : إن الروح لا تعاد إلى الجسد بوجه ولا تتصل به ، والعذاب والنعيم على الروح فقط ، والسنة الصريحة المتواترة ترد قول هؤلاء وهؤلاء وتبين أن العذاب على الروح والجسد مجتمعين ومنفردين .

[القول الراجح فى مستقر الأرواح]

فإن قيل : فقد ذكرتم أقوال الناس فى مستقر الأرواح ومأخذهم ، فما هو الراجح من هذه الأقوال حتي نعتقده ؟

قيل : الأرواح متفاوتة في مستقرها فى البرزخ أعظم تفاوت .

فمنها : أرواح فى أعلى عليين فى الملأ الأعلى ، وهى أرواح الأنبياء ، صلوات الله وسلامه عليهم ، وهم متفاوتون فى منازلهم كما رآهم النبى ﷺ ، ليلة الإسراء .

ومنها : أرواح فى حواصل طير خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت ، وهى أرواح بعض الشهداء لا جميعهم ؛ بل من الشهداء من تحبس روحه عن دخول الجنة لدين عليه أو غيره ، كما فى المسند عن محمد بن عبد الله بن جحش : « أن رجلاً جاء إلى النبى ﷺ فقال : « يا رسول الله ، مالى إن قتلت فىَ سبيل الله ؟ قال : الجنة ، فلما ولى قال : إلا الدين سارنى به جبريل آنفا » .

ومنهم : من يكون محبوساً على باب الجنة كما فى الحديث الآخر : « رأيت صاحبكم محبوساً على باب الجنة » .

ومنهم : من يكون محبوساً فى قبره ، كحديث صاحب الشملة التى غلها ثم

استشهد فقال الناس : هنيئاً له الجنة ، فقال النبى ﷺ : « والذى نفسى بيده إن الشملة التى غلها لتشتعل عليه ناراً فى قبره » .

ومنهم : من يكون مقره باب الجنة كما فى حديث ابن عباس : « الشهداء على بارق نهر بباب الجنة فى قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشية » رواه أحمد ، وهذا بخلاف جعفر بن أبى طالب حيث أبدله الله من يديه جناحين يطير بهما فى الجنة حيث شاء .

ومنهم : من يكون محبوساً فى الأرض لم تعل روحه إلى الملأ الأعلى ، فإنها كانت روحاً سفلية أرضية ، فإن الأنفس الأرضية لا تجامع الأنفس السماوية ، كما لا تجامعها فى الدنيا . والنفس التى لم تكتسب فى الدنيا معرفة ربها ومحبته وذكره والأنس به والتقرب إليه ، بل هى أرضية سفلية لا تكون بعد المفارقة لبدنها إلا هناك، كما أن النفس العلوية التى كانت فى الدنيا عاكفة على محبة الله وذكره والتقرب إليه والأنس به تكون بعد المفارقة مع الأرواح العلوية المناسبة لها ، فالمرء مع من أحب فى البرزخ ويوم القيامة ، واللّه تعالى يزوج النفوس بعضها ببعض فى البرزخ ، ويوم المعاد ، كما تقدم فى الحديث . ويجعل روحه - يعنى المؤمن - مع النسيم الطيب ، أى الأرواح الطيبة المشاكلة لروحه ، فالروح بعد المفارقة تلحق بأشكالها وإخوانها وأصحاب عملها ، فتكون معهم هناك .

ومنها : أرواح تكون فى تنور الزناة والزوانى ، وأرواح فى نهر الدم تسبح فيه ، وتلقم الحجارة فليس للأرواح سعيدها وشقيها مستقر واحد ؛ بل روح فى أعلى عليين وروح أرضية سفلية لا تصعد عن الأرض . وأنت إذا تأملت السنن والآثار فى هذا الباب ، وكان لك بها فضل اعتناء ، عرفت حجة ذلك ، ولا تظن أن بين الآثار الصحيحة فى هذا الباب تعارضاً ، فإنها كلها حق يصدق بعضها بعضاً ، لكن الشأن فى فهمها ومعرفة النفس وأحكامها ، وأن لها شأنا غير شأن البدن ، وأنها مع كونها فى الجنة فهى فى السماء وتتصل بفناء القبر وبالبدن فيه ، وهى أسرع شىء حركة وانتقالات وصعوداً وهبوطا ، وأنها تنقسم إلى مرسلة ومحبوسة وعلوية وسفلية ، ولها بعد المفارقة صحة ومرض ولذة ونعيم وألم أعظم مما كان لها حال اتصالها بالبدن بكثير ، فهنالك الحبس والألم والعذاب والمرض والحسرة ، وهنالك اللذة والراحة والنعيم والإطلاق . وما أشبه حالها فى هذا البدن بحال الولد فى بطن أمه ، وحالها بعد المفارقة بحاله بعد خروجه من البطن إلى هذه الدار .

[للنفس أربع دور ، كل دار منها أعظم من التى قبلها]

فلهذه الأنفس أربع كل دار أعظم من التى قبلها .

الدار الأولى : فى بطن الأم وذلك الحصر والضيق والغم والظلمات الثلاث .

والدار الثانية : هى الدار التى نشأت فيها وألفتها واكتسبت فيها الخير والشر وأسباب السعادة والشقاوة .

والدار الثالثة : دار البرزخ وهى أوسع من هذه الدار وأعظم ، بل نسبتها إليها كنسبة هذه الدار إلى الأولى .

والدار الرابعة : دار القرار ، وهى الجنة أو النار ، فلا دار بعدها ، واللَّه ينقلها فى هذه الدور طبقاً بعد طبق حتى يبلغها الدار التى لا يصلح لها غيرها ولا يليق بها سواها ، وهى التى خلقت لها وهيئت للعمل الموصل لها إليها ، ولها فى كل دار من هذه الدور حكم وشأن غير شأن الدار الأخرى ، فتبارك الله فاطرها ومنشؤها ومميتها ومحييها ومسعدها ومشقيها ، الذى فاوت بينها فى درجات سعادتها وشقاوتها كما فاوت بينها فى مراتب علومها وأعمالها وقواها وأخلاقها ، فمن عرفها كما ينبغى شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الذى له الملك كله ، وله الحمد كله ، وبيده الخير كله ، وإليه يرجع الأمر كله ، وله القوة كلها ، والقدرة كلها ، والعز كله ، والحكمة كلها ، والكمال المطلق من جميع الوجوه ، وعرف بمعرفة نفسه صدق أنبيائه ورسله ، وأن الذى جاءوا به هو الحق الذى تشهد به العقول وتقرّ به الفطر ، وما خالفه فهو الباطل . وباللَّه التوفيق .

❊ ❊ ❊

فصل

﴿ المسألة السادسة عشرة ﴾

[الدليل على انتفاع الميت بما تسبب إليه فى حياته]

وأما المسألة السادسة عشرة وهى : هل تنتفع أرواح الموتى بشىء من سعى الأحياء أم لا ؟

فالجواب : أنها تنتفع من سعى الأحياء بأمرين مجمع عليهما بين أهل السنة من الفقهاء وأهل الحديث والتفسير .

أحدهما : ما تسبب إليه الميت فى حياته .

والثانى : دعاء المسلمين له واستغفارهم له والصدقة والحج على نزاع ما الذى يصل من ثوابه : هل هو ثواب الإنفاق أو ثواب العمل ؟

فعند الجمهور : يصل ثواب العمل نفسه وعند بعض الحنفية إنما يصل ثواب الإنفاق، واختلفوا فى العبادة البدنية ، كالصوم ، والصلاة ، وقراءة القرآن ، والذكر، فمذهب الإمام أحمد وجمهور السلف وصولها وهو قول بعض أصحاب أبى حنيفة ، نص على هذا الإمام أحمد فى رواية محمد بن يحيى الكحال قال : قيل لأبى عبد الله الرجل يعمل الشىء من الخير من صلاة أو صدقة أو غير ذلك ، فيجعل نصفه لأبيه أو لأمه ؟ قال : أرجو ، وقال : الميت يصل إليه كل شىء من صدقة أو غيرها . وقال أيضاً: اقرأ آية الكرسى ثلاث مرات ، وقل هو الله أحد ، وقل اللَّهم . إن فضله لأهل المقابر . والمشهور من مذهب الشافعى ومالك أن ذلك لا يصل .

وذهب بعض أهل البدع من أهل الكلام أنه لا يصل إلى الميت شىء ألبتة لا دعاء ولا غيره ، فالدليل على انتفاعه بما تسبب إليه فى حياته ما رواه مسلم فى صحيحه (١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ ، قال : « إذا مات الإنسان إنقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » فاستثناء هذه الثلاث من عمله يدل على أنها منه ، فإنه هو الذى تسبب إليها .

وفى سنن ابن ماجه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته ، علماً علمه ونشره ، وولداً صالحاً تركه ، ومصحفاً ورثه ، أو مسجداً بناه ، أو بيتاً لابن السبيل بناه أو نهراً أجراه ، أو صدقة أخرجها من ماله فى صحته وحياته يلحقه من بعد موته » .

وفى صحيح مسلم أيضاً من حديث جرير بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « من سن فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده ، من غير أن ينقص من أجورهم شىء ، ومن سن فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شىء » .

---

(١) أخرجه مسلم فى الوصية ٣/ ١٢٥٥ (١٤) . وأبو داود فى الوصايا ٣/١١٧ (٢٨٨٠) . والترمذى فى الوصايا ٤/ ٦٦٠ (١٣٧٦) . والنسائى فى الوصايا ٦ / ٢٥١ . وأحمد فى السمند : ٢/ ٣٥٠ ، ٣٧٢ .

وهذا المعنى روى عن النبى ﷺ ، من عدة وجوه صحاح وحسان .

وفى المسند عن حذيفة قال : سأل رجل على عهد رسول الله ﷺ ، فأمسك القوم ثم إن رجلا أعطاه فأعطى القوم . فقال النبى ﷺ : « من سن خيراً فاستن به كان له أجره ومن أجور من تبعه غير منتقص من أجورهم شيئاً ، ومن سن شراً فاستن به كان عليه وزره ومن أوزار من تبعه غير منتقص من أوزارهم شيئاً » .

وقد دل على هذا قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل » . فإذا كان هذا فى العذاب والعقاب ، ففى الفضل والثواب أولى وأحرى .

فصل

[الدليل على انتفاع الميت بغير ما تسبب فيه]

والدليل على انتفاعه بغير ما تسبب فيه القرآن والسنة والإجماع وقواعد الشرع .

أما القرآن فقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَآءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَٰنِ ﴾ . فأثنى الله سبحانه عليهم باستغفارهم للمؤمنين قبلهم فدل على انتفاعهم باستغفار الأحياء ، وقد يمكن أن يقال إنما انتفعوا باستغفار لأنهم سنوا لهم الإيمان بسبقهم إليه فلما اتبعوهم فيه كانوا كالمستنين فى حصوله لهم ، لكن قد دل على انتفاع الميت بالدعاء إجماع الأمة على الدعاء له فى صلاة الجنازة .

وفى السنن من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء » [1] .

وفى صحيح مسلم من حديث عوف بن مالك قال : صلى رسول الله ﷺ ، على جنازة فحفظت من دعائه وهو يقول : « اللّهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه ، وأكرم نزله وأوسع مدخله ؛ واغسله بالماء والثلج البرد ، ونقه من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس ، وأبدله داراً خيراً من داره ، وأهلا خيراً من أهله ، وزوجا خيراً من زوجه ، وأدخله الجنة ، وأعذه من عذاب القبر وعذاب النار » .

---

(١) أخرجه أبو داود فى الجنائز ٣/٢٠٧ (٣١٩٨). وابن ماجه فى الجنائز ١/ ٤٨٠ (١٤٩٧) .

(٢) أخرجه مسلم فى الجنائز ٢/ ٦٦٢ (٨٥) .

وفى السنن عن واثلة بن الأسقع ، قال : صلى رسول الله ﷺ ، على رجل من المسلمين ، فسمعته يقول : « اللهم إن فلان ابن فلان فى ذمتك وحبل جوارك ، فقه من فتنة القبر وعذاب النار ، وأنت أهل الوفاء والحق ، فاغفر له وارحمه ، إنك أنت الغفور الرحيم » .

وهذا كثير فى الأحاديث ؛ بل هو المقصود بالصلاة على الميت ، وكذلك الدعاء له بعد الدفن .

وفى السنن من حديث عثمان بن عفان رضى الله عنه ، قال : كان النبى ﷺ ، إذا فرغ من دفن الميت ، وقف عليه فقال : « استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يسأل » [1] . وكذلك الدعاء لهم عند زيارة قبورهم .

كما فى صحيح مسلم من حديث بريدة بن الحصيب قال : « كان رسول الله ﷺ ، يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا : السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، نسأل الله لنا ولكم العافية » [2] .

وفى صحيح مسلم أن عائشة رضى الله عنها سألت النبى ﷺ ، كيف تقول إذا استغفرت لأهل القبور ، قال : « قولى السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ؛ ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين ، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون » [3] .

وفى صحيحه عنها أيضا أن رسول الله ﷺ ، خرج فى ليلتها من آخر الليل إلى البقيع ، فقال : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين وأتاكم ما توعدون غداً مؤجلون ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، اللَّهم اغفر لأهل بقيع الغرقد » [4] .

ودعاء النبى ﷺ ، للأموات فعلاً وتعليماً ، ودعاء الصحابة والتابعين والمسلمين عصراً بعد عصر أكثر من أن يذكر وأشهر من أن ينكر ، وقد جاء أن الله يرفع درجة العبد فى الجنة فيقول : أنى لى هذا ؟ فيقال : بدعاء ولدك لك .

فصل

[إثبات وصول ثبات الصدقة إلى الميت]

وأما وصول ثواب الصدقة : ففى الصحيحين : عن عائشة رضى الله عنها : « أن

(1) أخرجه أبو داود فى الجنائز ٣/٢١٣ (٣٢٢١) .
(2) أخرجه مسلم فى الجنائز ٢/٦٦٩ (١٠٢) .
(3) أخرجه مسلم فى الجنائز ٢/٦٦٩ - ٦٧١ (١٠٣) .
(4) أخرجه مسلم فى الجنائز ٢/٦٧١ (١٠٤) .

رجلاً أتى النبى ﷺ ، فقال : يا رسول الله إن أمى افتلتت نفسها ولم توص وأظنها لو تكلمت تصدقت أفلها أجر إن تصدقت عنها قال : نعم » [1] .

وفى صحيح البخاري : عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : أن سعد بن عبادة ، توفيت أمه وهو غائب عنها ، فأتى النبى ﷺ ، فقال : يا رسول الله إن أمى توفيت وأنا غائب عنها فهل ينفعها إن تصدقت عنها ؟ قال : « نعم » . قال : فإنى أشهدك أن حائطى المخراف صدقة عنها [2] .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه : أن رجلا قال للنبى ﷺ : إن أبى مات وترك مالا ولم يوص فهل يكفى عنه أن أتصدق عنه ؟ قال : « نعم » [3] .

وفى السنن ومسند أحمد : عن سعد بن عبادة أنه قال : يا رسول الله ، إن أم سعد ماتت فأى الصدقة أفضل ؟ قال : « الماء » . فحفر بئراً وقال هذه لأم سعد [4].

وعن عبد الله بن عمرو ، أن العاص بن وائل نذر فى الجاهلية أن ينحر مائة بدنة وأن هشام بن العاص نحر خمسة وخمسين ، وأن عمرو سأل النبى ﷺ ، عن ذلك ، فقال : « أما أبوك فلو أقر بالتوحيد فصمت وتصدقت عنه نفعه ذلك » رواه الإمام أحمد [5] .

❊ ❊ ❊

فصل

[وصول ثواب الصوم والحج]

وأما وصول ثواب الصوم ففى الصحيحين ، عن عائشة رضى الله عنها ، أن رسول الله ﷺ ، قال : « من مات وعليه صيام صام عنه وليه » [6] .

وفى الصحيحين أيضاً عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ ، فقال : يا رسول الله إن أمى ماتت وعليها صوم شهر أفاقضيه عنها ؟ قال : نعم ، فدين الله أحق أن يقضى » .

---

(١) أخرجه البخارى فى الجنائز ٣/ ٢٢٩ (١٣٨٨). ومسلم فى الزكاة ٢/ ٦٩٦ (٥١) وافتلتت: أى ماتت فجأة.

(٢) أخرجه البخارى فى الوصايا ٥ / ٤٥٣ (٢٧٥٦) . (٣) أخرجه مسلم فى الوصية ٣/ ١٢٥٤ (١١) .

(٤) أخرجه ابن ماجه فى الأدب ٢/ ١٢١٤ (٣٦٨٤) . (٥) أخرجه أحمد فى المسند : ٢/ ١٨٢ .

(٦) أخرجه البخارى فى الصوم ٤/ ٢٢٦ (١٩٥٢) . ومسلم فى الصوم ٢/ ٨٠٣ (١٥٣) .

وفى رواية : جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ ، فقالت : يا رسول الله ، إن أمى ماتت وعليها صوم نذر فأصوم عنها ؟ قال : « أفرأيت لو كان على أمك دين فقضيته أكان يؤدى ذلك عنها ؟ قالت : نعم . قال : فصومى عن أمك » وهذا اللفظ للبخارى وحده تعليقاً .

وعن بريدة رضى الله عنه قال : « بينا أنا جالس عند رسول الله ﷺ إذ أتته امرأة فقالت : إنى تصدقت على أمى بجارية وأنها ماتت . فقال : وجب أجرك وردها عليك الميراث ، فقالت : يا رسول الله إنه كان عليها صوم شهر أفأصوم عنها ؟ قال : صومى عنها ، قالت : إنها لم تحج قط أفأحج عنها ؟ قال : حجى عنها » رواه مسلم، وفى لفظ « صوم شهرين » .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أن امرأة ركبت البحر ، فنذرت إن الله نجاها أن تصوم شهراً ، فأنجاها الله فلم تصم حتى ماتت ، فجاءت بنتها أو أختها إلى رسول الله ﷺ ، فذكرت ذلك فقال : « صومى عنها » . وكذلك روى عنه ، صلى الله عليه وآله وسلم ، وصول ثواب بدل الصوم وهو الإطعام .

ففى السنن عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من مات وعليه صيام شهر فليطعم عنه لكل يوم مسكيناً » رواه الترمذى وابن ماجه . قال الترمذى : ولا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه ، والصحيح عن ابن عمر من قوله موقوفاً .

وفى سنن أبى داود عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « إذا مرض الرجل فى رمضان ولم يصم أطعم عنه ، ولم يكن عنه قضاء ، وإن نذر قضى عنه وليه » .

❊ ❊ ❊

فصل
[وصول ثواب الحج]

وأما وصول ثواب الحج ، ففى صحيح البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبى ﷺ فقالت : إن أمى نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت فأحج عنها ؟ قال : حجى عنها ، أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته ؟ اقضوا دين الله فاللّه أحق بالقضاء » وقد تقدم حديث بريدة ، وفيه أن أمى لم تحج قط فأحج عنها ؟ قال : حجى عنها .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إن امرأة سنان بن سلمة الجهنى سألت رسول الله ﷺ ، أن أمها ماتت ولم تحج أفيجزى أن تحج عنها ؟ قال : « نعم . لو كان على أمها دين فقضته عنها ألم يكن يجزىء عنها ؟ » رواه النسائى .

وروى أيضاً عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن امرأة سألت النبى ﷺ ، عن ابنها مات ولم يحج ، قال : « حجى عن ابنك » .

وروى أيضاً عنه قال : قال رجل يا نبى الله إن أبى مات ولم يحج أفأحج عنه ؟ قال : « أرأيت لو كان على أبيك دين أكنت قاضيه ؟ قال : نعم . قال : « فدين الله أحق » .

وأجمع المسلمون على أن قضاء الدين يسقطه من ذمته ولو كان من أجنبى أو من غير تركته ، وقد دل عليه حديث أبى قتادة حيث ضمن الدينارين عن الميت ، فلما قضاهما قال له النبى ﷺ : « الآن بردت عليه جلدته » رواه أحمد وأبو داود .

وأجمعوا على أن الحى إذا كان له فى ذمة الميت حق من الحقوق فأحله منه أنه ينفعه ويبرأ منه ، كما يسقط من ذمة الحى ، فإذا سقط من ذمة الحى بالنص والإجماع مع إمكان أدائه له بنفسه ، فسقوطه من ذمة الميت بالإبراء حيث لا يتمكن من أدائه أولى وأحرى ، وإذا انتفع بالإبراء والإسقاط ، فكذلك ينتفع بالهبة والإهداء ولا فرق بينهما ، فإن ثواب العمل حق المهدى الواهب ، فإذا جعله للميت انتقل إليه ، كما أن ما على الميت من الحقوق من الدين وغيره هو محض حق الحى فإذا أبرأه وصل الإبراء إليه وسقط من ذمته ، فكلاهما حق للحى . فأى نص أو قياس أو قاعدة من قواعد الشرع يوجب وصول أحدهما ويمنع وصول الآخر ؟

وهذه النصوص متظاهرة على وصول ثواب الأعمال إلى الميت إذا فعلها الحى عنه وهذا محض القياس فإن الثواب حق للعامل ، فإذا وهبه لأخيه المسلم لم يمنع ذلك ، كما لم يمنع من هبة ماله فى حياته ، وإبرائه له منه بعد موته ، وقد نبه النبى ﷺ بوصول ثواب الصوم الذى هو مجرد ترك ونية تقوم بالقلب لا يطلع عليه إلا الله وليس بعمل الجوارح ، وعلى وصول ثواب القراءة التى هى عمل باللسان تسمعه الأذن وتراه العين بطريق الأولى ، ويوضحه أن الصوم نية محضة وكف النفس عن المفطرات ، وقد أوصل الله ثوابه إلى الميت ، فكيف بالقراءة التى هى عمل ونية ، بل لا تفتقر إلى النية ، فوصول ثواب الصوم إلى الميت فيه تنبيه على وصول سائر الأعمال .

والعبادات قسمان : مالية وبدنية . وقد نبه الشارع بوصول ثواب الصدقة على وصول ثواب سائر العبادات المالية ؛ ونبه بوصول ثواب الصوم على وصول ثواب العبادات البدنية . وأخبر بوصول ثواب الحج المركب من المالية والبدنية . فالأنواع الثلاثة ثابتة بالنص والاعتبار وباللّه التوفيق .

[دليل المانعين من وصول ثواب العبادات إلى الأموات]

قال المانعون فى الوصول : قال الله تعالى : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى ﴾[1] وقال: ﴿ وَلاَ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [2] . وقال : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ [3] .

وقد ثبت عن النبى ﷺ أنه قال : « إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية . أو ولد صالح يدعو له . أو علم ينتفع به » .

فأخبر أنه إنما ينتفع بما كان تسبب إليه فى الحياة ، وما لم يكن قد تسبب إليه فهو منقطع عنه ، وأيضاً فحديث أبى هريرة رضى الله عنه المتقدم وهو قوله : « إن مما يلحق الميت من عمله وحسناته بعد موته علماً نشره » الحديث . يدل على أنه إنما ينتفع بما كان قد تسبب فيه .

[سبع يجرى على الميت أجرهن فى قبره]

وكذلك حديث أنس يرفعه : « سبع يجرى على العبد أجرهن وهو فى قبره بعد موته : من علم علماً ، أو أكرى نهراً ، أو حفر بئراً ، أو غرس نخلاً ، أو بنى مسجداً ، أو ورث مصحفاً ، أو ترك ولداً صالحاً يستغفر له بعد موته » وهذا يدل على أن ما عدا ذلك لا يحصل له منه ثواب ، وإلا لم يكن للحصر معنى .

قالوا : والإهداء حوالة ، والحوالة إنما تكون بحق لازم ، والأعمال لا توجب الثواب ، وإنما هو مجرد تفضل الله وإحسانه ، فكيف يحيل العبد على مجرد الفضل الذى لا يجب على الله ، بل إن شاء آتاه وإن لم يشأ لم يؤته ، وهو نظير حوالة الفقير على من يرجو أن يتصدق عليه . ومثل هذا لا يصح إهداؤه وهبته كصلة ترجى من ملك لتحقق حصولها .

---

(١) النجم آية : ٣٩ . (٢) يس آية : ٥٤ . (٣) البقرة آية : ٢٨٦ .

قالوا : وأيضاً فالإيثار بأسباب الثواب مكروه ، وهو الإيثار بالقرب ، فكيف الإيثار بنفس الثواب الذى هو غاية ، فإذا كره الإيثار بالوسيلة ، فالغاية أولى وأحرى .

وكذلك كره الإمام أحمد التأخر عن الصف الأول ، وإيثار الغير به لما فيه من الرغبة عن سبب الثواب .

قال أحمد فى رواية حنبل : وقد سئل عن الرجل يتأخر عن الصف الأول ويقدم أباه فى موضعه ، قال : ما يعجبنى ، هو يقدر أن يبر أباه بغير هذا .

قالوا : أيضاً لو ساغ الإهداء إلى الميت لساغ نقل الثواب والإهداء إلى الحى .

وأيضاً لو ساغ ذلك لساغ نصف الثواب وربعه وقيراط منه .

وأيضاً لو ساغ ذلك لساغ إهداؤه بعد أن يعمله لنفسه ، وقد قلتم إنه لابد أن ينوى حال الفعل إهداءه إلى الميت ، وإلا لم يصل إليه ، فإذا ساغ له نقل الثواب ، فأى فرق بين أن ينوى قبل الفعل أو بعده .

وأيضاً لو ساغ الإهداء لساغ إهداء ثواب الواجبات على الحى ، كما يسوغ إهداء ثواب التطوعات التى يتطوع بها .

قالوا : وإن التكاليف امتحان وابتلاء لا تقبل البدل ، فإن المقصود منها عين المكلف العامل المأمور المنهى ، فلا يبدل المكلف الممتحن بغيره ولا ينوب غيره عنه فى ذلك ، إذ المقصود طاعته هو نفسه وعبوديته ، ولو كان ينتفع بإهداء غيره له من غير عمل منه لكان أكرم الأكرمين أولى بذلك ، وقد حكم سبحانه أنه لا ينتفع إلا بسعيه وهذه سنته تعالى فى خلقه وقضاؤه ، كما هى سنته فى أمره وشرعه ، فإن المريض لا ينوب عنه غيره فى شرب الدواء ، والجائع والظمآن والعارى لا ينوب عنه غيره فى الأكل والشرب واللباس .

قالوا : ولو نفعه عمل غيره لنفعه توبته عنه ، قالوا : ولهذا لا يقبل الله إسلام أحد عن أحد ولا صلاته عن صلاته ، فإذا كان رأس العبادات لا يصح إهداء ثوابه فكيف فروعها ؟

قالوا : وأما الدعاء فهو سؤال ورغبة إلى اللّه أن يتفضل على الميت ويسامحه ويعفو عنه ، وهذا إهداء ثواب عمل الحى إليه .

[دلائل المقتصرين على وصول ثواب العبادات التى تدخلها النيابة]

وقال المقتصرون على وصول العبادات التى تدخلها النيابة ، كالصدقة والحج : العبادات نوعان :

نوع لا تدخله النيابة بحال ، كالإسلام والصلاة وقراءة القرآن والصيام . فهذا النوع يختص ثوابه بفاعله لا يتعداه ولا ينقل عنه ، كما أنه فى الحياة لا يفعله أحد عن أحد ولا ينوب فيه عن فاعله غيره .

ونوع تدخله النيابة كرد الودائع وأداء الديون وإخراج الصدقة والحج ، فهذا يصل ثوابه إلى الميت ، لأنه يقبل النيابة ويفعله العبد عن غيره فى حياته ، فبعد موته بالطريق الأولى والأحرى .

[وجوه الجواب]

قالوا : أما حديث « من مات وعليه صيام ، صام عنه وليه » .

فجوابه من وجوه :

أحدها : ما قاله مالك فى موطئه قال : لا يصوم أحد عن أحد ، قال : وهو أمر مجمع عليه عندنا لا خلاف فيه [١] .

والثانى : أن ابن عباس رضى الله عنهما هو الذى روى حديث الصوم عن الميت وقد روى عنه النسائي .

أخبرنا محمد بن عبد الأعلى ، ثنا يزيد بن زريع ، ثنا حجاج الأحول ، ثنا أيوب ابن موسى ، عن عطاء بن أبى رباح ، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « لا يصلى أحد عن أحد » .

الثالث : أنه حديث اختلف فى إسناده ، هكذا قال صاحب (المفهم فى شرح مسلم) .

الرابع : أنه معارض بنص القرآن كما تقدم من قوله تعالى : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى ﴾ [٢] .

الخامس : أنه معارض بما رواه النسائى عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ أنه قال : « لا يصلى أحد عن أحد ، ولا يصوم أحد عن أحد ، ولكن يطعم عنه مكان كل يوم مداً من حنطة » .

---

(١) انظر الموطأ ١/٣٠٣ .
(٢) النجم آية : ٣٩ .

السادس : أنه معارض بحديث محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، عن نافع ، عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ : « من مات وعليه صوم رمضان يطعم عنه » [1] .

السابع : أنه معارض بالقياس الجلى على الصلاة والسلام والتوبة ، فإن أحداً لايفعلها عن أحد .

قال الشافعى فيما تكلم به على خبر ابن عباس : لم يسم ابن عباس ما كان نذراً أم فرضاً ، فاحتمل أن يكون نذر حج ، أو عمرة ، أو صدقة ، فأمره بقضائه عنها ، فأما من نذر صلاة أو صياماً ثم مات فإنه يكفر عنه فى الصوم ولا يصام عنه ولا يصلى عنه ولا يكفر عنه فى الصلاة . ثم قال : فإن قيل : أفروى عن رسول الله ﷺ، أمر أحداً أن يصوم عن أحد قيل : نعم ، روى ابن عباس رضى الله عنهما، عن النبى ﷺ ، فإن قيل : فلم لا تأخذ به ؟ قيل : حديث الزهرى ، عن عبيد الله، عن ابن عباس رضى الله عنهما : عن النبى ﷺ نذراً . ولم يسمه مع حفظه الزهرى وطول مجالسة عبيد الله لابن عباس ، فلما جاء غيره عن رجل عن ابن عباس بغير ما فى حديث عبيد الله أشبه أن لا يكون محفوظاً .

فإن قيل : فتعرف الرجل الذى جاء بهذا الحديث يغلط عن ابن عباس ؟

قيل : نعم ، روى أصحاب ابن عباس عن ابن عباس أنه قال لابن الزبير : إن الزبير حل من متعة الحج فروى هذا عن ابن عباس أنها متعة النساء . وهذا غلط فاحش ، فهذا الجواب عن فعل الصوم .

وأما فعل الحج فإنما يصل منه ثواب الإنفاق ، وأما أفعال المناسك فهى كأفعال الصلاة إنما تقع عن فاعلها .

قال أصحاب الوصول : ليس فى شئ مما ذكرتم ما يعارض أدلة الكتاب والسنة ، واتفاق سلف الأمة ومقتضى قواعد الشرع ، ونحن نجيب عن كل ما ذكرتموه بالعدل والإنصاف . أما قوله تعالى : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى ﴾ [2] . فقد اختلفت طرق الناس فى المراد بالآية .

---

(١) أخرجه الترمذى فى الصوم ٣/ ٩٦ - ٩٧ (٧١٨) وقال : لانعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه والصحيح عن ابن عمر موقوفاً.وابن ماجه فى الصيام ١/ ٥٨٨ (١٧٥٧) .

(٢) النجم آية : ٣٩ .

فقال طائفة : المراد بالإنسان هاهنا الكافر ، وأما المؤمن فله ما سعى ، وما سعى له بالأدلة التى ذكرناها . قالوا : وغاية ما فى هذا التخصيص وهو جائز إذا دل عليه الدليل .

وهذا الجواب ضعيف جداً ، ومثل هذا العام لا يراد به الكافر وحده ، بل هو للمسلم والكافر وهو كالعام الذى قبله ، وهو قوله تعالى : ﴿ أَلاَّ تَزِرُ وَزِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ (١) . والسياق كله من أوله إلى آخره كالصريح فى إرادة العموم لقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَيَهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى ﴾ (٢) . وهذا يعم الشر والخير قطعاً، ويتناول البر والفاجر والمؤمن والكافر ، كقوله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ ﴾ (٣) . وكقوله فى الحديث الإلهى : « يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » (٤) . وهو كقوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَقِيهِ ﴾ ولا تغتر بقول كثير من المفسرين فى لفظ الإنسان فى القرآن ، الإنسان هاهنا أبو جهل ، والإنسان هاهنا عقبة بن أبى معيط والإنسان هاهنا الوليد بن المغيرة ، فالقرآن أجل من ذلك ، بل الإنسان هو الإنسان من حيث هو من غير اختصاص بواحد بعينه كقول تعالى : ﴿ إِنَّ الإِنسَنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾ ، و ﴿ إِنَّ الإِنسَنَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ ، و ﴿ إِنَّ الإِنسَنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾ ، و ﴿ إِنَّ الإِنسَنَ لَيَطْغَى * أَن رَّءَاهُ اسْتَغْنَى ﴾ ، و ﴿ إِنَّ الإِنسَنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ ، و ﴿ وَحَمَلَهَا الإِنسَنُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ .

فهذا شأن الإنسان من حيث ذاته ونفسه وخروجه عن هذه الصفات بفضل ربه وتوفيقه له ومنته عليه ، لا من ذاته فليس له من ذاته إلا هذه الصفات ، وما به من نعمة فمن الله وحده ، فهو الذى حبب إلى عبده الإيمان وزينه فى قلبه وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان . وهو الذى يصرف عنهم السوء والفحشاء . وكان يرتجز بين يدى النبى ﷺ :

واللَّه لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا .

---

(١) النجم آية : ٣٨ . (٢) النجم آية : ٤٠ - ٤١ . (٣) الزلزلة آية : ٧ - ٨ .
(٤) أخرجه مسلم فى البر والصلة ٤/١٩٩٤ (٥٥) . وغيره .

وقد قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللَّهُ ﴾ . ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَلَمِينَ ﴾ فهو رب جميع العالم ربوبية شاملة لجميع ما فى العالم من ذوات وأفعال وأحوال .

وقالت طائفة : الآية إخبار بشرع من قبلنا ، وقد دل شرعنا على أنه له ما سعى وما سعى له ، وهذا أيضاً أضعف من الأول أو من جنسه ، فإن الله سبحانه أخبر بذلك إخبار مقرر له محتج به لا إخبار مبطل له ، ولهذا قال : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَى ﴾ فلو كان هذا باطلاً فى هذه الشريعة لم يخبر به إخبار مقرر له محتج به .

وقالت طائفة : اللام بمعنى على ، أى وليس على الإنسان إلا ما سعى ، وهذا أبطل من القولين الأولين ، فإنه قلب موضوع الكلام إلى ضد معناه المفهوم منه ، ولا يسوغ مثل هذا ولا تحتمله اللغة . وأما نحو ﴿ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ ﴾ فهى على بابها أى نصيبهم وحظهم ، وأما أن العرب تعرف فى لغاتها : لى درهم بمعنى علىَّ درهم فكلا .

وقالت طائفة : فى الكلام حذف تقديره : وأن ليس للإنسان إلا ما سعى أو سعى له ، وهذا أيضاً من النمط الأول ، فإنه حذف ما لا يدل السياق عليه بوجه ، وقول على الله وكتابه بلا علم .

وقالت طائفة أخرى : الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ وهذا منقول عن ابن عباس رضى الله عنهما ، وهذا ضعيف أيضاً ولا يرفع حكم الآية بمجرد قول ابن عباس رضى الله عنهما ولا غيره أنها منسوخة ، والجمع بين الآيتين غير متعذر ولا ممتنع ، فإن الأبناء تبعوا الآباء فى الآخرة كما كانوا تبعاً لهم فى الدنيا ، وهذه التبعية هى من كرامة الآباء وثوابهم الذى نالوه بسعيهم ، وأما كون الأبناء لحقوا بهم فى الدرجة بلا سعى منهم فهذا ليس هو لهم ، وإنما هو للآباء أقر الله أعينهم بإلحاق ذريتهم بهم فى الجنة ، وتفضل على الأبناء بشئ لم يكن لهم ، كما تفضل بذلك على الولدان والحور العين والخلق الذين ينشئهم للجنة بغير أعمال ، والقوم الذين يدخلهم الجنة بلا خير قدموه ولا عمل عملوه .

فقوله تعالى : ﴿ أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ . وقوله : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى ﴾ . آيتان محكمتان يقتضيهما عدل الرب تعالى وحكمته وكماله المقدس ، والعقل والفطرة شاهدان بها .

فالأولى : تقتضى أنه لا يعاقب بجرم غيره .

والثانية : تقتضى أنه لا يفلح إلا بعمله وسعيه ، فالأولى تؤمن العبد من أخذه بجريرة غيره كما يفعله ملوك الدنيا ، والثانية تقطع طمعه من نجاته بعمل آبائه وسلفه ومشايخه ، كما عليه أصحاب الطمع الكاذب .

فتأمل حسن اجتماع هاتين الآيتين ونظيره قوله تعالى : ﴿ مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ فحكم سبحانه لعباده بأربعة أحكام هى غاية العدل والحكمة .

أحدها : أن هدى العبد بالإيمان والعمل الصالح لنفسه لا لغيره .

الثانى : أن ضلالة بفوات ذلك وتخلفه عنه على نفسه لا على غيره .

الثالث : أن أحداً لا يؤاخذ بجريرة غيره .

والرابع : أنه لا يعذب أحداً إلا بعد إقامة الحجة عليه برسله .

فتأمل ما فى ضمن هذه الأحكام الأربعة من حكمته تعالى وعدله وفضله ، والرد على أهل الغرور والأطماع الكاذبة ، وعلى أهل الجهل باللّٰه وأسمائه وصفاته .

وقالت طائفة أخرى : المراد بالإنسان هاهنا الحى دون الميت ، وهذا أيضاً من النمط الأول فى الفساد ، وهذا كله من سوء التصرف فى اللفظ العام . وصاحب هذا التصرف لا ينفذ تصرفه فى دلالات الألفاظ وحملها على خلاف موضوعها ، وما يتبادر إلى الذهن منها ، وهو تصرف فاسد قطعاً يبطله السياق والاعتبار وقواعد الشرع وأدلته وعرفه ، وسبب هذا التصرف السيئ أن صاحبه يعتقد قولاً ، ثم يرده كلما دل على خلافه بأى طريق اتفقت له ، فالأدلة المخالفة لما اعتقده عنده من باب الصائل لا يبالى بأى شئ دفعه ، وأدلة الحق لا تتعارض ولا تتناقض ؛ بل يصدق بعضها بعضاً.

وقالت طائفة أخرى – وهو جواب أبى الوفاء بن عقيل – قال : الجواب الجيد

عندى أن يقال : الإنسان بسعيه وحسن عشرته اكتسب الأصدقاء ، وأولد الأولاد ونكح الأزواج ، وأسدى الخير وتودد إلى الناس ، فترحموا عليه وأهدوا له العبادات وكان ذلك أثر سعيه ، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم : « إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه » .

ويدل عليه قوله فى الحديث الآخر : « إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث : علم ينتفع به . أو صدقة جارية . أو ولد صالح يدعو له » . ومن هنا قال الشافعى: إذا بذل له ولده طاعة الحج كان ذلك سبباً لوجوب الحج عليه حتى كأنه فى ماله زاد وراحلة بخلاف بذل الأجنبى ، وهذا جواب متوسط يحتاج إلى تمام ، فإن العبد بإيمانه وطاعته لله ورسوله قد سعى فى انتفاعه بعلم إخوانه المؤمنين مع عمله كما ينتفع بعملهم فى الحياة مع عمله ، فإن المؤمنين ينتفع بعضهم بعمل بعض فى الأعمال التى يشتركون فيها ، كالصلاة فى جماعة ، فإن كل واحد منهم تضاعف صلاته إلى سبعة وعشرين ضعفاً لمشاركة غيره له فى الصلاة ، فعمل غيره كان سبباً لزيادة أجره ، كما أن عمله سبب لزيادة أجر الآخر ؛ بل قد قيل : إن الصلاة يضاعف ثوابها بعدد المصلين ، وكذلك اشتراكهم فى الجهاد والحج والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والتعاون على البر والتقوى ، وقد قال النبى ﷺ : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » وشبك بين أصابعه .

ومعلوم أن هذا بأمور الدين أولى منه بأمور الدنيا ، فدخول المسلم مع جملة المسلمين فى عقد الإسلام من أعظم الأسباب فى وصول نفع كل من المسلمين إلى صاحبه فى حياته وبعد مماته ، ودعوة المسلمين تحيط من ورائهم .

وقد أخبر الله سبحانه عن حملة العرش ، ومن حوله أنهم يستغفرون للمؤمنين ويدعون لهم ، وأخبر عن دعاء رسله واستغفارهم للمؤمنين ، كنوح وإبراهيم ومحمد ﷺ ، فالعبد بإيمانه قد تسبب إلى وصول هذا الدعاء إليه ، فكأنه من سعيه يوضحه أن الله سبحانه جعل الإيمان سبباً لانتفاع صاحبه بدعاء إخوانه من المؤمنين وسعيهم، فإذا أتى به فقد سعى فى السبب الذى يوصل إليه ذلك ، وقد دل على ذلك قول النبى ﷺ لعمرو بن العاص : « إن أباك لو كان أقر بالتوحيد نفعه ذلك » يعنى العتق ، الذى فعل عنه بعد موته ، فلو أتى بالسبب لكان قد سعى فى عمل يوصل إليه ثواب العتق ، وهذه طريقة لطيفة حسنة جداً .

وقالت طائفة أخرى : القرآن لم ينف انتفاع الرجل بسعى غيره ، وإنما نفى ملكه لغير سعيه ، وبين الأمرين من الفرق ما لا يخفى ، فأخبر تعالى أنه لا يملك إلا سعيه . وأما سعى غيره فهو ملك لساعيه ، فإن شاء أن يبذله لغيره وإن شاء أن يبقيه لنفسه ، وهو سبحانه لم يقل لا ينتفع إلا بما سعى . وكان شيخنا يختار هذه الطريقة ويرجحها .

فصل

[نفى عقوبة العبد بعمل غيره]

وكذلك قوله تعالى : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ ، وقوله : ﴿وَلاَ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ على أن هذه الآية أصرح فى الدلالة على أن سياقها إنما ينفى عقوبة العبد بعمل غيره وأخذه بجريرته فإن الله سبحانه وتعالى : ﴿فَالْيَوْمَ لاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلاَ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فنفى أن يظلم بأن يزاد عليه فى سيئاته أو ينقص من حسناته ، أو يعاقب بعمل غيره . ولم ينف أن ينتفع بعمل غيره لا على وجه الجزاء ، فإن انتفاعه بما يهدى إليه ليس جزاء على عمله ، وإنما هو صدقة تصدق الله بها عليه ، وتفضل بها عليه من غير سعى منه ؛ بل وهبه ذلك على يد بعض عباده لا على وجه الجزاء .

* * *

فصل

[أن الاستدلال بحديث « إذا مات العبد » ساقط]

وأما استدلالكم بقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « إذا مات العبد انقطع عمله » ، فاستدلال ساقط ، فإنه صلى الله عليه وآله وسلم لم يقل انقطع انتفاعه ، وإنما أخبر عن انقطاع عمله ، وأما عمل غيره فهو لعامله ، فإن وهبه له فقد وصل إليه ثواب عمل العامل لا ثواب عمله هو ، فالمنقطع شئ والواصل إليه شئ آخر ، وكذلك الحديث الآخر وهو قوله : « إن مما يلحق الميت من حسناته وعمله » فلا ينفى أن يلحقه غير ذلك من عمل غيره وحسناته .

فصل

[جواب قولهم : الإهداء حوالة]

وأما قولكم : الإهداء حوالة ، والحوالة إنما تكون بحق لازم فهذه حوالة المخلوق على المخلوق ، وأما حوالة المخلوق على الخالق ، فأمر آخر لا يصح قياسها على حوالة العبيد بعضهم على بعض ، وهل هذا إلا من أبطل القياس وأفسده ؟! والذى يبطله إجماع الأمة على انتفاعه بأداء دينه وما عليه من الحقوق وإبراء المستحق لذمته والصدقة والحج عنه بالنص الذى لا سبيل إلى رده ودفعه ، وكذلك الصوم ، وهذه الأقيسة الفاسدة لا تعارض نصوص الشرع وقواعده .

فصل

[جواب قولهم الإيثار بسبب الثواب مكروه]

وأما قولكم الإيثار بسبب الثواب مكروه ، وهو مسألة الإيثار بالقرب ، فكيف الإيثار بنفس الثواب الذى هو الغاية ؟

فقد أجيب عنه بأجوبة :

أحدها : أن حال الحياة حال لا يوثق فيها بسلامة العاقبة لجواز أن يرتد الحى فيكون قد آثر بالقربة غير أهلها وهذا قد آمن بالموت . فإن قيل : والمهدى إليه أيضاً قد لا يكون مات على الإسلام باطناً فلا ينتفع بما يهدى إليه ، وهذا سؤال فى غاية البطلان ، فإن الإهداء له من جنس الصلاة عليه والاستغفار له والدعاء له ، فإن كان أهلاً وإلا انتفع به الداعى وحده .

الجواب الثانى : أن الإيثار بالقرب يدل على قلة الرغبة فيها والتأخر عن فعلها ، فلو ساغ الإيثار بها لأفضى إلى التقاعد والتكاسل والتأخر بخلاف إهداء ثوابها ، فإن العامل يحرص عليها لأجل ثوابها لينتفع به أو ينفع به أخاه المسلم ، فبينهما فرق ظاهر .

الجواب الثالث : أن الله سبحانه يحب المبادرة والمسارعة إلى خدمته والتنافس فيها، فإن ذلك أبلغ فى العبودية ، فإن الملوك تحب المسارعة والمنافسة فى طاعتها وخدمتها ، فالإيثار بذلك مناف لمقصود العبودية ، فإن الله سبحانه أمر عبده بهذه القربة إما

إيجاباً وإما استحباباً ، فإذا آثر بها ترك ما أمره وولاه غيره ، بخلاف ما إذا فعل ما أمر به طاعة وقربة ثم أرسل ثوابه إلى أخيه المسلم ، وقد قال تعالى : ﴿ سَابِقُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ ﴾ (١) ، وقال : ﴿ فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ ﴾ (٢) .

ومعلوم أن الإيثار بها ينافى الاستباق إليها والمسارعة ، وقد كان الصحابة يسابق بعضهم بعضاً بالقرب ولا يؤثر الرجل منهم غيره بها .

قال عمر : واللَّه ما سابقنى أبو بكر إلى خير إلا سبقنى إليه ، حتى قال : واللَّه لا أسابقك إلى خير أبداً (٣) .

وقد قال تعالى : ﴿ وَفِى ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ (٤) يقال : نافست فى الشئ منافسة ونفاساً إذا رغبت فيه على وجه المباراة ، ومن هذا قولهم : شئ نفيس أى هو أهل أن يتنافس فيه ، ويرغب فيه ، وهذا أنفس مالى أى أحبه إلى ، وأنفسنى فلان فى كذا : أى أرغبنى فيه وهذا كله ضد الإيثار به والرغبة عنه .

[جواب قولهم لو ساغ الإهداء إلى الميت لساغ إلى الحى]

وأما قولكم : لو ساغ الإهداء إلى الميت لساغ إلى الحى . فجوابه من وجهين :

أحدهما : أنه قد ذهب إلى ذلك بعض الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم ، قال القاضى : وكلام أحمد لا يقتضى التخصيص بالميت ، فإنه قال : يفعل الخير ، ويجعل نصفه لأبيه وأمه ولم يفرق ، واعترض عليه أبو الوفاء بن عقيل وقال : هذا فيما بعد ، وهو تلاعب بالشرع وتصرف فى أمانة الله وإسجال على الله سبحانه بثواب على عمل يفعله إلى غيره . وبعد الموت قد جعل لنا طريقاً إلى إيصال النفع، كالاستغفار والصلاة على الميت . ثم أورد على نفسه سؤالاً وهو : فإن قيل : أليس قضاء الدين وتحمل الكل حال الحياة كقضائه بعد الموت ، فقد استوى ضمان الحياة وضمان الموت فى أنهما يزيلان المطالبة عنه ، فإذا وصل قضاء الديون بعد الموت وحال الحياة فاجعلوا ثواب الإهداء واصلاً حال الحياة وبعد الموت ؟

---

(١) الحديد آية : ٢١ .

(٢) البقرة آية : ١٤٨ .

(٣) أخرجه أحمد فى المسند : ٣٨/١ .

(٤) المطففين آية ٢٦ .

وأجاب عنه : بأنه لو صح هذا وجب أن تكون الذنوب تكفر عن الحى بتوبة غيره عنه ، ويندفع عنه مأثم الآخرة بعمل غيره واستغفاره .

قلت : وهذا لا يلزم ؛ بل طرد ذلك انتفاع الحى بدعاء غيره له واستغفاره له وتصدقه عنه وقضاء ديونه ، وهذا حق ، وقد أذن النبى ﷺ فى أداء فريضة الحج عن الحى المعضوب (1) والعاجز وهما حيان .

وقد أجاب غيره من الأصحاب : بأن حال الحياة لا تثق بسلامة العاقبة خوفاً أن يرتد المهدى له فلا ينتفع بما يهدى إليه .

قال ابن عقيل : وهذا عذر باطل بإهداء الحى ، فإنه لا يؤمن أن يرتد ويموت فيحبط عمله كله ومن جملته ثواب ما أهدى إلى الميت .

قلت : هذا لا يلزمهم وموارد النص والإجماع تبطله وترده ، فإن النبى ﷺ أذن فى الحج والصوم عن الميت (2) ، وأجمع الناس على براءة ذمته من الدين إذا قضاه عنه الحى، مع وجود ما ذكر من الاحتمال .

والجواب : أن يقال : ما أهداه من أعمال البر إلى الميت فقد صار ملكاً له ، فلا يبطل برده فاعله بعد خروجه عن ملكه كتصرفاته التى تصرفها قبل الردة من عتق وكفارة ، بل لو حج عن معضوب ثم ارتد بعد ذلك لم يلزم المعضوب أن يقيم غيره يحج عنه ، فإنه لا يؤمن فى الثانى والثالث ذلك . على أن الفرق بين الحى والميت أن الحى ليس بمحتاج كحاجة الميت ، إذ يمكنه أن يباشر ذلك العمل أو نظيره ، فعليه اكتساب الثواب بنفسه وسعيه بخلاف الميت .

وأيضاً فإن يفضى إلى اتكال بعض الأحياء على بعض ، وهذه مفسده كبيرة ، فإن أرباب الأموال إذا فهموا ذلك واستشعروه واستأجروا من يفعل ذلك عنهم ، فتصير الطاعات معاوضات ، وذلك يفضى إلى إسقاط العبادات والنوافل ويصير ما يتقرب به إلى الله يتقرب به إلى الآدميين ، فيخرج عن الإخلاص فلا يحصل الثواب لواحد منهما .

ونحن نمنع من أخذ الأجرة على كل قربة ونحبطها بأخذ الأجر عليها كالقضاء والفتيا وتعليم العلم والصلاة وقراءة القرآن وغيرها ، فلا يثيب الله عليها إلا المخلص

---

(1) الحى المغصوب : أى المريض الذى أقعده المرض ولايرجى شفاءه .

(2) الأحاديث فى ذلك سبق تخريجها فى مواضعها .

أخلص العمل لوجهه ، فإذا فعله للأجرة لم يثب عليه الفاعل ولا المستأجر فلا يليق بمحاسن الشرع أن يجعل العبادات الخالصة له معاملات تقصد بها المعاوضات والأكساب الدنيوية ، وفارق قضاء الديون وضمانها فإنها حقوق الآدميين ينوب بعضهم فيها عن بعض ، فلذلك جازت فى الحياة وبعد الموت .

فصل

[لو ساغ ذلك لساغ إهداء نصف الثواب وربعه]

وأما قولكم : لو ساغ ذلك لساغ إهداء نصف الثواب وربعه إلى الميت .

فالجواب من وجهين :

أحدهما : منع الملازمة ، فإنكم لم تذكروا عليها دليلاً إلا بمجرد الدعوى .

الثانى : التزام ذلك ، والقول به نص عليه الإمام أحمد فى رواية محمد بن يحيى الكحال . ووجه هذا أن الثواب ملك له ، فله أن يهديه جميعه ، وله أن يهدى بعضه يوضحه أنه لو أهداه إلى أربعة مثلاً يحصل لكل منهم ربعه ، فإذا أهدى الربع وأبقى لنفسه الباقى جاز كما لو أهداه إلى غيره .

فصل

[جواب قولهم : لو ساغ ذلك لساغ إهداؤه بعد أن يعمله لنفسه]

وأما قولكم : لو ساغ ذلك لساغ إهداؤه بعد أن يعمله لنفسه ، وقد قلتم إنه لابد أن ينوى حال الفعل إهداءه إلى الميت وإلا لم يصل .

فالجواب : أن هذه المسألة غير منصوصة عن أحمد ، ولا هذا الشرط فى كلام المتقدمين من أصحابه ، وإنما ذكره المتأخرون كالقاضى وأتباعه .

قال ابن عقيل : إذا فعل طاعة من صلاة وصيام وقراءة قرآن وأهداها بأن جعل ثوابها للميت المسلم ، فإنه يصل إليه ذلك وينفعه بشرط أن يتقدم نية الهدية على الطاعة أو تقارنها .

وقال أبو عبد الله بن حمدان فى رعايته : ومن تطوع بقربة من صدقة وصلاة وصيام وحج وعمرة وقراءة وعتق ، وغير ذلك من عبادة بدنية تدخلها النيابة أو عبادة مالية ، وجعل جميع ثوابها أو بعضه لميت مسلم حتى النبى ﷺ ، ودعا له أو استغفر له ، أو قضى ما عليه من حق شرعى ، أو واجب تدخله النيابة نفعه ذلك ووصل إليه أجره ، وقيل : إن نواه حال فعله أو قبله وصل إليه وإلا فلا .

وسر المسألة أن أوان شرط حصول الثواب أن يقع لمن أهدى له أولاً ، ويجوز أن يقع للعامل ثم ينتقل عنه إلى غيره . فمن شرط أن ينوى قبل الفعل أو الفراغ منه وصوله ، قال : لو لم ينوه وقع الثواب للعامل فلا يقبل انتقاله عنه إلى غيره ، فإن الثواب يترتب على العمل ترتب الأثر على مؤثره ، ولهذا لو أعتق عبداً عن نفسه كان ولاؤه له ، فلو نقل ولاءه إلى غيره بعد العتق لم ينتقل ما لو أعتقه عن الغير فإن ولاءه يكون للمعتق عنه .

وكذلك لو أدى ديناً عن نفسه ثم أراد بعد الأداء أن يجعله عن غيره لم يكن له ذلك ، وكذلك لو حج أو صام أو صلى لنفسه ، ثم بعد ذلك أراد أن يجعل ذلك عن غيره لم يملك ذلك ، ويؤيد هذا أن الذين سألوا النبى ﷺ عن ذلك لم يسألوه عن إهداء ثواب العمل بعده ، وإنما سألوه عما يفعلونه عن الميت ، كما قال سعد أينفعها أن أتصدق عنها [1] ، ولم يقل : أن أهدى لها ثواب ما تصدقت به عن نفسى .

وكذلك قول المرأة الأخرى أفأحج عنها ؟ وقول الرجل الآخر: أفأحج عن أبى ؟[2] فأجابهم بالإذن فى الفعل عن الميت لا بإهداء ثواب ما عملوه لأنفسهم إلى موتاهم ، فهذا لا يعرف أنه صلى الله عليه وآله وسلم سئل عنه قط ولا يعرف عن أحد من الصحابة أنه فعله ، وقال : اللهم اجعل لفلان ثواب عملى المتقدم أو ثواب ما عملته لنفسى ، فهذا سر الاشتراطات وهو أفقه . ومن لم يشترط ذلك يقول الثواب للعامل فإذا تبرع به وأهداه إلى غيره كان بمنزلة ما يهديه إليه من ماله .

فصل

[جواب قولهم : لو ساغ الإهداء لساغ إهداء ثواب الواجبات التى تجب على الحى]

وأما قولكم : لو ساغ الإهداء لساغ إهداء ثواب الواجبات التى تجب على الحى .

فالجواب : أن هذا الإلزام محال على أصل من شرط فى الوصول نية الفعل عن الميت ، فإن الواجب لا يصح أن يفعله عن الغير ، فإن هذا واجب على الفاعل يجب عليه أن ينوى به القربة إلى الله ، وأما من لم يشترط نية الفعل عن الغير فهل يسوغ عنده أن يجعل للميت ثواب فرض من فروضه ؟ فيه وجهان .

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) سبق تخريجه وهو فى الصحيح .

قال أبو عبد الله بن حمدان : وقيل : إن جعل له ثواب فرض من صلاة أو صوم أو غيرهما جاز ، وأجزأ فاعله .

قلت : وقد نقل عن جماعة أنهم جعلوا ثواب أعمالهم من فرض ونفل للمسلمين وقالوا نلقى الله بالفقر والإفلاس المجرد ، والشريعة لا تمنع من ذلك ، فالأجر ملك العامل فإن شاء أن يجعله لغيره فلا حجر عليه فى ذلك ، واللّٰه أعلم .

فصل

[جواب قولهم : إن التكاليف امتحان وابتلاء لا تقبل البذل]

وأما قولكم : إن التكاليف امتحان وابتلاء لا تقبل البدل ، إذ المقصود منها عين المكلف العامل إلى آخره .

فالجواب عنه : أن ذلك لا يمنع إذن الشارع للمسلم أن ينفع أخاه بشئ من عمله ؛ بل هذا من تمام إحسان الرب ورحمته لعباده ، ومن كمال هذه الشريعة التى شرعها لهم التى مبناها على العدل والإحسان والتعارف ، والرب تعالى أقام ملائكته وحملة عرشه يدعون لعباده المؤمنين ويستغفرون لهم ، ويسألونه لهم أن يقيهم السيئات ، وأمر خاتم رسله أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات ؛ ويقيمه يوم القيامة مقاماً محموداً ليشفع فى العصاة من أتباعه وأهل سنته ، وقد أمره تعالى أن يصلى على أصحابه فى حياتهم وبعد مماتهم ، وكان يقوم على قبورهم فيدعو لهم ، وقد استقرت الشريعة على أن المأثم الذى على الجميع بترك فروض الكفايات يسقط إذا فعله من يحصل المقصود بفعله ولو واحد ، وأسقط سبحانه الارتهان وحرارة الجلود فى القبر بضمان الحى دين الميت وأدائه عنه ، وإن كان ذلك الوجوب امتحاناً فى حق المكلف ، وأذن النبى فى الحج والصيام عن الميت ، وإن كان الوجوب امتحاناً فى حقه ، وأسقط عن المأموم سجود السهو بصحة صلاة الإمام وخلوها من السهو وقراءة الفاتحة بتحمل الإمام لها ، فهو يتحمل عن المأموم سهوه وقراءته وسترته .

[الخلق عيال الله فأحبهم إليه أنفعهم لعياله]

فقراءة الإمام وسترته قراءة لمن خلفه وسترة له ، وهل الإحسان إلى المكلف بإهداء الثواب إليه إلا تأس بإحسان الرب تعالى ؟ واللّٰه يحب المحسنين .

والخلق عيال الله فأحبهم إليه أنفعهم لعياله ، وإذ كان سبحانه يحب من ينفع عياله بشربة ماء ومذقة لبن وكسرة خبز . فكيف من ينفعهم فى حال ضعفهم وفقرهم

وانقطاع أعمالهم وحاجتهم إلى شئ يهدى إليهم أحوج ما كانوا إليه ؟! فأحب الخلق إلى الله من ينفع عياله فى هذه الحال ، ولهذا جاء أثر عن بعض السلف أن من قال كل يوم سبعين مرة رب اغفر لى ولوالدى وللمسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، حصل له من الأجر بعدد كل مسلم ومسلمة ، ومؤمن ومؤمنة ، ولا نستبعد هذا فإنه إذا استغفر لإخوانه فقد أحسن إليهم ، واللّه لا يضيع أجر المحسنين .

فصل

[جواب قولهم : إنه لو نفعه عمل غيره لنفعه توبته عنه وإسلامه عنه]

وأما قولكم : إنه لو نفعه عمل غيره لنفعه توبته عنه وإسلامه عنه . فهذه الشبهة تورد على صورتين :

صورة تلازم : يدعى فيها اللزوم بين الأمرين ، ثم يبين انتفاء اللازم فينتفى ملزومه وصورتها هكذا لو نفعه عمل الغير عنه لنفعه إسلامه وتوبته عنه ، لكن لا ينفعه ذلك فلا ينفعه عمل الغير .

والصورة الثانية : أن يقال : لا ينتفع بإسلام الغير وتوبته عنه فلا ينتفع بصلاته وصيامه وقراءته عنه . ومعلوم أن هذا التلازم والإقران باطل قطعاً .

أما أولاً : فلأنه قياس مصادم لما تظاهرت به النصوص واجتمعت عليه الأمة .

وأما ثانياً : فلأنه جمع بين ما فرق الله بينه فإن الله سبحانه فرق بين إسلام المرء عن غيره وبين صدقته وحجته وعتقه عنه ، فالقياس المسوى بينهما من جنس قياس الذين قاسوا الميتة على المذكى والربا على البيع .

وأما ثالثاً : فإن الله سبحانه جعل الإسلام سبباً لنفع المسلمين بعضهم بعضاً فى الحياة وبعد الموت ، فإذا لم يأت بسبب انتفاعه بعمل المسلمين لم يحصل له ذلك النفع ، كما قال النبى ﷺ لعمرو : « إن أباك لو كان أقر بالتوحيد فصمت أو تصدقت عنه نفعه ذلك » [1] .

وهذا كما جعل سبحانه الإسلام سبباً لانتفاع العبد مما عمل من خير ، فإذا فاته هذا السبب لم ينفعه خير عمله . ولم يقبل منه ، كما جعل الإخلاص والمتابعة سبباً لقبول الأعمال ، فإذا فقد لم تقبل الأعمال ، وكما جعل الوضوء وسائر شروط

---

(١) سبق تخريجه ، وموضعه فى مسند أحمد : ٢/ ١٨٢ .

الصلاة سبباً لصحتها ، فإذا فقدت فقدت الصحة ، وهذا شأن سائر الأسباب مع مسبباتها الشرعية والعقلية والحسية ، فمن سوى بين حالين وجود السبب وعدمه فهو مبطل .

ونظير هذا الهوس أن يقال . لو قبلت الشفاعة فى العصاة لقبلت فى المشركين ولو خرج أهل الكبائر من الموحدين من النار لخرج الكفار منها (١) ، وأمثال ذلك : من الأقيسة التى هى من نجاسات معِدَ أصحابها ورجيع أفواههم .

وبالجملة : فالأولى بأهل العلم الإعراض عن الاشتغال بدفع هذه الهذيانات لولا أنهم قد سودوا بها صحف الأعمال ، والصحف التى بين الناس .

فصل

[جواب قولهم العبادات نوعان ..... إلخ]

وأما قولكم العبادات نوعان :

نوع : تدخله النيابة فيصل ثواب إهدائه إلى الميت .

ونوع : لا تدخله فلا يصل ثوابه .

فهذا هو نفس المذهب والدعوى فكيف تحتجون به ، ومن أين لكم هذا الفرق ؟ فأى كتاب أم أى سنة أم أى اعتبار دل عليه حتى يجب المصير إليه ؟

وقد شرع النبى ﷺ الصوم عن الميت ، مع أن الصوم لا تدخله النيابة ، وشرع للأمة أن ينوب بعضهم عن بعض فى أداء فرض الكفاية فإذا فعله واحد ناب عن الباقين فى فعله ، وسقط عنهم المأثم ، وشرع لقيِّم الطفل الذى لا يعقل أن ينوب عنه فى الإحرام ، وأفعال المناسك ، وحكم له بالأجر بفعل نائبه .

وقد قال أبو حنيفة رحمه الله : يُحْرِمُ الرفقة عن المغمى عليه فجعلوا إحرام رفقته بمنزلة إحرامه ، وجعل الشارع إسلام الأبوين بمنزلة إسلام أطفالهما ، وكذلك إسلام السابى والمالك على القول المنصوص ، فقد رأيت كيف عدت هذه الشريعة الكاملة أفعال البر من فاعلها إلى غيرهم ، فكيف يليق بها أن تحجر على العبد أن ينفع والديه ورحمه وإخوانه من المسلمين فى أعظم أوقات حاجاتهم بشئ من الخير والبر يفعله ويجعل ثوابه لهم ، وكيف يتحجر العبد واسعاً أو يحجر على من لم يحجر الشارع فى ثواب عمله أن يصرف منه ما شاء إلى من شاء من المسلمين ، والذى أوصل ثواب

(١) من أقوال المعتزلة .

الحج والصدقة والعتق هو بعينه الذى يوصل ثواب الصيام والصلاة والقراءة والاعتكاف، وهو إسلام المهدى إليه وتبرع المهدى وإحسانه وعدم حجر الشارع عليه فى الإحسان ؛ بل ندبه إلى الإحسان بكل طريق .

وقد تواطأت رؤيا المؤمنين وتواترت أعظم تواتر على إخبار الأموات لهم بوصول ما يهدونه إليهم من قراءة وصلاة وصدقة وحج وغيره ، ولو ذكرنا ما حكى لنا من أهل عصرنا وما بلغنا عمن قبلنا من ذلك لطال جداً ، وقد قال النبى ﷺ : « أرى رؤياكم قد تواطأت على أنها فى السبع الأواخر » فاعتبر صلى الله عليه وآله وسلم : « تواطؤا رؤيا المؤمنين » وهذا كما يعتبر تواطؤ روايتهم لما شاهدوه فهم لا يكذبون فى روايتهم ولا فى رؤياهم إذا تواطأت .

فصل

[فى الجواب عن رد حديث : من مات وعليه صيام]

وأما رد حديث رسول الله ﷺ وهو قوله : « من مات وعليه صيام صام عنه وليه » بتلك الوجوه التى ذكرتموها فنحن ننتصر لحديث رسول الله ﷺ ونبين موافقته للصحيح من تلك الوجوه ، وأما الباطل فيكفينا بطلانه من معارضته للحديث الصحيح الصريح الذى لا تغمز قناته ولا سبيل إلى مقابلته إلا بالسمع والطاعة والإذعان والقبول ، وليس لنا بعده الخيرة بل الخيرة وكل الخيرة فى التسليم له والقول به ولو خالفه من بين المشرق والمغرب .

فأما قولكم نرده بقول مالك فى موطئه : لا يصوم أحد عن أحد . فمنازعوكم يقولون بل نرد قول مالك هذا بقول النبى ﷺ ، فأى الفريقين أحق بالصواب وأحسن رداً ؟

وأما قوله : وهو أمر مجمع عليه عندنا لا خلاف فيه . فمالك رحمه الله لم يحك إجماع الأمة من شرق الأرض وغربها ، وإنما حكى قول أهل المدينة فيما بلغه ولم يبلغه خلاف بينهم ، وعدم إطلاعه رحمه الله على الخلاف فى ذلك لا يكون مسقطاً لحديث رسول الله ﷺ ؛ بل لو أجمع عليه أهل المدينة كلهم لكان الأخذ بحديث المعصوم أولى من الأخذ بقول أهل المدينة ، الذين لم تضمن لنا العصمة فى قولهم دون الأمة ، ولم يجعل الله ورسوله أقوالهم حجة يجب الرد عند التنازع إليها ، بل قال الله تعالى : ﴿ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الأَخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ .

وإن كان مالك وأهل المدينة قد قالوا : لا يصوم أحد عن أحد ، فقد روى الحكم ابن عتيبة ، وسلمة بن كهيل ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس أنه أفتى فى قضاء رمضان يطعم عنه ، وفى النذر يصام عنه .

وهذا مذهب الإمام أحمد وكثير من أهل الحديث ، وهو قول أبي عبيد ، وقال أبو ثور : يصام عنه النذر وغيره ، وقال الحسن بن صالح فى النذر : يصوم عنه وليه .

فصل

[فى جواب ما قالوا : إن ابن عباس هو راوى حديث الصوم عن الميت]

وأما قولكم : ابن عباس هو راوى حديث الصوم عن الميت ، وقد قال : لا يصوم أحد عن أحد .

فغاية هذا أن يكون الصحابى قد أفتى بخلاف ما رواه ، وهذا لا يقدح فى روايته فإن روايته معصومة وفتواه غير معصومة ، ويجوز أن يكون قد نسى الحديث أو تأوله أو اعتقد له معارضاً راجحاً فى ظنه ، أو لغير ذلك من الأسباب ، على أن فتوى ابن عباس غير معارضة للحديث ، فإنه أفتى فى رمضان أنه لا يصوم أحد عن أحد ، وأفتى فى النذر أنه يصام عنه .

وليس هذا بمخالف لروايته ؛ بل حمل الحديث على النذر . ثم إن حديث « من مات وعليه صيام صام عنه وليه » ، هو ثابت من رواية عائشة رضى الله عنها ، فهب أن ابن عباس خالفه ، فكان ماذا ؟ فخلاف ابن عباس لا يقدح فى رواية أم المؤمنين بل رد قول ابن عباس برواية عائشة رضى الله عنها أولى من رد روايتها بقوله ، وأيضاً فابن عباس رضى الله عنهما قد اختلف عنه فى ذلك ، وعنه روايتان فليس إسقاط الحديث للرواية المخالفة له عنه أولى من إسقاطها بالرواية الأخرى بالحديث .

فصل

[فى جواب ما قالوا : إنه حديث اختلف فى إسناده]

وأما قولكم : إنه حديث اختلف فى إسناده ، فكلام مجازف لا يقبل قوله .

فالحديث صحيح ثابت متفق على صحته ، رواه صاحبا الصحيح ولم يختلف فى إسناده .

قال ابن عبد البر : ثبت عن النبى ﷺ أنه قال : « من مات وعليه صيام صام عنه وليه » . وصححه الإمام أحمد وذهب إليه وعلق الشافعى القول به على صحته فقال: وقد روى عن النبى ﷺ فى الصوم عن الميت شئ ، فإن كان ثابتاً صيم عنه كما يحج عنه ، وقد ثبت بلا شك فهو مذهب الشافعى ، وكذلك قال غير واحد من أئمة الصحابة .

قال البيهقى بعد حكايته : هذا اللفظ عن الشافعى قد ثبت جواز القضاء عن الميت برواية سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء وعكرمة عن ابن عباس ، وفى رواية أكثرهم أن امرأة سألت فأشبه أن تكون غير قصة أم سعد ، وفى رواية بعضهم : «صومى عن أمك » .

وسيأتى تقرير ذلك عند الجواب عن كلامه رحمه الله .

وقولكم إنه معارض بنص القرآن وهو قوله ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى ﴾ (١) إساءة أدب فى اللفظ وخطأ عظيم فى المعنى ، وقد أعاذ الله رسول الله ﷺ أن تعارض سنته لنصوص القرآن ، بل تعاضدها وتؤيدها وبالله ما يصنع التعصب ونصرة التقليد ! . وقد تقدم من الكلام على الآية ما فيه كفاية ، وبينا أنها لا تعارض بينها وبين سنة رسول الله ﷺ بوجه ، وإنما يظن التعارض من سوء الفهم . وهذه طريقة وخيمة ذميمة وهى رد السنن الثابتة بما يفهم من ظاهر القرآن والعلم كل العلم تنزيل السنن على القرآن فإنها مشتقة منه ومأخوذة عمن جاء به ، وهى بيان له لا أنها مناقضة له .

وقولكم إنه معارض بما رواه النسائى عن النبى ﷺ أنه قال : « لا يصلى أحد عن أحد ، ولا يصوم أحد عن أحد ، ولكن يطعم عنه كل يوم مد من حنطة » (٢) فخطأ قبيح فإن النسائى رواه هكذا : أخبرنا محمد بن عبد الأعلى ، ثنا يزيد بن زريع ، ثنا حجاج الأحول ، ثنا أيوب بن موسى ، عن عطاء بن أبى رباح ، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « لا يصلى أحد عن أحد ولا يصوم أحد عن أحد ولكن يطعم عنه مكان كل يوم مد من حنطة » . هكذا رواه قول ابن عباس لا قول رسول الله ﷺ فكيف يعارض قول رسول الله ﷺ بقول ابن عباس ثم يقدم عليه ، مع ثبوت الخلاف عن ابن عباس رضى الله عنهما ورسول الله ﷺ لم يقل هذا الكلام قط ،

---

(١) النجم آية : ٣٩ .

(٢) سبق ، وهو فى السنن للنسائى وإسناده إلى ابن عباس صحيح رواته جميعاً ثقات وعلى ذلك فلا معنى لقول ابن القيم : فخطأ قبيح . من جهة إسناده .

وكيف يقوله وقد ثبت عنه فى الصحيحين أنه قال : « من مات وعليه صيام صام عنه وليه » ؟ وكيف يقول وقد قال فى حديث بريدة الذى رواه مسلم فى صحيحه : « إن امرأة قالت له : إن أمى ماتت وعليها صوم شهر ، قال : صومى عن أمك » .

وأما قولكم إنه معارض بحديث ابن عمر رضى الله عنهما : « من مات وعليه صوم رمضان يطعم عنه » فمن هذا النمط فإنه حديث باطل على رسول الله ﷺ .

قال البيهقى : حديث محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، عن نافع ، عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ : « من مات وعليه صوم رمضان يطعم عنه » لا يصح . ومحمد بن عبد الرحمن كثير الوهم ، وإنما رواه أصحاب نافع عن نافع ، عن ابن عمر رضى الله عنهما من قوله .

وأما قولكم : إنه معارض بالقياس الجلى على الصلاة والإسلام والتوبة ، فإن أحداً لا يفعلها عن أحد ، فلعمر الله إنه لقياس جلى البطلان والفساد لرد سنة رسول الله ﷺ الصحيحة الصريحة له وشهادتها ببطلانه .

وقد أوضحنا الفرق بين قبول الإسلام عن الكافر بعد موته ، وبين انتفاع المسلم بما يهديه إليه أخوه المسلم من ثواب صيام أو صدقة أو صلاة ، ولعمر الله إن الفرق بينهما أوضح من أن يخفى ، وهل فى القياس أفسد من قياس انتفاع المسلم بعد موته بما يهديه إليه أخوه المسلم ، من ثواب عمله على قبول الإسلام عن الكافر بعد موته ، أو قبول التوبة عن المجرم بعد موته ؟

فصل

[فى جواب تغليط راوى حديث ابن عباس : إن نذر أم سعد كان صوماً ... إلخ]

وأما كلام الشافعى رحمه الله فى تغليط راوى حديث ابن عباس رضى الله عنهما : « إن نذر أم سعد كان صوماً » .

فقد أجاب عنه أنصر الناس له وهو البيهقى - ونحن نذكر كلامه بلفظه - قال فى (كتاب المعرفة) بعد أن حكى كلامه : قد ثبت جواز القضاء عن الميت برواية سعيد ابن جبير ومجاهد وعطاء وعكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما ، وفى رواية أكثرهم أن امرأة سألت : فأشبه أن تكون غير قصة أم سعد ، وفى رواية بعضهم : « صومى عن أمك » .

قال : وشهد له بالصحة رواية عبد الله بن عطاء المدنى ، قال : حدثنى عبد الله ابن بريدة الأسلمى عن أبيه قال : كنت عند النبى ﷺ فأتته امرأة فقالت : يا رسول الله إنى كنت تصدقت بوليدة على أمى فماتت وبقيت الوليدة قال : « قد وجب أجرك ورجعت إليك فى الميراث » ، قالت : فإنها ماتت وعليها صوم شهر . قال : «صومى عن أمك » قالت : وإنها ماتت ولم تحج قال : « فحجى عن أمك » [١] رواه مسلم فى صحيحه من أوجه عن عبد الله بن عطاء انتهى .

قلت : وقد روى أبو بكر بن أبى شيبة ، ثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن مسلم البطين ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، إن أمى ماتت وعليها صيام شهر فأقضيه عنها ؟ فقال النبى ﷺ : « لو كان عليها دين أكنت قاضيه عنها ؟ قال : نعم ، قال : فدين الله أحق أن يقضى » .

ورواه ابن خيثمة : ثنا معاوية بن عمرو ، ثنا زائدة عن الأعمش ، فذكره . ورواه النسائى عن قتيبة بن سعيد : ثنا عنترة عن الأعمش فذكره . فهذا غير حديث أم سعد إسناداً ومتناً . فإن قصة أم سعد رواها مالك ، عن الزهرى ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، عن ابن عباس رضى الله عنهما ؟ أن سعد بن عبادة استفتى رسول الله ﷺ فقال : إن أمى ماتت وعليها نذر . فقال النبى ﷺ : « اقضه عنها» هكذا أخرجاه فى الصحيحين [٢] .

فهب أن هذا هو المحفوظ فى هذا الحديث أنه نذر مطلق لم يسم ، فهل يكون هذا فى حديث الأعمش عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير ؟ على أن ترك استفصال النبى ﷺ لسعد فى النذر هل كان صلاة أو صدقة أو صياماً ، مع أن الناذر قد ينذر هذا ؟ وهذا يدل على أنه لا فرق بين قضاء نذر الصيام والصلاة وإلا لقال له : ما هو النذر ؟ فإن النذر إذا انقسم إلى قسمين : نذر يقبل القضاء عن الميت ، ونذر لا يقبله لم يكن بد من الاستفصال .

---

(١) أخرجه مسلم فى الصوم ٢/ ٨٠٥ (١٥٧) عن بريدة .

(٢) أخرجه البخارى فى الصوم ٤/ ٢٢٧ (١٩٥٣) . ومسلم فى الصوم ٢/ ٨٠٤ (١٥٤ - ١٥٦) .

فصل

[ذكر أقوال أهل العلم فى الصوم عن الميت]

ونحن نذكر أقوال أهل العلم فى الصوم عن الميت ، لئلا يتوهم أن فى المسألة إجماعاً بخلافه .

قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : يصام عنه فى النذر ويطعم عنه فى قضاء رمضان . وهذا مذهب الإمام أحمد .

وقال أبو ثور : يصام عنه النذر والفرض ، وكذلك قال داود بن على وأصحابه : يصام عنه نذراً كان أو فرضاً . وقال الأوزاعى : يجعل وليه مكان الصوم صدقة فإن لم يجد صام عنه .

وهذا قول سفيان الثورى فى إحدى الروايتين عنه ، وقال أبو عبيد القاسم بن سلام يصام عنه النذر ويطعم عنه فى الفرض .

وقال الحسن : إذا كان عليه صيام شهر فصام عنه ثلاثون رجلاً يوماً واحداً جاز .

فصل

[جواب من فرق بين ثواب النفقة وبين ثواب الحج]

وأما قولكم : إنه يصل إليه فى الحج ثواب النفقة دون أفعال المناسك فدعوى مجردة بلا برهان والسنة تردها .

فإن النبى ﷺ قال : « حج عن أبيك » وقال للمرأة : « حجى عن أمك » فأخبر أن الحج نفسه عن الميت ، ولم يقل إن الإنفاق هو الذى يقع عنه ، وكذلك، قال للذى سمعه يلبى عن شبرمة : « حج عن نفسك ثم حج عن شبرمة » ولما سألته لمرأة عن الطفل الذى معها فقالت ألهذا حج ؟ قال : « نعم » ولم يقل ، إنما له ثواب الإنفاق؛ بل أخبر أن له حجاً مع أنه لم يفعل شيئاً ؛ بل وليه ينوب عنه فى أفعال المناسك ، ثم إن النائب عن الميت قد لا ينفق شيئاً فى حجته غير نفقة مقامه فما الذى يجعل ثواب نفقة مقامه للمحجوج عنه وهو لم ينفقها على الحج ؟ بل تلك نفقته أقام أم سافر ، فهذا القول ترده السنة والقياس . واللّه أعلم .

فصل

[هل يشترط فى إيصال الثواب التلفظ بالإهداء أم يكفى مجرد النية ؟]

فإن قيل : فهل تشترطون فى وصول الثواب أن يهديه بلفظه ، أم يكفى فى وصوله مجرد نية العامل أن يهديها إلى الغير ؟

قيل : السنة لم تشترط التلفظ بالإهداء فى حديث واحد ؛ بل أطلق صلى الله عليه وآله وسلم الفعل عن الغير كالصوم والحج والصدقة ، ولم يقل لفاعل ذلك «وقل اللهم هذا عن فلان ابن فلان » واللَّه سبحانه يعلم نية العبد وقصده بعمله ، فإن ذكره جاز وإن ترك ذكره واكتفى بالنية والقصد وصل إليه ، ولا يحتاج أن يقول: اللهم إنى صائم غداً عن فلان ابن فلان . ولهذا واللَّه أعلم اشترط من اشترط نية الفعل عن الغير قبله ليكون واقعاً بالقصد عن الميت ، فأما إذا فعله لنفسه ثم نوى أن يجعله ثوابه للغير لم يصر للغير بمجرد النية ، كما لو نوى أن يهب أو يعتق أو يتصدق لم يحصل ذلك بمجرد النية .

ومما يوضح ذلك أنه لو بنى مكاناً بنية أن يجعله مسجداً أو مدرسة أو سقاية ونحو ذلك صار وقفاً بفعله مع النية ولم يحتج إلى تلفظ ، وكذلك لو أعطى الفقير مالاً بنية الزكاة سقطت عنه الزكاة وإن لم يكن يتلفظ بها ، وكذلك لو أدى عن غيره ديناً حياً كان أو ميتاً سقط من ذمته وإن لم يقل هذا عن فلان .

[هل يتعين فى إهداء الثواب تعليق العمل بالقبول أم لا ؟]

فإن قيل : فهل يتعين عليه تعليق الإهداء بأن يقول : اللهم إن كنت قبلت هذا العمل وأثبتنى عليه ، فاجعل ثوابه لفلان أم لا ؟

قيل : لا يتعين ذلك لفظاً ولا قصداً ؛ بل لا فائدة فى هذا الشرط ، فإن الله سبحانه إنما يفعل هذا سواء شرطه أو لم يشرطه ، فلو كان سبحانه يفعل غير هذا بدون الشرط كان فى الشرط فائدة ، وأما قوله : اللهم إن كنت أثبتنى على هذا فاجعل ثوابه لفلان ، فهو بناء على أن الثواب يقع للعامل ثم ينتقل منه إلى من أهدى له ، وليس كذلك ؛ بل إذا نوى حال الفعل أنه عن فلان وقع الثواب أولاً عن المعمول له ، كما لو أعتق عبده عن غيره لا نقول : إن الولاء يقع للمعتق ثم ينتقل عنه إلى المعتق عنه ، فهكذا هذا . وباللَّه التوفيق .

[أى الأعمال أفضل فى إهداء الثواب إلى الميت]

فإن قيل : فما الأفضل أنه يهدى إلى الميت .

قيل : الأفضل ما كان أنفع فى نفسه ، فالعتق عنه والصدقة أفضل من الصيام عنه وأفضل الصدقة ما صادفت حاجة من المتصدق عليه ، وكانت دائمة مستمرة ، ومنه قول النبى ﷺ : « أفضل الصدقة سقى الماء » [1] ، وهذا في موضع يقل فيه الماء ويكثر فيه العطش ، وإلا فسقى الماء على الأنهار والقنى لا يكون أفضل من إطعام الطعام عند الحاجة ، وكذلك الدعاء والاستغفار له إذا كان بصدق من الداعى وإخلاص وتضرع ، فهو فى موضعه أفضل من الصدقة عنه ، كالصلاة على الجنازة والوقوف للدعاء على قبره . وبالجملة فأفضل ما يهدى إلى الميت العتق والصدقة والاستغفار له والدعاء له والحج عنه .

[وصول ثواب قراءة القرآن وما يتعلق به]

وأما قراءة القرآن ، وإهداؤها له تطوعاً بغير أجرة فهذا يصل إليه كما يصل ثواب الصوم والحج .

فإن قيل : فهذا لم يكن معروفاً في السلف ولا يمكن نقله عن واحد منهم مع شدة حرصهم على الخير ولا أرشدهم النبى ﷺ إليه وقد أرشدهم إلى الدعاء والاستغفار والصدقة والحج والصيام ، فلو كان ثواب القراءة يصل لأرشدهم إليه ولكانوا يفعلونه .

فالجواب : إن مورد هذا السؤال إن كان معترفاً بوصول ثواب الحج والصيام والدعاء والاستغفار ، قيل له : ما هذه الخاصية التى منعت وصول ثواب القرآن واقتضت وصول ثواب هذه الأعمال ، وهل هذا إلا تفريق بين المتماثلات ؟ وإن لم يعترف بوصول تلك الأشياء إلى الميت فهو محجوج بالكتاب والسنة والإجماع وقواعد الشرع . وأما السبب الذى لأجله لم يظهر ذلك فى السلف فهو أنهم لم يكن لهم أوقاف على من يقرأ ويهدى إلى الموتى ولا كانوا يعرفون ذلك ألبتة ، ولا كانوا يقصدون القبر للقراءة عنده كما يفعله الناس اليوم ، ولا كان أحدهم يشهد من حضره من الناس على أن ثواب هذه القراءة لفلان الميت ؛ بل ولا ثواب هذه الصدقة والصوم .

---

(١) أخرجه النسائى فى الوصايا ٦/ ٢٥٥ . وابن ماجه وأحمد .

ثم يقال لهذا القائل : لو كلفت أن تنقل عن واحد من السلف أنه قال : اللهم ثواب هذا الصوم لفلان ، لعجزت . فإن القوم كانوا أحرص شئ على كتمان أعمال البر ، فلم يكونوا ليشهدوا على الله بإيصال ثوابها إلى أمواتهم .

فإن قيل : فرسول الله ﷺ أرشدهم إلى الصوم والصدقة والحج دون القراءة .

قيل : هو صلى الله عليه وآله وسلم لم يبتدئهم بذلك ؛ بل خرج ذلك منه مخرج الجواب لهم . فهذا سأله عن الحج عن ميته فأذن له ، وهذا سأله عن الصيام عنه فأذن له ، وهذا سأله عن الصدقة فأذن له ، ولم يمنعهم مما سوى ذلك ، وأى فرق بين وصول ثواب الصوم الذى هو مجرد نية وإمساك ، وبين وصول ثواب القراءة والذكر، والقائل إن أحداً من السلف لم يفعل ذلك قائل ما لا علم له به ، فإن هذه شهادة على نفى ما لم يعلمه فما يدريه أن السلف كانوا يفعلون ذلك ولا يشهدون من حضرهم عليه ؛ بل يكفى إطلاع علام الغيوب على نياتهم ومقاصدهم لا سيما والتلفظ بنية الإهداء لا يشترط كما تقدم .

وسر المسألة أن الثواب ملك العامل فإذا تبرع به وأهداه إلى أخيه المسلم أوصله الله إليه ، فما الذى خص من هذا ثواب قراءة القرآن وحجر على العبد أن يوصله إلى أخيه وهذا عمل سائر الناس حتى المنكرين فى سائر الأعصار والأمصار من غير نكير من العلماء .

* * *

[إهداء ثواب الأعمال إلى رسول الله ﷺ]

فإن قيل : فما تقولون فى الإهداء إلى رسول الله ﷺ .

قيل : من الفقهاء المتأخرين من استحبه ومنهم من لم يستحبه ورآه بدعة ، فإن الصحابة لم يكونوا يفعلونه وأن النبى ﷺ له أجر كل من عمل خيراً من أمته ، من غير أن ينقص من أجر العامل شئ ، لأنه هو الذى دل أمته على كل خير ، وأرشدهم ودعاهم إليه ، ومن دعا إلى هدى فله من الأجر مثل أجور من تبعه من غير أن ينقص من أجورهم شئ ، وكل هدى وعلم فإنما نالته أمته على يده ، فله مثل أجر من اتبعه أهداه إليه أو لم يهده . والله أعلم .

* * *

فصل

﴿ المسألة السابعة عشر ﴾

[هل الروح قديمة أم محدثة ؟ ..]

وأما المسألة السابعة عشر وهى : هل الروح قديمة أو محدثة مخلوقة ؟ وإذا كانت محدثة مخلوقة وهى من أمر الله ، فكيف يكون أمر الله محدثاً مخلوقاً ، وقد أخبر سبحانه أنه نفخ فى آدم من روحه ؟ فهذه الإضافة إليه هل تدل على أنها قديمة أم لا ، وما حقيقة هذه الإضافة ، فقد أخبر عن آدم أنه خلقه بيده ، ونفخ فيه من روحه فأضاف اليد والروح إليه إضافة واحدة ؟

فهذه مسألة زل فيها عالم وضلَّ فيها طوائف من بنى آدم ، وهدى الله أتباع رسوله فيها للحق المبين والصواب المستبين ، فأجمعت الرسل ، صلوات الله وسلامه عليهم على أنها محدثة مخلوقة مصنوعة مربوبة مدبرة . هذا معلوم بالاضطرار من دين الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم ، كما يعلم بالاضطرار من دينهم أن العالم حادث وأن معاد الأبدان واقع ، وأن الله وحده الخالق وكل ما سواه مخلوق له .

وقد انطوى عصر الصحابة والتابعين وتابعيهم وهم القرون الفضيلة على ذلك من غير اختلاف بينهم فى حدوثها وأنها مخلوقة حتى نبغت نابغة ممن قصر فهمه فى الكتاب والسنة فزعم أنها قديمة غير مخلوقة واحتج بأنها من أمر الله وأمره غير مخلوق، وبأن الله تعالى أضافها إليه كما أضاف إليه علمه وكتابه وقدرته وسمعه وبصره ويده . وتوقف آخرون فقالوا : لا نقول مخلوقة ولا غير مخلوقة .

[اختلاف الأقوال فى الروح]

وسئل عن ذلك حافظ أصبهان أبو عبد الله بن منده فقال : أما بعد ، فإن سائلاً سألنى عن الروح التى جعلها الله سبحانه قوام نفس الخلق وأبدانهم ، وذكر أن أقواماً تكلموا فى الروح وزعموا أنها غير مخلوقة ، وخص بعضهم منها أرواح القدس وأنها من ذات الله قال : وأنا أذكر اختلاف أقاويل متقدميهم وأبين ما يخالف أقاويلهم من الكتاب والأثر ، وأقاويل الصحابة والتابعين وأهل العلم ، وأذكر بعد ذلك وجوه

---

(١) جهم : هو ابن صفوان ، وإليه تنسب الجهمية .

الروح من الكتاب والأثر ، وأوضح خطأ المتكلم في الروح بغير علم ، وأن كلامهم يوافق قول جهم وأصحابه فنقول وباللّه التوفيق - إن الناس اختلفوا فى معرفة الأرواح ومحلها من النفس .

فقال بعضهم : الأرواح كلها مخلوقة ، وهذا مذهب أهل الجماعة والأثر واحتجوا بقول النبي ﷺ : « الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » (١) .

والجنود المجندة لا تكون إلا مخلوقة .

وقال بعضهم : الأرواح من أمر الله أخفى الله حقيقتها وعلمها عن الخلق ، واحتجوا بقول الله تعالى : ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ (٢) .

وقال بعضهم : الأرواح نور من نور الله تعالى وحياة من حياته ، واحتجت بقول النبى ﷺ : « إن الله خلق خلقه فى ظلمة وألقى عليهم من نوره » (٣) .

[الروح تموت أم لا ؟]

ثم ذكر الخلاف فى الأرواح هل تموت أم لا ، وهل تعذب مع الأجساد فى البرزخ وفى مستقرها بعد الموت ؟ وهل هى النفس أو غيرها ؟

وقال محمد بن نصر المروزى فى كتابه : تأول صنف من الزنادقة وصنف من الروافض فى رواح آدم ما تأولته النصارى فى روح عيسى ، وما تأوله قوم من أن الروح انفصل من ذات الله فصار فى المؤمن ، فعبد صنف من النصارى عيسى ومريم جميعاً ، لأن عيسى عندهم روح من الله صار فى مريم فهو غير مخلوق عندهم .

وقال صنف من الزنادقة وصنف من الروافض : أن روح آدم مثل ذلك أنه غير مخلوق ، وتأولوا قوله تعالى : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ (٤) ، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ﴾ (٥) . فزعموا أن روح آدم ليس بمخلوق ، كما تأول من قال : إن النور من الرب غير مخلوق ، قالوا : ثم صار بعد آدم في الوصى بعده ثم هو فى كل نبى ووصى إلى أن صار فى علىّ ثم فى الحسن والحسين ، ثم فى

---

(١) سبق تخريجه وهو حديث متفق عليه . (٢) الإسراء آية : ٨٥ .

(٣) أخرجه الترمذى فى الإيمان ٥/ ٢٦ (٢٦٤٢) وقال : هذا حديث حسن . وأحمد فى المسند : ٢/ ١٧٦ .

(٤) الحجر آية : ٢٩ . (٥) السجدة آية : ٩ .

كل وصى وإمام فيه يعلم الإمام كل شئ ولا يحتاج أن يتعلم من أحد ، ولا خلاف بين المسلمين أن الأرواح التى فى آدم وبنيه وعيسى ومن سواه من بنى آدم كلها مخلوقة لله خلقها وأنشأها وكونها واخترعها ، ثم أضافها إلى نفسه ، كما أضاف إليه سائر خلقه .

قال تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [1] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : روح الآدمى مخلوقة مبدعة ، باتفاق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة ، وقد حكى إجماع العلماء على أنها مخلوقة غير واحد من أئمة المسلمين مثل محمد بن نصر المروزى الإمام المشهور الذى هو من أعلم أهل زمانه بالإجماع والاختلاف ، وكذلك أبو محمد بن قتيبة قال فى ﴿ كتاب اللفظ ﴾ لما تكلم عن الروح ، قال : وأجمع الناس على أن الله تعالى هو فالق الحبة وبارئ النسمة أى خالق الروح .

وقال أبو إسحاق بن شاقلا فيما أجاب به فى هذه المسألة : سألت رحمك الله عن الروح مخلوقة هى أو غير مخلوقة ؟ قال : وهذا مما لا يشك فيه من وفق للصواب، إن الروح من الأشياء المخلوقة ، وقد تكلم فى هذه المسألة طوائف من أكابر العلماء والمشايخ ، وردوا على من يزعم أنها غير مخلوقة .

وصنف الحافظ أبو عبد الله بن منده فى ذلك كتاباً كبيراً وقبله الإمام محمد بن نصر المروزى وغيره ، والشيخ أبو سعيد الخراز وأبو يعقوب النهرجورى والقاضى أبو يعلى ، وقد نص على ذلك الأئمة الكبار واشتد نكيرهم على من يقول ذلك فى روح عيسى ابن مريم ، فكيف بروح غيره ، كما ذكره الإمام أحمد فيما كتبه فى مجلسه فى الرد على الزنادقة والجهمية .

ثم إن الجهمى ادعى أمراً ، فقال : أنا أجد آية فى كتاب الله مما يدل على أن القرآن مخلوق قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ [2] وعيسى مخلوق .

قلنا له : إن الله تعالى منعك الفهم للقرآن ، إن عيسى تجرى عليه ألفاظ لا تجرى على القرآن ، لأنا نسميه مولوداً وطفلاً وصبياً وغلاماً يأكل ويشرب وهو مخاطب

---

(١) الجاثية آية : ١٣ .

(٢) النساء آية : ١٧١ .

بالأمر والنهى يجرى عليه الخطاب والوعد والوعيد ، ثم هو من ذرية نوح ومن ذرية إبراهيم فلا يحل لنا أن نقول فى القرآن ما نقول فى عيسى ، فهل سمعتم الله يقول فى القرآن ما قال فى عيسى ، ولكن المعنى فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ .

فالكلمة التى ألقاها إلى مريم حين قال له كن فكان عيسى بكن ، وليس عيسى هو كن ولكن كان بكن ، فكن من الله قول وليس كن مخلوقاً ، وكذبت النصارى والجهمية على الله فى أمر عيسى ، وذلك أن الجهمية قالوا : روح الله وكلمته ، إلا أن كلمته مخلوقة .

وقالت النصارى : عيسى روح الله وكلمته من ذاته ، كما يقال هذه الخرقة من هذا الثوب . قلنا نحن : إن عيسى بالكلمة كان وليس عيسى هو الكلمة ، وإنما الكلمة قول الله تعالى : كن ، وقوله وروح منه .

يقول من أمره كان الروح فيه كقوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِى السَّمَوَٰتِ وَمَا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ (١) يقول من أمره وتفسير روح الله إنما معناها بكلمة الله خلقها كما يقال عبد الله ، وسماء الله ، وأرض الله ، فقد صرح بأن روح المسيح مخلوقة ، فكيف بسائر الأرواح ، وقد أضاف الله إليه الروح الذى أرسله إلى مريم وهو عبده ورسوله ، ولم يدل ذلك على أنه قديم غير مخلوق فقال تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيا * قَالَتْ إِنِّى أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيا * قَالَ إِنَّمَا أَنَاْ رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴾ (٢) .

فهذا الروح هو روح الله وهو عبده ورسوله ، وسنذكر إن شاء اللّه تعالى أقسام المضاف إلى الله ، وأنى يكون المضاف صفة له قديمة ، وأنى يكون مخلوقاً وما ضابط ذلك ؟!

فصل
[الدلائل على خلق الأرواح]

والذى يدل على خلقها وجوه :

الوجه الأول : قول الله تعالى : ﴿ اللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ (٣) فهذا اللفظ عام لا

---

(١) الجاثية آية : ١٣ .   (٢) مريم آية : ١٧ - ١٩ .   (٣) الزمر آية : ٦٢ .

تخصيص فيه بوجه ما ولا يدخل فى ذلك صفاته فإنها داخلة فى مسى اسمه . فاللّه سبحانه هو الإله الموصوف بصفات الكمال ، فعلمه وقدرته وحياته وإرادته وسمعه وبصره وسائر صفاته داخل فى مسمى اسمه ليس داخلاً في الأشياء المخلوقة كما لم تدخل ذاته فيها فهو سبحانه بذاته وصفاته الخالق وما سواه مخلوق .

ومعلوم قطعاً أن الروح ليست هى الله ولا صفة من صفاته ، وإنما هى مصنوع من مصنوعاته ، فوقوع الخلق عليها كوقوعه على الملائكة والجن والإنسان .

الوجه الثانى : قوله تعالى لزكريا : ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ (١). وهذا الخطاب لروحه وبدنه ليس لبدنه فقط ، فإن البدن وحده لا يفهم ولا يخاطب ولا يعقل ، وإنما الذى يفهم ويعقل ويخاطب هو الروح .

الوجه الثالث : قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

الوجه الرابع : قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ ﴾ (٣) . وهذا الإخبار إنما يتناول أرواحنا وأجسادنا كما يقوله الجمهور ، وإما أن يكون واقعاً على الأروح قبل خلق الأجساد ، كما يقوله من يزعم ذلك ، وعلى التقديرين فهو صريح فى خلق الأرواح .

الوجه الخامس : النصوص الدالة على أنه سبحانه ربنا ورب آبائنا الأولين ورب كل شئ ، وهذه الربوبية شاملة لأرواحنا وأبداننا ، فالأرواح مربوبة له مملوكة ، كما أن الأجسام كذلك ، وكل مربوب مملوك فهو مخلوق .

الوجه السادس : أول سورة فى القرآن وهى الفاتحة تدل على أن الأرواح مخلوقة من عدة أوجه :

أحدها : قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَلَمِينَ ﴾ (٤) ، والأرواح من جملة العالم فهو ربها .

الثانى : قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (٥) . فالأرواح عابدة له مستعينة، ولو كانت غير مخلوقة لكانت معبودة مستعاناً بها .

الثالث : أنها فقيرة إلى هداية فاطرها وربها تسأله أن يهديها صراطه المستقيم .

---

(١) مريم آية : ٩ . (٢) الصافات آية : ٩٦ . (٣) الأعراف آية : ١١ .
(٤) الفاتحة الآية : ٢ . (٥) الفاتحة آية ٥ .

الرابع : أنها منعم عليها مرحومة ومغضوب عليها وضالة شقية ، وهذا شأن المربوب المملوك لا شأن القديم غير المخلوق .

الوجه السابع : النصوص الدالة على أن الإنسان عبد بجملته ، وليست عبوديته واقعة على بدنه دون روحه ؛ بل عبودية الروح أصل وعبودية البدن تبع ، كما أنه تبع لها فى الأحكام وهى التى تحركه وتستعمله وهو تبع لها فى العبودية .

الوجه الثامن : قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُوراً ﴾ .

فلو كانت روحه قديمة لكان الإنسان لم يزل شيئاً مذكوراً ، فإنه إنما هو إنسان بروحه لا ببدنه فقط كما قيل :

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته　　فأنت بالروح لا بالجسم إنسان

الوجه التاسع : النصوص الدالة على أن الله سبحانه كان ولم يكن شئ غيره ، كما ثبت فى صحيح البخارى من حديث عمران بن حصين : « أن أهل اليمن قالوا يا رسول الله جئناك لنتفقه فى الدين ونسألك عن أول هذا الأمر فقال : كان الله ولم يكن شئ غيره ، وكان عرشه على الماء وكتب فى الذكر كل شئ » ولم يكن مع الله أرواح ولا نفوس قديمة يساوى وجودها وجوده ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ؛ بل هو الأول وحده لا يشاركه غيره فى أوليته بوجه من الوجوه .

الوجه العاشر : النصوص الدالة على خلق الملائكة ، وهم أرواح مستغنية عن أجساد تقوم بها وهم مخلوقون قبل خلق الإنسان وروحه .

فإذا كان الملك الذى يحدث الروح فى جسد ابن آدم بنفخته مخلوقاً ، فكيف تكون الروح الحادثة بنفخة قديمة ؟ وهؤلاء الغالطون يظنون أن الملك يرسل إلى الجنين بروح قديمة أزلية ينفخها فيه ، كما يرسل الرسول بثوب إلى الإنسان يلبسه إياه ، وهذا ضلال وخطأ ، وإنما يرسل الله سبحانه إليه الملك فينفخ فيه نفخة تحدث له الروح بواسطة تلك النفخة ، فتكون النفخة هى سبب حصول الروح وحدوثها له ، كما كان الوطء والإنزال سبب تكوين جسمه والغذاء سبب نموه ، فمادة الروح من نفخة الملك، ومادة الجسم من صب الماء فى الرحم ، فهذه مادة سماوية ، وهذه مادة أرضية . فمن الناس من تغلب عليه المادة السماوية فتصير روحه علوية شريفة تناسب الملائكة ،

ومنهم من تغلب عليه المادة الأرضية فتصير روحه سفلية ترابية مهينة ، تناسب الأرواح السفلية ، فالملك أب لروحه والتراب أب لبدنه وجسمه .

الوجه الحادى عشر : حديث أبى هريرة رضى الله عنه الذى فى صحيح البخارى وغيره عن النبى ﷺ : « الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » [1] .

والجنود المجندة لا تكون إلا مخلوقة ، وهذا الحديث رواه عن النبى ﷺ أبو هريرة وعائشة أم المؤمنين ، وسلمان الفارسى ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمرو ، وعلى بن أبى طالب ، وعمرو بن عبسة رضى الله عنهم .

الوجه الثانى عشر : أن الروح توصف بالوفاة والقبض والإمساك والإرسال . وهذا شأن المخلوق المحدث المربوب ، قال الله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِى قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [2] .

والأنفس هاهنا هى الأرواح قطعاً .

وفى الصحيحين من حديث عبد الله بن أبى قتادة الأنصارى عن أبيه قال : سرنا مع رسول الله ﷺ فى سفر ذات ليلة ، فقلنا يا رسول الله لو عرست بنا ، فقال : «إنى أخاف أن تناموا ، فمن يوقظنا للصلاة ؟ » فقال بلال : أنا يا رسول الله قال: « فعرس بالقوم » فاضطجعوا واستند بلال إلى راحلته فغلبته عيناه فاستيقظ رسول الله ﷺ ، وقد طلع جانب الشمس فقال : « يا بلال أين ما قلت لنا ؟ » . فقال : والذى بعثك بالحق ما ألقيت على نومة مثلها ، فقال رسول الله ﷺ : « إن الله قبض أرواحكم حين شاء وردها حين شاء » .

فهذه الروح المقبوضة هى النفس التى يتوفاها الله حين موتها ، وفى منامها ، وهى التى يتوفاها ملك الموت ، وهى التى تتوفاها رسل الله سبحانه ، وهى التى يجلس الملك عند رأس صاحبها ويخرجها من بدنه كرهاً ويكفنها بكفن من الجنة أو النار ، ويصعد بها إلى السماء فتصلى عليها أو تلعنها ، وتوقف بين يدى ربها فيقضى فيها أمره ، ثم تعاد إلى الأرض فتدخل بين الميت وأكفانه فيسأل ويمتحن ويعاقب وينعم ،

(١) سبق وهو متفق عليه .　　(٢) الزمر آية : ٤٢ .

وهى التى تجعل فى أجواف الطير الخضر تأكل وتشرب من الجنة وهى التى تعرض على النار غدواً وعشياً ، وهى التى تؤمن وتكفر وتطيع وتعصى وهى الأمارة بالسوء ، وهى اللوامة وهى المطمئنة إلى ربها وأمره وذكره ، وهى التى تعذب وتنعم وتسعد وتشقى وتحبس وترسل وتصح وتسقم ، وتلذ وتألم وتخاف وتحزن وما ذاك لا سمات مخلوق مبدع وصفات منشأ مخترع وأحكام مربوب مدبر مصرف تحت مشيئة خالقه وفاطره وبارئه ، وكان رسول الله ﷺ يقول عند نومه : «اللهم أنت خلقت نفسى وأنت توفاها ، لك مماتها ومحياها ، فإن أمسكتها فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » .

وهو تعالى بارئ النفوس كما هو بارئ الأجساد قال تعالى : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى الأَرْضِ وَلاَ فِى أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ .

قيل من قبل أن نبرأ المصيبة ، وقيل : من قبل أن نبرأ الأرض ، وقيل : من قبل أن نبرأ الأنفس وهو أولى لأنه أقرب مذكور إلى الضمير ، ولو قيل يرجع إلى ثلاثة، أى من قبل أن نبرأ المصيبة والأرض والأنفس ، لكان أوجه . وكيف تكون قديمة مستغنية عن خالق محدث مبدع لها ، وشواهد الفقر والحاجة والضرورة أعدل شواهد على أنها مخلوقة مربوبة مصنوعة ، وأن وجود ذاتها وصفاتها وأفعالها من ربها وفاطرها ليس لها من نفسها إلا العدم ، فهى لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، لا تستطيع أن تأخذ من الخير إلا ما أعطاها ولا تتقى من الشر إلا ما وقاها ولا تهتدى إلى شئ من مصالح دنياها وأخراها إلا بهداه ، ولا تصلح إلا بتوفيقه لها وإصلاحه إياها ، ولا تعلم إلا ما علمها ، ولا تتعدى ما ألهمها ، فهو الذى خلقها فسواها وألهمها فجورها وتقواها .

فأخبر سبحانه أنه خالقها ومبدعها وخالق أفعالها من الفجور والتقوى ، خلافاً لمن يقول إنها ليست مخلوقة ، ولمن يقول إنها وإن كانت مخلوقة فليس خالقاً لأفعالها ؛ بل هى التى تخلق أفعالها وهما قولان لأهل الضلال والغى .

ومعلوم أنها لو كانت قديمة غير مخلوقة لكانت مستغنية بنفسها فى وجودها وصفاتها وكمالها وهذا من أبطل الباطل . فإن فقرها إليه سبحانه فى وجودها وكمالها وصلاحها من لوازم ذاتها ليس معللاً بعلة ، فإنه أمر ذاتىٌ لها كما أن غنَى

ربها وفاطرها ومبدعها من لوازم ذاته ليس معللاً بعلة ، فهو سبحانه الغنى بالذات وهى الفقيرة إليه بالذات ، فلا يشاركه سبحانه فى غناه مشارك كما لا يشاركه فى قدَمه وربوبيته وإلهيته وملكه التام وكماله المقدس مشارك ، فشواهد الخلق والحدوث على الأرواح كشواهده على الأبدان . قال تعالى : ﴿ يَٰأَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (1) . وهذا الخطاب بالفقر إليه للأرواح والأبدان ليس هو للأبدان فقط ، وهذا الغناء التام لله وحده لا يشركه فيه غيره ، وقد أرشد الله سبحانه عباده إلى أوضح دليل على ذلك بقوله ﴿ فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ * فَلَوْلاَ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (2) . أى فلولا إن كنتم غير مملوكين ومقهورين ومربوبين ومجازين بأعمالكم تردون الأرواح إلى الأبدان إذا وصلت إلى هذا الموضع، أو لا تعلمون بذلك أنها مدينة مملوكة مربوبة محاسبة مجزية بعملها ، وكل ما تقدم ذكره فى هذا الجواب من أحكام الروح وشأنها ومستقرها بعد الموت ، فهو دليل على أنها مخلوقة مربوبة مدبرة ليست بقديمة ، وهذا الأمر أوضح من أن تساق الأدلة عليه لولا ضلال من المتصوفة وأهل البدع ، ومن قصر فهمه فى كتاب الله وسنة رسوله فأتى من سوء الفهم من النص ، تكلموا فى أنفسهم وأرواحهم بما دل على أنهم من أجهل الناس بها ، وكيف يمكن من له أدنى مسكة من عقل أن ينكر أمراً تشهد به عليه نفسه وصفاته وأفعاله وجوارحه وأعضاؤه ؛ بل تشهد به السموات والأرض والخليقة ، فللَّه سبحانه فى كل ما سواه آية ؛ بل آيات تدل على أنه مخلوق مربوب ، وأنه خالقه وربه وبارئه ومليكه ، ولو جحد ذلك فمعه شاهد عليه .

فصل

[الاختلاف فى معنى الروح فى الآية الكريمة بين السلف والخلف]

وأما ما احتجت به هذه الطائفة ، فأما ما أتوا به من اتباع متشابه القرآن والعدول عن محكمه ، فهذا شأن كل ضال ومبتدع . فمحكم القرآن من أوله إلى آخره يدل على أن الله تعالى خالق الأرواح ومبدعها ، وأما قوله تعالى : ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾. فمعلوم قطعاً أنه ليس المراد هاهنا بالأمر الطلب الذى يأمر به ، وإنما المراد

(1) فاطر آية : ١٥ .

(2) الواقعة الآيات : ٨٣ - ٨٧ .

بالأمر هاهنا المأمور وهو عرف مستعمل فى لغة العرب ، وفى القرآن منه كثير كقوله تعالى : ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ ﴾ أى مأموره الذى قدره وقضاه وقال له : كن فيكون ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ الَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ أى مأموره الذى أمر به من إهلاكهم وكذلك قوله تعالى : ﴿وَمَآ أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ ﴾ . وكذلك الخلق يستعمل ، كقوله تعالى للجنة : ﴿أنت رحمتى ﴾ . فليس فى قوله تعالى : ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ ما يدل على أنها قديمة غير مخلوقة بوجه ما .

وقد قال بعض السلف فى تفسيرها : جرى بأمر الله فى أجساد الخلق وبقدرته استقر ، وهذا بناء على أن المراد بالروح فى الآية روح الإنسان ، وفى ذلك خلاف بين السلف والخلف . وأكثر السلف ؛ بل كلهم على أن الروح المسئول عنها فى الآية ليست أرواح بنى آدم ؛ بل هو الروح الذى أخبر الله عنه فى كتابه أنه يقوم يوم القيامة مع الملائكة وهو ملك عظيم .

وقد ثبت فى الصحيح من حديث الأعمش ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله قال : « بينا أنا أمشى مع رسول الله ﷺ فى حرث بالمدينة وهو متكئ على عسيب، فمررنا على نفر من اليهود فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح . وقال بعضهم : لا تسألوه عسى أن يخبر فيه بشئ تكرهونه . وقال بعضهم : نسأله ، فقام رجل فقال : يا أبا القاسم ما الروح ؟ فسكت عنه رسول الله ﷺ ، فعلمت أنه يوحى إليه ، فقمت فلما تجلى عنه قال : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ . ومعلوم أنهم إنما سألوه عن أمر لا يعرف إلا بالوحى، وذلك هو الروح الذى عند الله لا يعلمها الناس ، وأما أرواح بنى آدم فليست من الغيب ، وقد تكلم فيها طوائف الناس من أهل الملل وغيرهم ، فلم يكن الجواب عنها من إعلام النبوة . فإن قيل : فقد قال أبو الشيخ : ثنا الحسين بن محمد بن إبراهيم، نا إبراهيم بن الحكم عن أبيه ، عن السدى ، عن أبى مالك ، عن ابن عباس ، قال: « بعثت قريش عقبة بن أبى معيط وعبد الله بن أبى أمية ابن المغيرة إلى يهود المدينة يسألونهم عن النبى ﷺ فقالوا لهم : إنه قد خرج فينا رجل يزعم أنه نبى ، وليس على ديننا ولا على دينكم ، قالوا : فمن تبعه ؟ قالوا : سفلتنا والضعفاء والعبيد ومن لا خير فيه ، وأما أشراف قومه فلم يتبعوه فقالوا : إنه قد أظل زمان نبى يخرج هو

على ما تصفون من أمر هذا الرجل ، فأتوه فاسألوه عن ثلاث خصال نأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبى صادق ، وإن لم يخبركم بهن فهو كذاب ، سلوه عن الروح التى نفخ الله تعالى فى آدم ، فإن قال لكم : هى من الله ، فقولوا : كيف يعذب الله فى النار شيئاً هو منه ، فسأل جبريل عنها فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ .

يقول : « هو خلق من خلق الله ليس هو من الله » ثم ذكر باقى الحديث .

قيل : مثل هذا الإسناد لا يحتج به فإنه من تفسير السدى ، عن أبى مالك وفيه أشياء منكرة ، وسياق هذه القصة فى السؤال من الصحاح والمسانيد كلها تخالف سياق السدى ، وقد رواه الأعمش والمغيرة بن مقسم عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله قال : « مر النبى ﷺ على ملأ من اليهود ، وأنا أمشى معه ، فسألوه عن الروح ، قال : فسكت فظننت أنه يوحى إليه ، فنزلت : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ .

– وكذلك هى فى قراءة عبد الله – فقالوا : « كذلك نجد مثله فى التوراة إن الروح من أمر الله عز وجل » رواه جرير بن عبد الحميد وغيره عن المغيرة .

وروى يحيى بن زكريا بن أبى زائدة ، عن داود بن أبى هند ، عن عكرمة ، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « أتت اليهود إلى النبى ﷺ فسألوه عن الروح ، فلم يجبهم النبى ﷺ بشئ ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أوتوا مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ ، فهذا يدل على ضعف حديث السدى ، وأن السؤال كان بمكة فإن هذا الحديث وحديث ابن مسعود صريح فى أن السؤال كان بالمدينة مباشرة من اليهود ، ولو كان قد تقدم السؤال والجواب بمكة لم يسكت النبى ﷺ ، ولبادر إلى جوابهم بما تقدم من إعلام الله له وما أنزله عليه .

[اختلاف الروايات عن ابن عباس فى تفسير آية]
﴿ يسألونك عن الروح ﴾

وقد اضطربت الروايات عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية أعظم اضطراب فإما أن تكون من قبل الرواة أو تكون أقواله قد اضطربت فيها ، ونحن نذكر ذلك ، فقد ذكرنا رواية السدى عن أبى مالك عنه ورواية داود بن أبى هند ، عن عكرمة عنه

تخالفها . وفى رواية داود بن أبى هند هذه اضطراب ، فقال مسروق بن المرزبان ، وإبراهيم بن أبى طالب ، عن يحيى بن زكريا عنه : أن اليهود أتت النبى ﷺ الحديث .

وقال محمد بن نصر المروزى : ثنا إسحاق ، نا يحيى بن زكريا ، عن داود بن أبى هند ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : « قالت قريش لليهود : اعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل. فقالوا: سلوه عن الروح ، فنزلت ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ﴾ » [1].

وهذا يخالف الرواية الأخرى عنه ، وحديث ابن مسعود .

وعن ابن عباس رواية ثالثة : قال هشيم : ثنا أبو بشر ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : الروح أمر من أمر الله عز وجل ، وخلق من خلق الله ، وصور مثل صور بنى آدم ، وما نزل من السماء ملك إلا ومعه واحد من الروح .

وهذا يدل على أنها غير الروح التى فى ابن آدم .

وعنه رواية رابعة : قال ابن منده : روى عبد السلام بن حرب ، عن خصيف عن مجاهد ، عن ابن عباس ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ قد نزل من القرآن بمنزل كن ، نقول كما قال الله : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [2] .

ثم ساق من طريق خُصَيف عن عكرمة عن ابن عباس أنه كان لا يفسر أربعة أشياء : الرقيم ، والغسلين ، والروح ، وقوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِى السموات وَمَا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [3] .

وعنه رواية خامسة رواها جويبر عن الضحاك عنه أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن الروح ، فقال قال الله تعالى : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ يعنى خلقا من خلقى ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ . يعنى لو سئلتم عن خلق أنفسكم وعن مدخل الطعام والشراب ومخرجهما ما وصفتم ذلك حق صفته ، وما اهتديتم لصفتها .

---

(١) الإسراء آية : ٨٥ . والحديث أخرجه الترمذى فى التفسير ٥/ ٢٨٤ (٣١٤٠) وقال : هذا الحديث حسن صحيح غريب .

(٢) إسناده ضعيف فيه حصيف بن عبد الرحمن الجزرى . صدوق سيء الحفظ وخلط بآخره ورمى بالإرجاء (التقريب ص ١٩٣) . والآية من سورة الإسراء رقم ٨٥ .

(٣) إسناده ضعيف كسابقه والآية من سورة الجاثية رقم ١٣ .

وعنه رواية سادسة : روى عبد الغنى بن سعيد ، ثنا موسى بن عبد الرحمن عن ابن جريج ، عن عطاء ، عن ابن عباس ، وعن مقاتل ، عن الضحاك ، عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ ﴾ .

وذلك أن قريشاً اجتمعت فقال بعضهم لبعض واللّه ما كان محمد يكذب ولقد نشأ فينا بالصدق والأمانة فأرسلوا جماعة إلى اليهود فاسألوهم عنه وكانوا مستبشرين به ويكثرون ذكره ويدعون نبوته ويرجون نصرته موقنين بأنه سيهاجر إليهم ويكونون له أنصاراً فسألوهم عنه فقالت لهم اليهود : سلوه عن ثلاث : سلوه عن الروح وذلك أنه ليس فى التوراة قصته ولا تفسيره إلا ذكر اسم الروح فأنزل الله تعالى : ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ يريد من خلق ربى عز وجل .

[أن معنى الروح فى القرآن على عدة أوجه]

والروح فى القرآن على عدة أوجه :

أحدها : الوحى كقوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّن أَمْرِنَا ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ يُلْقِى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَآءُ مِن عِبَادِهِ ﴾ وسمى الوحى روحاً لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح .

الثانى : القوة والثبات والنصرة التى يؤيد بها من شاء من عباده المؤمنين كما قال ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الإِيمَنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ .

الثالث : جبريل كقوله تعالى : ﴿ نَزَلَ بِه الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ مَن كَانَ عَدُواً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ هو روح القدس قال تعالى : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ ﴾ .

الرابع : الروح التى سأل عنها اليهود فأجيبوا بأنها من أمر الله ، وقد قيل إنها الروح المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَئِكَةُ صَفًا لاَّ يَتَكَلَّمُونَ ﴾ وأنها الروح المذكور فى قوله : ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلَئِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم ﴾ .

الخامس : المسيح ابن مريم قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ .

وأما أرواح بنى آدم فلم تقع تسميتها فى القرآن إلا بالنفس قال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا

النفس الْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ولاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ ، وقال تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ ﴾ وقال تعالى : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ .

وأما فى السنة فجاءت بلفظ النفس والروح ، والمقصود أن كونها من أمر الله ، لا يدل على قدمها وأنها غير مخلوقة .

* * *

فصل
[إضافات الصفات إلى اللّه تعالى]

وأما استدلالهم بإضافتها إليه سبحانه بقوله تعالى : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ فينبغى أن يعلم أن المضاف إلى الله سبحانه نوعان : صفات لا تقوم بأنفسها . كالعلم والقدرة والكلام والسمع والبصر ، فهذه إضافة صفة إلى الموصوف بها ، فعلمه وكلامه وإرادته وقدرته وحياته صفات له غير مخلوقة وكذلك وجهه ويده سبحانه .

والثانى : إضافة أعيان منفصلة عنه ، كالبيت والناقة والعبد والرسول والروح . فهذه إضافة مخلوق إلى خالقه ، ومصنوع إلى صانعه لكنها إضافة تقتضى تخصيصاً وتشريفاً يتميز به المضاف عن غيره ، كبيت الله وإن كانت البيوت كلها ملكاً له ، وكذلك ناقة الله والنوق كلها ملكه وخلقه ، لكن هذه إضافة إلى إلهيته تقتضى محبته لها وتكريمه وتشريفه بخلاف الإضافة العامة إلى ربوبيته حيث تقتضى خلقه وإيجاده . فالإضافة العامة تقتضى الإيجاد والخاصة تقتضى الاختيار واللّه يخلق ما يشاء ويختار مما خلقه كما قال تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾ وإضافة الروح إليه من هذه الإضافة الخاصة لا من العامة ولا من باب إضافة الصفات . فتأمل هذا الموضع فإنه يخلصك من ضلالات كثيرة وقع فيها من شاء الله من الناس .

فإن قيل : فما تقولون فى قوله تعالى : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ فأضاف النفخ إلى نفسه ، وهذا يقتضى المباشرة منه تعالى ، كما فى قوله : ﴿ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ ، ولهذا فرق بينهما فى الذكر فى الحديث الصحيح فى قوله صلى الله عليه وآله وسلم : «فيأتون آدم فيقولون : أنت آدم أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه

وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شئ » [1] فذكروا لآدم أربع خصائص اختص بها عن غيره ، ولو كانت الروح التى فيه إنما هى من نفخة الملك لم يكن له خصيصة بذلك وكان بمنزلة المسيح ؛ بل وسائر أولاده فإن الروح حصلت فيه من نفخة الملك وقد قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ [2] فهو الذى سواه بيده وهو الذى نفخ فيه من روحه . قيل : هذا الموضع هو الذى وجب لهذه الطائفة أن قالت بقدم الروح وتوقف فيها آخرون ولم يفهموا مراد القرآن . فأما الروح المضافة إلى الرب فهى روح مخلوقة أضافها إلى نفسه إضافة تخصيص وتشريف كما بينا ، وأما النفخ فقد قال تعالى فى مريم التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا . وقد أخبر فى موضع آخر أرسل إليها الملك فنفخ فى فرجها وكان النفخ مضافاً إلى الله أمراً وإذناً وإلى الرسول مباشرة . يبقى هاهنا أمران :

أحدهما : أن يقال فإذا كان النفخ حصل فى مريم من جهة الملك وهو الذى ينفخ الأرواح فى سائر البشر ، فما وجه تسمية المسيح روح الله ؟ وإذا كان سائر الناس تحدث أرواحهم من هذه الروح فما خاصية المسيح ؟

الثانى : أن يقال فهل تعلق الروح بآدم كانت [3] بواسطة نفخ هذا الروح هو الذى نفخها فيه بإذن الله كما نفخها فى مريم ، أم الرب تعالى هو الذى نفخها بنفسه كما خلقه بيده ؟

قيل : لعمر الله إنهما سؤالان مهمان .

فأما الأول : فالجواب عنه ، أن الروح الذى نفخ فى مريم هو الروح المضاف إلى الله الذى اختصه لنفسه وأضافه إليه ، وهو روح خاص من بين سائر الأرواح ، وليس بالملك الموكل بالنفخ فى بطون الحوامل من المؤمنين والكفار ، فإن الله سبحانه وكل بالرحم ملكاً ينفخ الروح فى الجنين ، فيكتب رزق المولود وأجله وعمله وشقاوته وسعادته ، وأما هذا الروح المرسل إلى مريم فهو روح الله الذى اصطفاه من الأرواح لنفسه فكان لمريم بمنزلة الأب لسائر النوع ، فإن نفخته لما دخلت فى فرجها كان ذلك

---

(1) أخرجه البخارى فى التوحيد ١٣/ ٤٨١ - ٥٨٢ (٧٥١٠) ، ومسلم فى الإيمان ١/ ١٨٠ - ١٨١ (٣٢٢) عن أنس بن مالك مطولاً .

(2) الحجر آية : ٢٩ .

(3) الأولى أن يقول : كان لأنه يعود إلى التعلق .

بمنزلة لقاح الذكر للأنثى ، من غير أن يكون هناك وطء ، وأما ما ختص به آدم فإنه لم يخلق كخلقه المسيح من أم ، ولا كخلقه سائر النوع من أب وأم ، ولا كان الروح الذى نفخ الله فيه منه هو الملك الذى ينفخ الروح فى سائر أولاده ، ولو كان كذلك لم يكن لآدم به اختصاص ، وإنما ذكر فى الحديث ما اختص به على غيره وهو أربعة أشياء : خلق الله له بيده ، ونفخه فيه من روحه ، وإسجاد ملائكته له ، وتعليمه أسماء كل شئ . فنفخه فيه من روحه يستلزم نافخاً ونفخاً ومنفوخاً منه ، فالمنفوخ منه هو الروح المضافة إلى الله ، فمنها سرت النفخة فى طينة آدم ، والله تعالى هو الذى نفخ فى طينه من تلك الروح ، هذا هو الذى دل عليه النص ، وأما كون النفخة بمباشرة منه سبحانه كما خلقه بيده ، أو أنها حصلت بأمره كما حصلت فى مريم عليها السلام ، فهذا يحتاج إلى دليل ، والفرق بين خلق الله له بيده ونفخه فيه من روحه أن اليد غير مخلوقة ، والروح مخلوقة والخلق فعل من أفعال الرب ، وأما النفخ فهل هو من أفعاله القائمة به ، أو هو مفعول من مفعولاته القائمة بغيره المنفصلة عنه؟ وهذا مما لا يحتاج إلى دليل . وهذا بخلاف النفخ فى فرج مريم ، فإنه مفعول من مفعولاته وإضافة إليه ، لأنه بإذنه وأمره ، فنفخه فى آدم هل هو فعل له أو مفعول ، وعلى كل تقدير فالروح الذى نفخ منها فى آدم روح مخلوقة غير قديمة وهى مادة روح آدم ، فروحه أولى أن تكون حادثة مخلوقة وهو المراد .

❊ ❊ ❊

فصل

﴿ المسألة الثامنة عشرة ﴾

[هل الأرواح كانت قبل الأجساد أم تأخرت عنها]

وأما المسألة الثامنة عشر : وهى تقدم خلق الأرواح على الأجساد أو تأخر خلقها عنها .

فهذه المسألة للناس فيها قولان معروفان ، حكاهما شيخ الإسلام وغيره ، وممن ذهب إلى تقدم خلقها محمد بن نصر المروزى ، وأبو محمد بن حزم ، وحكاه ابن حزم إجماعاً ، ونحن نذكر حجج الفريقين وما هو الأولى منها بالصواب .

[دلائل من يقول بتقدم خلق الأرواح بعد خلق الأبدان]

قال من ذهب إلى تقدم خلقها على خلق البدن . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ اسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ ﴾ [1] قالوا : ثم للترتيب والمهلة ، فقد تضمنت الآية أن خلقها مقدم على أمر الله للملائكة بالسجود لآدم . ومن المعلوم قطعاً أن أبداننا حادثة بعد ذلك فعلم أنها الأرواح . قالوا : ويدل عليه قوله سبحانه : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ [2] قالوا : وهذا الاستنطاق والإشهاد إنما كان لأرواحنا ، إذ لم تكن الأبدان حينئذ موجودة ، ففى الموطأ حدثنا مالك ، عن زيد بن أبى أنيسة أن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب أخبره عن مسلم بن يسار الجهنى ، أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الاية ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يسأل عنها فقال : « خلق الله آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذريته ، فقال : خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون . وخلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون . فقال رجل : يا رسول الله ففيم العمل ؟ فقال رسول الله ﷺ : إن الله إذا خلق الرجل للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال الجنة فيدخله به الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار » [3] .

قال الحاكم : هذا حديث على شرط مسلم . وروى الحاكم أيضاً من طريق هشام ابن سعد ، عن زيد بن أسلم ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة مرفوعاً : « لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة ، أمثال الذر ، ثم جعل بين عينى كل إنسان منهم وبيصاً من نور ، ثم عرضهم على آدم فقال من هؤلاء يارب ؟ قال : هؤلاء ذريتك ، فرأىَ رجلاً منهم أعجبه وبيص ما بين عينيه، فقال : يارب من هذا ؟ فقال : هذا ابن داود يكون فى آخر الأمم ، قال : كم جعلت له من العمر ؟ قال : ستين سنة ، قال : يارب زده من عمرى أربعين سنة،

---

(١) الأعراف آية ١١ . (٢) الأعراف آية : ١٧٢ .

(٣) أخرجه أبو داود فى السنة ٤/ ٢٢٦ (٤٧٠٣) . والترمذى فى التفسير ٥/ ٢٤٨ (٣٠٧٥) .

فقال الله تعالى : إذاً يكتب ويختم فلا يبدل ، فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت قال : أو لم يبق من عمرى أربعون سنة ؟ فقال : أو لم تجعلها لابنك داود ، قال : فجحد فجحدت ذريته ، ونسى فنسيت ذريته ، وخطئ فخطئت ذريته » [(١)] .

قال : هذا على شرط مسلم . ورواه الترمذى وقال : هذا حديث حسن صحيح . ورواه الإمام أحمد من حديث ابن عباس قال : لما نزلت آية الدين ، قال رسول الله ﷺ : « إن أول من جحد آدم » [(٢)] .

وزاد محمد بن سعد : ثم أكمل الله لآدم ألف سنة ولداود مائة سنة .

وفى صحيح الحاكم أيضاً من حديث أبى جعفر الرازى : ثنا الربيع بن أنس ، عن أبى العالية ، عن أبى بن كعب ، فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ [(٣)] . قال : جمعهم له يومئذ جميعاً ما هو كائن إلى يوم القيامة ، فجعلهم أرواحاً ، ثم صورهم واستنطقهم فتكلموا ، وأخذ عليهم العهد والميثاق وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى . شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ، قال : فإنى أشهد عليكم السموات السبع والأرضين السبع ، وأشهد عليكم أباكم آدم أن تقولوا يوم القيامة : إنا كنا عن هذا غافلين ، فلا تشركوا بى شيئاً ، فإنى أرسل إليكم رسلى يذكرونكم عهدى وميثاقى وأنزل عليكم كتبى ، فقالوا : نشهد أنك ربنا ، وإلهنا لا رب لنا غيرك ، ورفع لهم أبوهم آدم فرأى فيهم الغنى والفقير وحسن الصورة وغير ذلك .

فقال : رب لو سويت بين عبادك فقال : إنى أحب أن أشكر ، ورأى فيه الأنبياء مثل السرج وخصوا بميثاق آخر بالرسالة والنبوة فذلك قوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ ﴾ ، وهو قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ وهو قوله تعالى : ﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الأُولَى ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴾ وكان روح عيسى من تلك الأرواح التى أخذ عليها الميثاق ، فأرسل

---

(١) أخرجه الترمذى فى التفسير ٥ / ٢٤٩ (٣٠٧٦) . وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) أخرجه أحمد فى المسند : ١/ ٣٧١ .

(٣) الأعراف آية : ١٧٢ .

ذلك الروح إلى مريم حين انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً فدخل من فيها . وهذا إسناد صحيح .

فقال إسحاق بن راهويه : ثنا بقية بن الوليد ، قال أخبرنى الزبيدى محمد بن الوليد ، عن راشد بن سعد عن عبد الرحمن بن أبى قتادة البصرى ، عن أبيه ، عن هشام بن حكيم بن حزام ، أن رجلاً قال : يا رسول الله أتبتدأ الأعمال أم قد مضى القضاء ؟ فقال : « إن الله لما أخرج ذرية آدم من ظهره أشهدهم على أنفسهم ثم أفاض بهم فى كفيه ، فقال : هؤلاء للجنة وهؤلاء للنار ، فأهل الجنة ميسرون لعمل أهل الجنة ، وأهل النار ميسرون لعمل أهل النار » (1) .

قال إسحاق : وأنا النضر ، ثنا أبو معشر ، عن سعيد المقبرى ، ونافع مولى الزبير عن أبى هريرة قال : « لما أراد الله أن يخلق آدم فذكر خلق آدم فقال له : يا آدم أى يدى أحب إليك أن أريك ذريتك فيها ؟ فقال : يمين ربى وكلتا يدى ربى يمين فبسط يمينه فإذا فيها ذريته كلهم ما هو خالق إلى يوم القيامة ، الصحيح على هيئته والمبتلى على هيئته ، والأنبياء على هيئتهم ، فقال : ألا أعفيتهم كلهم ؟ فقال : إنى أحب أن أشكر » وذكر الحديث .

وقال محمد بن نصر ، ثنا محمد بن يحيى ، ثنا سعيد بن أبى مريم ، أخبرنا الليث ابن سعد ، حدثنى ابن عجلان عن سعد بن أبى سعيد المقبرى ، عن أبيه ، عن عبد الله ابن سلام قال : خلق الله آدم ، ثم قال بيديه فقبضها ، فقال : اختر يا آدم فقال : اخترت يمين ربى ، وكلتا يديه يمين ، فبسطها فإذا فيها ذريته ، فقال : من هؤلاء يارب ؟ قال : من قضيت أن أخلق من ذريتك من أهل الجنة إلى أن تقوم الساعة .

قال : وأخبرنا إسحاق ثنا جعفر بن عون ، أنا هشام بن سعد ، عن زيد بن أسلم، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة » (2) .

وحدثنا إسحاق وعمرو بن زرارة ، أخبرنا إسماعيل ، عن كلثوم بن جبر ، عن

---

(1) إسناده ضعيف فيه : بقية بن الوليد وهو صدوق كثير التدليس عن الضعفاء (التقريب ص ١٢٦) .

(2) إسناده ضعيف فيه هشام بن سعد وهو صدوق له أوهام ورمى بالتشيع (التقريب ص ٥٧٢) وأخرجه الحاكم فى المستدرك ٢/ ٣٢٥ وصححه ، وفى الكنز برقم ١٥١٢٢ .

سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فى قوله تعالى : . قال ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ [1] . قال : « مسح ربك ظهر آدم فخرجت منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة بنعمان هذا الذى وراء عرفة ، فأخذ ميثاقهم ألست بربكم؟ قالوا : بلى شهدنا » [2] ورواه أبو جمرة الضبعى ، ومجاهد ، وحبيب ابن أبى ثابت، وأبو صالح ، وغيرهم عن ابن عباس . وقال إسحاق : أخبرنا جرير ، عن منصور، عن مجاهد ، عن عبد الله بن عمرو ، فى هذه الآية قال : أخذهم كما يؤخذ المشط بالرأس .

وحدثنا حجاج ، عن ابن جريج ، عن الزبير بن موسى ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « إن الله ضرب منكبه الأيمن ، فخرجت كل نفس مخلوقة للجنة بيضاء نقية ، فقال : هؤلاء أهل الجنة ، ثم ضرب منكبه الأيسر فخرجت كل نفس مخلوقة للنار سوداء فقال : هؤلاء أهل النار . ثم أخذ عهده على الإيمان به والمعرفة له ولأمره والتصديق به وبأمره من بنى آدم كلهم وأشهدهم على أنفسهم فآمنوا وصدقوا وعرفوا وأقروا » .

وذكر محمد بن نصر من تفسير السدى ، عن أبى مالك ، وأبى صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرة الهمدانى ، عن ابن مسعود عن أناس من أصحاب النبى ﷺ فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى ءَادَمَ ﴾ . لما أخرج الله آدم من الجنة قبل أن يهبط من السماء ، مسح صفحة ظهر آدم اليمنى ، فأخرج منه ذرية بيضاء مثل اللؤلؤ وكهيئة الذر ، فقال لهم : ادخلوا الجنة برحمتى : ومسح صفحة ظهره اليسرى فأخرج منه ذرية سوداء كهيئة الذر ، فقال : ادخلوا النار ، ولا أبالى ، فذلك حيث يقول : وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال ، ثم أخذ منهم الميثاق فقال : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ، فأعطاه طائفة طائعين وطائفة كارهين على وجه التقية ، فقال هو والملائكة : شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم ، فليس أحد من ولد آدم إلا وهو يعرف أن الله ربه . ولا مشرك إلا وهو يقول : إنا وجدنا آبانا على أمة فذلك قوله تعالى:

(١) الأعراف آية : ١٧٢ . (٢) إسناده ضعيف فيه كلثوم بن جبر وهو صدوق يخطئ (التقريب ص ٤٦١) .

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ من بَنِى ءَادَمَ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِى السَّماوَات وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ قال : يعنى يوم أخذ عليهم الميثاق .

قال إسحاق : وأخبرنا روح بن عبادة ، ثنا موسى بن عبيدة الربذى . قال : سمعت محمد بن كعب القرظى يقول فى هذه الآية ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى ءَادَمَ ﴾ أقروا له بالإيمان والمعرفة الأرواح قبل أن يخلق أجسادها .

قال : وثنا الفضل بن موسى ، عن عبد الملك ، عن عطاء ، فى هذه الآية قال : أخرجوا من صلب آدم ، حين أخذ منهم الميثاق ثم ردوا فى صلبه .

قال إسحاق : وأخبرنا على بن الأجلح ، عن الضحاك ، قال : إن الله أخرج من ظهر آدم يوم خلقه ما يكون إلى أن تقوم الساعة ، فأخرجهم مثل الذر . فقال : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى . قالت الملائكة : شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ، ثم قبض بيمينه فقال : هؤلاء فى الجنة ، وقبض أخرى فقال : هؤلاء فى النار .

قال إسحاق : وأخبرنا أبو عامر العقدى ، وأبو نعيم الملائى ، قالا : ثنا هشام ابن سعد ، عن يحيى ، وليس بابن سعيد ، قال : قلت لابن المسيب : ما تقول فى العــزل ؟ قال : إن شئت حدثتك حديثاً هو حق ، إن الله سبحانه لما خلق آدم أراه كرامة لم يرها أحداً من خلق الله ، أراه كل نسمة هوخالقها من ذريته إلى يوم القيامة فمن حدثك أن يزيد فيهم شيئاً أو ينقص منهم ، فقد كذب ولو كان لى سبعون ما باليت .

وفى تفسير ابن عيينة عن الربيع بن أنس ، عن أبى العالية : ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِى السَّمَوَتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ . قال : يوم أخذه الميثاق .

قال إسحاق فقد كانوا فى ذلك الوقت مقرين ، وذلك أن الله عز وجل أخبر أنه قال : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى . واللَّه تعالى لا يخاطب إلا من يفهم عنه المخاطبة ، ولا يجيب إلا من فهم السؤال ، فإجابتهم إياه بقولهم دليل على أنهم قد فهموا عن الله وعقلوا عنه استشهاده إياهم ألست بربكم ؟ فأجابوه من بعد عقل منهم للمخاطبة ، وفهم لها بأن قالوا : بلى ، فأقروا له بالربوبية .

فصل

[الدليل على أن الأرواح خلقت بعد خلق الأبدان والجواب عما استدل به القائلون بتقدم خلق الأرواح]

واحتجوا أيضاً بما رواه أبو عبد الله بن منده أخبرنا محمد بن صابر البخارى ، ثنا محمد بن المنذر بن سعد الهروى ، حدثنا جعفر بن محمد بن هارون المصيصى ، ثنا عتبة بن السكن ، ثنا أرطأة بن المنذر ، ثنا عطاء بن عجلان ، عن يونس بن حَلْبَس، عن عمرو بن عبسة ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله خلق أرواح العباد قبل العباد بألفى عام فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » فهذا بعض ما احتج به هؤلاء .

قال الآخرون : الكلام معكم فى مقامين :

أحدهما : ذكر الدليل على الأرواح أنها خلقت بعد خلق الأبدان .

الثانى : الجواب عما استدللتم به . فأما المقام الأول : فقد قال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى ﴾ وهذا خطاب للإنسان الذى هو روح وبدن ، فدل على أن جملته مخلوقة بعد خلق الأبوين وأصرح منه قوله : ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَفْسٍ وَحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللَّهَ ﴾ وهذا صريح فى أن خلق جملة النوع الإنسانى بعد خلق أصله .

فإن قيل : فهذا لا ينفى تقدم خلق الأرواح على أجسادها ، وإن خلقت بعد خلق أبى البشر ، كما دلت عليه الآثار المتقدمة .

قيل : سنبين إن شاء الله تعالى ، أن الآثار المذكورة لا تدل على سبق الأرواح الأجساد سبقاً مستقراً ثابتاً . وغايتها أن تدل بعد صحتها وثبوتها على أن بارئها وفاطرها سبحانه صور النسم ، وقدر خلقها وآجالها وأعمالها ، واستخرج تلك الصور من مادتها ، ثم أعادها إليها ، وقدر خروج كل فرد من أفرادها فى وقته المقدر له ، ولا تدل على أنها خلقت خلقاً مستقراً ، ثم استمرت موجودة حية عالمة ناطقة كلها فى موضع واحد ، ثم ترسل منها إلى الأبدان جملة بعد جملة ، كما قاله محمد بن حزم، فهل تحتمل الآثار ما لا طاقة لها به ؟ نعم ، الرب سبحانه يخلق منها جملة

بعد جملة على الوجه الذى سبق به التقدير أولاً . فيجئ الخلق الخارجى مطابقاً للتقدير السابق ، كشأنه تعالى فى جميع مخلوقاته ، فإنه قدر لها أقداراً وآجالاً ، وصفات وهيئات ، ثم أبرزها إلى الوجود مطابقة لذلك التقدير الذى قدره لها ، لا تزيد عليه ولا تنقص منه . فالآثار المذكورة إنما تدل على إثبات القدر السابق ، وبعضها يدل على أنه سبحانه استخرج أمثالهم وصورهم وميز أهل السعادة من أهل الشقاوة . وأما مخاطبتهم واستنطاقهم وإقرارهم له بالربوبية ، وشهادتهم على أنفسهم بالعبودية ، فمن قاله من السلف فإنما هو بناء منه على فهم الآية ، والآية لم تدل على هذا ، بل دلت على خلافه .

وأما حديث مالك ، فقال أبو عمرو ، هو حديث منقطع ، مسلم بن يسار لم يلق عمر بن الخطاب ، وبينهما فى هذا الحديث نعيم بن ربيعة ، وهو أيضاً مع هذا الإسناد لا يقوم به حجة ، ومسلم بن يسار هذا مجهول ، قيل : إنه مدنى وليس بمسلم بن يسار البصرى .

قال ابن أبى خيثمة : قرأت على يحيى بن معين حديث مالك هذا عن زيد بن أبى أنيسة ، فكتب بيده على مسلم بن يسار لا يعرف .

ثم ساقه أبو عمرو من طريق النسائى : أخبرنا محمد بن وهب ، ثنا محمد بن سلمة ، قال حدثنى أبو عبد الرحيم ، قال حدثنى زيد بن أبى أنيسة ، عن عبد الحميد بن عبد الرحمن ، عن مسلم بن يسار ، عن نعيم بن ربيعة .

ثم ساقه من طريق سخبرة : حدثنا أحمد بن عبد الملك بن واقد ، ثنا محمد بن سلمة عن أبى عبد الرحيم ، عن زيد بن أبى أنيسة ، عن عبد الحميد ، عن مسلم عن نعيم ، قال أبو عمرو : وزيادة من زاد فى هذا الحديث نعيم بن ربيعة ليست حجة ، إن الذى لم يذكره أحفظ ، وإنما تقبل الزيادة من الحافظ المتقن .

وجملة القول فى هذا الحديث أنه حديث ليس إسناده بالقائم ، لأن مسلم بن يسار ونعيم بن ربيعة جميعاً غير معروفين بحمل العلم ، لكن معنى هذا الحديث قد صح عن النبى ﷺ من وجوه كثيرة ثابتة يطول ذكرها من حديث عمر بن الخطاب وغيره وجماعة يطول ذكرهم .

ومراد أبى عمرو الأحاديث الدالة على القدر السابق ، فإنها هى التى ساقها بعد

ذلك ، فذكر حديث عبد الله بن عمر فى القدر ، وقال فى آخره : وسأله رجل من مزينة أو جهينة ، فقال : يا رسول الله ، ففيم العمل ؟ فقال : « إن أهل الجنة ييسرون لعلم أهل الجنة ، وأهل النار ييسرون لعمل أهل النار » (١) .

قال : وروى هذا المعنى فى القدر عن النبى ﷺ على بن أبى طالب ، وأبى بن كعب ، وعبد الله بن عباس ، وابن عمر ، وأبو سعيد وأبو سريحة الغفارى ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عمرو ، وعمران بن حصين ، وعائشة ، وأنس بن مالك ، وسراقة بن جعشم ، وأبو موسى الأشعرى ، وعبادة بن الصامت ، وأكثر أحاديث هؤلاء لها طرق شتى ، ثم ساق كثيراً منها بإسناده .

وأما حديث أبى صالح عن أبى هريرة فإنما يدل على استخراج الذرية وتمثلهم فى صور الذر (٢) ، وكان منهم حينئذ المشرق والمظلم وليس فيه أنه سبحانه خلق أرواحهم قبل الأجساد وأقرها بموضع واحد ، ثم يرسل كل روح من تلك الأرواح عند حدوث بدنها إليه . نعم هو سبحانه يخص كل بدن بالروح التى قدر أن يكون له فى ذلك الوقت ، وأما أنه خلق نفس ذلك البدن فى ذلك الوقت وفرغ من خلقها وأودعها فى مكان معطلة عن بدنها ، حتى إذا أحدث بدنها أرسلها إليه من ذلك المكان ، فلا يدل شئ من الأحاديث على ذلك ألبتة لمن تأملها .

وأما حديث أُبَىّ بن كعب فليس هو عن النبى ﷺ ، وغايته لو صح - ولم يصح - أن يكون من كلام أُبَىّ ، وهذا الإسناد يروى به أشياء منكرة جداً مرفوعة وموقوفة ، وأبو جعفر الرازى وثق وضعف .

قال علىّ بن المدينى : كان ثقة ، وقال أيضاً : كان يخلط .

وقال ابن معين : هو ثقة . قال أيضاً : يكتب حديثه إلا أنه يخطئ .

وقال الإمام أحمد : ليس بقوى فى الحديث . وقال أيضاً : صالح الحديث .

وقال الفلاس : سئ الحفظ .

وقال أبو زرعة : يهم كثيراً .

وقال ابن حبان : ينفرد بالمناكير عن المشاهير .

قلت : ومما ينكر من هذا الحديث قوله : فكان روح عيسى من تلك الأرواح التى

---

(١) أخرجه البخارى فى الجنائز ٣/٢٦٧ (١٣٦٢) . ومسلم فى القدر ٤/٢٠٣٩ (٦) .

(٢) الذر : صغار النمل ، ويطلق على شعاع الشمس الداخل من النافذة .

أخذ عليها الميثاق ، فأرسل ذلك الروح إلى مريم حين انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً، فدخل فى فيها .

ومعلوم أن الروح الذى أرسل إلى مريم ليس هو روح المسيح ؛ بل ذلك الروح نفخ فيها فحملت بالمسيح ، قال تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًا * قَالَتْ إِنِّى أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلَمًا زَكِيًا ﴾ (١) .

فروح المسيح لا يخاطبها عن نفسه بهذه المخاطبة قطعاً ، وفى بعض طرق حديث أبى جعفر هذا أن روح المسيح هو الذى خاطبها وهو الذى أرسل إليها وهاهنا أربع مقامات :

أحدها : أن الله سبحانه استخرج صورهم وأمثالهم فميز شقيهم وسعيدهم ومعافاهم من مبتلاهم .

والثانى : أن الله سبحانه أقام عليهم الحجة حينئذ وأشهدهم بربوبيته واستشهد عليهم ملائكته .

الثالث : أن هذا هو تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَتَهُمْ ﴾ (٢) .

الرابع : أنه أقر تلك الأرواح كلها بعد إخراجها بمكان وفرغ من خلقها ، وإنما يتجدد كل وقت إرسال جملة منها بعد جملة إلى أبدانها .

فأما المقام الأول : فالآثار متظاهرة به : مرفوعة وموقوفة .

وأما المقام الثانى : فإنما أخذ من أخذه من المفسرين من الآية ، وظنوا أنه تفسيرها، وهذا قول جمهور المفسرين من أهل الأثر ، قال أبو إسحاق : جائز أن يكون الله سبحانه جعل لأمثال الذر التى أخرجها فهما تعقل به كما قال : ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُواْ مَسَكِنَكُمْ ﴾ (٣) ، وقد سخر مع داود الجبال تسبح معه والطير .

قال ابن الأنبارى : مذهب الحديث وكبراء أهل العلم فى هذه الآية أن الله أخرج ذرية آدم من صلبه وأصلاب أولاده وهم فى صور الذر فأخذ عليهم الميثاق أنه خالقهم وأنهم مصنوعون ، فاعترفوا بذلك وقبلوا ، وذلك بعد أن ركب فيهم عقولاً عرفوا بها

---

(١) مريم الآيات : ١٧ - ١٩ . (٢) الأعراف آية : ١٧٢ . (٣) النمل آية : ١٨ .

ما عرض عليهم كما جعل للجبل عقلاً حين خوطب ، وكما فعل ذلك بالبعير لما سجد ، والنخلة حتى سمعت وانقادت حين دعيت .

وقال الجرجانى : ليس بين قول النبي ﷺ ، أن الله مسح ظهر آدم فأخرج منه ذريته وبين الآية اختلاف بحمد الله لأنه عز وجل إذا أخذهم من ظهر آدم فقد أخذهم من ظهور ذريته ، لأن ذرية آدم ذرية لذريته بعضهم من بعض وقوله تعالى : ﴿ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَفِلِينَ ﴾ [1] أى عن الميثاق المأخوذ عليهم ، فإذا قالوا ذلك كانت الملائكة شهوداً عليهم بأخذ الميثاق . قال : وفى هذا دليل على التفسير الذى جاءت به الرواية ، من أن الله تعالى قال للملائكة : اشهدوا فقالوا شهدنا . قال : وزعم بعض أهل العلم أن الميثاق إنما أخذ على الأرواح دون الأجساد لأن الأرواح هى التى تعقل وتفهم ولها الثواب ، وعليها العقاب ، والأجساد أموات لا تعقل ولا تفهم . قال : وكان إسحاق بن راهويه يذهب إلى هذا المعنى : وذكر أنه قول أبى هريرة . قال إسحاق : وأجمع أهل العلم أنها الأرواح قبل الأجساد استنطقهم وأشهدهم .

قال الجرجانى : واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَتَا بَلْ أَحْيَاء ﴾ [2] .

والأجساد قد بليت وضلت فى الأرض ، والأرواح ترزق وتفرح ، وهى التى تلذ وتألم وتفرح وتحزن وتعرف وتنكر .

وبيان ذلك فى الأحلام موجود : أن الإنسان يصبح وأثر لذة الفرح وألم الحزن باق فى نفسه ، مما تلاقى الروح دون الجسد .

قال : وحاصل الفائدة فى هذا الفصل أنه سبحانه قد أثبت الحجة على كل منفوس ممن يبلغ وممن لم يبلغ بالميثاق الذى أخذه عليهم ، وزاد على من بلغ منهم الحجة بالآيات والدلائل التى نصبها فى نفسه ، وفى العالم وبالرسل المنفذة إليهم مبشرين ومنذرين ، وبالمواعظ بالمثلات المنقولة إليهم أخبارها ، غير أنه عز وجل لا يطالب أحداً منهم من الطاعة إلا بقدر ما لزمه من الحجة ، وركب فيهم من القدرة وآتاهم من الأدلة ، وبين سبحانه ما هو عامل فى البالغين الذين أدركوا الأمر والنهى ، وحجب عنها علم ما قدره فى غير البالغين إلا أنا نعلم أنه عدل لا يجور فى حكمه ،

---

(١) الأعراف آية : ١٧٢ .

(٢) آل عمران آية : ١٦٩ .

وحكيم لا تفاوت فى صنعه ، وقادر لا يسأل عما يفعل . له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين .

فصل

ونازع هؤلاء غيرهم فى كون هذا معنى الآية . وقالوا معنى قوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ . أى أخرجهم وأنشأهم بعد أن كانوا نطفاً فى أصلاب الآباء إلى الدنيا على ترتيبهم فى الوجود وأشهدهم على أنفسهم أنه ربهم بما أظهر لهم من آياته وبراهينه التى تضطرهم إلى أن يعلموا أنه خالقهم . فليس من أحد إلا وفيه من صنعة ربه ما يشهد على أنه بارئه ، ونافذ الحكم فيه . فلما عرفوا ذلك ودعاهم كل ما يرون ويشاهدون إلى التصديق به ، كانوا بمنزلة الشاهدين والمشهدين على أنفسهم بصحته ، كما قال فى غير هذا الموضع شاهدين على أنفسهم بالكفر ، يريديهم بمنزلة الشاهدين ، وإن لم يقولوا نحن كفرة ، كما تقول قد شهدت جوارحى بقولك تريد قد عرفته . فكأن جوارحى لو استشهدت وفى وسعها أن تنطق لشهدت ، ومن هذا إعلامه ، وتبيينه أيضاً شهد الله أنه لا إله إلا هو . يريد أعلم . وبين فأشبه ذلك شهادة من شهد عند الحكام وغيرهم . هذا كلام ابن الأنبارى .

وزاد الجرجانى بياناً لهذا القول فقال حاكياً عن أصحابه : إن الله لما خلق الخلق ونفذ علمه فيهم بما هو كائن وما لم يكن بعد مما هو كائن كالكائن ، إذ علمه بكونه مانع من غير كونه ، شائع فى مجاز العربية أن يوضع ما هو منتظر بعد مما لم يقع بعد موقع الواقع لسبق علمه بوقوعه ، كما قال عز وجل فى مواضع من القرآن كقوله تعالى : ﴿ وَنَادَى أَصْحَبُ النَّارِ ﴾ ، ﴿ وَنَادَى أَصْحَبُ الْجَنَّة ﴾ ، ﴿ وَنَادَى أَصْحَبُ الأَعْرَافِ ﴾ ، قال : فيكون تأويل قوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ ﴾ ، وَإِذْ يَأْخُذ رَبُّكَ .

وكذلك قوله : ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ ﴾ أى ويشهدهم بماركبه فيهم من العقل الذى يكون به الفهم ويجب به الثواب والعقاب ، وكل من ولد وبلغ الحنث وعقل الضرر والنفع وفهم الموعد والوعيد والثواب والعقاب صار كأن الله تعالى أخذ عليه الميثاق فى التوحيد بما ركب فيه من العقل ، وأراه من الآيات والدلائل على حدوثه ، وأنه لا يجوز أن يكون قد خلق نفسه ، وإذا لم يجز ذلك فلابد له من خالق هو

غيره، ليس كمثله وليس من مخلوق يبلغ هذا المبلغ ، ولم يقدح فيه مانع من فهم إلا إذا حزبه أمر يفزع إلى الله عز وجل حين يرفع رأسه إلى السماء ويشير إليها بإصبعه، علماً منه بأن خالقه تعالى فوقه ، وإذا كان العقل الذى منه الفهم والإفهام ، مؤدياً إلى معرفة ما ذكرنا ودالاً عليه ، فكل من بلغ هذا المبلغ فقد أخذ عليه العهد والميثاق، إذ جعل فيه السبب والآلة اللذين بهما يؤخذ العهد والميثاق ، وجائز أن يقال له : قد أقر وأذعن وأسلم ، كما قال الله عز وجل : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى السَّمَوَٰتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ .

قال : واحتجوا بقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « رفع القلم عن ثلاث عن الصبى حتى يحتلم وعن المجنون حتى يفيق وعن النائم حتى ينتبه » . وقوله عز وجل: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَٰتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ ، ثم قال تعالى : ﴿ وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ ﴾ الأمانة هاهنا عهد وميثاق ، فامتناع السموات والأرض والجبال من حمل الأمانة لأجل خلوها من العقل الذى يكون به الفهم والإفهام ، وحمل الإنسان إياها لمكان العقل فيه ، قال : وللعرب فيها ضروب نظم فمنها قوله :

ضمن القنان لفقعس بثباتها إن القنـــان لفقعس لا يأتلى

والقنان جبل ، فذكر أنه قد ضمن لفقعس وضمانه لها أنهم كانوا إذا حز بهم أمر من هزيمة أو خوف لجأوا إليه فجعل ذلك كالضمان لهم ومنه قول النابغة :

كأجـارف الجـــولان هلل ربه وجوران منها خاشع متضائل

وأجارف الجولان جبالها ، وجوران الأرض التى إلى جانبها ، وقال هذا القائل إن فى قوله تعالي : ﴿ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَفِلِينَ * أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ ءَابَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ ﴾ دليلاً على هذا التأويل ، لأنه عز وجل أعلم أن هذا الأخذ للعهد عليهم لئلا يقولوا يوم القيامة : إنا كنا عن هذا غافلين . والغفلة هاهنا لا تخلو من أحد وجهين : إما أن تكون عن يوم القيامة أو عن أخذ الميثاق ، فأما يوم القيامة فلم يذكر سبحانه فى كتابه أنه أخذ عليهم عهداً وميثاقاً بمعرفة البعث والحساب ، وإنما ذكر معرفته فقط ، وأما أخذ الميثاق فالأطفال والأسقاط إن كان هذا العهد مأخوذاً عليهم كما قال المخالف فهم لم يبلغوا بعد أخذ هذا الميثاق

عليهم مبلغاً يكون منهم غفلة عنه ، فيجحدونه وينكرونه ، فمتى تكون هذه الغفلة منهم وهو عز وجل لا يؤاخذهم بما لم يكن منهم وذكر ما لا يجوز ولا يكون محال وقوله تعالى : ﴿ أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ ﴾ فلا يخلو هذا الشرك الذى يؤاخذون به أن يكون منهم أنفسهم أو من آبائهم ، فإن كان منهم فلا يجوز أن يكون ذلك إلا بعد بالبلوغ وثبوت الحجة عليهم ، إذ الطفل لا يكون منه شرك ولا غيره ، وإن كان من غيرهم فالأمة مجمعة على ألا تزر وازرة وزر أخرى ، كما قال عز وجل فى الكتاب .

وليس هذا بمخالف لما روى عن النبى ﷺ : « أن الله مسح ظهر آدم وأخرج منه ذريته فأخذ عليهم العهد » لأنه صلى الله عليه وآله وسلم اقتص قول الله عز وجل فجاء مثل نظمه ، فوضع الماضى من اللفظ موضع المستقبل .

قال : وهذا شبيه القصة بقصة قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَقَ النَّبِيِّنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ ﴾ فجعل سبحانه ما أنزل على الأنبياء من الكتاب والحكمة ميثاقاً أخذه من أممهم بعدهم يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ﴾ ثم قال للأمم : ﴿ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِى قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّهِدِينَ ﴾ فجعل سبحانه بلوغ الأمم كتابه المنزل على أنبيائهم حجة عليهم ، كأخذ الميثاق عليهم وجعل معرفتهم به إقراراً منهم .

قلت : وشبيه به أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَقَهُ الَّذِى وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ فهذا ميثاقه الذى أخذه عليهم بعد إرسال رسله إليهم بالإيمان به وتصديقه . ونظيره قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلاَ يَنقُضُونَ الْمِيثَقَ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبَنِى ءَادَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِى هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ فهذا عهده إليهم على ألسنة رسله ، ومثله قوله تعالى لبنى إسرائيل : ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ . ومثله : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَبَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّنَ مِيثَقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَقًا غَلِيظًا ﴾ فهذا ميثاق أخذه منهم بعد بعثهم كما أخذ من أممهم بعد إنذارهم ، وهذا الميثاق الذى لعن سبحانه من نقضه

وعاقبه بقوله تعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ﴾ فإنما عاقبهم بنقضهم الميثاق الذى أخذه عليهم على ألسنة رسله وقد صرح به فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .

ولما كانت هذه الآية ونظيرها فى سورة مدنية خاطب بالتذكير بهذا الميثاق فيها أهل الكتاب ، فإنه ميثاق أخذه عليهم بالإيمان به وبرسله ، ولما كانت هذه آية الأعراف فى سورة مكية ، ذكر فيها الميثاق والإشهاد العام لجميع المكلفين ممن أقر بربوبيته ووحدانيته وبطلان الشرك ، وهو ميثاق وإشهاد تقوم به عليهم الحجة ، وينقطع به العذر وتحل به العقوبة ، ويستحق بمخالفته الإهلاك فلابد أن يكونوا ذاكرين له عارفين به ، وذلك ما فطرهم عليه من الإقرار بربوبيته ، وأنه ربهم وفاطرهم ، وأنهم مخلوقون مربوبون ، ثم أرسل إليهم رسله يذكرونهم بما فى فطرهم وعقولهم ويعرفونهم حقه عليهم ، وأمره ونهيه ووعده ووعيده ، ونظم الآية إنما يدل على هذا من وجوه متعددة :

أحدها : أنه قال : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى ءَادَمَ ﴾ ولم يقل آدم وبنو آدم غير آدم .

الثانى : أنه قال : ﴿ مِن ظُهُورِهِمْ ﴾ ولم يقل ظهره ، وهذا بدل بعض من كل أو بدل اشتمال وهو أحسن .

الثالث : أنه قال : ﴿ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ ولم يقل ذريته .

الرابع : أنه قال : ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ ﴾ أى جعلهم شاهدين على أنفسهم، فلابد أن يكون الشاهد ذاكراً لما شهد به وهو إنما يذكر شهادته بعد خروجه إلى هذه الدار لا يذكر شهادة قبلها .

الخامس : أنه سبحانه أخبر أن حكمة هذا الإشهاد إقامة الحجة عليهم ، لئلا يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . والحجة إنما قامت عليهم بالرسل والفطرة التى فطروا عليها كما قال تعالى : ﴿ رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ .

السادس : تذكيرهم بذلك لئلا يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ، ومعلوم أنهم غافلون بالإخراج لهم من صلب آدم كلهم وإشهادهم جميعاً ذلك الوقت، فهذا لا يذكره أحد منهم .

السابع : قوله تعالى : ﴿ أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ ﴾ نذكر حكمتين فى هذا التعريف والإشهاد :

إحداهما : أن لا يدعوا الغفلة .

والثانية : أن لا يدعوا التقليد فالغافل لا شعور له ، والمقلد متبع فى تقليده لغيره.

الثامن : قوله تعالى : ﴿ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ أى لو عذبهم بجحودهم وشركهم لقالوا ذلك ، وهو سبحانه إنما يهلكهم لمخالفة رسله وتكذيبهم ، فلو أهلكهم بتقليد آبائهم فى شركهم من غير إقامة الحجة عليهم بالرسل لأهلكهم بما فعل المبطلون ، أو أهلكهم مع غفلتهم عن معرفة بطلان ما كانوا عليه ، وقد أخبر سبحانه أنه لم يكن ليهلك القرى بظلم وأهلها غافلون . وإنما يهلكهم بعد الإعذار والإنذار .

التاسع : أنه سبحانه أشهد كل واحد على نفسه أنه ربه وخالقه ، واحتج عليهم بهذا الإشهاد فى غير موضع من كتابه ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ أى فكيف يصرفون عن التوحيد بعد هذا الإقرار منهم أن اللَّه ربهم وخالقهم ، وهذا كثير فى القرآن ، فهذه هى الحجة التى أشهدهم على أنفسهم بمضمونها وذكرتهم بها رسله بقوله تعالى : ﴿ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ﴾ فاللَّه تعالى إنما ذكرهم على ألسنة رسله بهذا الإقرار والمعرفة ، ولم يذكرهم قط بإقرار سابق على إيجادهم ولا أقام به عليهم حجة .

العاشر : أنه جعل هذا آية وهى الدلالة الواضحة البينة المستلزمة لمدلولها ، بحيث لا يتخلف عنها المدلول ، وهذا شأن آيات الرب تعالى . فإنها أدلة معينة على مطلوب معين مستلزمة للعلم به ، فقال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ ﴾ أى مثل هذا التفصيل والتبيين نفصل الآيات لعلهم يرجعون من الشرك إلى التوحيد ومن الكفر إلى الإيمان ، وهذه الآيات التى فصلها هى التى بينها فى كتابه من أنواع مخلوقاته ، وهى آيات أفقية ونفسية ، آيات فى نفوسهم وذواتهم وخلقهم ، وآيات فى الأقطار والنواحى ، مما يحدثه الرب تبارك وتعالى مما يدل على وجوده ووحدانيته وصدق رسله

---

(١) الأعراف آية : ١٧٣ .
(٢) الزخرف آية : ٨٧ .
(٣) إبراهيم آية : ١٠ .
(٤) الأعراف آية : ٣٢ .

وعلى المعاد والقيامة ، ومن أبينها ما أشهد به كل واحد على نفسه من أنه ربه وخالقه ومبدعه ، وأنه مربوب مخلوق مصنوع ، حادث بعد أن لم يكن .

ومحال أن يكون حدث بلا محدث أو يكون هو المحدث لنفسه فلابد له من موجد أوجده ليس كمثله شيء ، وهذا الإقرار والمشاهدة فطرة فطروا عليها ، ليست بمكتسبة، وهذه الآية وهى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾[1] مطابقة لقول النبى ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة » [2] .

ولقوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِن أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ [3] ومن المفسرين من لم يذكر إلا هذا القول فقط كالزمخشرى ، ومنهم من لم يذكر إلا القول الأول فقط ، ومنهم من حكى القولين كابن الجوزى والواحدى والماوردى وغيرهم .

قال الحسن بن يحيى الجرجانى : فإن اعترض معترض فى هذا الفصل بحديث يروى عن النبى ﷺ ، أنه قال : « إن الله مسح ظهر آدم فأخرج منه ذريته وأخذ عليهم العهد ثم ردهم فى ظهره » . وقال : إن هذا مانع من جواز التأويل الذى ذهبت إليه لامتناع ردهم فى الظهر ، إن كان أخذ الميثاق عليهم بعد البلوغ وتمام العقل .

قيل له : إن معنى ثم ردهم فى ظهره ثم يردهم فى ظهره كما قلنا إن معنى أخذ ربك : يأخذ ربك ، فيكون معناه : ثم يردهم فى ظهره بوفاتهم ، لأنهم إذا ماتوا ردوا إلى الأرض للدفن ، وآدم خلق منها ورد فيها فإذا ردوا فيها فقد ردوا فى آدم وفى ظهره ، إذ كان آدم خلق منها وفيها رد ، وبعض الشيء من الشيء وفيما ذهبتم إليه من تأويل هذا الحديث على ظاهره تفاوت بينه وبين ما جاء به القرآن فى هذا المعنى إلا أن يرد تأويله إلى ما ذكرنا لأنه عز وجل قال : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ [4] . ولم يذكر آدم فى القصة إنما هو هاهنا مضاف إليه لتعريف ذريته إنهم أولاده . وفى الحديث : « أنه مسح ظهر آدم » فلا يمكن رد ما جاء فى القرآن ، وما جاء فى الحديث إلى الاتفاق إلا بالتأويل الذى ذكرناه .

---

(١) الأعراف آية : ١٧٢ .

(٢) أخرجه البخارى فى الجنائز ٣/ ٢٦٠ (١٣٥٨) . ومسلم فى القدر ٤/ ٢٠٤٧ (٢٢) .

(٣) الروم آية : ٣٠ - ٣١ . (٤) الأعراف آية : ١٧٢ .

قال الجرجاني وأنا أقول : ونحن إلى ما روى فى الآية عن رسول الله ﷺ ، وما ذهب إليه أهل العلم من السلف الصالح أمثل ، وله أقبل وبه آنس ، واللّه ولى التوفيق لما هو أولى وأهدى .

على أن بعض أصحابنا من أهل السنة قد ذكر فى الرد على هذا القائل معنى يحتمل ويسوغ فى النظم الجارى ومجاز العربية بسهولة ، وإمكان من غير تعسف ولا استكراه، وهو أن يكون قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى ءَادَمَ ﴾ . مبتدأ خبره من الله عز وجل عما كان منه فى أخذ العهد عليهم ، وإذ يقتضى جوابا يجعل جوابه قوله تعالى : ﴿ قَالُوا بَلَى ﴾ وانقطع هذا الخبر بتمام قصته ، ثم ابتدأ عز وجل خبراً آخر بذكر ما يقوله المشركون يوم القيامة ، فقالوا : شهدنا يعنى نشهد كما قال الحطيئة :

شهد الحطيئة حين يلقى ربه   أن الوليـــــد أحق بالعذر

بمعنى يشهد الحطيئة . يقول : نشهد أنكم ستقولون يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ، أى عما هم فيه من الحساب والمناقشة والمؤاخذة بالكفر ، ثم أضاف إليه خبراً آخر فقال : أو تقولوا بمعنى : وأن تقولوا ، لأن أو بمعنى واو النسق ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ فتأويله : ونشهد أن تقولوا يوم القيامة إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم ، أى أنهم أشركوا وحملونا على مذهبهم فى الشرك فى صبانا ، فجرينا على مذاهبهم واقتدينا بهم ، فلا ذنب لنا ، إذ كنا مقتدين بهم والذنب فى ذلك لهم قالوا : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَآءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنا عَلَى ءاثارهم مُّقْتَدُونَ ﴾ يدل على ذلك قولهم : ﴿ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ أى حملهم إيانا على الشرك ، فتكون القصة الأولى خبراً عن جميع المخلوقين بأخذ الميثاق عليهم . والقصة الثانية خبر عما يقول المشركون يوم القيامة من الاعتذار ، وقال فيما ادعاه المخالف أنه تفاوت فيما بين الكتاب والخبر ، لاختلاف ألفاظهما فيهما قولا يجب قبوله بالنظائر والعبر التى تأيد بها لمخالفته ، فقال : إن الخبر عن رسول الله ﷺ : « إن الله مسح ظهر آدم » أفاد زيادة خبر كان فى القصة التى ذكر الله تعالى فى الكتاب بعضها ، ولم يذكر كلها ولو أخبر ، صلى الله عليه وآله وسلم ، بسوى هذه الزيادة التى أخبر بها ، مما عسى أن يكون قد كان فى ذلك الوقت الذى أخذ فيه العهد ، مما لم يضمنه الله كتابه لما كان فى ذلك خلاف ولا

تفاوت ، بل كان زيادة فى الفائدة ، وكذلك الألفاظ إذا اختلفت فى ذاتها وكان مرجعها إلى أمر واحد لم يوجب ذلك تناقضاً ، كما قال عز وجل فى كتابه فى خلق آدم ، فذكر مرة أنه خلق من تراب . ومرة أنه خلق من حمأ مسنون . ومرة من طين لازب . ومرة من صلصال كالفخار . فهذه الألفاظ مختلفة ومعانيها أيضاً فى الأحوال مختلفة أن الصلصال غير الحمأة ، والحمأة غير التراب إلا أن مرجعها كلها فى الأصل إلى جوهر واحد وهو التراب ، ومن التراب تدرجت هذه الأحوال ، فقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ [1] وقوله ، صلى الله عليه وآله وسلم : « إن الله مسح ظهر آدم فاستخرج منه ذريته » [2] معنى واحد فى الأصل إلا أن قوله صلى الله عليه وآله وسلم « مسح ظهر آدم » زيادة فى الخبر عن الله عز وجل ، ومسحه عز وجل ظهر آدم واستخراج ذريته ومنه مسح لظهور ذريته واستخراج ذرياتهم من ظهورهم ، كما ذكر تعالى ، لأنا قد علمنا أن جميع ذرية آدم لم يكونوا من صلبه ، لكن لما كان الطبق الأول من صلبه ، ثم الثانى من صلب الأول ، ثم الثالث من صلب الثانى ، جاز أن ينسب ذلك كله إلى ظهر آدم لأنهم فرعه وهو أصلهم ، وكما جاز أن يكون ما ذكر الله عز وجل أنه استخرجه من ظهور ذرية آدم من ظهر آدم ، جاز أن يكون ما ذكر ، صلى الله عليه وآله وسلم أنه استخرجه من ظهر آدم من ظهور ذريته ، إذ الأصل والفرع شىء واحد ، وفيه أيضاً أنه عز وجل لما أضاف الذرية إلى آدم فى الخبر ، احتمل أن يكون الخبر عن الذرية وعن آدم ، كما قال عز وجل : ﴿ فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾ [3] والخبر فى الظاهر عن الأعناق والنعت للأسماء المكنية فيها وهو مضاف إليها ، كما كان آدم مضافاً إليه هناك ، وليسا جميعاً بالمقصودين فى الظاهر بالخبر ، ، ولا يحتمل أن يكون قوله خاضعين للأعناق ، لأن وجه جمعها خاضعات ومنه قول الشاعر :

وتشرق بالقول الذى قد أذعته كما شرقت صدر القناة من الدم

فالصدر مذكر ، وقوله شرقت أنت لإضافة الصدر إلى القناة .

فهذا بعض كلام السلف والخلف فى هذه الآية ، وعلى كل تقدير فلا يدل على خلق الأرواح قبل الأجساد خلقاً مستقراً ، وإنما غايتها أن تدل على إخراج صورهم وأمثالهم فى صور الذر ، واستنطاقهم ثم ردهم إلى أصلهم إن صح الخبر بذلك ،

---

(١) الأعراف آية : ١٧٢ . (٢) سبق تخريجه . (٣) الشعراء آية : ٤ .

والذى صح إنما هو إثبات القدر السابق وتقسيمهم إلى شقى وسعيد ، وأما استدلال أبى محمد بن حزم بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ ﴾ . فما أليق هذا الاستدلال بظاهريته لترتيب الأمر بالسجود لآدم على خلقنا وتصويرنا والخطاب للجملة المركبة من البدن والروح ، وذلك متأخر عن خلق آدم ، ولهذا قال ابن عباس : ولقد خلقناكم يعنى آدم ، ثم صورناكم لذريته . ومثال هذا ما قاله مجاهد : خلقناكم يعنى آدم وصورناكم فى ظهر آدم ، وإنما قال : خلقناكم بلفظ الجمع . وهو يريد آدم كما تقول : ضربناكم ، وإنما ضربت سيدهم .

واختار أبو عبيد فى هذه الآية قول مجاهد لقوله تعالى بعد : ﴿ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَئِكَةِ اسْجُدُوا ﴾ وكأن قوله تعالى للملائكة ﴿ اسْجُدُوا ﴾ قبل خلق ذرية آدم وتصويرهم فى الأرحام ، وثم توجب التراخى والترتيب ، فمن جعل الخلق والتصوير فى هذه الآية لأولاد آدم فى الأرحام يكون قد راعى حكم ثم فى الترتيب ، إلا أن يأخذ بقول الأخفش ، فإنه يقول : ﴿ ثم ﴾ هاهنا فى معنى الواو . قال الزجاج : وهذا خطأ لا يجيزه الخليل وسيبويه وجميع من وثق بعلمه .

قال أبو عبيد : وقد بينه مجاهد حين قال : إن الله تعالى خلق ولد آدم وصورهم فى ظهره ثم أمر بعد ذلك بالسجود . قال : وهذا بين فى الحديث وهو أنه أخرجهم من ظهره فى صور الذر .

قلت : والقرآن يفسر بعضه بعضاً ، ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ فأوقع الخلق من تراب عليهم وهو لأبيهم آدم إذ هو أصلهم ، والله سبحانه يخاطب الموجودين ، والمراد آباؤهم كقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّرَءتُمْ فِيهَا ﴾ . وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ ﴾ . وهو كثير فى القرآن يخاطبهم والمراد به آباؤهم ، فهكذا قوله ولقد خلقناكم ثم صورناكم وقد يستطرد سبحانه من ذكر الشخص إلى ذكر النوع كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِن طِينٍ* ثُمَّ جَعَلْنَهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ . فالمخلوق من سلالة من طين آدم والمجعول

نطفة فى قرار مكين ذريته . وأما حديث خلق الأرواح قبل الأجساد بألفى عام ، فلا يصح إسناده ففيه عتبة بن السكن ، قال الدارقطنى : متروك . وأرطاة بن المنذر ، قال ابن عدى : بعض أحاديثه غلط .

فصل

[الدليل على أن خلق الأرواح متأخر عن خلق أبدانها]

وأما الدليل على أن خلق الأرواح متأخر عن خلق أبدانها فمن وجوه :

أحدها : أن خلق أبى البشر وأصلهم كان هكذا ، فإن الله سبحانه أرسل جبريل فقبض قبضة من الأرض ثم خمرها حتى صارت طيناً ثم صوره ثم نفخ فيه الروح بعد أن صوره ، فلما دخلت الروح فيه صار لحما ودماً حياً ناطقاً . ففى تفسير أبى مالك وأبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب النبى ﷺ : « لما فرغ الله عز وجل من خلق ما أحب استوى على العرش ، فجعل إبليس ملكا على سماء الدنيا وكان من الخزان قبله من ملائكة يقال لهم الجن ، وإنما سموا الجن لأنهم خزان أهل الجنة ، وكان إبليس مع ملكه خازناً فوقع فى صدره وقال : ما أعطانى الله هذا إلا لمزيد لى » [1] وفى لفظ « لمزية لى على الملائكة » فلما وقع ذلك الكبر فى نفسه اطلع الله على ذلك منه فقال الله للملائكة : ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [2] . قالوا ربنا وما يكون حال الخليفة ، وما يصنعون فى الأرض ؟ قال الله: تكون له ذرية يفسدون فى الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضاً ، قالوا : ربنا ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون ﴾ [3] يعنى : من شأن إبليس .

فبعث جبريل إلى الأرض ليأتيه بطين منها فقالت الأرض : إنى أعوذ باللَّه منك أن تقبض منى فرجع ولم يأخذ ، وقال : رب إنها عاذت بك فأعذتها ، فبعث ميكائيل فعاذت منه فأعاذها ، فبعث ملك الموت فعاذت منه فقال : وأنا أعوذ باللَّه أن أرجع ولم أنفذ أمره ، فأخذ من وجه الأرض وخلط فلم يأخذ من مكان واحد فأخذ من تربة حمراء وبيضاء وسوداء ، ولذلك خرج بنو آدم مختلفين ، فصعد به قبل الرب عز

---

(١) ذكره ابن كثير فى البداية والنهاية ١/ ٥٥ . وفى مختصر العلو ص ٩٨ .

(٢) البقرة آية : ٣٠ (٣) البقرة آية : ٣٠ .

وجل حتى عاد طيناً لازباً ، واللازب هو الذى يلزق بعضه ببعض ، ثم قال للملائكة : ﴿ إِنِّى خَلِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُ سَجِدِينَ ﴾ . فخلقه الله بيده لكيلا يتكبر إبليس عنه ليقول له تتكبر عما عملت بيدى ولم أتكبر أنا عنه ، فخلقه بشراً فكان جسداً من طين أربعين سنة ، فمرت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوه ، وكان أشدهم منه فزعاً إبليس ، فكان يمر به فيضربه فيصوت الجسد كما يصوت الفخار ، تكون له صلصلة فذلك حين يقول : ﴿ مِن صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ . ويقول : لأمر ما خلقت . ودخل من فيه فخرج من دبره فقال للملائكة : لا ترهبوا من هذا فإن ربكم صمد ، وهذا أجوف لئن سلطت عليه لأهلكنه ، فلما بلغ الحين الذى يريد الله جل ثناؤه أن ينفخ فيه الروح ، قال للملائكة : إذا نفخت فيه من روحى فاسجدوا له ، فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح فى رأسه عطس ، فقالت الملائكة : قل الحمد لله ، فقال : الحمد لله ، فقال له الله : يرحمكَ ربك ، فلما دخل الروح فى عينيه نظر إلى ثمار الجنة ، فلما دخل فى جوفه اشتهى الطعام قبل أن يبلغ الروح رجليه ، فنهض عجلان إلى ثمار الجنة ، فذلك حين يقول : ﴿خُلِقَ الإِنسَنُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ . وذكر باقى الحديث .

قال يونس بن عبد الأعلى ، أخبرنا ابن وهب ، ثنا ابن زيد ، قال : لما خلق الله النار ذعرت منها الملائكة ذعراً شديداً وقالوا : ربنا لم خلقت هذه النار لأى شىء خلقتها ؟ قال : لمن عصانى من خلقى ، ولم يكن الله يومئذ خلق إلا الملائكة والأرض ليس فيها خلق إنما خلق آدم بعد ذلك ، وقرأ قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾ قال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ، ليت ذلك الحين ، ثم قال : وقالت الملائكة ويأتى علينا دهر نعصيك فيه لا يرون له خلقا غيرهم ، قال : لا ، إنى أريد أن أخلق فى الأرض خلقاً وأجعل فيها خليفة . وذكر الحديث .

قال ابن اسحاق : فيقال واللَّه أعلم : خلق الله آدم ثم وضعه ينظر إليه أربعين عاماً قبل أن ينفخ فيه الروح حتى عاد صلصالاً كالفخار ، ولم تمسسه نار فيقال : واللَّه أعلم : لما انتهى الروح إلى رأسه عطس فقال : الحمد لله وذكر الحديث .

والقرآن والحديث والآثار تدل على أنه سبحانه نفخ فيه من روحه بعد خلق جسده فمن تلك النفخة حدثت فيه الروح ، ولو كانت روحه مخلوقة قبل بدنه مع جملة

أرواح ذريته ، لما عجبت الملائكة من خلقه ، ولما تعجبت من خلق النار ، وقالت : لأى شىء خلقتها ؟ وهى ترى أرواح بنى آدم ، فيهم المؤمن والكافر والطيب والخبيث .

ولما كانت أرواح الكفار كلها تبعاً لإبليس ؛ بل كانت الأرواح الكافرة مخلوقة قبل كفره ، فإن الله سبحانه إنما حكم عليه بالكفر ، بعد خلق بدن آدم وروحه ، ولم يكن قبل ذلك كافرا ، فكيف تكون الأرواح قبله كافرة ومؤمنة ، وهو لم يكن كافراً إذ ذاك، وهل حصل الكفر للأرواح إلا بتزيينه وإغوائه فالأرواح الكافرة إنما حدثت بعد كفره ، إلا أن يقال كانت كلها مؤمنة ثم ارتدت بسببه .

والذى احتجوا به على تقديم خلق الأرواح يخالف ذلك . وفى حديث أبى هريرة فى تخليق العالم : الإخبار عن خلق أجناس العالم وتأخر خلق آدم إلى يوم الجمعة ، ولو كانت الأرواح مخلوقة قبل الأجساد لكانت من جملة العالم المخلوق فى ستة أيام، فلما لم يخبر عن خلقها فى هذه الأيام ، علم أن خلقها تابع لخلق الذرية ، وأن خلق آدم وحده هو الذى وقع فى تلك الأيام الستة ، وأما خلق ذريته فعلى الوجه المشاهد المعاين .

ولو كان للروح وجود قبل البدن وهى حية عالمة ناطقة لكانت ذاكرة لذلك فى العالم شاعر به ولو بوجه ما ، ومن الممتنع أن تكون حية عالمة ناطقة عارفة بربها . وهى بين ملأ من الأرواح . ثم تنتقل إلى هذا البدن ولا تشعر بحالها قبل ذلك بوجه ما ! وإذا كانت بعد المفارقة تشعر بحالها وهى فى البدن على التفصيل وتعلم ما كانت عليه هاهنا . مع أنها اكتسبت بالبدن أموراً أعاقتها عن كثير من كمالها ، فلأن تشعر بحالها الأول وهى غير معوقة هناك بطريق الأولى ، إلا أن يقال : تعلقها بالبدن واشتغالها بتدبيره منعها من شعورها بحالها الأول ، فيقال : هب أنه منعها من شعورها به على التفصيل والكمال ، فهل يمنعها من أدنى شعور بوجه ما مما كانت عليه قبل تعلقها بالبدن ؟ ومعلوم أن تعلقها بالبدن لم يمنعها عن الشعور بأول أحوالها وهى فى البدن . فكيف يمنعها من الشعور بما كان قبل ذلك ؟!

وأيضاً فإنها لو كانت موجودة قبل البدن لكانت عالمة حية ناطقة عاقلة ، فلما تعلقت بالبدن سلبت ذلك كله ، ثم حدث لها الشعور والعلم والعقل شيئاً فشيئاً ، وهذا لو كان لكان من أعجب الأمور أن تكون الروح كاملة عاقلة ثم تعود ناقصة

ضعيفة جاهلة ، ثم تعود بعد ذلك إلى عقلها وقوتها ، فأين فى العقل والنقل والفطرة ما يدل على هذا ؟ ! وقد قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَرَ والأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (1) . فهذه الحال التى أخرجنا عليها هى حالنا الأصلية ، والعلم والعقل والمعرفة والقوة طارىء علينا حادث فينا بعد أن لم يكن ، ولم نكن نعلم قبل ذلك شيئا ألبتة ، إذ لم يكن لنا وجود نعلم ونعقل به .

وأيضا فلو كانت مخلوقة قبل الأجساد وهى على ما هى الآن من طيب وخبث وكفر وإيمان وخير وشر ، لكان ذلك ثابتا لها قبل الأعمال ، وهى إنما اكتسبت هذه الصفات والهيئات من أعمالها التى سعت فى طلبها واستعانت عليها بالبدن ، فلم تكن لتتصف بتلك الهيئات والصفات قبل قيامها بالأبدان التى بها عملت تلك الأعمال، وإن كان قدر لها قبل إيجاد ذلك ثم خرجت إلى هذه الدار على ما قدر لها فنحن لا ننكر الكتاب والقدر السابق لها من الله ، ولو دل دليل على أنها خلقت جملة ثم أودعت فى مكان حية عالمة ناطقة ، ثم كل وقت تبرز إلى أبدانها شيئاً فشيئاً ، لكنا أول قائل به . فاللَّه سبحانه على كل شىء قدير . ولكن لا نخبر عنه خلقاً وأمرا إلا بما أخبر به عن نفسه على لسان الرسول ﷺ .

ومعلوم أن الرسول ﷺ ، لم يخبر عنه بذلك ، وإنما أخبر بما فى الحديث الصحيح: « إن أحدكم يجمع خَلْقُهُ فى بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح » . فالملك وحده يرسل إليه فينفخ فيه ، فإذا نفخ فيه كان ذلك سبب حدوث الروح (2) فيه ، ولم يقل يرسل الملك إليه بالروح فيدخلها فى بدنه ، وإنما أرسل إليه الملك فأحدث فيه الروح بنفخته فيه ، لا أن الله سبحانه أرسل إليه الروح التى كانت موجودة قبل ذلك بالزمان الطويل مع الملك ، ففرق بين أن يرسل إليه ملكاً ينفخ فيه الروح ، وبين أن يرسل إليه روحاً مخلوقة قائمة بنفسها مع الملك ، وتأمل ما دل عليه النص من هذين المعنيين . وباللَّه التوفيق .



(1) النحل آية ٧٨ .

(2) أخرجه البخارى من التوحيد ١٣/٤٤٩ (٧٤٥٤) .

فصل

﴿ المسألة التاسعة عشرة ﴾

[وهى ما حقيقة النفس ؟]

هل هى جزء من أجزاء البدن أو عرض [١] من أعراضه أو جسم مساكن له مودع فيه أو جوهر [٢] مجرد ؟ وهل هى الروح أو غيرها ؟ وهل الأمارة واللوامة والمطمئنة نفس واحدة لها هذه الصفات أم هى ثلاث أنفس ؟

فالجواب : أن هذه مسائل قد تكلم الناس فيها من سائر الطوائف ، واضطربت أقوالهم فيها وكثر فيها خطؤهم ، وهدى الله أتباع الرسول وأهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، واللّه يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

فنذكر أقوال الناس وما لهم وما عليهم فى تلك الأقوال ، ونذكر الصواب بحمد الله وعونه .

قال أبو الحسن الأشعرى فى مقالاته : اختلف الناس فى الروح والنفس والحياة وهل الروح هى الحياة أو غيرها ، وهل الروح جسم أم لا ؟ فقال النظام : الروح هى جسم ، وهى النفس ، وزعم أن الروح حى بنفسه ، وأنكر أن تكون الحياة والقوة معنى غير الحى القوى . وقال آخرون : الروح عرض . وقال قائلون – منهم جعفر ابن حرب – لا ندرى الروح جوهر أو عرض ، كذا قال .

اعتلوا فى ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [٣] .

ولم يخبر عنها ما هى لا أنها جوهر ولا عرض ، قال : وأظن جعفر أثبت أن الحياة غير الروح ، وأثبت أن الحياة عرضاً [٤] .

وكان الجبائى يذهب إلى أن الروح جسم وأنها غير الحياة ، والحياة عرض ويعتل بقول أهل اللغة : خرجت روح الإنسان ، وزعم أن الروح لا تجوز عليها الأعراض .

وقال قائلون : ليس الروح شىء أكثر من اعتدال الطبائع الأربع ، ولم يرجعوا من قولهم إلا إلى المعتدل ، ولم يثبتوا فى الدنيا شيئاً إلا الطبائع الأربع ، التى هى الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة .

---

(١) العرض : مالايقوم بنفسه كاللون والرائحة والطول .

(٢) الجوهر : عكس العرض ، وهو ماقام بنفسه . وهذا عند الفلاسفة والمتكلمين .

(٣) الإسراء آية : ٨٥ .

(٤) صوابه : عرض بالرفع وليس بالنصب لأنه خبر أن .

وقال قائلون : إن الروح معنى خامس غير الطبائع الأربع ، وأنه ليس فى الدنيا إلا الطبائع الأربع والروح .

واختلفوا فى الروح فبينها بعضهم طباعاً وبينها بعضهم أجساداً . وقال قائلون : الروح الدم الصافى الخالص من الكدر والعفونات وكذلك قالوا فى القوة .

وقال قائلون : الحياة هى الحرارة الغريزية ، وكل هؤلاء الذين حكينا أقوالهم فى الروح من أصحاب الطبائع يثبتون أن الحياة هى الروح .

وكان الأصم لايثبت الحياة والروح شيئا غير الجسد ويقول : ليس أعقل إلا الجسد الطويل العريض العميق الذى أراه وأشاهده ، وكان يقول : النفس هى هذا البدن بعينه لا غير وإنما جرى عليها هذا الذكر على جهة البيان والتأكيد بحقيقة الشىء لا على أنها معنى غير البدن .

وذكر عن أرسطاطاليس [1] : أن النفس معنى مرتفع عن الوقوع تحت النسق واللون وأنها جوهر بسيط مثبت فى العالم كله من الحيوان على جهة الأعمال له والتدبير ، وأنه لا يجوز عليه صفة قلة ولا كثرة ، قال : وهى على ما وصفت من انبساطها فى هذا العالم غير منقسمة الذات والبنية وأنها كل حيوان العالم بمعنى واحد لا غير .

وقال آخرون : بل النفس معنى موجود ذات حدود وأركان وطول وعرض وعمق ، وأنها غير مفارقة فى هذا العالم لغيرها فيما يجرى عليه حكم الطول والعرض والعمق، وكل واحد منهما يجمعهما صفة الحد والنهاية .

وقالت طائفة : إن النفس موصوفة بما وصفها هؤلاء الذين قدمنا ذكرهم من معنى الحدود والنهايات ، إلا أنها غير مفارقة لغيرها مما لا يجوز أن يكون موصوفاً بصفة الحيوان .

وحكى الجرير عن جعفر بن مبشر : أن النفس جوهر ليس هو هذا الجسم وليس بجسم ، ولكنه معنى باين الجوهر والجسم .

وقال آخرون : النفس معنى غير الروح والروح غير الحياة والحياة عنده عرض ، وهو أبو الهذيل ، وزعم أنه قد يجوز أن يكون الإنسان فى حال نومه مسلوب النفس والروح دون الحياة ، واستشهد على ذلك بقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأنفُسَ حِيْنَ مَوْتِهَا وَالَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾ [2] .

---

(١) هو أكبر فلاسفة اليونان ، وتلميذ أفلاطون .

(٢) الزمر آية : ٤٢ .

وقال جعفر بن حرب : النفس عرض من الأعراض يوجد فى هذا الجسم ، وهو أحد الآلات التى يستعين بها الإنسان على الفعل ، كالصحة والسلامة وما أشبهها وأنها غير موصوفة بشىء من صفات الجواهر والأجسام . هذا ما حكاه الأشعرى .

وقالت طائفة : النفس هى النسيم الداخل والخارج بالنفس ، قالوا : والروح عرض وهو الحياة فقط وهو غير النفس ، وهذا قول القاضى أبى بكر بن الباقلانى ومن اتبعه من الأشعرية .

وقالت طائفة : ليست النفس جسماً ولا عرضاً وليست النفس فى مكان ولا لها طول ولا عرض ولا عمق ولا لون ولا بعض ، ولا هى فى العالم ولا خارجة ولا مجانبة له ولا مباينة ، وهذا قول المشائين [(١)] . وهو الذى حكاه الأشعرى عن أرسطاطاليس ، وزعموا أن تعلقها بالبدن لا بالحول فيه ولا بالمجاورة ولا بالمساكنة ولا بالالتصاق ولا بالمقابلة ، وإنما هو التدبير له فقط ، واختار هذا المذهب البوسنجى ومحمد بن النعمان الملقب بالمفيد ، ومعمر بن عباد الغزالى ، وهو قول ابن سينا وأتباعه ، وهو أردى المذاهب وأبطلها وأبعدها من الصواب .

وقال أبو محمد بن حزم : وذهب سائر أهل الإسلام والملل المقرة بالمعاد إلى أن النفس جسم طويل عريض عميق ذات مكان جثة متحيزة مصرفة للجسد ، قال : وبهذا نقول . قال : والنفس والروح اسمان مترادفان لمعنى واحد ، ومعناهما واحد ، وقد ضبط أبو عبد الله بن الخطيب مذاهب الناس فى النفس فقال : ما يشير إليه كل إنسان بقوله : إنا إما نكون جسماً أو عرضاً سارياً فى الجسم أو لا جسماً ولا عرضاً سارياً فيه . أما القسم الأول وهو أنه جسم ، فذلك الجسم إما أن يكون هذا البدن وإما أن يكون جسما مشاركا لهذا البدن ، وإما أن يكون خارجا عنه ، أما القسم الثالث وهو أن نفس الإنسان عبارة عن جسم خارج عن هذا البدن ، فهذا لم يقله أحد، أما القسم الأول وهو أن الإنسان عبارة عن هذا البدن والهيكل المخصوص فهو قول جمهور الخلق وهو المختار عند أكثر المتكلمين .

قلت : هو قول جمهور الخلق الذين عرف الرازى أقوالهم من أهل البدع ، وغيرهم من المضلين . وأما قول الصحابة والتابعين وأهل الحديث فلم يكن له بها شعور ألبتة

---

(١) المشائون : هم طائفة من فلاسفة اليونان ، كانوا عندما يتداولون قضاياهم الفلسفية يمشون فى الأروقة ، فسموا بذلك .

ولا أعتقد أن لهم فى ذلك قولا على عادته فى حكاية المذاهب الباطلة فى المسألة والمذهب الحق الذى دل عليه القرآن والسنة ، وأقوال الصحابة لم يعرفه ولم يذكره ، وهذا الذى نسبه إلى جمهور الخلق من أن الإنسان هو هذا البدن المخصوص فقط ، وليس وراءه شىء هو من أبطل الأقوال فى المسألة ؛ بل هو أبطل من قول ابن سينا وأتباعه ، بل الذى عليه جمهور العقلاء ، أن الإنسان هو البدن والروح معا ، وقد يطلق اسمه على أحدهما دون الآخر بقرينة فالناس لهم أربعة أقوال فى مسمى الإنسان: هل هو الروح فقط ؟ أو البدن فقط ؟ أو مجموعهما أو كل واحد منهما .

وهذه الأقوال الأربعة لهم فى كلامه هل هو اللفظ فقط أو المعنى فقط ، أو مجموعهما . أو كل واحد منهما ، فالخلاف بينهم فى الناطق ونطقه .

﴿ القول الصواب فى حقيقة الروح ﴾

قال الرازى : وأما القسم الثانى وهو أن الإنسان عبارة عن جسم مخصوص موجود فى داخل هذا البدن ، فالقائلون بهذا القول اختلفوا فى تعيين ذلك الجسم على وجوه:

الأول : أنه عبارة عن الأخلاط الأربعة التى منها يتولد هذا البدن .

والثانى : أنه الدم .

والثالث : أنه الروح اللطيف الذى يتولد فى الجانب الأيسر من القلب وينفذ فى الشريانات إلى سائر الأعضاء .

والقول الرابع : أنه الروح الذى يصعد فى القلب إلى الدماغ ويتكيف بالكيفية الصالحة لقبول قوة الحفظ والفكر والذكر .

والخامس : أنه جزء لا يتجزأ فى القلب .

والسادس : أنه جسم مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس وهو جسم نورانى علوى خفيف حى متحرك ، وينفذ فى جوهر الأعضاء ويسرى فيها سريان الماء وسريان الدهن فى الزيتون ، والنار فى الفحم ، فما دامت هذه الأعضاء صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف بقى ذلك الجسم اللطيف مشابكا لهذه الأعضاء ، وأفادها هذه الآثار من الحس والحركة الإرادية ، وإذا فسدت هذه الأعضاء بسبب استيلاء الأخلاط الغليظة عليها وخرجت عن قبول تلك الآثار فارق الروح البدن وانفصل إلى عالم الأرواح ، وهذا القول هو الصواب فى المسألة وهو الذى لا يصح

غيره وكل الأقوال سواه باطلة وعليه دل الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأدلة العقل والفطرة ، ونحن نسوق الأدلة عليه على نسق واحد .

الدليل الأول : قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِى قَضَى عَلَيْهَا المَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمى ﴾ ففى الآية ثلاثة أدلة : الإخبار بتوفيها وإمساكها وإرسالها .

الرابع : قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّلِمُونَ فِى غَمَرَتِ الْمَوتِ وَالْمَلَئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أخْرِجُواْ أنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَدَى كَمَا خَلَقْنَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [1] وفيها أربعة أدلة :

أحدها : بسط الملائكة أيديهم لتناولها .

الثانى : وصفها بالإخراج والخروج .

الثالث : الإخبار عن عذابها فى ذلك اليوم .

الرابع : الإخبار عن مجيئها إلى ربها فهذه سبعة أدلة .

الثامن : قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّكُم بِالَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ ﴾ وفيها ثلاثة أدلة .

إحداها : الإخبار بتوفى الأنفس بالليل .

الثانى : بعثها إلى أجسادها بالنهار .

الثالث : توفى الملائكة له عند الموت فهذه عشرة أدلة .

الحادى عشر : قوله تعالى : ﴿ يَأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِى إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِى فِى عِبَدِى * وَادْخُلِى جَنَّتِى ﴾ [2] وفيها ثلاثة أدلة :

أحدها : وصفها بالرجوع .

والثانى : وصفها بالدخول .

---

(١) الأنعام آية : ٩٣ - ٩٤ .

(٢) الفجر الآيات ٢٧ - ٣٠ .

الثالث : وصفها بالرضا .

واختلف السلف هل يقال لها ذلك عند الموت أو البعث أو فى الموضعين على ثلاثة أقوال ، وقد روى فى حديث مرفوع أن النبى ﷺ ، قال لأبي بكر الصديق : « أما إن الملك سيقولها لك عند الموت » وقال زيد بن أسلم : بشرت بالجنة عند الموت ويوم الجمع وعند البعث . وقال أبو صالح : ﴿ ارْجِعِى إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ هذا عند الموت ﴿ فَادْخُلِى فِى عِبَدِى وَادْخُلِى جَنَّتِى ﴾ قال هذا يوم القيامة فهذه أربعة عشر دليلاً .

الخامس عشر : قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن الروح إذا قبض تبعه البصر». ففيه دليلان .

أحدهما : وصفه بأنه يقبض .

والثانى : أن البصر يراه .

والسابع عشر : ما رواه النسائى : ثنا أبو داود ، عن عفان ، عن حماد ، عن أبى جعفر ، عن عمارة بن خزيمة أن أباه قال : رأيت فى المنام كأنى أسجد على جبهة النبى ﷺ ، فأخبرته بذلك ، فقال : « إن الروح ليلقى الروح فأقنع رسول الله ﷺ ، هكذا قال عفان برأسه إلى حلقه فوضع جبهته على جبهة النبى ﷺ . فأخبر أن الأرواح تتلاقى فى المنام . وقد تقدم قول ابن عباس : تلتقى أرواح الأحياء والأموات فى المنام فيتساءلون بينهم فيمسك الله أرواح الموتى .

الثامن عشر : قوله صلى الله عليه وآله وسلم ، فى حديث بلال « إن الله قبض أرواحكم وردها إليكم حين شاء » . ففيه دليلان وصفها بالقبض ، والرد .

العشرون : قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « نسمة المؤمن طائر يعلق فى شجر الجنة » . وفيه دليلان :

أحدهما : كونها طائراً .

الثانى : تعلقها فى شجر الجنة وأكلها على اختلاف التفسيرين .

الثانى والعشرون : قوله : « أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت وتأوى إلى قناديل معلقة بالعرش فاطلع إليهم ربك اطلاعه فقال : أى شىء تريدون » الحديث : وقد تقدم وفيه ستة أدلة :

أحدها : كونها مودعة فى جوف طير .

الثانى : أنها تسرح فى الجنة .

الثالث : أنها تأكل من ثمارها وتشرب من أنهارها .

الرابع : أنها تأوى إلى تلك القناديل أى تسكن إليها .

الخامس : أن الرب تعالى خاطبها واستنطقها فأجابته وخاطبته .

السادس : أنها طلبت الرجوع إلى الدنيا ، فعلم أنها مما يقبل الرجوع .

فإن قيل : هذا كله صفة الطير لا صفة الروح .

قيل : بل الروح المودعة فى الطير قصد ، وعلى الرواية التى رجحها أبو عمرو وهى قوله : « أرواح الشهداء كطير » ينفى السؤال بالكلية .

التاسع والعشرون : قوله صلى الله عليه وآله وسلم ، فى حديث طلحة بن عبيد الله : أردت مالى بالغابة فأدركنى الليل فأويت إلى قبر عبد الله بن عمرو بن حزام ، فسمعت قراءة من القبر ما سمعت أحسن منها ، فقال رسول الله ﷺ : « ذاك عبد الله ، ألم تعلم أن الله قبض أرواحهم فجعلها فى قناديل من زبرجد وياقوت ثم علقها وسط الجنة ، فإذا كان الليل ردت إليهم أرواحهم ، فلا تزال كذلك حتى إذا طلع الفجر ردت أرواحهم إلى مكانها التى كانت » [1] وفيه أربعة أدلة سوى ما تقدم .

أحدها : جعلها فى القناديل .

الثانى : انتقالها من حيز إلى حيز .

الثالث : تكلمها وقراءتها فى القبر .

الرابع : وصفها بأنها فى مكان .

الثالث والثلاثون : حديث البراء بن عازب ، وقد تقدم سياقه وفيه عشرون دليلاً .

أحدها : قول ملك الموت لنفسه : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية ﴾ [2] . وهذا الخطاب لمن يفهم ويعقل .

---

(١) سبق تخريجه . (٢) الفجر آية ٢٧ .

الثانى : قوله : اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان .

الثالث : قوله : فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فِىِّ السقاء .

الرابع : قوله : فلا يدعونها فى يده طرفة عين حتى يأخذوها منها .

الخامس : قوله : حتى يكفنوها فى ذلك الكفن ويحنطوها بذلك الحنوط . فأخبر أنها تكفن وتحنط .

السادس : قوله : ثم يصعد بروحه إلى السماء .

السابع : قوله : ويوجد [1] منها كأطيب نفحة مسك وجدت .

الثامن : قوله : فتفتح له أبواب السماء .

التاسع : قوله : ويشيعه من كل سماء مقربوها حتى ينتهى إلى الرب تعالى .

العاشر : قوله : فيقول الله تعالى : ردوا عبدى إلى الأرض .

الحادى عشر : قوله : فترد روحه فى جسده .

الثانى عشر : قوله : فى روح الكافر : فتفرق فى جسده فيجذبها فتنقطع منها العروق والعصب .

الثالث عشر : قوله : ويوجد لروحه كأنتن ريح وجدت على وجه الأرض .

الرابع عشر : قوله : فيقذف بروحه من السماء وتطرح طرحاً فتهوى إلى الأرض .

الخامس عشر : قوله : فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا ما هذا الروح الطيب وما هذا الروح الخبيث ؟

السادس عشر : قوله : فيجلسانه ويقولان له : ما كنت تقول فى هذا الرجل ؟ فإن كان هذا للروح فظاهر وإن كان للبدن فهو بعد رجوع الروح إليه من السماء .

السابع عشر : قوله : فإذا صعد بروحه قيل : أى رب عبدك فلان .

الثامن عشر : قوله : أرجعوه فأروه ماذا أعددت له من الكرامة ، فيرى مقعده من الجنة أو النار .

---

(١) لفظ الحديث : يخرج منها وليس يوجد منها .

التاسع عشر : قوله فى الحديث « إذا خرجت روح المؤمن صلى عليها كل ملك لله بين السماء والأرض » فالملائكة تصلى على روحه وبنو آدم يصلون على جسده .

العشرون : قوله : فينظر إلى مقعده من الجنة أو النار ، حتى تقوم الساعة والبدن قد تمزق وتلاشى ، وإنما الذى يرى المقعدين الروح .

فصل

الرابع والخمسون : حديث أبى موسى : تخرج نفس المؤمن أطيب من ريح المسك فتنطلق بها الملائكة الذين يتوفونه فتلقاهم ملائكة من دون السماء فيقولون : هذا فلان ابن فلان ، كان يعمل كيت وكيت بمحاسن عمله ، فيقولون مرحبا بكم وبه فيقبضونها منهم فيصعد به من الباب الذى كان يصعد منه عمله ، فتشرق فى السموات، وهو كبرهان الشمس حتى ينتهى بها إلى العرش .

وأما الكافر فإذا قبض انطلق بروحه فيقولون : من هذا ؟ فيقولون : فلان ابن فلان كان يعمل كيت وكيت لمساوى أعماله ، فيقولون : لا مرحباً لا مرحباً ردوه ، فيرد إلى أسفل الأرض إلى الثرى [1] ، ففيه عشرة أدلة :

أحدها : خروج نفسه .

الثانى : طيب ريحها .

الثالث : انطلاق الملائكة بها .

الرابع : تحية الملائكة لها .

الخامس : قبضهم لها .

السادس : صعودهم بها .

السابع : إشراق السموات لضوئها .

الثامن : انتهاؤها إلى العرش .

التاسع : قول الملائكة : من هذا ؟ وهذا سؤال عن عين وذات قائمة بنفسها .

العاشر : قوله ردوه إلى أسفل الأرضين .

---

(١) سبق تخريجه .

فصل

الرابع والستون : حديث أبى هريرة « إذا خرجت روح المؤمن تلقاه ملكان فيصعدانه إلى السماء فيقول أهل السماء : روح طيبة جاءت من قبل الأرض ، صلى الله عليك وعلى جسد كنت تعمرينه ، وذكر المسك ثم يصعد به إلى ربه عز وجل فيقول : ردوه إلى آخر الأجلين » ففيه خمسة أدلة :

أحدها : قوله : تلقاه ملكان .

الثانى : قول الملائكة : روح طيبة جاءت من قبل الأرض .

الثالث : صلاتهم عليها .

الرابع : طيب ريحها .

الخامس : الصعود بها إلى الله عز وجل .

الحادى والسبعون : حديث أبى هريرة رضى الله عنه « أن المؤمن تحضره الملائكة فإذا كان الرجل الصالح قالوا : اخرجى أيتها النفس الطيبة كانت فى الجسد الطيب اخرجى حميدة وأبشرى بروح وريحان ورب غير غضبان ، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ، فيعرج بها حتى ينتهى بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال : من هذا ؟ فيقال فلان ابن فلان ، فيقال : مرحباً بالنفس الطيبة كانت فى الجسد الطيب ، ادخلى حميدة وأبشرى بروح وريحان ورب غير غضبان ، فلا يزال يقال لها ذلك حتى ينتهى بها إلى السماء التى فيها الله عز وجل . وإذا كان الرجل السوء قال : اخرجى أيتها النفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث ، اخرجى ذميمة وأبشرى بحميم وغساق وأخرجى من شكله أزواج ، فلا يزال يقال لها حتى تخرج ، فينتهى بها إلى السماء فيقال : من هذا ؟ فيقال فلان ابن فلان ، فيقال : لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث ، ارجعى ذميمة فإنه لا تفتح لك أبواب السماء ، فترسل إلى الأرض ثم تصير إلى القبر » . وهو حديث صحيح وفيه عشرة أدلة :

أحدها : قوله : « كانت فى الجسد الطيب ، وكانت فى الجسد الخبيث » فهاهنا حال ومحل .

الثانى : قوله : « اخرجى حميدة » .

الثالث : قوله : « وأبشرى بروح وريحان » فهذا بشارة بما تصير إليه بعد خروجها .

الرابع : قوله : « فلا يزال يقال لها ذلك حتى ينتهى بها إلى السماء » .

الخامس : قوله : « فيستفتح لها » .

السادس : قوله : « ادخلى حميدة » .

السابع : قوله : « حتى ينتهى بها إلى السماء التى فيها الله تعالى » .

الثامن : قوله : « لنفس الفاجر ارجعى ذميمة » .

التاسع : قوله : « فإنه لا تفتح لك أبواب السماء » .

العاشر : قوله : « فترسل إلى الأرض ثم تصير إلى القبر » .

الحادى والثمانون : قوله ﷺ : « الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف »[(١)] . فوصفها بأنها جنود مجندة ، والجنود ذوات قائمة بنفسها ووصفها بالتعارف والتناكر ، ومحال أن تكون هذه الجنود أعراضاً أن تكون داخل العالم ولا خارجه ، ولا بعض لها ولا كل .

الثانى والثمانون : قوله فى حديث ابن مسعود رضى الله عنه « أن الأرواح تتلاقى وتشأم كما تشأم الخيل »[(٢)] وقد تقدم .

الثالث والثمانون : قوله فى حديث عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما « أن أرواح المؤمنين تتلاقى على مسيرة يومين وما رأى أحدهما صاحبه »[(٣)] .

الرابع والثمانون : الآثار التى ذكرناها فى خلق آدم ، وأن الروح لما دخل فى رأسه عطس ، فقال الحمد لله ، فلما وصل الروح إلى عينه نظر إلى ثمار الجنة ، فلما وصل إلى جوفه اشتهى الطعام ، فوثب قبل أن يبلغ الروح رجليه ، وأنها دخلت كارهة وتخرج كارهة .

الخامس والثمانون : الآثار التى فيها إخراج الرب تعالى النسم وتمييز شقيهم من سعيدهم وتفاوتهم حينئذ فى الإشراق والظلمة وأرواح الأنبياء فيهم مثل السرج وقد تقدم .

---

(١) متفق عليه وسبق فى أكثر من موضع . (٢) سبق . (٣) سبق تخريجه .

السادس والثمانون : وحديث تميم الدارى : أن روح المؤمن إذا صعد بها إلى الله خر ساجداً بين يديه وأن الملائكة تتلقى الروح بالبشرى ، وأن الله تعالى يقول لملك الموت « انطلق بروح عبدى فضعه فى مكان كذا وكذا » وقد تقدم .

السابع والثمانون : الآثار التى ذكرناها فى مستقر الأرواح بعد الموت ، واختلاف الناس فى ذلك ، وفى ضمن ذلك الاختلاف إجماع السلف على أن للروح مستقراً بعد الموت ، وإن اختلف فى تعيينه .

الثامن والثمانون : ما قد علم بالضرورة أن رسول الله ﷺ ، جاء به وأخبر به الأمة تثبت أجسادهم فى القبور ، فإذا نفخ فى الصور رجعت كل روح إلى جسدها فدخلت فيه ، فانشقت الأرض عنه فقام من قبره ، وفى حديث الصور : أن إسرافيل عليه السلام يدعو الأرواح فتأتيه جميعاً أرواح المسلمين نوراً والأخرى مظلمة ، فيجمعها جميعاً فيعلقها فى الصور ثم ينفخ فيه فيقول الرب جل جلاله : وعزتى ليرجعن كل روح إلى جسده ، فتخرج الأرواح من الصور مثل النحل قد ملأت ما بين السماء والأرض ، فيأتى كل روح إلى جسده ، فيخدل ويأمر الله الأرض فتنشق عنهم ، فيخرجون سراعاً إلى ربهم ينسلون مهطعين إلى الداعى يسمعون المنادى من مكان قريب ، فإذا هم قيام ينظرون . وهذا معلوم بالضرورة أن الرسول أخبر به ، وأن الله سبحانه لا ينشىء لهم أرواحاً غير أرواحهم التى كانت فى الدنيا ؛ بل هى الأرواح التى اكتسبت الخير والشر أنشأ أبدانها نشأة أخرى ، ثم ردها إليها .

التاسع والثمانون : أن الروح والجسد يختصمان بين يدى الرب عز وجل ويوم القيامة . قال علىّ بن عبد العزيز : ثنا أحمد بن يونس ، ثنا أبو بكر بن عياش ، عن أبى سعيد البقال ، عن عكرمة ، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : ما تزال الخصومة بين الناس يوم القيامة ، حتى يخاصم الروح الجسد فيقول الروح : يارب إنما كنت روحاً منك جعلتنى فى هذا الجسد ، فلا ذنب لى . ويقول الجسد : يارب كنت جسداً خلقتنى ودخل فى هذا الروح مثل النار فيه كنت أقوم وبه كنت أقعد وبه أذهب وبه أجىء لا ذنب لى . قال : فيقال : أنا أقضى بينكما أخبرانى عن أعمى ومُقْعَدْ دخلا حائطاً فقال المقْعَدُ للأعمى . إنى أرى ثمراً فلو كانت لى رجلان لتناولت فقال الأعمى : أنا أحملك على رقبتى ، فحمله فتناول من الثمر فأكلا جميعاً ، فعلى من الذنب ؟ قالا : عليهما جميعاً ، فقال : قضيتما على أنفسكما .

التسعون : الأحاديث والآثار الدالة على عذاب القبر ونعيمه إلى يوم البعث ، فمعلوم أن الجسد تلاشى واضمحل ، وأن العذاب والنعيم المستمرين إلى يوم القيامة ، إنما هو على الروح .

الحادى والتسعون : إخبار الصادق المصدوق ، صلى الله عليه وآله وسلم ، فى الحديث الصحيح عن الشهداء « أنهم لما سئلوا ما تريدون ؟ قالوا : نريد أن ترد أرواحنا فى أجسادنا ، حتى نقتل فيك مرة أخرى » [1] فهذا سؤال وجواب من ذات حية عاقلة ناطقة تقبل الرد إلى الدنيا والدخول فى أجساد خرجت منها ، وهذه الأرواح سئلت وهى تسرح فى الجنة ، والأجساد قد مزقها البلى .

الثانى والتسعون : ما ثبت عن سلمان الفارسى وغيره من الصحابة رضوان الله عليهم : أن أرواح المؤمنين فى برزخ تذهب حيث شاءت ، وأرواح الكفار فى سجين وقد تقدم .

الثالث والتسعون : رؤية النبى ﷺ ، لأرواح الناس عن يمين آدم ويساره ليلة الإسراء، فرآها متحيزة بمكان معين .

الرابع والتسعون : رؤيته أرواح الأنبياء فى السموات وسلامهم عليه وترحيبهم به ، كما أخبر به ، وأما أبدانهم ففى الأرض .

الخامس والتسعون : رؤيته صلى الله عليه وآله وسلم ، أرواح الأطفال حول إبراهيم الخليل عليه السلام .

السادس والتسعون : رؤيته صلى الله عليه وآله وسلم ، أرواح المعذبين فى البرزخ بأنواع العذاب ، فى حديث سمرة الذى رواه البخارى فى صحيحه ، وقد تلاشت أجسادهم واضمحلت ، وإنما كان الذى رآه أرواحهم ونسمهم يفعل بها ذلك .

السابع والتسعون : إخباره سبحانه عن الذين قتلوا فى سبيله أنهم أحياء عند ربهم يرزقون . وأنهم فرحون مستبشرون بإخوانهم ، وهذا للأرواح قطعاً ، لأن الأبدان فى التراب تنتظر عود أرواحها إليها يوم البعث .

الثامن والتسعون : ما تقدم من حديث ابن عباس رضى الله عنهما ، ونحن نسوقه ليتبين كم فيه من دليل على بطلان قول الملاحدة وأهل البدع فى الروح ، وقد ذكرنا

(١) أخرجه مسلم فى الإمارة ٣/ ١٥٠٢ - ١٥٠٣ (١٢١) .

إسناده فيما تقدم ، قال : بينما رسول الله ﷺ ، ذات يوم قاعداً ، تلا هذه الآية : ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ الْمَوْتِ﴾ الآية . ثم قال : والذى نفس محمد بيده، ما من نفس تفارق الدنيا حتى ترى مقعدها من الجنة أو النار ، فإذا كان عند ذلك صف له سماطان من الملائكة ينتظمان ما بين الخافقين ، كأن وجوههم الشمس، فينظر إليهم ما يرى غيرهم وإن كنتم ترون أنه ينظر إليكم ، مع كل ملك منهم أكفان وحنوط ، فإن كان مؤمناً بشروه بالجنة ، وقالوا : اخرجى أيتها النفس المطمئنة إلى رضوان الله وجنته ، فقد أعد الله لك من الكرامة ما هو خير لك من الدنيا وما فيها ، فلا يزالون يبشرونه ، فَلَهُمْ ألطف به وأرأف من الوالدة بولدها ثم يسلون روحه من تحت كل ظفر ومفصل يموت الأول فالأول ، ويبرد كل عضو الأول فالأول ويهون عليه وإن كنتم ترونه شديداً حتى تبلغ ذقنه فلهى أشد كراهية للخروج من الجسد من الولد حين يخرج من الرحم ، فيبتدرونها كل ملك منهم أيهم يقبضها فيتولى قبضها ملك الموت ، ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّٰكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [1] . فيتلقاها بأكفان بيض ثم يحتضنها إليه ، فلهو أشد لزوماً من المرأة لولدها ، ثم يفوح منها ريح أطيب من المسك فيستنشقون ريحاً طيباً ويتباشرون بها ، ويقولون : مرحباً بالريح الطيبة والروح الطيب اللَّهم صل عليه روحا وصل على جسد خرجت منه ، قال : فيصعدون بها فتفوح لهم ريح أطيب من المسك ، فيصلون عليها ويتباشرون بها ، وتفتح لهم أبواب السماء ، ويصلى عليها كل ملك فى كل سماء تمر بهم حتى تنتهى بين يدى الجبار جل جلاله، فيقول الجبار عز وجل : مرحباً ، بالنفس الطيبة أدخلوها الجنة ، وأروها مقعدها من الجنة واعرضوا عليها ما أعددت لها من الكرامة والنعيم ، ثم اذهبوا بها إلى الأرض ، فإنى قضيت أنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى ، فوالذى نفس محمد بيده لهى أشد كراهية للخروج منها حين كانت تخرج من الجسد ، وتقول أين تذهبون بى إلى ذلك الجسد الذى كنت فيه ، فيقولون : إنا مأمورون بهذا ، فلابد لك منه فيهبطون به على قدر فراغهم من غسله وأكفانه ، فيدخلون ذلك الروح بين الجسد وأكفانه » [2] ، فتأمل كم فى هذا الحديث من موضع يشهد ببطلان قول المبطلين فى الروح .

---

(١) السجدة آية ١١ .

(٢) سبق تخريجه .

التاسع والتسعون : ما ذكره عبد الرزاق ، عن معمر ، عن زيد بن أسلم ، عن عبد الرحمن بن البَيْلَمانى ، عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما : « إذا توفى المؤمن بعث إليه ملكان بريحان من الجنة وخرقة تقبض فيها فتخرج كأطيب رائحة وجدها أحد قط بأنفه ، حتى يؤتى به الرحمن جل جلاله فتسجد الملائكة قبله ، ويسجد بعدهم ثم يدعى ميكائيل عليه السلام فيقال : اذهب بهذه النفس فاجعلها مع أنفس المؤمنين حتى أسألك عنها يوم القيامة » .

وقد تظاهرت الآثار عن الصحابة : أن روح المؤمن تسجد بين يدى العرش فى وفاة النوم ووفاة الموت ، وأما حين قدومها على الله فأحسن تحيتها أن تقول : اللَّهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام .

وحدثنى القاضى نور الدين بن الصائغ ، قال : كانت لى خالة وكانت من الصالحات العابدات ، قال : عدتها فى مرض موتها ، فقالت لى : الروح إذا قدمت على الله ووقفت بين يديه ما تكون تحيتها وقولها له ؟ قال : فعظمت على مسألتها وفكرت فيها ثم قلت : تقول : اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام قال : فلما توفيت رأيتها فى المنام فقالت لى : جزاك الله خيراً ، لقد دهشت فما أدرى ما أقوله ، ثم ذكرت تلك الكلمة التى قلت لى فقلتها .

المائة : ما قد اشترك فى العلم به عامة أهل الأرض من لقاء أرواح الموتى وسؤالهم لهم وإخبارهم إياهم بأمور خفيت عليهم ، فرأوها عياناً ، وهذا أكثر من أن يتكلف إيراده وأعجب من هذا الوجه .

الحادى والمائة : أن روح النائم يحصل لها فى المنام آثار فتصبح تراها على البدن عيانا ، وهى من تأثير الروح فى الروح كما ذكر القيروانى فى كتاب « البستان » عن بعض السلف .

قال : كان لى جار يشتم أبا بكر وعمر ، رضى الله عنهما ، فلما كان ذات يوم أكثر من شتمهما فتناولته وتناولنى ، فانصرفت إلى منزلى وأنا مغموم حزين ، فنمت وتركت العشاء ، فرأيت رسول الله ﷺ ، فى المنام فقلت : يا رسول الله ، فلان يسب أصحابك ، « قال : من أصحابى ؟ قلت : أبو بكر وعمر ، فقال : خذ هذه المدية فاذبحه بها ، فأخذتها فأضجعته وذبحته ، ورأيت كأن يدى أصابها من دمه ،

فألقيت المدية ، وأهويت بيدى إلى الأرض لأمسحها ، فانتبهت وأنا أسمع الصراخ من نحو داره ، فقلت : ما هذا الصراخ ؟ قالوا : فلان مات فجأة ، فلما أصبحنا جئت فنظرت إليه فإذا خط موضع الذح » .

[قصة سواد الوجه لساب علىّ فى المنام]

وفى (كتاب المنامات) لابن أبى الدنيا عن شيخ من قريش قال : رأيت رجلاً بالشام قد اسود نصف وجهه وهو يغطيه فسألته عن ذلك فقال : قد جعلت لله على أن لا يسألنى أحد عن ذلك إلا أخبرته به ، كنت شديد الوقيعة فى علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، فبينا أنا ذات ليلة نائم إذا أتانى آت فى منامى ، فقال لى : أنت صاحب الوقيعة فىّ ، فضرب شق وجهى فأصبحت وشق وجهى أسود كما ترى .

وذكر مسعدة ، عن هشام بن حسان ، عن واصل مولى ابن عيينة ، عن موسى بن عبيدة ، عن صفية بنت شيبة ، قالت : كنت عند عائشة ، رضى الله عنها ، فأتتها امرأة مشتملة على يدها فجعل النساء يولعن بها ، فقالت : ما أتيتك إلا من أجل يدى ، وإن أبى كان رجلاً سمحاً ، وأنى رأيت فى المنام حياضاً عليها رجال معهم آنية يسقون من أتاهم ، فرأيت أبى فقلت : أين أمى ؟ فقال : انظرى فنظرت فإذا أمى ليس عليها إلا قطعة خرقة ، فقال : إنها لم تتصدق قط إلا بتلك الخرقة وشحمة من بقرة ذبحوها ، فتلك الشحمة تذاب وتطوف بها وهى تقول : واعطشاه ، قالت : فأخذت إناء من الآنية فسقيتها فنوديت من فوقى : من سقاها أيبس الله يده . فأصبحت يدى كما ترين [1] .

وذكر الحارث بن أسد المحاسبى ، وأصبغ ، وخلف بن القاسم ، وجماعة عن سعيد ابن مسلمة قال : بينما امرأة عند عائشة إذ قالت : بايعت رسول الله ﷺ ، على أن لا أشرك باللّٰه شيئاً ولا أسرق ولا أزنى ولا أقتل ولدى ، ولا آتى ببهتان أفتريه من بين يدى ورجلى ، ولا أعصى فى معروف فوفيت لربى ، ووفى لى ربى ، فواللّٰه لا يعذبنى الله فأتاها فى المنام ملك فقال لها : كلا إنك تتبرجين وزينتك تبدين وخيرك تكندين ، وجارك تؤذين ، وزوجك تعصين ، ثم وضع أصابعه الخمس على وجهها وقال: خمس بخمس ولو زدت زدناك . فأصبحت وأثر الأصابع فى وجهها.

---

(١) إسناده ضعيف فيه موسى بن عبيدة ، ضعيف (التقريب ص ٥٥٢) .

وقال عبد الرحمن بن القاسم صاحب مالك سمعت مالكاً يقول : إن يعقوب بن عبد الله بن الأشج ، كان من خيار هذه الأمة ، نام فى اليوم الذي استشهد فيه ، فقال لأصحابه : إنى قد رأيت أمرا ولأخبرنه ، إنى رأيت كأنى أدخلت الجنة فسقيت لبناً فاستقاء فقاء اللبن ، واستشهد بعد ذلك .

قال أبو القاسم : وكان فى غزوة فى البحر بموضع لا لبن فيه ، وقد سمعت غير مالك يذكره ويذكر أنه معروف ، فقال : إنى رأيت كأنى أدخل الجنة فسقيت فيها لبناً فقال له بعض القوم : أقسمت عليك لما تقيأت فقاء لبناً يصلد ، أى يبرق وما فى السفينة لبن ولا شاة .

قال ابن قتيبة : قوله يصلد أى يبرق ، يقال : صلد اللبن يصلد ، ومنه حديث عمر : أن الطبيب سقاه لبناً فخرج من الطعنة أبيض يصلد .

وكان نافع القارى إذا تكلم يشم من فِيه رائحة المسك ، فقيل له : كلما قعدت تتطيب ، فقال : ما أمس طيباً ولا أقربه ، ولكن رأيت النبى ﷺ ، فى المنام وهو يقرأ فى فمى ، فمن ذلك الوقت يشم من فىّ هذه الرائحة .

وذكر مسعدة فى ﴿ كتابه فى الرؤيا ﴾ عن ربيع بن يزيد الرقاشى ، قال : أتانى رجلان فقعدا إلى فاغتابا رجلاً فنهيتهما فأتانى أحدهما بعد ، فقال : إنى رأيت فى المنام كأن زنجيا أتانى بطبق عليه جنب خنزير لم أر لحماً قط أسمن منه ، فقال لى : كل فقلت : آكل لحم خنزير ، فتهددنى فأكلت فأصبحت وقد تغير فمى فلم يزل يجد الريح فى فمه شهرين .

وكان العلاء بن زياد له وقت يقوم فيه ، فقال لأهله تلك الليلة : إنى أجد فترة فإذا كان وقت كذا فأيقظونى فلم يفعلوا قال فأتانى آت فى منامى فقال : قم يا علاء ابن زياد اذكر الله يذكرك ، وأخذ بشعرات فى مقدم رأسى فقامت تلك الشعرات فى مقدم رأسى فلم تزل قائمة حتى مات .

قال يحيى بن بسطام فلقد غسلناه يوم مات وإنهن لقيام فى رأسه .

[حكاية تسويد نصف الوجه لساب الشيخين رضى الله عنهما]

وذكر ابن أبى الدنيا ، عن أبى حاتم الرازى ، عن محمد بن على ، قال : كنا بمكة فى المسجد الحرام قعوداً ، فقام رجل نصف وجهه أسود ونصفه أبيض

فقال : يا أيها الناس اعتبروا بى ، فإنى كنت أتناول الشيخين وأشتمهما ، فبينما أنا ذات ليلة نائم ، إذ أتانى آت فرفع يده فلطم وجهى وقال لى : يا عدو الله يا فاسق ، ألست تسب أبا بكر وعمر ، رضى الله عنهما ، فأصبحت وأنا على هذه الحالة .

[قصة ذبح ساب الشيخين رضى الله عنهما]

وقال محمد بن عبد الله المهلبى : رأيت فى المنام كأنى فى رحبة بنى فلان ، وإذا النبى ﷺ جالس على أكمة ومعه أبو بكر وعمر واقف قدامه ، فقال له عمر : يا رسول الله إن هذا يشتمنى ويشتم أبا بكر ، فقال : جئ به يا أبا حفص فأتى برجل فإذا هو العمانى ، وكان مشهوراً بسبهما ، فقال له النبى ﷺ : « اضجعه ، فأضجعه، ثم قال اذبحه فذبحه ، قال : فما نبهنى إلا صياحه ، فقلت : مالى لا أخبره عسى أن يتوب ، فلما تقربت من منزله سمعت بكاءً شديداً فقلت : ما هذا البكاء ؟ فقالوا : العمانى ذبح البارحة على سريره ، قال : فدنوت من عنقه فإذا من أذنه إلى أذنه طريقة حمراء كالدم المحصور » .

وقال القيروانى : أخبرنى شيخ لنا من أهل الفضل قال : أخبرنى أبو الحسن المطلبى ، إمام مسجد النبى ﷺ ، قال : رأيت بالمدينة عجباً ، كان رجل يسب أبا بكر وعمر رضى الله عنهما ، فبينا نحن يوماً من الأيام بعد صلاة الصبح إذ أقبل رجل وقد خرجت عيناه وسالتا على خديه ، فسألناه ما قصتك ؟ فقال : رأيت البارحة رسول الله ﷺ ، وعلىّ بين يديه ومعه أبو بكر وعمر ، فقالا : يا رسول الله ، هذا الذى يؤذينا ويسبنا فقال لى رسول الله ﷺ « من أمرك بهذا يا أبا قيس ؟ فقلت : له علىّ وأشرت إليه ، فأقبل على على بوجهه ويده وقد ضم أصابعه وبسط السبابة والوسطى وقصد بها إلى عينى فقال : إن كنت كذبت ففقأ الله عينيك وأدخل إصبعيه فى عينى، فانتبهت من نومى وأنا على هذه الحال ، فكان يبكى يخبر الناس وأعلن التوبة .

[قصة سواد الوجه لتأخير الإفطار خلاف أمره ﷺ]

قال القيروانى : وأخبرنى شيخ من أهل الفضل قال : أخبرنى فقيه ، قال : كان عندنا رجل يكثر الصوم ويسرده ، ولكنه كان يؤخر الفطر ، فرأى فى المنام كأن أسودين آخذين بضبعيه [١] وثيابه إلى تنور محمى ليلقياه فيه ، قال : فقلت لهما :

---

(١) الضبع : مابين الإبط إلى نصف العضد من أعلاها . وهما ضبعان .

على ماذا ؟ فقالا : على خلافك لسنة رسول الله ﷺ ، فإنه أمر بتعجيل الفطر وأنت تؤخره ، قال : فأصبح وجهه قد اسود من وهج النار فكان يمشى متبرقعا فى الناس .

وأعجب من هذا : الرجل يرى فى المنام وهو شديد العطش والجوع والألم أن غيره قد سقاه وأطعمه أو داواه بدواء فيستيقظ ، وقد زال عنه ذلك كله ، وقد رأى الناس من هذا عجائب .

وقد ذكر مالك عن أبى الرجال ، عن عمرة ، عن عائشة ، أن جارية لها سحرتها وأن سيدها دخل عليها وهى مريضة ، فقال : إنك سُحِرْتِ . قالت : ومن سحرنى؟ قال : جارية فى حجرها صبى قد بال عليها ، فدعت جاريتها ، فقالت : حتى أغسل بولاً فى ثوبى ، فقالت لها : أسحرتنى ؟ قالت : نعم ، قالت : وما دعاك إلى ذلك ؟ قالت : أردت تعجيل العتق ، فأمرت أخاها أن يبيعها من الأعراب ممن يسىء ملكها ، فباعها ، ثم إن عائشة رأت فى منامها أن اغتسلى من ثلاثة آبار يمد بعضها بعضاً ، فاستسقى لها فاغتسلت فبرأت [1] .

[دعاء رد البصر]

وكان سماك بن حرب قد ذهب بصره ، فرأى إبراهيم الخليل فى المنام فمسح على عينيه ، وقال : إذهب إلى الفرات فانغمس فيه ثلاثاً ، ففعل فأبصر .

وكان إسماعيل بن بلال الحضرمى قد عمى ، فأتى فى المنام فقيل له قل : يا قريب يا مجيب يا سميع الدعاء يا لطيف بمن يشاء رد على بصرى ، فقال : الليث ابن سعد أنا رأيته قد عمى ثم أبصر .

وقال عبيد الله بن أبى جعفر : اشتكيت شكوى فجهدت منها ، فكنت أقرأ آية الكرسى ، فنمت فإذا رجلان قائمان بين يدى فقال أحدهما لصاحبه : إنه يقرأ آية فيها ثلاثمائة وستون رحمة أفلا يصيب هذا المسكين فيها رحمة واحدة ، فاستيقظت فوجدت خفة .

قال ابن أبى الدنيا : اعتلت [2] امرأة من أهل الخير والصلاح بوجع المعدة ، فرأت فى المنام قائلاً يقول لها : لا إله إلا الله المغلى وشراب الورد ، فشربته فأذهب الله عنها ما كانت تجد .

---

(١) رواته ثقات .   (٢) اعتلت : أى مرضت .

[علاج وجع الورك]

قال : وقلت أيضاً رأيت فى المنام كأنى أقول السناء والعسل وماء الحمص الأسود شفاء لوجع الأوراك ، فلما استيقظت أتتنى امرأة تشكو وجعاً بوركها ، فوصفت لها ذلك فاستنفعت به .

[علاج المعدة من روح جالينوس الحكيم]

وقال جالينوس : السبب الذى دعانى إلى فصد العروق الضوارب أنى أمرت به فى منامى مرتين قال : كنت إذ ذاك غلاماً ، قال : وأعرف إنساناً شفاه الله من وجع كان به فى جنبه بفصد العرق الضارب لرؤيا رآها فى منامه .

قال ابن الخراز : كنت أعالج رجلاً ممعوداً [1] فغاب عنى ، ثم لقيته فسألته عن حاله فقال : رأيت فى المنام إنساناً فى زى ناسك متوكئاً على عصا ، وقف على ، وقال: أنت رجل ممعود ؟ فقلت : نعم ، فقال عليك بالكباء والجلنجبين فأصبحت فسألت عنهما فقيل لى الكباء المصطكى ، والجلنجبين الورد المربى بالعسل ، فاستعملتهما أياماً فبرأت ، فقلت له : ذلك جالينوس .

والوقائع فى هذا الباب أكثر من أن تذكر .

قال بعض الناس : إن أصل الطب من المنامات ، ولا ريب أن كثيراً من أصوله مستند إلى الرؤيا كما أن بعضها عن التجارب وبعضها عن القياس ، وبعضها عن إلهام . ومن أراد الوقوف على ذلك فلينظر فى [تاريخ الأطباء] وفى [كتاب البستان للقيروانى] وغير ذلك .

الوجه الثانى بعد المائة : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَبُ السَّمَآءِ ﴾ [2] ، وهذا دليل على أن المؤمنين تفتح لهم أبواب السماء وهذا التفتيح هو تفتيحها لأرواحهم عند الموت ، كما تقدم فى الأحاديث المستفيضة أن السماء تفتح لروح المؤمن حتى ينتهى بها إلى بين يدى الرب تعالى . وأما الكافر فلا تفتح لروحه أبواب السماء ، ولا تفتح لجسده أبواب الجنة .

الوجه الثالث بعد المائة : قول النبى ﷺ : « يا بلال ما دخلت الجنة إلا سمعت خشخشتك بين يدى . فيم ذاك ؟ قال : ما أحدثت فى ليل أو نهار إلا توضأت وصليت ركعتين » .

---

(١) ممعوداً : أى مصاباً بمرض فى معدته .

(٢) الأعراف آية : ٤٠ .

ومعلوم أن الذى سمع خشخشته بين يديه هو روح بلال ، وإلا فجسده لم ينقل إلى الجنة .

الوجه الرابع بعد المائة : الأحاديث والآثار التى فى زيارة القبور والسلام على أهلها ومخاطبتهم والإخبار عن معرفتهم بزوارهم ، وردهم عليهم السلام وقد تقدمت الإشارة إليها .

الوجه الخامس بعد المائة : شكاية كثير من أرواح الموتى إلى أقاربهم وغيرهم أموراً مؤذية فيجدونها كما شكوه فيزيلونها .

الوجه السادس بعد المائة : لو كانت عبارة عن عرض من أعراض البدن ، أو جوهر مجرد ليس بجسم . ولا حال فيه ، لكان قول القائل : خرجت وذهبت وقمت وجئت وقعدت وتحركت ودخلت ورجعت ونحو ذلك كله أقوالاً باطلة ، لأن هذه الصفات ممتنعة الثبوت فى حق الأعراض والمجردات ، وكل عاقل يعلم صدق قوله وقول غيره . ذلك فالقدح فى ذلك قدح فى أظهر المعلومات فهو من باب السفسطة . لا يقال : حاصل هذا الدليل التمسك بألفاظ الناس وإطلاقاتهم وهى تحتمل الحقيقة والمجاز ، فلعل مرادهم دخل جسمى وخرج . لأنا إنما استدللنا بشهادة العقل والفطرة بمعانى هذه الألفاظ فكل أحد يشهد عقله وحسه بأنه هو الذى دخل وخرج وانتقل لا مجرد بدنه ، فشهادة الحس والعقل بمعانى هذه الألفاظ وإضافتها إلى الروح أصلاً ، وإلى البدن تبعاً من أصدق الشهادات والاعتماد على ذلك لا على مجرد الإطلاق اللفظى .

الوجه السابع بعد المائة : أن البدن مركب ومحل لتصرف النفس ، فكان دخول البدن وخروجه وانتقاله جارياً مجرى دخول مركبه من فرسه ودابته ، فلو كانت النفس غير قابلة للدخول والخروج والانتقال والحركة والسكون ، لكان ذلك بمنزلة دخول مركب الإنسان إلى الدار وخروجه منها دون دخوله هو ، وهذا معلوم البطلان بالضرورة وكل أحد يعلم أن نفسه وروحه هى التى دخلت وخرجت وانتقلت وصرفت البدن وجعلته تبعاً لها فى الدخول والخروج ، فهو لها بالأصل وللبدن بالتبع ، لكنه للبدن بالمشاهدة وللروح بالعلم والعقل .

الوجه الثامن بعد المائة : أن النفس لو كانت كما يقوله من يقول إنها عرض لكان

الإنسان كل وقت يبدل مائة ألف نفس أو أكثر ، والإنسان إنما هو إنسان بروحه ونفسه لا ببدنه ، وكان الإنسان الذى هو الإنسان غير الذى هو قبله بلحظة وبعده بلحظة ، وهذا من نوع الهوس ولو كانت الروح مجردة وتعلقها بالبدن بالتدبير فقط لا بالمساكنة والمداخلة لم يمتنع أن ينقطع تعلقها بهذا البدن وتتعلق بغيره ، كما يجوز انقطاع تدبير المدبر لبيت أو مدينة عنها ، ويتعلق بتدبير غيرها . وعلى هذا التدبير فنصير شاكين فى أن هذه النفس التى لزيد هى النفس الأولى أو غيرها ، وهل زيد هو ذلك الرجل أم غيره ، و (أى) عاقل لا يجوز ذلك ، فلو كانت الروح عرضاً أو أمراً مجرداً لحصل الشك المذكور .

الوجه التاسع بعد المائة : أن كل أحد يقطع أن نفسه موصوفة بالعلم والفكر والحب والبغض والرضى والسخط وغيرها من الأحوال النفسانية ، ويعلم أن الموصوفات بذلك ليس عرضاً من أعراض بدنه ولا جوهراً مجرداً منفصلاً عن بدنه غير مجاور له ، ويقطع ضرورة بأن هذه الإدراكات لأمر داخل فى بدنه كما يقطع بأنه إذا سمع وأبصر وشم وذاق ولمس وتحرك وسكن ، فتلك أمور قائمة به مضافة إلى نفسه ، وأن جوهر النفس هو الذى قام به ذلك كله ، لم يقم بمجرد ولا بعرض ، بل قام بمتحيز داخل منتقل من مكان إلى مكان يتحرك ويسكن ويخرج ويدخل ، وليس إلا هذا البدن والجسم السارى فيه المشابك له الذى لولاه لكان بمنزلة الجماد .

الوجه العاشر بعد المائة : أن النفس لو كانت مجردة وتعلقها بالبدن تعلق التدبير فقط ، كتعلق الملاح بالسفينة والجمال بجمله ، لأمكنها ترك تدبير هذا البدن واشتغالها بتدبير بدن آخر ، كما يمكن الملاح والجمال ذلك ، وفى ذلك تجويز نقل النفوس من أبدان إلى أبدان . ولا يقال : إن النفس اتحدت ببدنها ، فامتنع عليها الانتقال أو أنها لها عشق طبيعى وشوق ذاتى إلى تدبير هذا البدن ، فلهذا السبب امتنع انتقالها . لأنا نقول : اتحاد ما لا يتحيز بالمتحيز محال ، ولأنها لو اتحدت به لبطلت ببطلانه ، ولأنها بعد الاتحاد إن بقيا فهما اثنان لا واحد ، وإن عدما معاً وحدث ثالث فليس من الاتحاد فى شىء ، وإن بقى أحدهما وعدم الآخر فليس باتحاد أيضاً ، وأما عشق النفس الطبيعى للبدن فالنفس إنما تعشقه لأنها تتناول اللذات بواسطته ، وإذا كانت الأبدان متساوية فى حصول مطلوبها كانت نسبتها إليها على السوء ، فقولكم : إن النفس المعينة عاشقة للبدن المعين باطل . ومثال ذلك :

العطشان إذا صادف آنية متساوية كل منها يحصل غرضه امتنع عليه أن يعشق واحداً منها بعينه دون سائرها .

الوجه الحادى عشر بعد المائة : أن نفس الإنسان لو كانت جوهراً مجرداً لا داخل العالم ولا خارجه ، ولا متصلة بالعالم ولا منفصلة عنه ، ولا مباينة له ولا مجانبة لكان يعلم بالضرورة أنه موجود بهذه الصفة ، لأن علم الإنسان بنفسه وصفاتها أظهر من كل معلوم ، وأن علمه بما عداه تابع لعلمه بنفسه ، ومعلوم قطعاً أن ذلك باطل . فإن جماهير أهل الأرض يعلمون أن إثبات هذا الموجود محال فى العقول شاهداً وغائباً، فمن قال ذلك فى نفسه وربه فلا نفسه عرف ، ولا ربه عرف .

الوجه الثانى عشر بعد المائة : أن هذا البدن المشاهد محل لجميع صفات النفس وإدراكاتها الكلية والجزئية ، ومحل للقدرة على الحركات الإرادية . فوجب أن يكون الحامل لتلك الإدراكات والصفات هو البدن وما سكن فيه ، أما أن يكون محلها جوهراً مجرداً لا داخل العالم ولا خارجه ، فباطل بالضرورة .

الوجه الثالث عشر بعد المائة : أن النفس لو كانت مجردة عن الجسمية والتحيز لامتنع أن يتوقف فعلها على مماسة محل الفعل ، لأن ما لا يكون متحيزاً يمتنع أن يصير مماسا للمتحيز ، ولو كان الأمر كذلك لكان فعلها على سبيل الاختراع من غير حاجة إلى حصول مماسة وملاقاة بين الفاعل وبين محل الفعل فكان الواحد منا يقدر على تحريك الأجسام من غير أن يماسها أو يماس شيئاً يماسها ، فإن النفس عندكم كما كانت قادرة على تحريك البدن من غير أن يكون بينها وبينه مماسة ، كذاك لا تمنع قدرتها على تحريك جسم غيره من غير مماسة له ولا لما يماسه . وذلك باطل بالضرورة، فعلم أن النفس لا تقوى على التحريك إلا بشرط أن تماس محل الحركة أو تماس ما يماسه ، وكل ما كان مماساً للجسم أو لما يماسه فهو جسم .

فإن قيل : يجوز أن يكون تأثير النفس فى تحريك بدنها الخاص غير مشروط بالمماسة ، وتأثيرها فى تحريك غيره موقوف على حصول المماسة بين بدنها وبين ذلك الجسم .

فالجواب : أنه لما كان قبول البدن لتصرفات النفس لا يتوقف على حصول المماسة بين النفس وبين البدن ، وجب أن تكون الحال كذلك فى غيره من الأجسام ، لأن

الأجسام متساوية فى قبول الحركة ، ونسبة النفس إلى جميعها سواء لأنها إذا كانت مجردة عن الحجمية وعلائق الحجمية كانت نسبة ذاتها إلى الكل بالسوية ، ومتى كانت ذات الفاعل نسبتها إلى الكل بالسوية ، والقوابل نسبتها إلى ذلك الفاعل بالسوية كان التأثير بالنسبة إلى الكل على السواء ، فإذا استغنى الفاعل عن مماسة محل الفعل فى حق البعض وجب أن يستغنى فى حق الجميع ، وإن افتقر إلى المماسة فى البعض وجب افتقاره فى الجميع .

فإن قيل : النفس عاشقة لهذا البدن دون غيره فكان تأثيرها فيه أقوى من تأثيرها فى غيره .

قيل : هذا العشق الشديد يقتضى أن يكون تعلقها بالبدن أكثر ، وتصرفها فيه أقوى ، فأما أن يتغير مقتضى ذاتها بالنسبة إلى هذه الأجسام ، فذلك محال ، وهذا دليل فى غاية القوة .

الوجه الرابع عشر بعد المائة : أن العقلاء كلهم متفقون على أن الإنسان هو هذا الحى الناطق المتغذى النامى الحساس المتحرك بالإدارة ، وهذه الصفات نوعان : صفات لبدنه . وصفات لروحه ونفسه الناطقة .

فلو كانت الروح جوهراً مجرداً لا داخل العالم ولا خارجه ، ولا متصلة به ولا منفصلة عنه ، لكان الإنسان لا داخل العالم ولا خارجه ، ولا متصلاً به ولا منفصلاً عنه ، أو كان بعضه فى العالم وبعضه لا داخل العالم ولا خارجه ، وكل عاقل يعلم بالضرورة بطلان ذلك . وأن الإنسان بجملته داخل العالم بدنه وروحه ، وهذا فى البطلان يضاهى قول من قال : إن نفسه قديمة غير مخلوقة ، فجعلوا نصف الإنسان مخلوقا ونصفه غير مخلوق .

فإن قيل : نحن نسلم أن الإنسان كما ذكرتم إلا أنا نثبت جوهراً مجرداً يدبر الإنسان الموصوف بهذه الصفات . قلنا : فذلك الجوهر الذى أثبتموه مغاير للإنسان أو هو حقيقة الإنسان ولابد لكم من أحد الأمرين .

فإن قلتم : هو غير الإنسان رجع كلامكم إلى أنكم أثبتم للإنسان مدبراً غيره سميتموه نفسا ، وكلامنا الآن إنما هو فى حقيقة الإنسان لا فى مدبره ، فإن مدبر الإنسان وجميع العالم العلوى والسفلى هو الله الواحد القهار .

الوجه الخامس عشر بعد المائة : أن كل عاقل إذا قيل له : ما الإنسان ؟ فإنه يشير إلى هذه البنية ، وما قام بها لا يخطر بباله أمر مغاير لها ، مجرد ليس فى العالم ، ولا خارجه ، والعلم بذلك ضرورى لا يقبل شكا ولا تشكيكاً .

الوجه السادس عشر بعد المائة : أن عقول العالمين قاضية بأن الخطاب متوجه إلى هذه البنية وما قام بها وساكنها ، وكذلك المدح والذم والثواب والعقاب والترغيب والترهيب ، ولو أن رجلا قال : المأمور والمنهى والممدوح والمذموم والمخاطب والعاقل جوهر مجرد ليس فى العالم ولا خارجه ولا متصل به ولامنفصل عنه ، لأضحك العقلاء على عقله ولأطبقوا على تكذيبه ، وكل ما شهدت بداهة العقول وصرائحها ببطلانه ، كان الاستدلال على ثبوته استدلالاً على صحة وجود المحال ، وباللَّه التوفيق .

* * *

فصل
« أدلة المنازعين فى جسمية الروح وتحيزها »
ورد شبههم جميعاً

فإن قيل : قد ذكرتم الأدلة الدالة على جسميتها وتحيزها ، فما جوابكم عن أدلة المنازعين لكم فى ذلك فإنهم استدلوا بوجوه :

أحدها : اتفاق العقلاء على قولهم : الروح والجسم والنفس والجسم ، فيجعلونها شيئا غير الجسم ، فلو كانت جسما لم يكن لهذا القول معنى .

الثانى : وهو أقوى ما يحتجون به ، أنه من المعلوم أن فى الموجودات ما هو غير قابل للقسمة كالنقطة والجوهر الفرد ، بل ذات واجب الوجود [1] ، فوجب أن يكون العلم بذلك غير قابل للقسمة ، فوجب أن يكون الموصوف بذلك العلم وهو محله غير قابل للقسمة وهو النفس فلو كانت جسما لكانت قابلة للقسمة .

ويقرر هذا الدليل على وجه آخر ، وهو أن محل العلوم الكلية لو كان جسماً أو جسمانياً لانقسمت تلك العلوم ، لأن الحال فى المنقسم وانقسام تلك العلوم مستحيل .

---

(١) وهو الله عز وجل ، وذلك فى اصطلاح الفلاسفة ، وهذه التسمية من مبتدعاتهم .

الثالث : أن الصور العقلية الكلية مجردة بلا شك ، وتجردها إما أن يكون بسبب المأخوذ عنه أو بسبب الأخذ . والأول باطل ، لأن هذه الصور إنما أخذت عن الأشخاص الموصوفة بالمقادير المختلفة والأوضاع المعينة ، فثبت أن تجردها إنما هو بسبب الأخذ لها والقوة العقلية المسماة بالنفس .

الرابع : أن القوة العاقلة تقوى على أفعال غير متناهية ، فإنها تقوى على إدراكات لا تتناهى ، والقوة الجسمانية لا تقوى على أفعال غيرها غير متناهية لأن القوة الجسمانية تنقسم بانقسام محلها ، فالذى يقوى عليه بعضها يجب أن يكون أقل من الذى يقوى عليه الكل ، فالذى يقوى عليه الكل يزيد على الذى يقوى عليه البعض أضعافاً متناهية والزائد على المتناهى بمتناه متناه .

الخامس : أن القوة العاقلة لو كانت حالة فى آلة جسمانية لوجب أن تكون القوة العاقلة دائمة الإدراك لتلك الآلة أو ممتنعة الإدراك لها بالكلية ، وكلاهما باطل لأن إدراك القوة العاقلة لتلك الآلة إن كان عين وجودها فهو محال ، وإن كان صورة مساوية لوجودها وهى حالة فى القوة العقلية الحالة فى تلك الآلة ، لزم اجتماع صورتين متماثلتين وهو محال . وإذا بطل هذا ثبت أن القوة العاقلة ولو أدركت آلتها لكان إدراكها عبارة عن نفس حصول تلك الآلة عند القوة العاقلة ، فيجب حصول الإدراك دائماً إن كفى هذا القدر فى حصول الإدراك ، وإن لم يكف امتنع حصول الإدراك فى وقت من الأوقات ، إذ لو حصل فى وقت دون وقت لكان بسبب أمر زائد على مجرد حضور صورة الآلة .

السادس : أن كل أحد يدرك نفسه ، وإدراك الشىء عبارة عن حضور ماهية المعلوم عند العالم ، فإذا علمنا أنفسنا ، فهو إما أن يكون لأجل حضور ذواتنا لذواتنا أو لأجل حضور صورة مساوية لذواتنا فى ذواتنا ، والقسم الثانى باطل . والإلزام اجتماع المثلين . فثبت أنه لا معنى لعلمنا بذاتنا إلا حضور ذاتنا عند ذاتنا وهذا إنما يكون إذا كانت ذاتاً قائمة بالنفس غنية عن المحل ، لأنها لو كانت حالة فى محل كانت حاضرة عند ذلك المحل ، فثبت أن هذا المعنى إنما يحصل إذا كانت النفس قائمة بنفسها غنية عن محل تحل فيه .

السابع : ما احتج به أبو البركات البغدادى وأبطل ما سواه ، فقال : لا نشك أن الواحد منا يمكنه أن يتخيل بحراً من زئبق وجبلاً من ياقوت وشموساً وأقماراً ، فهذه

الصور الخيالية لا تكون معدومة ، لأن قوة المتخيل تشير إلى تلك الصور وتميز بين كل صورة وغيرها ، وقد يقوى ذلك المتخيل إلى أن يصير كالمشاهد المحسوس ، ومعلوم أن العدم المحض والنفى الصرف لا يثبت ذلك ، ونحن نعلم بالضرورة أن هذه الصور ليست موجودة فى الأعيان ، فثبت أنها موجودة فى الأذهان ، فنقول : محل هذه الصورة ، إما أن يكون جسما أو حالا فى الجسم أو لا جسماً ولا حالا فى الجسم ، والقسمان الأولان باطلان ، لأن صورة البحر والجبل صورة عظيمة ، والدماغ والقلب جسم صغير وانطباع العظيم فى الصغير محال ، فثبت أن محل هذه الصورة الخيالية ليس بجسم ولا جسمانى .

الثامن : لو كانت القوة العقلية جسدانية لضعيف فى زمان الشيخوخة دائما وليس كذلك .

التاسع : أن القوة العقلية غنية فى أفعالها عن الجسم ، وما كان غنيا فى فعله عن الجسم وجب أن يكون غنيا فى ذاته عن الجسم .

بيان الأول : أن القوة العقلية تدرك نفسها ، ومن المحال أن يحصل بينها وبين نفسها آلة متوسطة أيضا ، وتدرك إدراكها لنفسها ، وليس هذا الإدراك بآلة وأيضا فإنها تدرك الجسم الذى هو آلتها وليس وبين آلتها آلة أخرى .

وبيان الثانى : من وجهين :

أحدهما : أن القوى الجسمانية كالناظرة والسامعة والخيال والوهم ، لما كانت جسمانية يقدر عليها إدراك ذواتها وإدراكها لكونها مدركة لذواتها ، وإدراكها لتلك الأجسام الحاملة لها ، فلو كانت القوة العاقلة جسمانية ، لتعذر عليها هذه الأمور الثلاثة .

الثانى : أن مصدر الفعل هو النفس فلو كانت النفس متعلقة فى قوامها ووجودها بالجسم لم تحصل تلك الأفعال إلا بشركة من الجسم . لما ثبت أنه ليس كذلك ثبت أن القوة العقلية غنية عن الجسم .

العاشر : أن القوة الجسمانية تكل بكثرة الأفعال ولا تقوى على القوى بعد الضعف، وسببه ظاهر فإن القوى الجسمانية بسبب من أدلة الأفعال تتعرض موادها للتحلل والذبول وهو يوجب الضعف ، وأما القوة العقلية فإنها لا تضعف بسبب كثرة الأفعال وتقوى على القوى بعد الضعف ، فوجب أن لا تكون جسمانية .

الحادى عشر : أما إذا حكمنا بأن السواد مضاد للبياض ، وجب أن يحصل فى الذهن ماهية السواد والبياض ، والبداهة حاكمة بأن اجتماع السواد والبياض والحرارة والبرودة فى الأجسام محال ، فلما حصل هذا الاجتماع فى القوة العقلية وجب أن لا تكون قوة جسمانية .

الثانى عشر : أنه لو كان محل الإدراكات جسماً فكل جسم منقسم لا محالة لم يمنع أن يقوم ببعض أجزاء الجسم علم بالشىء وبالبعض الآخر منه جهل ، وحينئذ فيكون الإنسان فى الحال الواحد عالما بالشىء وجاهلاً به .

الثالث عشر : أن المادة الجسمانية إذا حصلت فيها نقوش مخصوصة ، فإن وجود تلك النقوش فيها يمنع من حصول نقوش غيرها . وأما النقوش العقلية فبالضد من ذلك ، لأن الأنفس إذا كانت خالية من جميع العلوم والإدراكات فإنه يصعب عليها التعلم ، فإذا تعلمت شيئاً صار حصول تلك العلوم معيناً على سهولة غيرها ، فالنقوش الجسمانية متغايرة متنافية ، والنقوش العقلية متعاونة متعاضدة .

الرابع عشر : أن النفس لو كانت جسماً لكان بين إرادة العبد تحريك رجله ، وبين تحريكها زمان على قدر حركة الجسم وثقله ، فإن النفس هى المحركة للجسد والممهد لحركته ، فلو كان المحرك للرجل جسماً فإما أن يكون حاصلا فى هذه الأعضاء أو جائيا إليها ، فإن كان جائيا إليها احتاج إلى مدة ، ولابد وإن كان حاصلا فيها ، فنحن إذا قطعنا تلك العضلة التى تكون بها الحركة لم يبق منها فى العضو المتحرك شىء ، فلو كان ذلك المتحرك حاصلا فيه لبقى منه شىء فى ذلك العضو .

الخامس عشر : لو كانت النفس جسماً لكانت منقسمة ، ولصح عليها أن يعلم بعضها كما يعلم كلها ، فيكون الإنسان عالما ببعض نفسه جاهلاً بالبعض الآخر وذلك محال .

السادس عشر : لو كانت النفس جسماً لوجب أن يثقل البدن بدخولها فيه ، لأن شأن الجسم الفارغ إذا ملأه غيره أن يثقل به كالزق [1] الفارغ ، والأمر بالعكس ، فأخف ما يكون البدن إذا كانت فيه النفس وأثقل ما يكون إذا فارقته .

السابع عشر : لو كانت النفس جسماً لكانت على صفات سائر الأجسام التى لا

---

(١) الزق : وعاء من جلد ، يجز شعره ولاينتف . ويستعمل للشراب وغيره .

يخلو شىء منها من الخفة والثقل والحرارة والبرودة والنعومة والخشونة والسواد والبياض، وغير ذلك من صفات الأجسام وكيفياتها ، ومعلوم أن الكيفيات النفسانية إنما هى الفضائل والرذائل ، لا تلك الكيفيات الجسمانية فالنفس ليست جسماً .

الثامن عشر : أنها لو كانت جسماً لوجب أن يقع تحت جميع الحواس أو تحت حاسة منها أو حاستين ، أو أكثر ، فإنا نرى الأجسام كذلك منها ما يدرك بجميع الحواس ، ومنها ما يدرك بأكثرها ، ومنها ما يدرك بحاستين منها أو واحدة ، والنفس بريئة من ذلك كله ، وهذه الحجة التى احتج بها جهم على طائفة من الملاحدة حين أنكروا الخالق سبحانه ، وقالوا لو كان موجودا لوجب أن يدرك بحاسة من الحواس ، فعارضهم بالنفس وأنى تتم المعارضة إذا كانت جسماً وإلا لو كانت جسماً لجاز إدراكها ببعض الحواس .

والتاسع عشر : لو كانت جسماً لكانت ذات طول وعرض وعمق وسطح وشكل وهذه المقادير والأبعاد لا تقوم إلا بمادة ومحل . فإن كانت مادتها ومحلها نفساً لزم اجتماع نفسين . وإن كان غير نفس كانت مركبة من بدن وصورة وهى فى جسد مركب من بدن وصورة فيكون الإنسان إنسانين .

العشرون : أن من خاصة الجسم أن يقبل التجزىء ، والجزء الصغير منه ليس كالكبير ، ولو قبلت التجزىء فكل جزء منها إن كان نفساً لزم أن يكون للإنسان نفوس كثيرة لا نفس واحدة ، وإن لم يكن نفساً لم يكن المجموع نفساً ، كما أن جزء الماء إن لم يكن ماء ، لم يكن مجموعة ماء .

الحادى والعشرون : أن الجسم محتاج فى قوامه وحفظه وبقائه إلى النفس ، ولهذا يضمحل ويتلاشى لما تفارقه فلو كانت جسماً لكانت محتاجة إلى نفس أخرى وهلم جرًا ، ويتسلسل الأمر . وهذا المحال إنما لزم من كون النفس جسماً .

الثانى والعشرون : لو كانت جسماً لكان اتصالها بالجسم إن كان على سبيل المداخلة لزم تداخل الأجسام ، وإن كان على سبيل الملاصقة والمجاورة كان الإنسان الواحد جسمين متلاصقين ، أحدهما يرى ، والآخر لا يرى . فهذا كل ما موهت به هذه الطائفة المبطلة من منخنقة وموقوذة ومتردية ، ونحن نجيبهم عن ذلك كله فصلاً بفصل بحول الله وقوته ومعونته .

❊ ❊ ❊

فصل

[فى ترديد الشبهة الأولى لمنازعى جسمية الروح والنفس]

فأما قولهم إن العقلاء متفقون على قولهم : الروح والجسم والنفس والجسم ، وهذا يدل على تغايرهما .

فالجواب أن يقال : إن مسمى الجسم فى اصطلاح المتفلسفة والمتكلمين أعم من مسماه فى لغة العرب ، وعرف أهل العرف . فإن الفلاسفة يطلقون الجسم على قابل الأبعاد الثلاثة ، خفيفاً كان أو ثقيلاً ، مرئياً كان أو غير مرئى ، فيسمون الهواء جسماً ، والنار جسماً ، والماء جسماً ، وكذلك الدخان والبخار والكوكب ، ولا يعرف فى لغة العرب تسمية شيء من ذلك جسماً ألبتة ، فهذه لغتهم وأشهارهم وهذه النقول عنهم فى كتب اللغة .

قال الجوهرى : قال أبو زيد : الجسم الجسد ، وكذلك الجسمان والجثمان .

قال الأصعمى : الجسم والجسمان الجسد والجثمان الشخص ، وقد جسم الشيء أى عظم ، فهو عظيم جسيم وجسام بالضم ، ونحن إذا سمينا النفس جسماً فإنما هو باصطلاحهم وعرف خطابهم وإلا فليست جسماً باعتبار وضع اللغة ومقصودنا بكونها جسماً إثبات الصفات والأفعال والأحكام التى دل عليها الشرع والعقل والحس ، من الحركة والانتقال والصعود والنزول ومباشرة النعيم والعذاب واللذة والألم ، وكونها تحبس وترسل وتقبض وتدخل وتخرج ، فلذلك أطلقنا عليها اسم الجسم تحقيقا لهذه المعانى . وإن لم يطلق عليها أهل اللغة اسم الجسم ، فالكلام مع هذه الفرقة المبطلة فى المعنى لا فى اللفظ . فقول أهل التخاطب الروح والجسم . هو بهذا المعنى .

فصل

[فى ترديد الشبهة الثانية]

وأما الشبهة الثانية : فهى أقوى شبههم التى بها يصولون وعليها يعولون ، وهى مبنية على أربع مقدمات :

إحداها : أن فى الوجود ما لا يقبل القسمة بوجه من الوجوه [1] .

---

(١) ثبت بطلان هذا اليوم ، والعلم الحديث بين أن الذرة تنشطر ، وأن نواتها كذلك تنشطر .

الثانية : أنه يمكن العلم به .

الثالثة : أن العلم به غير منقسم .

الرابعة : أنه يجب أن يكون محل العلم به ، كذلك إذ لو كان جسما لكان منقسما ، وقد نازعهم فى ذلك جمهور العقلاء ، وقالوا : لم تقيموا دليلا على أن فى الوجود مالا يقبل القسمة الحسية ولا الوهمية ، وإنما بأيديكم دعاوى لا حقيقة لها ، وإنما أثبتموه من واجب الوجود وهو بناء على أصلكم الباطل عند جميع العقلاء من أهل الملل وغيرهم ، من إنكار ماهية الرب تعالى وصفاته ، وأنه وجود مجرد لا صفة له ولا ماهية ، وهذا قول باينتم به العقول وجميع الكتب المنزلة من السماء وإجماع الرسل ، ونفيتم به علم الله وقدرته ومشيئته وسمعه وبصره وعلوه على خلقه ، ونفيتم به خلق السموات والأرض فى ستة أيام وسميتموه توحيداً وهو أصل كل تعطيل [1].

قالوا : والنقطة التى استدللتم بها هى من أظهر ما يبطل دليلكم ، فإنها غير منقسمة، وهى حالة فى الجسم المنقسم فقد حل فى المنقسم ما ليس بمنقسم ، ثم إن مثبتى الجوهر الفرد وهم جمهور المتكلمين ينازعونكم فى هذا الأصل ، ويقولون : الجوهر حال فى الجسم ؛ بل هو مركب منه ، فقد حل فى المنقسم ما ليس بمنقسم ، ولا يمكن تتميم دليلكم إلا بنفى الجوهر الفرد ، فإن قلتم النقطة عبارة عن نهاية الخط وفنائه وعدمه فهى أمر عدمى بطل استدلالكم بها ، وإن كانت أمراً وجوديا فقد حلت فى المنقسم فبطل الدليل على التقديرين .

قالوا : أيضاً فلم لا يكون العلم حالا فى محله لا على وجه النوع والسريان ، فإن حلول كل شىء فى محله بحسبه ، فحلول الحيوان فى الدار نوع ، وحلول العرض فى الجسم نوع ، وحلول الخط فى الكتاب نوع ، وحلول الدهن فى السمسم نوع ، وحلول الجسم فى العرض نوع ، وحلول الروح فى البدن نوع ، وحلول العلوم والمعارف فى النفس نوع .

قالوا : وأيضاً فالوحدة حاصلة فإن كانت جوهراً فقد ثبت الجوهر الفرد وبطل دليلكم ، فإنه لا يتم إلا بنفيه ، وإن كان عرضا وجب أن يكون لها محل ، فمحلها إن كان منقسماً فقد جاز قيام غير المنقسم ، فهو الجوهر وبطل الدليل .

---

(١) التعطيل : هو سلب صفات الله تعالى كالوجه والعين واليد والكلام ، وتأويلها بحيث ينفى التشبيه والتجسيم عن الله بزعم المعطلة ، فيصبح المقصود بالوجه : الذات ، واليد : القدرة . . . وهكذا .

فإن قلتم : الوحدة أمر عدمى لا وجود له فى الخارج ، فكذلك ما أثبتم به وجود مالا ينقسم ، كلها أمور عدمية لا وجود لها فى الخارج ، فإن واجب الوجود الذى أثبتموه أمر عدمى بل مستحيل الوجود .

قالوا : وأيضاً فالإضافات عارضة لا أقسام ، مثل الفوقية والتحتية والمالكية والمملوكية ، فلو انقسم الحال بانقسام محله ، لزم انقسام هذه الإضافات . فكأن يكون لحقيقة الفوقية والتحتية ربع وثمن وهذا لا يقبله العقل .

قالوا : وإن القوة الوهمية ، والفكرية جسمانية عند زعيمكم ابن سينا ، فيلزم أن يحصل لها أجزاء وأبعاض ، وذلك محال لأنها لو انقسمت لكان لكل واحد من أبعاضها إن كان الجزء مساوياً للكل ، وإن لم يكن مثلها لم تكن تلك الأجزاء كذلك. وأيضاً فإن الوهم لا معنى له إلا كون هذا صديقا وهذا عدواً ، وذلك لا يقبل القسمه .

قالوا : وأن الوجود أمر زائد على الماهيات عندكم . فلو لزم انقسام الحال لانقسام محله لزم انقسام ذلك الوجود بانقسام محله ، وهذا الوجه لا يلزم من جعل وجود الشىء غير ماهيته .

قالوا : وأيضاً فطبائع الأعداد ماهيات مختلفة ، فالمفهوم من كون العشرة عشرة مفهوم واحد ، وماهية واحدة ، فتلك الماهية إما أن تكون عارضة لكل واحد من تلك الآحاد وهو محال ، وإما أن تنقسم بانقسام تلك الآحاد وهو محال ، لأن المفهوم من كون العشرة عشرة لا يقبل القسمة . نعم العشرة تقبل القسمة لا عشريتها .

قالوا : فقد قام مالا ينقسم بالمنقسم .

قالوا : وأيضاً فالكيفيات المختصات بالكميات كالاستدارة والنقوش ونحوها عند الفلاسفة أعراض موجودة فى شبه الاستدارة إن كانت عرضا ، فإما أن تكون بتمامه قائماً ، وإما أن تكون بكل واحد من الأجزاء وهو محال ، وإما أن ينقسم ذلك العرض بانقسام الأجزاء ، ويقوم بكل جزء من أجزاء الخط جزء من أجزاء ذلك العرض وهو محال ، لأن جزءه إن كان استدارة لزم أن يكون جزء الدائرة دائرة ، وإن لم يكن استدارة ، فعند اجتماع الأجزاء إن لم يحدث أمر زائد وجب أن لا تحصل الاستدارة ، وإن حدث أمر زائد ، فإن كان منقسماً عاد التقسيم وإن لم ينقسم كان الحال غير منقسم ومحله منقسما .

قلت : وهذا لا يلزمهم فإن لهم أن يقولوا : ينقسم بانقسام محله تبعاً له كسائر الأعراض القائمة بمحالها من البياض والسواد ، وأما ما لا ينقسم كالطول فشرط حصوله اجتماع الأجزاء والمعلق على الشرط منتف بانتفائه .

قالوا : وأن هذه الأجسام ممكنة بذواتها وذلك صفة عرضية لها خارجة عن ماهيتها، فإن لم تنقسم بانقسام محلها بطل الدليل ، وإن انقسمت عاد المحذور المذكور من مساواة الجزء للكل والتسلسل .

قلت : وهذا أيضا لا يلزمهم لأن الإمكان ليس أمراً يدل على قبول الممكن للوجود والعدم ، وذلك القبول من لوازم ذاته ليس صفة عارضة له ، ولكن الذهن يجرد هذا القبول عن القابل ، فيكون عروضه للماهية بتجريد الذهن .

وأما قضية مشاركة الجزء للكل فلا امتناع فى ذلك كسائر الماهيات البسيطة [1] ، فإن جزءها مساو لكلها فى الحد والحقيقة كالماء والترب والهواء ، وإنما الممتنع أن يساوى الجزء للكل فى الكم ، لا فى نفس الحقيقة ، والمعول فى إبطال هذه الشبهة على أن العلم ليس بصورة حالة فى النفس ، وإنما هو نسبة وإضافة بين العلم والمعلوم كما نقول فى الإبصار إنه ليس بانطباع صورة مساوية للمبصرة فى القوة الباصرة ، وإنما هو نسبة وإضافة بين القوة الباصرة والمبصر ، وعامة شبههم التى أوردها فى هذا الفصل مبنية على انطباع صورة المعلوم فى القوة العالمة ، ثم بنوا على ذلك أن انقسام ما لا ينقسم فى المنقسم محال ، وقولهم محل العلوم الكلية لو كان جسماً أو جسمانياً لانقسمت تلك العلوم ، لأن الحال فى المنقسم منقسم لم يذكروا على صحة هذه المقدمة دليلا ولا شبهة وإنما بأيديهم مجرد الدعوى وليست بديهية حتى تستغنى عن الدليل ، وهى مبنية على أن العلم بالشىء عبارة عن حصول صورة مساوية لماهية المعلوم فى نفس العالم ، وهذا من أبطل الباطل للوجوه التى نذكرها هنالك .

وأيضاً فلو سلمنا لكم ذلك كان من أظهر الأدلة على بطلان قولكم ، فإن هذه الصورة إذا كانت حالة فى جوهر النفس الناطقة فهى صورة جزئية حالة فى نفس جزئية تقارنها سائر الأعراض الحالة فى تلك النفس الجزئية ، فإذا اعتبرنا تلك الصورة مع جملة هذه اللواحق لم تكن صورة مجردة بل مقرونة بلواحق وعوارض وذلك يمنع كليتها .

---

(١) البسيطة : عكس المركبة ، أى التى لاتتجزأ ولاتنقسم .

فإن قلتم : المراد بكونها كلية أنا إذا حذفنا عنها تلك اللواحق واعتبرناها من حيث هى هى كانت كلية .

قلنا لكم : فإذا جاز هذا فلم لا يجوز أن يقال هذه الصورة حالة فى مادة جسمانية مخصوصة بمقدار معين وبكل معين ، إلا أنا إذا حذفنا عنها ذلك واعتبرناها من حيث هى هى ، كانت بمنزلة تلك الصورة التى فعلنا بها ذلك ، فالمعين فى مقابلة المعين ، والمطلق المأخوذ من حيث هو هو فى مقابلة محله المطلق ، وهذا هو المعقول الذى شهدت به العقول الصحيحة والميزان الصحيح ، فظهر أن هذه الشبهة من أفسد الشبه وأبطلها ، وإنما أتى القوم من الكليات فإنها هى التى خرجت دورهم وأفسدت نظرهم ومناظرهم ، فإنهم جردوا أموراً كلية لا وجود لها فى الخارج ، ثم حكموا عليها بأحكام الموجودات ، وجعلوها ميزاناً وأصلا للموجودات فإذا جردوا صور المعلومات وجعلوها كلية جردنا نحن محلها وجعلناه كليا وإن أخذوا جزئية فمحلها كذلك ، فالكلى فى مقابلة الكلى والجزئى فى مقابلة الجزئى .

على أنا نقول : ليس فى الذهن كلى وإنما فى الذهن صورة معينة مشخصة منطبقة على سائر أفرادها ، فإن سميت كلية بهذا الاعتبار ، فلا مشاحة فى الألفاظ ، وهى كليه وجزئية باعتبارين .

* * *

فصل

[فى جواب الشبهة الثالثة]

قولكم : فى الوجه الثالث أن الصور العقلية الكلية مجردة ، وتجردها إنما هو بسبب الآخذ لها وهو القوة العقلية .

جوابه : أن يقال : أما الذى تريدون بهذه الصورة العقلية الكلية ، أتريدون به أن المعلوم حصل فى ذات العالم ؟ فالأول ظاهر الإحالة ، والثانى حق إلا أنه لا يفيد شيئاً لأن الأمر الكلى المشترك بين الأشخاص الإنسانية ، هو الإنسانية لا العلم بها . والإنسانية لا وجود لها فى الخارج كلية . والوجود فى الخارج للمعينات فقط ، والعلم تابع للمعلوم ، فكما أن المعلوم معين ، فالعلم به معين ، لكنه صورة منطبقة على أفراد كثيرة ، فليس فى الذهن ولا فى الخارج صورة غير منقسمة ألبتة ، وكم قد غلط

فى هذا الموضع طوائف من العقلاء لا يحصيهم إلا الله تعالى ، فالصورة الكلية التى يثبتونها ويزعمون أنها حالة فى النفس ، فهى صورة شخصية موصوفة بعوارض شخصية ، فهب أن هذه الصورة العقلية حالة فى جوهر ليس بجسم ولا جسمانى ، فإنها غير مجردة عن العوارض .

فإن قلتم : مرادنا بكونها مجردة بالنظر إليها من حيث هى هى مع قطع النظر عن تلك العوارض .

قيل لكم : فلم لا يجوز أن تكون الصورة الحالة فى المحل الجسمانى منقسمة وإنما تكون مجردة إذا نظرنا إليها من حيث هى هى بقطع النظر عن عوارضها .

❊ ❊ ❊

فصل

[فى جواب الشبهة الرابعة]

وقولكم : فى الرابع أن العقلية تقوى على أفعال غير متناهية . ولا شىء من القوى الجسمانية كذلك .

فجوابه : أنا لا نسلم أنها تقوى على أفعال غير متناهية ، وقولكم أنها تقوى على إدراكات لا تتناهى ، والإدراكات أفعال : مقدمتان كاذبتان . فإن إدراكاتها ولو بلغت ما بلغت فهى متناهية ، فلو كان لها بكل نفس ألف ألف إدراك لتناهت إدراكاتها ، فهى قطعاً تنتهى فى الإدراكات والمعارف إلى حد لا يمكنها أن تزيد عليه شيئاً ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ (1) إلى أن ينتهى العلم إلى من هو بكل شىء عليم ، فهو الله الذى لا إله إلا هو وحده ، وذلك من خصائصه التى لا يشركه فيها سواه .

فإن قلتم : ولو انتهى إلى إدراكها إلى حد لا يمكنها المزيد عليه لزم انقلاب الشئ من الإمكان الذاتى .

قلنا : فهذا بعينه لو صح دل على أن القوة الجسمانية تقوى على أفعال غير متناهية وذلك يوجب سقوط الشبهة وبطلانها ، وأيضاً فإن قوة التخيل والتفكر والتذكر ،

---

(1) يوسف آية ٧٦ .

تقوى على استحضار المخيلات والمتذكرات إلى غير نهاية ، مع أنها عندكم قوة جسمانية .

فإن قلتم : لا نسلم أنها تقوى على ما لا يتناهى .

قيل لكم : وهكذا يقول خصومكم فى القوة العاقلة سواء ، وأما كذب المقدمة الثانية فإن الإدراك ليس فعلا فلا يلزم من تناهى فعلها تناهى إدراكها . وقد صرحتم بأن الجوهر العقلى قابل لصورة المعلوم ، لأنه فاعل لها ، والشىء الواحد لا يكون فاعلا وقابلا عندكم ، وقد صرحتم بأن الأجسام يمتنع عليها أفعال لا نهاية لها ولا يمتنع عليها مجهولات وانفعالات لا تناهى ، وقد أورد ابن سينا على هذه الشبهة سؤالا فقال : أليس النفس الفلكية [1] المباشرة لتحريك الفلك قوة جسمانية مع أن الحركات الفلكية غير متناهية ؟ وأجاب عنه : بأنها وإن كانت قوة جسمانية ، إلا أنها تستمد الكمال من العقل المفارق [2] ، فلهذا السبب قدرت على أفعال غير متناهية ونقول : فإذا كان الأمر عندك كذلك فلم لا يجوز أن يقال النفس الناطقة تستمد الكمال والقوة من فاطرها ومنشئها الذى له القوة جميعاً ، فلا جرم تقوى مع كونها جسمانية على مالا يتناهى ؟ فإذا قلت بذلك وافقت الرسل والعقل ودخلت مع زمرة المسلمين وفارقت العصبة المبطلين [3] .

❊ ❊ ❊

فصل

[فى جواب الشبهة الخامسة]

قولكم فى الخامس : لو كانت القوة العاقلة حالة فى آلة جسمانية لوجب أن تكون دائمة الإدراك لتلك الآلة أو ممتنعة الإدراك لها .

فهو مبنى على أصلكم الفاسد فى الإدراك عبارة عن حصول صورة مساوية للمدرك فى القوة المدركة ، ثم لو سلمنا لكم ذلك الأصل لم يفدكم شيئاً ، فإن حصول تلك

---

(١) النفس الفلكية : هى النفس المنبثة فى الفلك بزعم بعض الفلاسفة ، وهذه نظرية أفلاطون فى الفيض . والتى تبناها بعده الفلاسفة العرب كالفارابى وابن سينا وغيرهم زعماً منهم أن العقل لايخطئ كالوحى لأنهما من مشكاة واحدة ، فضلوا وحادوا عن الحق .

(٢) العقل المفارق من العقول الثوانى فى نظرية أفلاطون فى مسلسل الفيوضات .

(٣) يقصد : أهل الفلسفة والكلام .

الصورة يكون شرطا لحصول الإدراك ، فإما أن يقال : إن الإدراك عين حصول تلك الصورة ، فهذا لا يقوله عاقل ، فلم لا يجوز أن يقال : القوة العقلية حالة فى جسم مخصوص ، ثم إن القوة الناطقة قد تحصل لها حالة إضافية تسمى بالشعور والإدراك، فحينئذ تصير القوة العاقلة مدركة لتلك الآلة ، وقد لا توجد تلك الحالة الإضافية فتصير غافلة عنها ، وإذا كان هذا ممكنا سقطت تلك الشبهة رأساً ، ثم نقول أتدعون أنا إذا عقلنا شيئاً ، فإن الصورة الحاضرة فى العقل مساوية لذلك المعقول من جميع الوجوه والاعتبارات ، أو لا يجب حصول هذه المساواة من جميع الوجوه ؟

فالأول لا يقوله عاقل ، وهو أظهر من أن يحتج لفساده . وإذا علم أنه لا تجب المساواة من جميع الوجوه لم يلزم من حدوث صورة أخرى فى القلب أو الدماغ اجتماع المثلين ، وأيضاً فالقوة العاقلة حالة فى جوهر القلب أو الدماغ والصورة الحادثة حالة فى القوة العاقلة ، فإحدى الصورتين محل للقوة العاقلة . وأيضاً فنحن إذا رأينا المسافة الطويلة والبعد الممتد ، فهل يتوقف هذا الإبصار على ارتسام صورة المرئى فى عين الرائى أو لا يتوقف ؟ فإن توقف لزم اجتماع المثلين ، لأن القوة الباصرة عندكم جسمانية ، فهى فى محل حجم ومقدار ، فإذا حصل فيه حجم المرئى ومقداره لزم اجتماع المثلين ، وإذا جاز هناك فلم لا يجوز مثله فى مسألتنا ، وإن كان إدراك الشىء لا يتوقف على حصول المرئى فى الرائى بطل قولكم . إن إدراك القلب والدماغ يتوقف على حصول صورة القلب والدماغ فى القوة العاقلة ، وأيضاً فقولكم لو كانت القوة العقلية حالة فى جسم لوجب أن تكون دائمة الإدراك لذلك الجسم ، لكن إدراكنا لقلبنا ودماغنا غير دائم ، فهذا إنما يلزم من يقول إنها حالة فى القلب أو الدماغ .

وأما من يقول : إنها حالة فى جسم مخصوص وهو النفس وهى مشابكة للبدن ، فهذا الإلزام غير وارد عليه ، فإنه يقول النفس جسم مخصوص والإنسان أبداً عالم بأنه جسم مخصوص ، ولا يزول ذلك عن عقله إلا إذا عرضت له الغفلة فسقطت الشبهة التى عولتم عليها على كل تقدير .

فصل
[فى جواب الشبهة السادسة]

قولكم فى السادس : أن كل أحد يدرك نفسه ، والإدراك عبارة عن حصول ماهية المعلوم عند العالم ، وهذا إنما يصح إذا كانت النفس غنية عن المحل إلى آخره .

وجوابه : أن ذلك مبنى على الأصل المتقدم ، وهو أن العلم عبارة عن حصول صورة مساوية للمعلوم فى نفس العالم ، وهذا باطل من وجوه كثيرة مذكورة فى مسألة العلم . حتى لو سلم ذلك فالصورة المذكورة شرط فى حصول العلم لا أنها نفس العلم ، وأيضاً فهذه الشبهة مع ركاكة ألفاظها وفساد مقدماتها منقوضة ، فإنا إذا أخذنا حجراً أو خشبة قلنا هذا جوهر قائم بنفسه ، فذاته حاضرة عند ذاته ، فيجب فى هذه الجمادات أن تكون عالمة بذواتها ، وأيضاً فجميع الحيوانات مدركة لذواتها ، فلو كان كون الشيء مدركاً لذاته يقتضى كون ذاته جوهراً مجرداً ، لزم كون نفوس الحيوانات بأسرها جواهر مجردة ، وأنتم لا تقولون بذلك .

* * *

فصل

[فى جواب الشبهة السابعة]

قولكم فى السابع : الواحد منا يتخيل بحراً من زئبق ، وجبلاً من ياقوت ، إلى آخره .

وهو شبهة أبى البركات البغدادى فشبهة داحضة جداً ، فإنها مبنية على أن تلك التخيلات أمور موجودة ، وأنها منطبعة فى النفس الناطقة انطباع النفس فى محله ومعلوم قطعاً أن هذه المتخيلات لا حقيقة لها فى ذاتها ، وإنما الذهن يفرضها تقديراً وليست منطبعة فى النفس ، فإن العلوم الخارجية لا تنطبع صورها فى النفس ، فكيف بالخيالات المعدومة ، فهذه مندحضة ولا يمنع من وقوع التمييز بين الأعدام المضافة ، فإن العقل يميز بين عدم السمع وعدم البصر وعدم الشم وغير ذلك ، ولا يلزم من هذا التميز كون هذه الأعدام موجودة ، بل يميز بين أنواع المستحيلات التى لا يمكن وجودها ألبتة ، ثم نقول إذا عقل حلول الإشكال والمقادير فيما كان مجرداً عن الحجمية والمقدار من كل الوجوه ، فلا يعقل حلول العلم بالشكل العظيم والمقدار العظيم فى الجسم الصغير ، وأيضاً فإذا كان عدم الانطباق من جميع الوجوه ، لا يمنع من حلول الصورة والشكل فى الجوهر المجرد ، فعدم انطباق العظيم على الصغير أولى أن لا يمنع من حلول الصورة العظيمة فى المحل الصغير وأيضاً فإن سلفكم من الأوائل أقاموا الدليل على أن انطباع الصورة الحالة فى الجوهر المجرد محال وذكروا له وجوهاً .

فصل

[فى جواب الشبهة الثامنة]

قولكم فى الثامن : لو كانت القوة العقلية جسدانية لضعفت فى زمن الشيخوخة وليس كذلك .

جوابه من وجوه :

الوجه الأول : لِمَ لا يجوز أن يقال القدر المحتاج إليه من صحة البدن فى كمال القوة العقلية مقدار معين ، وأما كمال حال البدن فى الصحة فإنه غير معتبر فى كمال حال القوة العقلية ؟ وإذا احتمل ذلك لم يبعد أن يقال : ذلك القدر المحتاج إليه باق إلى آخر الشيخوخة فبقى العقل إلى آخرها .

الوجه الثانى : أن الشيخ لعله إنما يمكنه أن يستمر فى الإدراكات العقلية على الصحة أن عقله يبقى ببعض الأعضاء التى يتأخر الفساد والاستحالة إليها ، فإذا انتهى إليها الفساد والاستحالة فسد عقله وإدراكه .

الوجه الثالث : أنه لا يمتنع أن يكون بعض الأمزجة أوفق لبعض القوى ، فلعل مزاج الشيخ أوفق للقوة العقليه ، فلهذا السبب تقوى فيه القوة العاقلة .

الوجه الرابع : أن المزاج إذا كان فى غاية القوة والشدة ، كانت سائر القوى قوية فتكون القوة الشهوانية والغضبية قوية جداً وقوة هذه القوى تمنع العقل من الاستكمال، فإذا حصلت الشيخوخة وحصل الضعف حصل بسبب الضعف ضعف فى هذه القوى المانعة للعقل ، من الاستكمال وحصل فى العقل أيضاً ضعف ، ولكن بعد ما حصل فى العقل من الضعف حصل ذلك فى أضداده فينجبر النقصان من أحد الجانبين بالنقصان من الجانب الآخر فيقع الاعتدال .

الوجه الخامس : أن الشيخ حفظ العلوم والتجارب الكثيرة ومارس الأمور ودربها وكثرت تجاربه وهذه الأحوال تعينه على وجوه الفكر وقوة النظر ، فقام مقام النقصان الحاصل بسبب ضعف البدن والقوى .

الوجه السادس : أن كثرة الأفعال بسبب حصول الملكات الراسخة فصارت الزيادة الحاصلة بهذا الطريق جابراً للنقصان الحاصل بسبب اختلاف البدن .

الوجه السابع : أنه قد ثبت فى الصحيح عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : «يهرم ابن آدم وتشب منه اثنتان : الحرص على المال ، والحرص على العمر » [1] والواقع شاهد لهذا الحديث ، مع أن الحرص والأمل من القوى الجسمانية والصفات الخيالية .

ثم إن ضعف البدن لم يوجب ضعف هاتين الصفتين فعلم أنه لا يلزم من اختلال البدن وضعفه الصفات البدنية .

الوجه الثامن : أنا نرى كثيراً من الشيوخ يصيرون إلى الخرف وضعف العقل ، بل هذا هو الأغلب ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً ﴾ [2] فالشيخ فى أرذل عمره يصير كالطفل أو أسوأ حالاً منه ، وأما من لم يحصل له ذلك ، فإنه لا يرد إلى أرذل العمر .

الوجه التاسع : أنه لا تلازم بين قوة البدن وقوة النفس ، ولا بين ضعفه وضعفها ، فقد يكون الرجل قوى البدن ضعيف النفس جباناً خواراً ، وقد يكون ضعيف البدن قوى النفس ، فيكون شجاعاً مقداماً على ضعف بدنه .

الوجه العاشر : أنه لو سلم لكم ما ذكرتم لم يدل على كون النفس جوهراً مجرداً لا داخل العالم ولا خارجه ، ولا هى فى البدن ولا خارجة عنه ، لأنها إذا كانت جسماً صافياً مشرقاً سماوياً مخالفاً للأجسام الأرضية ، لم تقبل الانحلال والذبول والتبديل ، كما تقبله الأجسام المتحللة الأرضية . فلا يلزم من حصول الانحلال والذبول فى هذا البدن حصولهما فى جوهر النفس .

* * *

فصل

[فى جواب الشبهة التاسعة]

قولكم فى التاسع : إن القوة العقلية غنية فى أفعالها عن الجسم ، وما كان غنياً عن الجسم فى أفعاله كان غنياً عنه فى ذاته . . . إلى آخره .

---

(1) أخرجه مسلم فى الزكاة ٢/ ٧٢٤ (١١٥) . والترمذى فى الزهد ٤/ ٤٩٣ (٢٣٣٩) وقال : هذا حديث صحيح وابن ماجه فى الزهد ٢/ ١٤١٥ (٤٢٣٤) جميعاً عن أنس .

(2) الحج الآية : ٥ .

جوابه : أن يقال لا يلزم من ثبوت حكم فى قوة جسمانية ثبوت مثل ذلك الحكم فى جميع القوى الجسمانية ، وليس معكم غير الدعوى المجردة والقياس الفاسد . وأيضاً فالصور والأعراض محتاجة إلى محلها ، وليس احتياجها إلى تلك المحال إلا لمجرد ذواتها ، ولا يلزم من استقلالها بهذا الحكم استغناؤها فى ذواتها عن تلك المحال ، فلا يلزم من كون الشيء مستقلاً باقتضاء حكم من الأحكام أن يكون مستغنياً فى ذاته عن المحل . واللّه أعلم .

* * *

فصل

[فى جواب الشبهة العاشرة]

قولكم فى العاشر : إن القوة الجسمانية تكل [1] بكثرة الأفعال ولا تقوى على القوى بعد الضعف إلى آخره .

جوابه : أن القوة الخيالية جسمانية ، ثم إنها تقوى على تخيل الأشياء العظيمة مع تخيلها الأشياء الحقيرة ، فإنها يمكنها أن تتخيل الشعلة الصغيرة ، حال ما تخيل الشمس . والقمر . وأيضاً فإن الأبصار القوية القاهرة تمنع إبصار الأشياء الضعيفة ، فكذلك نقول : العقول العظيمة العالية تمنع تعقل المعقولات الضعيفة ، فإن المستغرق فى معرفة جلال رب الأرض والسماء وأسمائه وصفاته ، يمتنع عليه فى تلك الحال الفكر فى ثبوت الجوهر الفرد وحقيقته .

* * *

فصل

[فى جواب الشبهة الحادية عشرة]

قولكم فى الحادى عشر : أنا حكمنا بأن السواد مضاد للبياض وجب أن يحصل فى الذهن ماهية السواد والبياض معاً والبداهة حاكمة بأن اجتماعهما فى الجسم محال .

جوابه : أن هذا مبنى على أن من أدرك شيئاً فقد حصل فى ذات المدرك صورة مساوية للمدرك ، وهذا باطل ، واستدلالكم على صحته بانطباع الصورة فى المرآة

---

(١) تكل : أى تتعب .

باطل ، فإن المرآة لم ينطبع فيها شىء ألبتة ، كما يقوله جمهور العقلاء ، من الفلاسفة والمتكلمين . وغيرهم ، والقول بالانطباع باطل من وجوه كثيرة .

ثم نقول إذا كنتم قد قلتم : إن المنطبع فى النفس عند إدراك السواد والبياض رسومهما ومثالهما لا حقيقتهما ، فلم لا يجوز حصول رسوم هذه الأشياء فى المادة الجسمانية ؟

* * *

فصل

[فى جواب الشبهة الثانية عشرة]

قولكم فى الثانى عشر : أنه لو كان محل الإدراكات جسماً فكل جسم منقسم لم يمنع أن يقوم ببعض أجزاء الجسم علم بالشىء ، وبالجزاء الآخر من جهل به فيكون الإنسان عالماً بالشىء جاهلاً به فى وقت واحد .

جوابه : أن هذه الشبهة منتقضة على أصولكم ، فإن الشهوة والغضب والتخيل من الأحوال الجسمانية عندكم ومحلها منقسم ، فلزمكم أن تجوزوا قيام الشهوة والغضب بأحد الجزئين وضدهما بالجزء الآخر ، فيكون مشتهياً للشىء نافراً عنه غضبان عليه ، غير غضبان فى وقت واحد .

* * *

فصل

[فى جواب الشبهة الثالثة عشرة]

قولكم فى الثالث عشر : إن المادة الجسمانية إذا حصلت فيها نقوش مخصوصة امتنع فيها حصول مثلها ، والنفوس البشرية بضد ذلك . إلى آخره .

جوابه : أن غاية هذا أن يكون قياساً ممتازاً بغير جامع ، وذلك لا يفيد الظن فضلا عن اليقين ، فإن النقوش العقلية هى العلوم والإدراكات . والنقوش الجسمانية هى الأشكال والصور ، ولا ريب أن العلوم مخالفة بحقائقها للصور والأشكال ولا يلزم من ثبوت حكم فى نوع من أنواع الماهيات ثبوته فيما يخالف ذلك النوع .

* * *

فصل

[فى جواب الشبهة الرابعة عشرة]

قولكم فى الرابع عشر : لو كانت النفس جسماً لكان بين تحريك المحرك رجله وبين إرادته للحركة زمان إلى آخره .

جوابه : أن النفس مع الجسد لا تخلو من ثلاثة أحوال : إما أن تكون لابسة لجميعه من خارج كالثوب . أو تكون فى موضع واحد كالقلب والدماغ . أو تكون سارية فى جميع أجزاء الجسد . وعلى كل تقدير من هذه المقادير فتحريكها لما تريد تحريكه يكون مع إرادتها لذلك بلا زمان ، كإدراك البصر لما يلاقيه ، وإدراك السمع والشم والذوق ، وإذا قطعت العضو لم ينقطع ما كان من جسم النفس متخللاً لذلك العضو سواء كانت لابسة له من داخل أم من خارج ، بل تفارق العضو الذى بطل حسه فى الوقت وتتقلص عنه بلا زمان ، ويكون مفارقتها لذلك العضو كمفارقة الهواء للإناء إذا ملىء ماء ، وأما إن كانت النفس ساكنة فى موضع واحد من البدن لم يلزم أن تبين مع العضو المقطوع . وأما إن كانت لابسة للبدن من خارج لم يلزم أن يكون بين إرادتها لتحريكه ، ونفس التحريك زمان بل يكون فعلها حينئذ فى تحريك الأعضاء كفعل المغناطيس فى الحديد ، وإن لم يلاصقه .

ثم نقول : هذا الهذيان الذى شغلتم به الزمان وارد عليكم بعينه ، فإنها عندكم غير متصلة بالبدن ولا منفصلة عنه ، ولا داخلة فيه ولا خارجة عنه ، فيلزمكم مثل ذلك .

* * *

فصل

[فى ترديد الشبهة الخامسة عشرة]

قولكم فى الخامس عشر : لو كانت جسماً لكانت منقسمة ، ولصح عليها أن تعلم بعضها وتجهل بعضها ، فيكون الإنسان عالماً ببعض نفسه جاهلاً بالبعض الآخر .

جوابه : أن هذه الشبهة مركبة من مقدمتين تلازمية واستثنائية . والمنع واقع فى كلا المقدمتين أو إحداهما ، فلا نسلم أنها لو كانت جسما لصح أن تعلم بعضها وتجهل بعضها ، فإن النفس بسيطة غير مركبة من هذه العناصر ولا من الأجزاء المختلفة ، فمتى شعرت بذاتها شعرت بجهلها ، فهذا منع المقدمة التلازمية . وأما الاستثنائية فلا

نسلم أنها لا يصح أن تعلم بعضها حال غفلتها عن البعض الآخر ، ولم تذكروا على بطلان ذلك شبهة فضلاً عن دليل ومن المعلوم أن الإنسان قد يشعر بنفسه من بعض الوجوه دون كلها ، ويتفاوت الناس فى ذلك ، فمنهم من يكون شعوره بنفسه أتم من غيره بدرجات كثيرة وقد قال تعالى : ﴿ وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُواْ الله فَأَنسَٰهُمْ أنفُسَهُمْ﴾[1] فهؤلاء نسوا نفوسهم لا من جميع الوجوه ، بل من الوجه الذى به صلاحها وكمالها وسعادتها ، وإن لم ينسوها من الوجه الذى منه شهوتها وحظها وإرادتها . فأنساهم مصالح نفوسهم أن يفعلوها ويطلبوها ، وعيوبها ونقائصها أن يزيلوها ويجتنبوها ، وكمالها الذى خلقت له أن يعرفوه ويطلبوه ، فهم جاهلون بحقائق أنفسهم من هذه الوجوه ، وإن كانوا عالمين بها من وجوه أخرى .

❊ ❊ ❊

فصل

[فى ترديد الشبهة السادسة عشرة]

قولكم : فى السادس عشر : لو كانت النفس جسماً لوجب ثقل البدن بدخولها فيه، لأن من شأن الجسم إذا زادت عليه جسماً آخر أن يثقل به .

فهذه شبهة فى غاية الثقالة ، والمحتج بها أثقل وأثقل وليس كل جسم زيد عليه جسم آخر ثقله ، فهذه الخشبة تكون ثقيلة . فإذا زيد عليها جسم النار خفت جداً وهذا الظرف يكون ثقيلاً ؛ فإذا دخله جسم الهواء خف ، وهذا إنما يكون فى الأجسام الثقال التى تطلب المركز والوسط بطبعها وهى تتحرك بالطبع إليه ، وأما الأجسام التى تتحرك بطبعها إلى العلو فلا يعرض لها ذلك ، بل الأمر فيها بالضد من تلك الأجسام الثقال ، بل إذا أضيفت إلى جسم ثقيل أكسبته الخفة ، وقد أخذ هذا المعنى بعضهم فقال :

ثقلت زجـــاجـــات أتينا فرغا ... حتى إذا ملئت بصـــرف الراح

خفت فكادت أن تطير بماحوت ... وكذا الجسوم تخـــف بالأرواح

❊ ❊ ❊

---

(١) الحشر الآية : ١٩ .

فصل

[فى ترديد الشبهة السابعة عشرة]

قولكم فى السابع عشر : لو كانت النفس جسماً لكانت على صفات سائر الأجسام التى لا تخلو منها ، من الخفة والثقل والحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة والنعومة والخشونة إلى آخره .

شبهة فاسدة وحجة داحضة . فإنه لا يجب اشتراك الأجسام فى جميع الكيفيات والصفات ، وقد فاوت الله سبحانه بين صفاتها وكيفياتها وطبائعها ، فمنها ما يرى بالبصر ، ويلمس باليد . ومنها ما لا يرى ولا يلمس ، ومنها ما له لون ، ومنها ما لا لون له ، ومنها ما يقبل الحرارة والبرودة ، ومنها ما لا يقبله على أن للنفس من الكيفيات المختصة بها ما لا يشاركها فيها البدن ولها خفة وثقل وحرارة وبرودة ، ويبس ولين بحسبها ، وأنت تجد الإنسان فى غاية الثقالة وبدنه نحيل جداً ، وتجده فى غاية الخفة وبدنه ثقيل . وتجد نفساً لينة وادعة ونفساً يابسة قاسية ، ومن له حس سليم يشم رائحة بعض النفوس كالجيفة المنتنة ورائحة بعضها أطيب من ريح المسك وقد كان رسول الله ﷺ إذا مر فى طريق بقى أثر رائحته فى الطريق ، ويعرف أنه مر بها . وتلك رائحة نفسه وقلبه ، وكانت رائحة عرقه كأطيب شىء ، وذلك تابع لطيب نفسه وبدنه ، وأخبر وهو أصدق البشر أن الروح عند المفارقة يوجد لها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض ، أو كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض. ولولا الزكام الغالب لشم الحاضرون ذلك ، على أن كثيراً من الناس يجد ذلك وقد أخبر به غير واحد ويكفى فيه خبر الصادق المصدوق ، وكذلك أخبر بأن أرواح المؤمنين مشرقة وأرواح الكفار سود .

وبالجملة فكيفيات النفوس أظهر من أن ينكرها إلا من هو من أجهل الناس بها .

❊ ❊ ❊

فصل

[فى ترديد الشبهة الثامنة عشرة]

قولكم فى الثامن عشر : لو كانت النفس جسماً لوجب أن تقع تحت جميع الحواس أو تحت حاسة منها إلى آخره .

فجوابه : منع اللزوم فإنكم لم تذكروا عليه شبهة فضلاً عن دليل ، ومنع انتفاء اللازم ، فإن الروح تدرك بالحواس ، فتلمس وترى وتشم لها الرائحة الطيبة والخبيثة كما تقدم فى النفوس المستفيضة ، ولكن لا نشاهد نحن ذلك وهذا الدليل لا يمكن ممن يصدق الرسل أن يحتج به ، فإن الملك جسم ، ولا يقع تحت حاسة من حواسنا ، وكذلك الجن والشياطين أجسام لطاف ، لا تقع تحت حاسة من حواسنا والأجسام ، متفاوتة فى ذلك تفاوتاً كثيراً .

فمنها : ما يدرك بأكثر الحواس .

ومنها : ما لا يدرك أكثرها .

ومنها : ما يدرك بحاسة واحدة .

ومنها : ما لا ندركه نحن فى الغالب ، وإن أدرك فى بعض الأحوال لكونه لم يخلق لنا إدراكه ، أو لمانع من إدراكه أو للطفه عن إدراك حواسنا ، فما عدم اللون من الأجسام ولم يدرك بالبصر ، كالهواء والنار فى عنصرها ، وما عدم الرائحة لم يدرك بالشم كالنار والحصا والزجاج ، وما عدم المحسة لم يدرك باللمس كالهواء الساكن . وأيضاً فالروح هى المدركة لمدارك هذه الحواس بواسطة آلاتها فالنفس هى الحاسة المدركه، وإن لم تكن محسوسة ، فالأجسام والأعراض محسوسة والنفس محسة بها وهى القابلة لأعراضها المتعاقبة عليها من الفضائل والرذائل ، كقبول الأجرام لأعراضها المتعاقبة عليها وهى المتحركة باختيارها المحركة للبدن قسراً وقهراً ، وهى مؤثر فى البدن متأثرة به تألم وتلذ وتفرح وتحزن وترضى وتغضب وتنعم ، وتيأس وتحب ، وتكره وتذكر وتنسى وتصعد ، وتنزل وتعرف وتنكر وآثارها من أدل الدلائل على وجودها . كما أن آثار الخالق سبحانه دالة على وجوده وعلى كماله ، فإن دلالة الأثر على مؤثره ضرورية ، وتأثيرات النفوس بعضها فى بعض أمر لا ينكره ذو حس سليم، ولا عقل مستقيم . ولا سيما عند تجردها نوع تجرد عن العلائق والعوائق البدنية ، فإن قواها تتضاعف وتتزايد بحسب ذلك ، ولا سيما عند مخالفة هواها وحملها على الأخلاق العالية من العفة والشجاعة والعدل والسخاء ، وتجنبها سفساف الأخلاق ورذائلها وسافلها ، فإن تأثيرها فى العالم يقوى جداً تأثيراً يعجز عنه البدن وأعراضه أن تنظر إلى حجر عظيم فتشقه أو حيوان كبير فتتلفه أو إلى نعمة فتزيلها ، وهذا أمر قد شاهدته الأمم على اختلاف أجناسها وأديانها ، وهو الذى سمى إصابة العين فيضيفون

الأثر إلى العين ؛ وليس لها فى الحقيقة وإنما للنفس المتكيفة بكيفية رذية سمية ؛ وقد تكون بواسطة نظر العين وقد لا تكون ؛ بل يوصف له الشىء من بعيد ؛ فتتكيف عليه نفسه بتلك الكيفيه فتفسده .

وأنت ترى تأثير النفس فى الأجسام صفرة وحمرة وارتعاشاً بمجرد مقابلتها لها وقوتها ؛ وإضعافها آثار خارجة عن تأثير البدن وأعراضه ؛ فإن البدن لا يؤثر إلا فيما لاقاه وماسه تأثيراً مخصوصاً ؛ ولم تزل الأمم تشهد تأثير الهمم الفعالة فى العالم ؛ وتستعين بها وتحذر أثرها ، وقد أمر رسول الله ﷺ أن يغسل العائن [١] مغابنه ومواضع القذر منه [٢] ، ثم يصب ذلك الماء على المعين ، فإنه يزيل عنه تأثير نفسه فيه ؛ وذلك بسبب أمر طبعى اقتضته حكمة الله سبحانه ؛ فإن النفس الأمارة لها بهذه المواضع تعلق وإلف ؛ والأرواح الخبيثة تساعدها وتألف هذه المواضع غالباً للمناسبة بينها وبينها؛ فإذا غسلت بالماء أطفأ تلك النارية منها كما يطفأ الحديد المحمى بالماء ؛ فإذا صب ذلك الماء على المصاب أطفأ عنه تلك النارية التى وصلت إليه من العائن ؛ وقد وصف الأطباء الماء الذى يطفأ فيه الحديد لآلام وأوجاع معروفة ؛ وقد جرب الناس من تأثير الأرواح بعضها فى بعض عند تجردها فى المنام عجائب تفوت الحصر ؛ وقد نبهنا على بعضها فيما مضى ، فعالم الأرواح عالم آخر أعظم من عالم الأبدان ، وأحكامه وآثاره أعجب من آثار الأبدان ؛ بل كل ما فى العالم من الآثار الإنسانية فإنما هى من تأثير النفوس بواسطة البدن ، فالنفوس والأبدان يتعاونان على التأثير تعاون المشتركين فى الفعل ، وتنفرد النفس بآثار لا يشاركها فيها البدن ، ولا يكون للبدن تأثير لا تشاركه فيه النفس .

❊ ❊ ❊

فصل

[فى ترديد الشبهة التاسعة عشرة]

قولكم فى التاسع عشر : لو كانت النفس جسماً لكانت ذات طول وعرض وعمق وشكل وسطح ، وهذه المقادير لا تقوم إلا بمادة إلى آخره .

---

(١) العائن : الذى يصيب الآخرين بعينه ، والمعين : هو المصاب .

(٢) الذى ورد فى سنن أبى داود من حديث عائشة قالت : كان يؤمر للعائن فيتوضأ ثم يغسل منه المعين . انظر كتاب الطب ٨/٤ (٣٨٨٠) . وانظر الفتح ٢٠١/١٠ .

جوابه : أنا نقول : قولكم هذه المقادير إلا بمادة . قلنا : وكان ماذا والنفس لها مادة خلقت منها وجعلت على شكل معين وصورة معينة .

قولكم : مادتها إن كانت نفساً لزم اجتماع نفسين ، وإن كانت غير نفس كانت مركبة من بدن وصورة .

قلنا : مادتها ليست نفساً ، كما أن مادة الإنسان ليست إنساناً ومادة الجن ليست جناً ، ومادة الحيوان ليست حيواناً .

قولكم : يلزم كون النفس مركبة من بدن وصورة مقدمة كاذبة ، وإنما يلزم كون النفس مخلوقة من مادة ولها صورة معينة . وهكذا نقول سواء ولم تذكروا على بطلان هذا شبهة فضلاً عن حجة ظنية أو قطعية .

* * *

فصل

[فى ترديد الشبهة العشرين]

قولكم فى الوجه العشرين : إن خاصة الجسم أن يقبل التجزىء وأن الجزء الصغير منه ليس كالكبير ، فلو قبلت التجزىء فكل جزء منها إن كان نفساً لزم أن يكون للإنسان نفوس كثيرة وإن لم يكن نفسا لم يكن المجموع نفساً .

جوابه : إن أردتم أن كل جسم يقبل التجزىء فى الخارج فكذب ظاهر ، فإن الشمس والقمر والكواكب لا تقبل ذلك ، ولا يلزم أن كل جسم يصح عليه التجزىء والتبعيض فى الخارج ، وأما على قول نفاة الجوهر الفرد فظاهر ، وأما على قول مثبتيه فإنه عندهم جوهر متحيز لا يصح عليه قبول الانقسام ، سلمنا أنها تقبل الانقسام ، فأى شىء يلزم من ذلك ؟

قولكم : إن كان كل جزء من تلك الأجزاء نفساً لزم اجتماع نفوس كثيرة فى الإنسان .

قلنا : إنما يلزم ذلك لو انقسمت النفس بالفعل إلى نفوس كثيرة ، وهذا محال .

قولكم : وإن لم يكن كل جزء نفساً لم يكن المجموع نفساً ، مقدمة كاذبة منتقضة. فكل ماهية ثبت لها حكم عند اجتماع أجزائها ، فإن ذلك الحكم لا يثبت لكل جزء من تلك الأجزاء ، كماهية البيت والإنسان والعشرة وغيرها .

فصل

[فى ترديد الشبهة الحادية والعشرين]

قولكم فى الوجه الحادى والعشرين : إن الجسم يحتاج فى قوامه وبقائه وحفظه إلى نفس أخرى ويلزم التسلسل .

جوابه : أنه يلزم من افتقار البدن إلى نفس تحفظه افتقار النفس إلى نفس تحفظها وهل ذلك إلا بمجرد دعوى كاذبة مستندة إلى قياس ، وقد تبين بطلانه فإن كل جسم لا يصير إلى نفس تحفظه كأجسام المعادن ، وجسم الهواء والماء ، والنار ، والتراب وأجسام سائر الجمادات .

فإن قلتم : إن هذه ليست أحياء ناطقة بخلاف النفس فإنها حية ناطقة .

قلنا : فحينئذ يبقى الدليل هكذا أن كل جسم حى ناطق يحتاج فى حفظه وقيامه إلى نفس تقوم به . وهذه دعوى مجردة وهى كاذبة ، فإن الجن والملائكة أحياء ناطقون وليسوا مفتقرين فى قيامهم إلى أرواح أخر تقوم بهم .

فإن قلتم : وكلامنا معكم فى الجن والملائكة فإنهم ليسوا بأجسام متحيزة .

[تكفير منكرى الجن والملائكة]

قلنا : الكلام مع من يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وأما من كفر بذلك ، فالكلام معه فى النفس ضائع ، وقد كفر بفاطر النفس ومبدعها وملائكته وما جاءت به رسله ، وكان تاركاً ما دل عليه العيان مع دليل الإيمان ، فإن الآثار المشهودة فى العالم من تأثيرات الملائكة والجن بإذن ربهم ، لا يمكن إنكارها ولا هى موجودة بنفسها ولا تقدر عليها القوى البشرية .

❊ ❊ ❊

فصل

[فى ترديد الشبهة الثانية والعشرين]

قولكم فى الثانى والعشرين : لو كانت جسماً لكن إيصالها بالبدن إن كان على سبيل المداخلة لزم تداخل الأجسام ، وإن كان على سبيل الملاصقة والمجاورة كان للإنسان الواحد جسمان متلاصقان ، أحدهما يرى ، والآخر لا يرى .

وجوابه : من وجوه :

أحدهما : أن تداخل الأجسام المحال أن يتداخل جسمان كثيفان أحدهما فى الآخر بحيث يكون حيزهما واحداً ، وأما أن يدخل جسم لطيف كثيف يسرى فيه فهذا ليس بمحال .

[دخول الجن فى المصروع]

الثانى : أن هذا باطل بصورة كثيرة منها : دخول الماء فى العود والسحاب ، ودخول النار فى الحديد ، ودخول الغذاء فى جميع أجزاء البدن ، ودخول الجن فى المصروع ، فالروح للطافتها لا يمتنع عليها مشابكة البدن والدخول فى جميع أجزائه .

الثالث : أن حيز النفس البدن وحيزه مكانه المنفصل عنه ، وهذا ليس بتداخل ممتنع ، فإذا فارقته صار لها حيز آخر غير حيزه ، وحينئذ فلا يتداخلان ؛ بل يصير لكل منهما حيز يخصه ، وبالجملة فدخول الروح فى البدن ألطف من دخول الماء فى الثرى والدهن فى البدن ، فهذه الشبهة الفاسدة لا يعارض بها ما دل عليها نصوص الوحى والأدلة العقلية . وباللّه التوفيق .

فصل

[المسألة العشرون]

وأما المسألة العشرون : وهى هل النفس والروح شىء واحد أو شيئان متغايران ؟

فاختلف الناس فى ذلك . فمن قائل : مسماهما واحد وهم الجمهور ، ومن قائل : إنهما متغايران ، ونحن نكشف سر المسألة بحول الله وقوته ، فنقول : النفس تطلق على أمور :

أحدها : الروح . قال الجوهرى : النفس الروح ، يقال : خرجت نفسه قال أبو خراش:

نجا سالما والنفس منه بشدقه ولم ينج إلا جفن سيف ومئزر

أى بجفن سيف ومئزر ، والنفس الدم ، يقال : سالت نفسه ، وفى الحديث « يا سلمان : أيما طعام أو شراب ماتت فيه دابة ليست لها نفس سائلة فهو الحلال أكله وشربه ووضوءه » .

والنفس الحسد ، قال الشاعر :

نبئت أن بنى تميم أدخلوا   أبناءهم تامور نفس المنذر

والتامور الدم . والنفس العين ، يقال : أصابت فلانا نفس أى عين .

قلت : ليس كما قال : بل النفس هاهنا الروح ، ونسبة الإضافة إلى العين توسع لأنها تكون بواسطة النظر المصيب ، والذى أصابه إنما هو نفس العائن كما تقدم .

قلت : والنفس فى القرآن تطلق على الذات بجملتها . كقوله تعالى : ﴿ فَسَلِّمُواْ عَلَى أَنفُسِكُمْ ﴾ (1) ، وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ (2) وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَفْسِهَا ﴾ (3) ، وقوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾(4) ، وتطلق على الروح وحدها كقوله تعالى : ﴿ يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ (5) وقوله تعالى : ﴿ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ ﴾ (6) وقوله تعالى : ﴿ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴾ (7) وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ (8) وأما الروح فلا تطلق على البدن لا بانفراده ولا مع النفس . وتطلق الروح على القرآن الذى أوحاه الله إلى رسوله قال تعالى : ﴿ وكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾(9) وعلى الوحى الذى يوحيه إلى أنبيائه ورسله قال تعالى: ﴿ يُلْقِى الرُّوحَ مِن أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاَقِ ﴾ (10) وقال تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُواْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَاْ فَاتَّقُونِ ﴾ (11) وسمى ذلك روحاً لما يحصل به من الحياة النافعة ، فإن الحياة بدونه لا تنفع صاحبها ألبته ؛ بل حياة الحيوان البهيم خير منها وأسلم عاقبة . وسميت الروح روحاً لأن بها حياة البدن ، وكذلك سميت الريح لما يحصل بها من الحياة ، وهى من ذوات الواو ، ولهذا تجمع على أرواح ، قال الشاعر :

إذا هبت الأرواح من نحو أرضكم   وجدت لمسراها على كبدى بردا

(1) النور الآية : 61 .   (2) النساء الآية : 29 .   (3) النحل الآية : 111 .
(4) المدثر الآية : 38 .   (5) الفجر الآية : 27 .   (6) الأنعام الآية : 93 .
(7) النازعات الآية : 40 .   (8) يوسف الآية : 53 .   (9) الشورى الآية : 52 .
(10) غافر الآية : 15 .   (11) النحل الآية : 2 .

[وجه تسمية الروح والنفس والفرق بينهما]

ومنها الروح والريحان والاستراحة ، فسميت النفس روحاً لحصول الحياة بها ، وسميت نفساً ، إما من الشيء النفيس لنفاستها وشرفها ، وإما من تنفس الشيء إذا خرج ، فلكثرة خروجها ودخولها فى البدن سميت نفساً ، ومنه : النفس بالتحريك، فإن العبد كلما نام خرجت منه فإذا استيقظ رجعت إليه ، فإذا مات خرجت خروجاً كلياً ، فإذا دفن عادت إليه ، فإذا سئل خرجت ، فإذا بعث رجعت إليه ، فالفرق بين النفس ، والروح فرق بالصفات لا فرق بالذات ، وإنما سمى الدم نفساً لأن خروجه الذى يكون معه الموت يلازم خروج النفس ، وأن الحياة لا تتم إلا به كما لا يتم إلا بالنفس فلهذا قال :

تسيل على خد الظباة نفوسنا   وليست على غير الظباة تسيل

ويقال : فاضت نفسه وخرجت نفسه وفارقت نفسه ، كما يقال : خرجت روحه وفارقت . ولكن الفيض : الاندفاع وهلة واحدة ، ومنه الإضافة وهى الاندفاع بكثرة وسرعة ، ولكن أفاض إذا دفع باختياره وإرادته ، وفاض إذا اندفع قسراً وقهراً ، فاللَّه سبحانه هو الذى يفيضها عند الموت فتفيض هى .

* * *

فصل

[فى أن الروح غير النفس]

وقالت فرقة أخرى من أهل الحديث والفقه والتصوف : الروح غير النفس ، قال مقاتل بن سليمان : للإنسان حياة وروح ونفس ، فإذا نام خرجت نفسه التى يعقل بها الأشياء ، ولم تفارق الجسد ، بل تخرج كحبل ممتد له شعاع . فيرى الرؤيا بالنفس التى خرجت منه وتبقى الحياة والروح فى الجسد فيه يتقلب ويتنفس ، فإذا حرك رجعت إليه أسرع من طرفة عين ، فإذا أراد الله عز وجل أن يميته فى المنام أمسك تلك النفس التى خرجت .

وقال أيضاً : إذا نام خرجت نفسه فصعدت إلى فوق فإذا رأت الرؤيا رجعت فأخبرت الروح ، ويخبر الروح القلب . فيصبح يعلم أنه قد رأى كيت وكيت .

قال أبو عبد الله بن منده : ثم اختلفوا فى معرفة الروح والنفس ، فقال بعضهم : النفس طينية نارية ، والروح نورية روحانية .

وقال بعضهم : الروح لاهوتية (١) والنفس ناسوتية (٢) ، وأن الخلق بها ابتلى .

وقالت طائفة ، وهم أهل الأثر : إن الروح غير النفس ، والنفس غير الروح ، وقوام النفس بالروح . والنفس صورة العبد ، والهوى والشهوة والبلاء معجون فيها ولا عدو أعدى لابن آدم من نفسه ، فالنفس لا تريد إلا الدنيا ، ولا تحب إلا إياها والروح تدعو إلى الآخرة ، وتؤثرها . وجعل الهوى تبعاً للنفس ؛ والشيطان تبع النفس ؛ والهوى والملك مع العقل والروح . واللَّه تعالى يمدهما بإلهامه وتوفيقه .

وقال بعضهم : الأرواح من أمر اللَّه أخفى حقيقتها وعلمها على الخلق .

وقال بعضهم : الأرواح نور من نور اللَّه وحياة من حياة اللَّه . ثم اختلفوا فى الأرواح هل تموت بموت الأبدان والأنفس أو لا تموت .

فقالت طائفة : الأرواح لا تموت ولا تبلى .

وقال جماعة : الأرواح على صور الخلق ، لها أيد وأرجل وأعين ، وسمع وبصر ولسان .

وقالت طائفة : للمؤمن ثلاثة أرواح ، وللمنافق والكافر روح واحدة .

وقال بعضهم : للأنبياء والصديقين خمس أرواح .

وقال بعضهم : الأرواح روحانية خلقت من الملكوت فإذا صفت رجعت إلى الملكوت .

قلت : أما الروح التى تتوفى وتقبض فهى روح واحدة ، وهى النفس . وأما ما يؤيد الله به أولياءه من الروح فهى روح أخرى غير هذه الروح ، كما قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الإِيمَنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ ﴾ وكذلك الروح الذى أيد بها روحه المسيح ابن مريم كما قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَى وَلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ وكذلك الروح التى يلقيها على من يشاء من

(١) لاهوتية : مصطلح نصرانى يعنى الألوهية ، نسبة إلى اللاهوت .
(٢) الناسوت : نسبة إلى الإنسان .

عباده هى غير الروح التى فى البدن ، وأما القوى التى فى البدن فإنها تسمى أيضاً أرواحاً ، فيقال : الروح الباصر ، والروح السامع ، والروح الشام ، فهذه الأرواح قوى مودعة فى الأبدان تموت بموت الأبدان ، وهى غير الروح التى لا تموت بموت البدن ، ولا تبلى كما يبلى ويطلق الروح على أخص من هذا كله ، وهو قوة المعرفة باللّه والإنابة إليه ، ومحبته ، وانبعاث الهمة إلى طلبه ، وإرادته ، ونسبة هذه إلى الروح كنسبة الروح إلى البدن ، فإذا فقدتها الروح كانت بمنزلة البدن إذا فقد روحه ، وهى الروح التى يؤيد بها أهل ولايته وطاعته ، ولهذا يقول الناس : فلان فيه روح ، وفلان ما فيه روح ، وهوبوٌ وهو قصبة فارغة ، ونحو ذلك ، فللعلم روح ، وللإحسان روح وللإخلاص روح ، وللمحبة والإنابة روح ، وللتوكل وللصدق روح ، والناس متفاوتون فى هذه الأرواح أعظم تفاوت ، فمنهم من تغلب عليه هذه الأرواح فيصير روحانياً ، ومنهم من يفقدها أو أكثرها فيصير أرضيا بهيمياً . واللّه المستعان .

* * *

فصل

[المسألة الحادية والعشرون]

وأما المسألة الحادية والعشرون وهى : هل النفس واحدة أم ثلاث ؟

فقد وقع كلام كثير من الناس أن لابن آدم ثلاث أنفس : نفس مطمئنة ، ونفس لوامة ، ونفس أمارة . وأن منهم من تغلب عليه هذه ، ومنهم من تغلب عليه الأخرى ويحتجون على ذلك بقوله تعالى : ﴿ يَأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ (١) وبقوله تعالى: ﴿ لا أقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ * وَلاَ أقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ (٢) وبقوله تعالى : ﴿إنَّ النَّفْسَ لأمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ (٢) .

والتحقيق أنها نفس واحدة ولكن لها صفات فتسمى باعتبار كل صفة باسم ، فتسمى مطمئنة باعتبار طمأنينتها إلى ربها بعبوديته ومحبته والإنابة إليه والتوكل عليه والرضى به والسكون إليه ، فإن سمة محبته وخوفه ورجائه منها قطع النظر عن محبة غيره وخوفه ورجائه ، فيستغنى بمحبته عن حب ما سواه ، وبذكره عن ذكر ما سواه ، وبالشوق إليه وإلى لقائه عن الشوق إلى ما سواه ، فالطمأنينة إلى الله سبحانه حقيقة

---

(١) الفجر الآية : ٢٧ . (٢) القيامة الآية : ١ ، ٢ .

ترد منه سبحانه على قلب عبده تجمعه عليه وترد قلبه الشارد إليه ، حتى كأنه جالس بين يديه يسمع به ويبصر به ، ويتحرك به ويبطش به فتسرى تلك الطمأنينة فى نفسه وقلبه ومفاصله وقواه الظاهرة والباطنة تجذب روحه إلى الله ويلين جلده وقلبه ومفاصله إلى خدمته والتقرب إليه ، ولا يمكن حصول الطمأنينة الحقيقية إلا باللَّه وبذكره وهو كلامه ، الذى أنزله على رسوله ، كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ ءامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ألاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [1] فإن طمأنينة القلب سكونه واستقراره بزوال القلق والانزعاج والاضطراب عنه ، وهذا لا يتأتى بشىء سوى الله تعالى ، وذكره ألبتة ، وأما ما عداه فالطمأنينة إليه وبه غرور والثقة به عجز ، قضى الله سبحانه وتعالى قضاء لا مرد له ، أن من اطمأن إلى شىء سواه أتاه القلق والانزعاج والاضطراب من جهته ، كائنا من كان . بل لو اطمأن العبد إلى علمه وحاله وعمله سلبه وزايله ، وقد جعل سبحانه نفوس المطمئنين إلى سواه أغراضا لسهام البلاء، ليعلم عباده وأولياءه أن المتعلق بغيره مقطوع ، والمطمئن إلى سواه عن مصالحه ومقاصده مصدود وممنوع ، وحقيقة الطمأنينة التى تصير بها النفس مطمئنة أن تطمئن فى باب معرفة أسمائه وصفاته ونعوت كماله إلى خبره الذى أخبر به عن نفسه، وأخبرت به عنه رسله . فتتلقاه بالقبول والتسليم والإذعان وانشراح الصدر له ، وفرح القلب به ، فإنه معرف من معرفات الرب سبحانه إلى عبده على لسان رسوله ، فلا يزال القلب فى أعظم القلق والاضطراب فى هذا الباب ، حتى يخالط الإيمان بأسماء الرب تعالى وصفاته وتوحيده وعلوه على عرشه ، وتكلمه بالوحى بشاشة قلبه فينزل ذلك عليه نزول الماء الزلال على القلب الملتهب بالعطش فيطمئن إليه ويسكن إليه ، ويفرح به ويلين له قلبه ومفاصله ، حتى كأنه شاهد الأمر كما أخبرت به الرسل ، بل يصير ذلك لقلبه بمنزلة رؤية الشمس فى الظهيرة لعينه ، فلو خالفه فى ذلك من بين شرق الأرض وغربها ، لم يلتفت إلى خلافهم ، وقال إذا استوحش من الغربة : قد كان الصديق الأكبر مطمئناً بالإيمان وحده وجميع أهل الأرض يخالفه ، وما نقص ذلك من طمأنينته شيئاً .

فهذا أول درجات الطمأنينة ثم لا يزال يقوى كلما سمع بآية متضمنة لصفة من صفات ربه ، وهذا أمر لا نهاية له ، فهذه الطمأنينة أصل أصول الإيمان التى قام عليها

---

(١) الرعد الآية : ٢٨ .

بناؤه ، ثم يطمئن إلى خبره عما بعد الموت من أمور البرزخ ، وما بعدها من أحوال القيامة ، حتى كأنه يشاهد ذلك كله عيانا ، وهذه حقيقة اليقين الذى وصف به سبحانه وتعالى أهل الإيمان حيث قال : ﴿ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (١) فلا يحصل الإيمان بالآخرة حتى يطمئن القلب إلى ما أخبر الله سبحانه به عنها طمأنينته إلى الأمور التى لا يشك فيها ولا يرتاب ، فهذا هو المؤمن حقاً باليوم الآخر ؛ كما فى حديث حارثة : « أصبحت مؤمنا حقاً ؛ فقال رسول الله ﷺ : « إن لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ قال : عزفت نفسى عن الدنيا وأهلها وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزاً وإلى أهل الجنة يتزاورون فيها وأهل النار يعذبون فيها . فقال : عبد نور الله قلبه » (٢) .

* * *

فصل

[الطمأنينة إلى أسماء الرب تعالى وصفاته نوعان]

والطمأنينة إلى أسماء الرب تعالى وصفاته نوعان : طمأنينة إلى الإيمان بها وإثباتها واعتقادها . وطمأنينة إلى ما تقضيه وتوجبه من آثار العبودية . مثاله الطمأنينة إلى القدر وإثباته والإيمان به يقتضى الطمأنينة إلى مواضع الأقدار التى لم يؤمر العبد بدفعها ، ولا قدرة له على دفعها ، فيسلم لها ويرضى بها ، ولا يسخط ولا يشكو ، ولا يضطرب إيمانه ، فلا يأسى على ما فاته ولا يفرح بما أتاه لأن المصيبة فيه مقدرة ، قبل أن تصل إليه وقبل أن يخلق كما قال تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى الأَرْضِ وَلاَ فِى أَنفُسِكُمْ إلا فِى كِتَبٍ مِّن قَبْلِ أن نَّبْرَأَهَا إنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلاَ تَأْسَوْاْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَكُمْ ﴾ (٣) وقال تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إلا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ (٤) .

قال غير واحد من السلف : هو العبد تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم . فهذه طمأنينة إلى أحكام الصفات وموجباتها وآثارها فى العالم ، وهى قدر

---

(١) البقرة الآية : ٤ .

(٢) أخرجه ابن أبى شيبة ١١/٤٣ ، وفى إتحاف السادة المتقين ٩/٣٢٧ . والحديث فى كنز العمال جـ ١٣ رقم (٣٦٩٩٠) .

(٣) الحديد الآية : ٢١ ، ٢٢ .

(٤) التغابن الآية : ١١ .

زائد على الطمأنينة بمجرد العلم بها واعتقادها ، وكذلك سائر الصفات وآثارها ومتعلقاتها كالسمع والبصر والعلم والرضا والغضب والمحبة ، فهذه طمأنينة الإيمان .

وأما طمأنينة الإحساس فهى الطمأنينة إلى أمره امتثالا وإخلاصاً ونصحاً ، فلا يقدم على أمره إرادة ولا هوى ولا تقليداً ، فلا يساكن شبهة تعارض خبره ولا شهوة تعارض أمره ، بل إذا مرت به أنزلها منزلة الوساوس التى لئن يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يجدها ، فهذا كما قال النبى ﷺ : صريح الإيمان . وعلامة هذه الطمأنينة أن يطمئن من قلق المعصية وانزعاجها إلى سكون التوبة وحلاوتها وفرحتها ، ويسهل عليه ذلك بأن يعلم أن اللذة والحلاوة والفرحة فى الظفر بالتوبة ، وهذا أمر لا يعرفه إلا من ذاق الأمرين ، وباشر قبله آثارهما ، فللتوبة طمأنينة تقابل ما فى المعصية من الانزعاج والقلق ، ولو فتش العاصى عن قلبه لوجد حشوه المخاوف والانزعاج والقلق والاضطراب ، وإنما يوارى عنه شهود ذلك سكر الغفلة والشهوة .

فإن لكل شهوة سكراً يزيد على سكر الخمر ، وكذلك الغضب له سكر أعظم من سكر الشراب ، ولهذا ترى العاشق والغضبان يفعل مالا يفعله شارب الخمر ، وكذلك يظهر من قلق الغفلة والإعراض إلى سكون الإقبال على الله وحلاوة ذكره ، وتعلق الروح بحبه ومعرفته فلا طمأنينة للروح بدون هذا أبدا ، ولو أنصفت نفسها لرأتها إذا فقدت ذلك فى غاية الانزعاج والقلق والاضطراب ولكن يواريها السكر ، فإذا كشف الغطاء تبين له حقيقة ما كان فيه .

* * *

فصل

[جعل الله سبحانه لكل عضو من أعضاء الإنسان كمالا]

وهاهنا سر لطيف ، يجب التنبيه عليه ، والتنبيه له والتوفيق له بيد من أزمَّة التوفيق بيده ، وهو أن الله سبحانه جعل لكل عضو من أعضاء الإنسان كمالا إن لم يحصل له ، فهو فى قلق واضطراب وانزعاج بسبب فقد كماله الذى جعل له مثاله كمال العين بالإبصار ، وكمال الأذن بالسمع . وكمال اللسان بالنطق ، فإذا عدمت هذه الأعضاء القوى التى بها كمالها حصل الألم والنقص بحسب فوات ذلك وجعل كمال القلب ونعيمه وسروره ولذته وابتهاجه فى معرفته سبحانه وإرادته ومحبته

والإنابة إليه والإقبال عليه والشوق إليه ، والأنس به ، فإذا عدم القلب ذلك كان أشد عذابا واضطرابا من العين التى فقدت النور الباصر ، ومن اللسان الذى فقد قوة الكلام والذوق ، ولا سبيل له إلى الطمأنينة بوجه من الوجوه ، ولو نال من الدنيا وأسبابها ومن العلوم ما نال ، إلا بأن يكون الله وحده هو محبوبه وإلهه ومعبوده وغاية مطلوبه ، وأن يكون هو وحده مستعانه على تحصيل ذلك ، فحقيقة الأمر أنه لا طمأنينة له بدون التحقيق بإياك نعبد وإياك نستعين وأقوال المفسرين فى الطمأنينة ترجع إلى ذلك .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : المطمئنة المصدقة .

وقال قتادة : هو المؤمن اطمأنت نفسه إلى ما وعد الله .

وقال الحسن : المصدقة بما قال الله تعالى .

وقال مجاهد : هى النفس التى أيقنت بأن الله ربها المسلمة لأمره فيما هو فاعل بها .

وروى منصور عنه قال : النفس التى أيقنت أن الله ربها وضربت جأشا [1] لأمره وطاعته .

وقال ابن أبى نجيح عنه : النفس المطمئنة المخبتة [2] إلى الله . وقال أيضا : هى التى أيقنت بلقاء الله .

فكلام السلف فى المطمئنة يدور على هذين الأصلين طمأنينة العلم والإيمان وطمأنينة الإرادة والعمل .

* * *

فصل

[مباشرة الروح الطمأنينة]

فإذا اطمأنت من الشك إلى اليقين ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن الغفلة إلى

---

(١) الجأش : النفس أو القلب ، يقال : هو رابط الجأش : أى ثابت عند الشدائد ، وضربت نفسه جاشاً أى أقبلت على الله طاعة وحباً .

(٢) المخبتة : الخاشعة المستكينة .

الذكر ، ومن الخيانة إلى التوبة ، ومن الرياء إلى الإخلاص ، ومن الكذب إلى الصدق ، ومن العجز إلى الكيس ، ومن صولة العجب إلى ذلة الإخبات ومن التيه إلى التواضع ، ومن الفتور إلى العمل ، فقد باشرت روح الطمأنينة ، وأصل ذلك كله ومنشؤه من اليقظة فهى أول مفاتيح الخير ، فإن الغافل عن الاستعداد للقاء ربه والتزود لمعاده ، بمنزلة النائم بل أسوأ حالا منه ، فإن العاقل يعلم وعد الله ووعيده وما تتقاضاه أوامر الرب تعالى ونواهيه وأحكامه من الحقوق ، لكن يحجبه عن حقيقة الإدراك ويقعده عن الاستدراك سنة القلب ، وهى غفلته التى رقد فيها فطال رقوده وركد وأخلد إلى نوازع الشهوات ، فاشتد إخلاده وركوده وانغمس فى غمار الشهوات، واستولت عليه العادات ومخالطة أهل البطالات ، ورضى بالتشبه بأهل إضاعة الأوقات، فهو فى رقاده مع النائمين ، وفى سكرته مع المخمورين ، فمتى انكشف عن قلبه سنة هذه الغفلة بزجرة من زواجر الحق فى قلبه استجاب فيها لواعظ الله فى قلب عبده المؤمن أو همة عليه أثارها معول الفكر فى المحل القابل ، فضرب بمعول فكره وكبر تكبيرة أضاءت له منها قصور الجنة فقال :

ألا يا نفس ويحك ساعدينى   بسعى منك فى ظلـــم الليالى

لعلك فى القيامــة أن تفوزى   بطيب العيش فى تلك العلالى

فأثارت تلك الفكرة نوراً رأى فى ضوئه ما خلق له ، وما سيلقاه بين يديه من حين الموت إلى دخول دار القرار ، ورأى سرعة انقضاء الدنيا وعدم وفائها لبنيها ، وقتلها لعشاقها ، وفعلها بهم أنواع الثلاث فنهض فى ذلك الضوء على ساق عزمه قائلاً : ﴿يا حسرتى على ما فرطت فى جنب الله ﴾ . فاستقبل بقية عمره التى لا قيمة لها مستدركاً بها ما فات محييا بها ما أمات ، مستقيلا بها ما تقدم له من العثرات ، منتهزاً فرصة الإمكان التى إن فاتت فاته جميع الخيرات ، ثم يلحظ فى نور تلك اليقظة وفور نعمة ربه عليه من حين استقر فى الرحم إلى وقته ، وهو يتقلب فيها ظاهراً وباطناً ليلاً ونهاراً ، ويقظة ومناماً ، سراً وعلانية ، فلو اجتهد فى إحصاء أنواعها لما قدر . ويكفى أن أدناها نعمة النفس ولله عليه فى كل يوم أربعة وعشرون ألف نعمة ، فما ظنك بغيرها . ثم يرى فى ضوء ذلك النور أنه آيس من حصرها وإحصائها عاجز عن أداء حقها ، وأن المنعم بها إن طالبه بحقوقها استوعب جميع أعماله حق نعمة واحدة منها ، فيتيقن حينئذ أنه لا مطمع له فى النجاة إلا بعفو الله

ورحمته وفضله ، ثم يرى فى ضوء تلك اليقظة أنه لو عمل أعمال الثقلين من البر لاحتقرها بالنسبة إلى جنب عظمة الرب تعالى ، وما يستحقه بجلال وجهه وعظم سلطانه هذا لو كانت أعماله منه ، فكيف وهى مجرد فضل الله ومنته وإحسانه ، حيث يسرها له وأعانه عليها ، وهيأه لها وشاءها منه وكونها ، ولو لم يفعل ذلك لم يكن له سبيل إليها ، فحينئذ لا يرى أعماله منه . وأن الله سبحانه لن يقبل عملا يراه صاحبه من نفسه حتى يرى عين توفيق الله له وفضله عليه ومنته . وأنه من الله لا من نفسه ، وأنه ليس له من نفسه إلا الشر وأسبابه ، وما به من نعمة فمن الله وحده صدقة تصدق بها عليه وفضلا منه ساقه إليه ، من غير أن يستحقه بسبب ويستأهله بوسيلة ، فيرى ربه ووليه ومعبوده أهلا لكل خير ، ويرى نفسه أهلا لكل شر ، وهذا أساس جميع الأعمال الصالحة الظاهرة والباطنة ، وهو الذي يرفعها ويجعلها فى ديوان أصحاب اليمين ، ثم تبرق له فى نور تلك اليقظة بارقة أخرى يرى فى ضوئها عيوب نفسه وآفات عمله ، وما تقدم له من الجنايات والإساءات وهتك الحرمات ، والتقاعد عن كثير من الحقوق والواجبات ، فإذا انضم ذلك إلى شهود نعم الله عليه وأياديه لديه ، رأى أن حق المنعم عليه فى نعمه وأوامره لم يبق له حسنة واحدة يرفع بها رأسه ، فيطمئن قلبه ، وانكسرت نفسه وخشعت جوارحه ، وسار إلى الله ناكس الرأس بين مشاهدة نعمه ومطالعة جناياته وعيوب نفسه ، وآفات عمله ، قائلاً : أبوء لك بنعمتك على وأبوء لك بذنبى فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت [(1)] ، فلا يرى لنفسه حسنة ولا يراها أهلا لخير فيوجب له أمرين عظيمين :

أحدهما : استكثار ما منَّ الله عليه .

والثانى : استقلال ما منه من الطاعة كائنة ما كانت ، ثم تبرق له بارقة أخرى يرى فى ضوئها عزة وقته وخطره وشرفه ، وأنه رأس مال سعادته ، فيبخل به أن يضيعه فيما لا يقربه إلى ربه ، فإن فى إضاعته الخسران والحسرة والندامة وفى حفظه وعمارته الربح والسعادة ، فيشح بأنفاسه أن يضيعها فيما لا ينفعه يوم معاده .

---

(١) جزء من دعاء سيد الاستغفار والذى أخرجه بطوله البخارى فى الدعوات ١١/ ١٣٤ (٦٣٢٣) . وأحمد فى المسند : ٤/ ١٢٢ .

فصل

[المحاسبة والمراقبة]

ثم يلحظ فى ضوء تلك البارقة ما تقتضيه يقظته من سنة غفلته من التوبة والمحاسبة والمراقبة والغيرة لربه ، أن يؤثر عليه غيره ، وعلى حظه من رضاه وقربه وكرامته ببيعه بثمن بخس ، فى دار سريعة الزوال . وعلى نفسه أن يملك رقها لمعشوق لو فكر فى منتهى حسنه ورأى آخره بعين بصيرة لأنف لها من محبته فهذا كله من آثار اليقظة وموجباتها ، وهى أول منازل النفس المطمئنة التى نشأ منها سفرها إلى الله والدار الآخرة .

* * *

فصل

[النفس اللوامة وأحوالها]

وأما النفس اللوامة وهى التى أقسم بها سبحانه فى قوله : ﴿ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ فاختلف فيها فقالت طائفة : هى التى لا تثبت على حال واحدة ، أخذوا اللفظة من التلوم وهو التردد ، فهى كثيرة التقلب والتلون ، وهى من أعظم آيات الله ، فإنها مخلوق من مخلوقاته تتقلب وتتلون فى الساعة والواحدة ، فضلا عن اليوم والشهر والعام والعمر ألواناً متلونة ، فتذكر وتغفل وتقبل وتعرض وتلطف وتكثف وتنيب وتجفو وتحب وتبغض وتفرح وتحزن وترضى وتغضب وتطيع وتعصى وتتقى وتفجر ، إلى أضعاف أضعاف ذلك من حالاتها وتلونها ، فهى تتلون كل وقت ألواناً كثيرة فهذا قول .

وقالت طائفة : اللفظة مأخوذة من اللوم ، ثم اختلفوا فقالت فرقة : هى نفس المؤمن ، وهذا من صفاتها المجردة .

قال الحسن البصرى : إن المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه دائماً ، يقول ما أردت بهذا؟ لم فعلت هذا ؟ كان غير هذا أولى . ونحو هذا من الكلام .

وقال غيره : هى نفس المؤمن فى الذنب ، ثم تلومه عليه ، فهذا اللوم من الإيمان بخلاف الشقى ، فإنه لا يلوم نفسه على ذنب ؛ بل يلومها وتلومه على فواته .

وقالت طائفة : بل هذا اللوم للنوعين ، فإن كل أحد يلوم نفسه براً كان أو فاجراً فالسعيد يلومها على ارتكاب معصية الله وترك طاعته ، والشقى لا يلومها إلا على فوات حظها وهواها .

وقالت فرقة أخرى : هذا اللوم يوم القيامة ، فإن كل أحد يلوم نفسه ، إن كان مسيئاً على إساءته ، وإن كان محسناً على تقصيره ، وهذه الأقوال كلها حق ، ولا تنافى بينها . فإن النفس موصوفة بهذا كله وباعتباره سميت لوامة . لكن اللوامة نوعان : لوامة ملومة ، وهى النفس الجاهلة الظالمة التى يلومها الله وملائكته . ولوامة غير ملومة ؛ وهى التى لا تزال تلوم صاحبها على تقصيره فى طاعة الله ، مع بذله جهده . فهذه غير ملومة ، وأشرف النفوس من لامت نفسها فى طاعة الله واحتملت ملام اللائمين فى مرضاته ؛ فلا تأخذها فيه لومة لائم ، فهذه قد تخلصت من لوم الله .

وأما من رضيت بأعمالها ولم تلم نفسها ولم تحتمل فى الله ملام اللوام ، فهى التى يلومها الله عز وجل .

❊ ❊ ❊

فصل

[ذكر النفس الأمارة وأحوالها]

وأما النفس الأمارة فهى المذمومة فإنها التى تأمر بكل سوء ، وهذا من طبيعتها إلا ما وفقها الله وثبتها وأعانها ، فما تخلص أحد من شر نفسه إلا بتوفيق الله له كما قال تعالى حاكياً عن امرأة العزيز ﴿ وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَازَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً ﴾ (٣) .

وكان النبى ﷺ ، يعلمهم خطبة الحاجة « إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ باللّه من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا . من يهده الله فلا مضل له ومن

---

(١) يوسف الآية : ٥٣ . (٢) النور الآية : ٢١ . (٣) الإسراء الآية : ٧٤ .

يضلله فلا هادى له » فالشر كامن فى النفس وهو يوجب سيئات الأعمال ، فإن خلى الله بين العبد وبين نفسه هلك بين شرها وما تقتضيه من سيئات الأعمال ، فإن وفقه وأعانه نجاه من ذلك كله ، فنسأل الله العظيم أن يعيذنا من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا .

وقد امتحن الله سبحانه الإنسان بهاتين النفسين الأمارة واللوامة كما أكرمه بالمطمئنة فهى نفس واحدة تكون أمارة ثم لوامة ، ثم مطمئنة وهى غاية كمالها وصلاحها ، وأيد المطمئنة بجنود عديدة ، فجعل الملك قرينها وصاحبها الذى يليها ويسددها ويقذف فيها الحق ويرغبها فيه ويريها حسن صورته ويزجرها عن الباطل ، ويزهدها فيه ، ويريها قبيح صورته ، وأمدها بما علمها من القرآن والأذكار وأعمال البر ، وجعل وفود الخيرات ومداد التوفيق بنياتها ، ويصل إليها من كل ناحية ، وكلما تلقتها بالقبول والشكر والحمد لله ورؤية أوليته فى ذلك كله ، ازداد مددها . فتقوى على محاربة الأمارة فمن جندها وهو سلطان عساكرها وملكها الإيمان واليقين ، فالجيوش الإسلامية كلها تحت لوائه ناظرة إليه إن ثبت ثبتت ، وإن انهزم ولت على أدبارها ، ثم أمراء هذا الجيش ومقدمو عساكره شعب الإيمان المتعلقة بالجوارح على اختلاف أنواعها كالصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ونصيحة الخلق والإحسان إليهم بأنواع الإحسان ، وشعبه الباطنية المتعلقة بالقلب كالإخلاص والتوكل والإنابة والتوبة والمراقبة والصبر والحلم والتواضع والمسكنة وامتلاء القلب من محبة الله ورسوله وتعظيم أوامر الله وحقوقه، والغيرة لله وفى الله والشجاعة والعفة والصدق والشفقة والرحمة ، وملاك ذلك كله الإخلاص والصدق فلا يتعب الصادق المخلص ، فقد أقيم على الصراط المستقيم فيسار به وهو راقد ، ولا يتعب من حرم الصدق والإخلاص ، فقد قطعت عليه الطريق واستهوته الشياطين فى الأرض حيران ، فإن شاء فليعمل وإن شاء فليترك ، فلا يزيده عمله من الله إلا بعداً وبالجملة فما كان لله وباللَّه فهو من جند النفس المطمئنة .

وأما النفس الأمارة فجعل الشيطان قرينها وصاحبها الذى يليها فهو يعدها ويمنيها ، ويقذف فيها الباطل ويأمرها بالسوء ، ويزينه لها ويطيل فى الأمل ويريها الباطل فى صورة تقبلها وتستحسنها ويمدها بأنواع الإمداد الباطل من الأمانى الكاذبة والشهوات المهلكة ، ويستعين عليها بهواها وإرادتها ، فمنه يدخل عليه ويدخل عليه كل مكروه . فما استعان على النفوس بشيء هو أبلغ من هواها وإرادتها إليه ، وقد علم ذلك

إخوانه من شياطين الإنس فلا يستعينون على الصور الممنوعة منهم بشىء أبلغ من هواهم وإرادتهم ، فإذا أعيتهم صورة طلبوا بجهدهم ما تحبه وتهواه ، ثم طلبوا بجهدهم تحصيله فاصطادوا به تلك الصورة ، فإذا فتحت لهم النفس باب الهوى دخلوا منه فجاسوا خلال الديار ، فعاثوا وأفسدوا وفتكوا وشبوا وفعلوا ما يفعله العدو ببلاد عدوه إذا تحكم فيها ، فهدموا معالم الإيمان والقرآن والذكر والصلاة وخربوا المساجد وعمرو البيع [1] والكنائس والخانات والمواخير [2] ، وقصدوا إلى الملك فأسروه وسلبوه ملكه ونقلوه من عبادة الرحمن إلى عبادة البغايا [3] والأوثان ، ومن عز الطاعة إلى ذُلِّ المعصية ومن السماع الرحمانى إلى السماع الشيطانى . ومن الاستعداد للقاء رب العالمين إلى الاستعداد للقاء إخوان الشياطين فبينا هو يراعى حقوق الله وما أمره به ، إذ صار يرعى الخنازير ، وبينا هو منتصب لخدمة العزيز الرحيم إذ صار منتصباً لخدمة كل شيطان رجيم . والمقصود أن الملك قرين النفس المطمئنة والشيطان قرين الأمارة .

وقد روى أبو الأحوص ، عن عطاء بن السائب عن مرة عن عبد الله ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن للشيطان لمة [4] بابن آدم وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق . وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله ، وليحمد الله ، ومن وجد الآخر فليتعوذ باللّه من الشيطان الرجيم ، ثم قرأ : ﴿ الشَّيْطَنُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ﴾ [5] .

وقد رواه عمرو عن عطاء بن السائب ، وزاد فيه عمرو قال : سمعنا فى هذا الحديث أنه كان يقال : إذا أحس أحدكم من لمة الملك شيئاً فليحمد الله وليسأله من فضله ، وإذا أحس من لمة الشيطان شيئاً فليستغفر الله وليتعوذ من الشيطان .

فصل

فالنفس المطمئنة والملك وجنده من الإيمان يقتضيان من النفس المطمئنة التوحيد والإحسان والبر والتقوى والصبر والتوكل والتوبة والإنابة والإقبال على الله وقصر

---

(١) البيع : جمع البيعة . وهى الكنيسة الصغيرة . (٢) المواخير : أماكن الفحشاء والزنا ، مفردها مخور .

(٣) البغايا : جمع بغى وهى : المومس والعاهرة .

(٤) لَمَّة - بفتح اللام ، وتشديد الميم ، همة وخطرة فى القلب .

(٥) سورة البقرة آية : ٢٦٨ . والحديث أخرجه الترمذى فى التفسير ٥/ ٢٠٤ (٢٩٨٨) . والنسائى فى التفسير على ماجاء فى السنن الكبرى .

الأمل والاستعداد للموت وما بعده ، والشيطان وجنده من الكفر يقتضيان من النفس الأمارة ضد ذلك ، وقد سلط الله سبحانه الشيطان على كل ما ليس له ولم يرد به وجهه ، ولا هو طاعة له وجعل ذلك إقطاعه فهو يستنيب النفس الأمارة على هذا العمل والإقطاع ويتقاضى أن تأخذ الأعمال من النفس المطمئنة فتجعلها قوة لها ، فهى أحرص شيء على تخليص الأعمال كلها لها وأن تصير من حظوظها فأصعب شيء على النفس المطمئنة تخليص الأعمال من الشيطان ، ومن الأمارة لله ، فلو وصل منها عمل واحد كما ينبغى لنجا به العَبد ، ولكن أبت الأمارة والشيطان أن يدعا لها عملا واحداً يصل إلى الله .

كما قال بعض العارفين باللَّه وبنفسه : واللَّه لو أعلم أن لى عملا واحداً وصل إلى الله لكنت أفرح بالموت من الغائب يقدم على أهله .

قال عبد الله بن عمر : لو أعلم أن الله تقبل منى سبجدة واحدة ، لم يكن غائب أحب إلى من الموت إنما يتقبل من المتقين .

فصل

[النفس الأمارة فى مقابلة النفس المطمئنة]

وقد انتصبت الأمارة فى مقابلة المطمئنة ، فكلما جاءت به تلك من خير ضاهتها هذه وجاءت من الشر بما يقابله حتى تفسده عليها ، فإذا جاءت بالإيمان والتوحيد جاءت هذه بما يقدح فى الإيمان من الشك والنفاق ، وما يقدح فى التوحيد من الشرك ومحبة غير الله وخوفه ورجائه ، ولا ترضى حتى تقدم محبة غيره وخوفه ورجائه على محبته سبحانه وخوفه ورجائه ، فيكون ماله عندها هو المؤخر وما للخلق هو المقدم وهذا حال أكثر هذا الخلق . وإذا جاءت تلك بتجريد المتابعة للرسول جاءت هذه بتحكيم آراء الرجال وأقوالهم على الوحى ، وأتت من الشبه المضلة بما يمنعها من كمال المتابعة وتحكيم السنة ، وعدم الالتفات إلى آراء الرجال . فتقوم الحرب بين هاتين النفسين والمنصور من نصره الله . وإذا جاءت تلك بالإخلاص والصدق والتوكل والإنابة والمراقبة ، جاءت هذه بأضدادها وأخرجتها فى عدة قوالب ، وتقسم باللَّه ما مرادها إلا الإحسان والتوفيق ، واللَّه يعلم أنها كاذبة ، وما مرادها إلا مجرد حظها واتباع هواها والتفلت من سجن المتابعة والتحكيم المحض للسنة إلى قضاء إرادتها

وشهوتها وحظوظها ، ولعمر الله ما تخلصت إلا من قضاء المتابعة والتسليم إلى سجن الهوى والإرادة وضيقه وظلمته ووحشته ، فهى مسجونة فى هذا العالم ، وفى البرزخ فى أضيق منه ، ويوم المعاد الثانى فى أضيق منهما .

ومن أعجب أمرها أنها تسحر العقل والقلب فتأتى إلى أشرف الأشياء وأفضلها وأجلها ، فتخرجه فى صورة مذمومة ، وأكثر الخلق صبيان العقول أطفال الأحلام لم يصلوا إلى حد الفطام الأول عن العوائد والمألوفات ، فضلا عن البلوغ الذى يميز به العاقل البالغ بين خير الخيرين فيؤثره ؛ وشر الشرين فيجتنبه . فتريه صورة تجريد التوحيد التى هى أبهى من صورة الشمس والقمر فى صورة التنقيص المذموم ، وهضم العظماء منازلهم وحطهم منها إلى مرتبة العبودية المحضة ، والمسكنة والذل والفقر المحض ، الذى لا ملكة لهم معه ولا إرادة ولا شفاعة ، إلا من بعد إذن الله فتريهم النفس السحارة هذا القدر غاية تنقيصهم وهضمهم ، ونزول أقدارهم وعدم تمييزهم عن المساكين الفقراء فتنفر نفوسهم من تجريد التوحيد أشد النفار ، ويقولون : ﴿ أجعل الآلهة إلها واحداً إن هذا لشىء عجاب ﴾ [1] .

وتريهم تجريد المتابعة للرسول وما جاء به وتقديمه على آراء الرجال فى صورة تنقيص العلماء والرغبة عن أقوالهم ، وما فهموه عن الله ورسوله ، وأن هذا إساءة أدب عليهم ، وتقدم بين أيديهم ، وهو مفض إلى إساءة الظن بهم ، وأنهم قد فاتهم الصواب .

وكيف لنا قوة أن نرد عليهم ونفوز ونحظى بالصواب دونهم فتنفر من ذلك أشد النفار ، وتجعل كلامهم هو المحكم الواجب الاتباع وكلام الرسول هو المتشابه الذى يعرض على أقوالهم ، فما وافقها قبلناه وما خالفها رددناه أو أولناه أو فوضناه ،[2] وتقسم النفس السحارة باللّٰه إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم .



(١) ص الآية : ٥ .

(٢) هذا من أخطر الأمراض التى ابتليت هذه الأمة بها ، لأنها عطلت التفكير والاجتهاد والنقد فتعطيل كلام الله تعالى ، أو كلام رسوله ﷺ ، للأخذ بقول الإمام ، هو نوع من تعطيل العقول ، ولو صح مازعموا ما اختلف الأئمة الكرام فيما بينهم اختلافاً كبيراً .

فصل

[فى إراءة النفس الأمارة الإخلاص فى صورة ينفر منها]

وتريه صورة الإخلاص فى صورة ينفر منها ، وهى الخروج عن حكم العقل المعيشى والمداراة والمداهنة التى بها اندراج حال صاحبها ومشيه بين الناس ، فمتى أخلص أعماله ولم يعمل لأحد شيئا تجنبهم وتجنبوه ، وأبغضهم وأبغضوه وعاداهم وعادوه ، وسار على جادة وهم على جادة ، فينفر من ذلك أشد النفار ، وغايته أن يخلص فى القدر اليسير من أعماله التى لا تتعلق بهم وسائر أعماله لغير الله .

❊ ❊ ❊

فصل

[فى إراءتها صورة الصدق والجهاد وغيرهما فى صور متضادة]

وتريه صورة الصدق مع الله ، وجهاد من خرج عن دينه وأمره فى قالب الانتصاب لعداوة الخلق وأذاهم وحربهم ، وأنه يعرض نفسه من البلاء لما لا يطيق وأنه يصير غرضا لسهام الطاعتين وأمثال ذلك من الشبه التى تقيمها النفس السحارة والخيالات التى تخيلها .

وتريه حقيقة الجهاد فى صورة تقتل فيها النفس وتنكح المرأة ويصير الأولاد يتامى ويقسم المال .

وتريه حقيقة الزكاة والصدقة فى صورة مفارقة المال ونقصه وخلو اليد منه ، واحتياجه إلى الناس ، ومساواته للفقير وعوده بمنزلته .

وتريه حقيقة إثبات صفات الكمال لله ، فى صورة التشبيه والتمثيل ، فينفر من التصديق بها وينفر غيره .

وتريه حقيقة التعطيل والإلحاد فيها ، فى صورة التنزيه والتعظيم ، وأعجب من ذلك أنها تضاهى ما يحبه الله ورسوله من الصفات والأخلاق والأفعال بما يبغضه منها. وتلبس على العبد أحد الأمرين بالآخر ، ولا يخلص من هذا إلا أرباب البصائر، فإن الأفعال تصدر عن الإرادات وتظهر على الأركان من النفسين الأمارة والمطمئنة ، فيتباين الفعلان فى البطلان ، ويشبهان فى الظاهر .

ولذلك أمثلة كثيرة منها المداراة والمداهنة ، فالأول من المطمئنة والثانى من الأمارة ، وخشوع الإيمان وخشوع النفاق وشرف النفس والتيه والحمية والجفاء والتواضع ، والمهانة والقوة فى أمر الله ، والعلو فى الأرض ، والحمية لله ، والغضب له ، والحمية للنفس والغضب لها والجود والسرف والمهابة والكبر والصيانة والتكبر والشجاعة والجرأة والحزم والجبن والاقتصاد والشح والاحتراز ، وسوء الظن والفراسة والظن والنصيحة والغيبة والهدية والرشوة والصبر والقوة والعفو والذل وسلامة القلب، والبله والغفلة والثقة والغرة والرجاء ، والتمنى والتحدث بنعم الله والفخر بها، وفرح القلب وفرح النفس ورقة القلب والجزع والموجودة والحقد ، والمنافسة والحسد ، وحب الرياسة وحب الإمامة ، والدعوة إلى الله والحب لله والحب مع الله، والتوكل والعجز والاحتياط والوسوسة وإلهام الملك وإلهام الشيطان ، والأناة والتسويف والاقتصاد والتقصير والاجتهاد ، والغلو والنصيحة والتأنيب والمبادرة والعجلة والإخبار بالحال عند الحاجة ، والشكوىٰ . فالشيء الواحد تكون صورته واحدة . وهو منقسم إلى محمود ومذموم ، كالفرح والحزن والأسف والغضب والغيرة والخيلاء والطمع والتجمل والخشوع والحسد والغبطة والجرأة والتحسر والحرص والتنافس وإظهار النعمة والحلف والمسكنة والصمت والزهد والورع والتخلى والعزلة والأنفة والحمية والغيبة .

وفى الحديث : « إن من الغيرة ما يحبها الله وما يكره فالغيرة التى يحبها الله الغيرة فى ريبة . والتى يكرهها الغيرة فى غير ريبة ، وإن من الخيلاء ما يحبه الله ومنها ما يكرهه ، فالتى يحب الخيلاء في الحرب » (١) .

وفى الصحيح أيضاً : « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالا وسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها » (٢) .

وفى الصحيح أيضا : « إن الله رفيق يحب الرفق ويعطى على الرفق مالا يعطى على العنف » (٣) .

---

(١) أخرجه أبو داود فى الجهاد ٣/ ٥٠ - ٥١ (٢٦٥٩) ، والنسائى فى الزكاة ٥/٧٨ - ٧٩ . وأحمد فى المسند : ٥/٦٣ .

(٢) أخرجه البخارى فى التوحيد ١٣/٥١١ (٧٥٢٩) . وأحمد فى المسند : ٢/٩ .

(٣) أخرجه البخارى فى الاستئذان ١١/٤٤ (٦٢٥٦) ومسلم فى البر ، وأبو داود فى الأدب ، والترمذى فى الاستئذان وأحمد فى المسند : ١/١١٢ وغيرهم .

وفيه أيضا : « من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من الخير » .

فالرفق شيء والتوانى والكسل شيء ، فإن المتوانى يتثاقل عن مصلحته بعد إمكانها فيتقاعد عنها ، والرفيق يتلطف فى تحصيلها بحسب الإمكان مع المطاوعة ، وكذلك المدارة صفة مدح والمداهنة صفة ذم ، والفرق بينهما أن المدارى يتطلف بصاحبه حتى يستخرج منه الحق أو يرده عن الباطل ، والمداهن يتطلف به ليقره على باطله ويتركه على هواه فالمداراة لأهل الإيمان والمداهنة لأهل النفاق ، وقد ضرب لذلك مثل مطابق، وهو حال رجل به قرحة قد آلمته ، فجاءه الطبيب المداوى الرفيق فتعرف حالها ثم أخذ فى تليينها ، حتى إذا نضجت أخذ فى طبها برفق وسهولة . حتى أخرج ما فيها ثم وضع على مكانها من الدواء والمرهم ما يمنع فساده ، ويقطع مادته ثم تابع عليه بالمراهم التى تنبت اللحم ، ثم يذر عليها بعد نبات اللحم ما ينشف رطوبتها ثم يشد عليها الرباط ، ولم يزل يتابع ذلك حتى صلحت .

والمداهن قال لصاحبها : لا بأس عليك منها ، وهذه لا شيء فاسترها عن العيون بخرقة ثم اله عنها ، فلا تزال تقوى وتستحكم حتى عظم فسادها . وهذا المثل أيضاً مطابق كل المطابقة لحال النفس الأمارة مع المطمئنة ، فتأمله فإذا كانت هذه حال قرحة بقدر الحمصة ، فكيف بسقم هاج من نفس أمارة بالسوء ، هى معدن الشهوات ومأوى كل فسق ، وقد قارنها شيطان فى غاية المكر والخداع يعدها ويمنيها ويسحرها بجميع أنواع السحر ، حتى يخيل إليها النافع ضاراً والضار نافعاً والحسن قبيحاً والقبيح جميلاً، وهذا لعمر الله من أعظم أنواع السحر ، ولهذا يقول سبحانه : ﴿ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾ (١) .

والذى نسبوا إليه الرسل من كونهم مسحورين هو الذى أصابهم بعينه وهم أهله لا رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . كما أنهم نسبوهم إلى الضلال والفساد فى الأرض والجنون والسفه وما استعاذت الأنبياء والرسل وأمراء الأمم بالاستعاذة من شر النفس الأمارة وصاحبها وقرينها الشيطان ، إلا لأنهما أصل كل شر وقاعدته ومنبعه وهما متساعدان عليه متعاونان .

رضيعى لبان ثدى أم تقاسما بأسحم داج عوض لا يتفرق

---

(١) المؤمنون الآية : ٨٩ .

قال تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَٰنِ الرَّجِيمِ ﴾ وقال : ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٢) وقال : ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ الشَّيَٰطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِن شَرِّ النَّفَّٰثَٰتِ فِى الْعُقَدِ * وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ فهذا استعاذة من شر النفس .

وقال : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ . . . . . . مِنَ الْجِنَّةِ النَّاسِ ﴾ فهذا استعاذة من قرينها وصاحبها وبئس القرين والصاحب .

فأمر الله سبحانه نبيه وأتباعه بالاستعاذة بربوبيته التامة الكاملة من هذين الخلقين العظيم شأنها فى الشر والفساد . والقلب بين هذين العدوين لا يزال شرهما يطرقه وينتابه ، وأول ما يدب فيه السقم من النفس الأمارة من الشهوة ، وما يتبعها من الحب والحرص والطلب والغضب ، ويتبعه من الكبر والحسد والظلم والتسلط فيعلم الطبيب الغاش الخائن بمرضه فيعود ويصف له أنواع السموم والمؤذيات ، ويخيل إليه بسحره أن شفاءه فيها ، ويتفق ضعف القلب بالمرض وقوة النفس الأمارة والشيطان وتتابع إمدادهما وأنه نقد حاضر ، ولذة عاجلة ، والداعى إليه يدعو من كل ناحية ، والهوى ينفذ والشهوة تهون ، والتأسى بالأكثر والتشبه بهم ، والرضا بأن يصيبه ما أصابهم ، فكيف يستجيب مع هذه القواطع وأضعافها لداعى الإيمان ومنادى الجنة إلا من أمده الله بإمداد التوفيق ، وأيده برحمته وتولى حفظه وحمايته وفتح بصيرة قلبه ، فرأى سرعة انقطاع الدنيا وزوالها ، وتقلبها بأهلها وفعلها بهم وأنها فى الحياة الدائمة، كغمس إصبع فى البحر بالنسبة إليه .

* * *

فصل

[الفرق بين خشوع الإيمان وخشوع النفاق]

والفرق بين خشوع الإيمان وخشوع النفاق ، أن خشوع الإيمان هو خشوع القلب لله بالتعظيم والإجلال والوقار والمهابة والحياء ، فينكسر القلب لله كسرة ملتئمة من الوجل والخجل والحب والحياء ، وشهود نعم الله وجناياته هو فيخشع القلب لا محالة ، فيتبعه خشوع الجوارح .

وأما خشوع النفاق فيبدو على الجوارح تصنعا وتكلفاً والقلب غير خاشع ، وكان بعض الصحابة يقول : أعوذ باللّٰه من خشوع النفاق ، قيل له : وما خشوع النفاق ، قال : أن يرى الجسد خاشعا والقلب غير خاشع ، فالخاشع لله عبد قد خمدت نيران شهوته وسكن دخانها عن صدره ، فانجلى الصدر وأشرق فيه نور العظمة ، فماتت شهوات النفس للخوف والوقار الذى حشى به ، وخمدت الجوارح وتوقر القلب واطمأن إلى الله ، وذكره بالسكينة التى نزلت عليه من ربه ، فصار مخبتا له . والمخبت والمطمئن فإن الخبت من الأرض ما تطامن فاستنقع فيه الماء ، فكذلك القلب المخبت قد خشع وتطامن كالبقعة المطمئنة من الأرض التى يجرى إليها الماء ، فيستقر فيها . وعلامته أن يسجد بين يدى ربه إجلالا له وذلا وانكساراً بين يديه ، سجدة لا يرفع رأسه عنها ، حتى يلقاه . وأما القلب المتكبر : فإنه قد اهتز بتكبره وربا ، فهو كبقعة رابية من الأرض لا يستقر عليها الماء ، فهذه خشوع الإيمان ، وأما التماوت وخشوع النفاق ، فهو حال عند تكلف إسكان الجوارح تصنعا ومراآة ، ونفسه فى الباطن شابة طرية ذات شهوات وإرادات ، فهو يتخشع فى الظاهر ، وحية الوادى ، وأسد الغابة رابض بين جنبيه ينتظر الفريسة .

فصل

[الفرق بين شرف النفس والتيه]

وأما شرف النفس فهو صيانتها عن الدنايا والرذائل والمطامع التى تقطع أعناق الرجال . فيربأ بنفسه عن أن يلقيها فى ذلك . بخلاف التيه ، فإنه خلق متولد بين أمرين : إعجابه بنفسه وازدرائه لغيره . فيتولد من بين هذين التيه . والأول من بين خلقين كريمين إعزاز النفس وإكرامها وتعظيم مالكها وسيدها أن يكون عبده دنياه وضيعا خسيسا فيتولد من بين هذين الخلقين شرف النفس وصيانتها . وأصل هذا كله استعداد النفس وتهيؤها وإمداد وليها ومولاها لها . فإذا فقد الاستعداد والإمداد فقد الخير كله .

فصل

[الفرق بين الحمية والجفاء]

وكذلك الفرق بين الحمية والجفاء ، فالحمية فطام النفس عن رضاع اللوم من ثدى

هو مصب الخبائث والرذائل والدنايا ، ولو غزر لبنه وتهالك الناس عليه ، فإن لهم فطاما تنقطع معه الأكباد حسرات ، فلابد من الفطام ، فإن شئت عجل وأنت محمود مشكور ، وإن شئت أخر وأنت غير مأجور ، بخلاف الجفاء فإنه غلظة فى النفس وقساوة فى القلب ، وكثافة فى الطبع يتولد عنها خلق يسمى الجفاء .

فصل

[الفرق بين التواضع والمهانة]

والفرق بين التواضع والمهانة ، أن التواضع : يتولد من بين العلم بالله سبحانه ومعرفة أسمائه وصفاته ، ونعوت جلاله وتعظيمه ومحبته وإجلاله ، ومن معرفته بنفسه وتفاصيلها وعيوب عملها ، وآفاتها . فيتولد من بين ذلك كله خلق ، هو التواضع وهو انكسار القلب لله ، وخفض جناح الذل والرحمة لعباده ، فلا يرى له على أحد فضلا ولا يرى له عند أحد حقاً ، بل يرى الفضل للناس عليه ، والحقوق لهم قبله ، وهذا خلق إنما يعطيه الله عز وجل من يحبه ويكرمه ويقربه .

وأما المهانة : فهى الدناءة والخسة وبذل النفس وابتذالها فى نيل حظوظها وشهواتها؛ كتواضع السفل فى نيل شهواتهم ؛ وتواضع المفعول به للفاعل ؛ وتواضع طالب كل حظ لمن يرجو نيل حظه منه ، فهذا كله ضعة لا تواضع . والله سبحانه يحب التواضع ويبغض المهانة والضعة .

وفى الصحيح عنه صلى الله عليه وآله وسلم : « وأوحى إلىّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغى أحد على أحد » .

والتواضع المحمود على نوعين :

النوع الأول : تواضع العبد عند أمر الله امتثالا وعند نهيه اجتنابا فإن النفس لطلب الراحة تتلكأ فى أمره فيبدو منها نوع إباء وشراز هرباً من العبودية ، وتثبت عند نهيه طلبا للظفر بما منع منه فإذا وضع العبد نفسه لأمر الله ونهيه فقد تواضع للعبودية .

والنوع الثانى : تواضعه لعظمة الرب وجلاله وخضوعه لعزته وكبريائه ؛ فكلما شمخت نفسه ذكر عظمة الرب تعالى وتفرده بذلك ؛ وغضبه الشديد على من نازعه ذلك فتواضعت إليه نفسه وانكسر لعظمة الله قلبه ؛ وتطامن لهيبته وأخبت لسلطانه فهذا غاية التواضع وهو يستلزم الأول من غير عكس ؛ والمتواضع حقيقة من رزق الأمرين والله المستعان .

فصل

[الفرق بين القوة فى أمر الله والعلو فى الأرض]

[وفى الحمية لله والحمية للنفس]

وكذلك القوة فى أمر الله هى من تعظيمه وتعظيم أوامره وحقوقه حتى يقيمها لله .

والعلو فى الأرض هو من تعظيم نفسه وطلب تفردها بالرياسة ، ونفاذ الكلمة سواء عز أمر الله أوهان بل إذا عارضه أمر الله وحقوقه ومرضاته فى طلب علوه . لم يلتفت إلى ذلك وأهدره وأماته فى تحصيل علوه .

وكذلك الحمية لله والحمية للنفس ، فالأولى يثيرها تعظيم الأمر والآمر ، والثانية يثيرها تعظيم النفس والغضب لفوات حظوظها ، فالحمية لله أن يحمى قلبه له من تعظيم حقوقه : وهى حال عبد قد أشرق على قلبه نور سلطان الله فامتلأ قلبه بذلك النور ، فإذا غضب فإنما يغضب من أجل نور ذلك السلطان الذى ألقى على قلبه ، وكان رسول الله ﷺ إذا غضب احمرت وجنتاه وبدا بين عينيه عرق بدره الغضب ، ولم يقم لغضبه شىء حتى ينتقم لله [1] .

وروى زيد بن أسلم ، عن أبيه : أن موسى بن عمران صلى الله عليه وآله وسلم، كان إذا غضب اشتعلت قلنسوته ناراً .

وهذا بخلاف الحمية للنفس فإنها حرارة تهيج من نفسه لفوات حظها أو طلبه ، فإن الفتنة فى النفس والفتنة هى الحريق والنفس متلظية بنار الشهوة والغضب ، فإنما هما حرارتان يظهران على الأركان ، حرارة من قبل النفس المطمئنة آثارها تعظيم حق الله وحرارة من قبل النفس الأمارة آثارها استشعار فوت الحظ .

فصل

[الفرق بين الجود والسرف]

والفرق بين الجود والسرف : أن الجواد حكيم يضع العطاء مواضعه ، والمسرف قد يصادف عطاؤه موضعه ، وكثيراً لا يصادفه . وإيضاح ذلك أن الله سبحانه مته جعل فى المال حقوقاً وهى نوعان : حقوق موظفة ، وحقوق ثانية .

أخرج نحوه مسلم فى اللقطة ٣/ ١٣٤٩ (٦) . والترمذى وأحمد فى المسند : ١١٦/٤ .

فالحقوق الموظفة : كالزكاة والنفقات الواجبة على من تلزمه نفقته .

والثانية : كحق الضيف ومكافأة المهدى وما وقى به عرضه ونحو ذلك ، فالجواد يتوخى بماله أداء هذه الحقوق على وجه الكمال طيبة بذلك نفسه راضية مؤملة للخلف فى الدنيا والثواب فى العقبى ، فهو يخرج ذلك بسماحة قلب وسخاوة نفس وانشراح صدر بخلاف المبذر ، فإنه يبسط يده فى ماله بحكم هواه وشهوته جزافاً لا على تقدير ولا مراعاة مصلحة ، وإن اتفقت له . فالأول بمنزلة من بذر حبة فى الأرض تنبت وتوخى ببذره مواضع المغل [1] والإنبات ، فهذا لا يعد مبذراً ولا سفيهاً . والثانى بمنزلة من بذر حبة فى سباخ [2] وغراز [3] من الأرض ، وإن أنفق بذره فى محل النبات بذر بذراً متراكماً بعضه على بعض ، فذلك المكان البذر فيه ضائع معطل ، وهذا المكان بذر بذراً متراكماً بعضه على بعض ، فذلك يحتاج أن يقلع بعض زرعه ليصلح الباقى ، ولئلا تضعف الأرض عن تربيته ، واللّه سبحانه هو الجواد على الإطلاق ، بل كل جود فى العالم العلوى والسفلى بالنسبة إلى جوده ، أقل من قطرة فى بحار الدنيا وهى من جوده ، ومع هذا فإنما ينزل بقدر ما يشاء وجوده لا يناقض حكمته ، ويضع عطاءه مواضعه ، وإن خفى على أكثر الناس أن تلك مواضعه فاللّه يعلم حيث يضع فضله ، وأى المحال أولى به .

* * *

فصل

[الفرق بين المهابة والكبر]

والفرق بين المهابة والكبر : أن المهابة أثر من آثار امتلاء القلب بعظمة الله ومحبته وإجلاله ، فإذا امتلأ القلب بذلك حل فيه النور ونزلت عليه السكينة ، وألبس رداء الهيبة ، فاكتسى وجهه الحلاوة والمهابة ، فأخذ بمجامع القلوب محبة ومهابة فحنت إليه الأفئدة وقرت به العيون ، وأنست به القلوب ، فكلامه نور ، ومدخله نور ، ومخرجه نور ، وعمله نور ، إن سكت علاه الوقار ، وإن تكلم أخذ بالقلوب والأسماع .

---

(١) مواضع المغل : حيث ترعى النعاج والدواب .

(٢) سِباخ : جمع سبخة مالم يحرث من الأرض ولم يعمر لملوحته .

(٣) عَزاز : الأرض الصلبة السريعة السيل .

وأما الكبر : فأثر من آثار العجب والبغى ، من قلب قد امتلأ مثلا بالجهل والظلم ترحلت منه العبودية ونزل عليه المقت ، فنظره إلى الناس شزر ، ومشيه بينهم تبختر، ومعاملته لهم معاملة الاستئثار لا الإيثار (١) ولا الإنصاف ، ذاهب بنفسه تيهاً لا يبدأ من لقيه بالسلام ، وإن رد عليه رأى أنه قد بالغ فى الإنعام عليه لا ينطلق لهم وجهه ، ولا يسعهم خلقه ، ولا يرى لأحد عليه حقا ، ويرى حقوقه على الناس ولا يرى فضلهم عليه ، ويرى فضله عليهم لا يزداد من الله إلا بعداً ، ومن الناس إلا صغاراً وبغضاً .

* * *

فصل

[الفرق بين الصيانة والتكبر]

والفرق بين الصيانة والتكبر : أن الصائن لنفسه بمنزلة رجل قد لبس ثوباً جديداً نقى البياض ذا ثمن ، فهو يدخل به على الملوك فمن دونهم ، فهو يصونه عن الوسخ والغبار والطبوع وأنواع الآثار إبقاء على بياضه ونقائه ، فتراه صاحب تعزز وهروب من المواضع التى يخشى منها عليه التلوث ، فلا يسمح بأثر ولا طبع ولا لوث يعلو ثوبه، وإن أصابه شىء من ذلك على غرة (٢) بادر على قلعه وإزالته ومحو أثره .

وهكذا الصائن لقلبه ودينه تراه يجتنب طبوع الذنوب وآثارها ، فإن لها فى القلب طبوعاً وآثاراً أعظم من الطبوع الفاحشة فى الثوب النقى البياض ، ولكن على العيون غشاوة أن تدرك تلك الطبوع فتراه يهرب من مظان التلوث ويحترس من الخلق ويتباعد من تخالطهم ، مخافة أن يحصل لقلبه ما يحصل للثوب الذى يخالط الدباغين والذباحين والطباخين ونحوهم . بخلاف صاحب العلو فإنه وإن شابه هذا فى تحرزه وتجنبه ، فهو يقصد أن يعلو رقابهم ويجعلهم تحت قدمه ، فهذا لون وذاك لون .

فصل

[الفرق بين الشجاعة والجرأة]

والفرق بين الشجاعة والجرأة : أن الشجاعة من القلب وهى ثباته واستقراره عند

---

(١) الاستئثار : ضد الإيثار . الأولى أنانية ، والثانية تفضيل الآخرين على الذات إكراماً .

(٢) غرة : أى فجأة وبغتة .

المخاوف ، وهو خلق يتولد من الصبر وحسن الظن ، فإنه متى ظن الظفر ، وساعده الصبر ثبت ، كما أن الجبن يتولد من سوء الظن وعدم الصبر ، فلا يظن الظفر ولا يساعده الصبر ، وأصل الجبن من سوء الظن ووسوسة النفس بالسوء ، وهو ينشأ من الرئة . فإذا ساء ووسوست النفس بالسوء انتفخت الرئة ، فزاحمت القلب فى مكانه وضيقت عليه حتى أزعجته عن مستقره فأصابه الزلازل والاضطراب لإزعاج الرئة له وتضييقها عليه . ولهذا جاء فى حديث عمرو بن العاص الذى رواه أحمد وغيره عن النبى ﷺ : « شر ما فى المرء جبن خالع ، وشح هالع »[1] .

فسمى الجبن خالعاً لأنه يخلع القلب عن مكانه لانتفاخ السحر وهو الرئة . كما قال أبو جهل لعتبة بن ربيعة يوم بدر : انتفخ سحرك فإذا زال القلب عن مكانه ضاع تدبير العقل فظهر الفساد على الجوارح فوضعت الأمور على غير مواضعها .

فالشجاعة حرارة القلب وغضبه وقيامه وانتصابه وثباته ، فإذا رأته الأعضاء كذلك أعانته ، فإنها خدم له وجنود ، كما أنه إذا ولى ولت سائر جنوده .

وأما الجرأة : فهى إقدام سببه قلة المبالاة وعدم النظر فى العاقبة ؛ بل تقدم النفس فى غير موضع الإقدام يعرضه عن ملاحظة العارض ، فإما عليها وإما لها .

❊ ❊ ❊

فصل

[الفرق بين الحزم والجبن]

وأما الفرق بين الحزم والجبن .

فالحازم : هو الذى قد جمع عليه همه وإرادته وعقله ووزن الأمور بعضها ببعض ، فأعد لكل منها قرنه . ولفظة الحزم تدل على القوة والإجماع ، ومنه حزمة الحطب . فحازم الرأى هو الذى اجتمعت له شئون رأيه وعرف منها خير الخيرين وشر الشرين فأحجم فى موضع الإحجام رأياً وعقلاً لا جبناً وضعفاً .

العاجز الرأى مضياع لفرصته — حتى إذا فات أمر عاتب القدرا

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه أبو داود فى الجهاد ٣/ ١٢ (٢٥١١) . وأحمد فى المسند : ٢/ ٣٠٢ ، ٣٢٠ عن أبى هريرة .

فصل

[الفرق بين الاقتصاد والشح]

وأما الفرق بين الاقتصاد والشح . أن الاقتصاد : خلق محمود يتولد من خلقين : عدل وحكمة ، فبالعدل يعتدل فى المنع والبذل . وبالحكمة يضع كل واحد منهما موضعه الذى يليق به فيتولد من بينهما الاقتصاد ، وهو وسط بين طرفين مذمومين كما قال تعالى : ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ ﴾ (٣) .

وأما الشح : فهو خلق ذميم يتولد من سوء الظن وضعف النفس ويمده وعد الشيطان حتى يصير هلعاً . والهلع شدة الحرص على الشىء ، والشره به ، فيتولد عنه المنع لبذله ، والجزع لفقده . كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ (٤) .

* * *

فصل

[الفرق بين الاحتراز وسوء الظن]

والفرق بين الاحتراز . وسوء الظن : أن المحترز ، بمنزلة رجل قد خرج بماله ومركوبه مسافرا يحترز بجهده من كل قاطع للطريق ، وكل مكان يتوقع منه الشر ، وكذلك يكون مع التأهب والاستعداد وأخذ الأسباب التى بها ينجو من المكروه ، فالمحترز كالمتسلح المتدرع الذى قد تأهب للقاء عدوه وأعد له عدته ، فهمه فى تهيئة أسباب النجاة ومحاربة عدوه قد أشغلته عن سوء الظن به ، وكلما ساء به الظن أخذ فى أنواع العدة والتأهب .

---

(١) الإسراء الآية : ٢٩ .
(٢) الفرقان الآية : ٦٧ .
(٣) الأعراف الآية : ٣١ .
(٤) المعارج الآيات : ١٩ - ٢١ .

وأما سوء الظن : فهو امتلاء قلبه بالظنون السيئة بالناس ، حتى يطفح على لسانه وجوارحه فهم معه أبدا فى الهمز واللمز ، والطعن والعيب ، والبغض يبغضهم ويبغضونه ، ويلعنهم ويلعنونه ، ويحذرهم ويحذرون منه . فالأول يخالطهم ويحترز منهم . والثانى يتجنبهم ويلحقه أذاهم . الأول داخل فيهم بالنصيحة والإحسان مع الاحتراز . والثانى خارج منهم مع الغش والدغل والبغض .

* * *

فصل

[الفرق بين الفراسة والظن]

والفرق بين الفراسة والظن - أن الظن : يخطىء ويصيب وهو يكون مع ظلمة القلب ونوره وطهارته ونجاسته ، ولهذا أمر تعالى باجتناب كثير منه وأخبر أن بعضه إثم .

وأما الفراسة : فأثنى على أهلها ومدحهم فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ .

قال ابن عباس رضى الله عنهما وغيره : أى للمتفرسين . وقال تعالى : ﴿ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ فالفراسة الصادقة لقلب قد تطهر وتصفى وتنزه من الأدناس ، وقرب من الله ، فهو ينظر بنور الله الذى جعله فى قلبه، وفى الترمذى وغيره من حديث أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » .

وهذه الفراسة نشأت له من قربه من الله ، فإن القلب إذا قرب من الله انقطعت عنه معارضات السوء المانعة من معرفة الحق وإدراكه ، وكان تلقيه من مشكاة قريبة من الله بحسب قربه منه ، وأضاء له النور بقدر قربه ، فرأى فى ذلك النور ما لم يره البعيد والمحجوب ، كما ثبت فى الصحيح من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ فيما يروى عن ربه عز وجل أنه قال : « .. وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلىّ مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ،

فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى » . فأخبر سبحانه أن تقرب عبده منه يفيده محبته له ، فإذا أحبه قرب من سمعه وبصره ويده ورجله ، فسمع به وأبصر به وبطش به ، ومشى به ، فصار قلبه كالمرآة الصافية تبدو فيها صور الحقائق على ما هى عليه ، فلا تكاد تخطىء له فراسة ، فإن العبد إذا أبصر باللَّه أبصر الأمر على ما هو عليه ، فإذا سمع باللَّه سمعه على ما هو عليه . وليس هذا من علم الغيب ؛ بل علام الغيوب قذف الحق فى قلب قريب مستبشر بنوره غير مشغول بنقوش الأباطيل والخيالات والوساوس ، التى تمنعه من حصول صور الحقائق فيه ، وإذا غلب على القلب النور فاض على الأركان ، وبادر من القلب إلى العين ، فكشف بعين بصره بحسب ذلك النور ، وقد كان رسول الله ﷺ يرى أصحابه فى الصلاة وهم خلفه كما يراهم أمامه [1] .

ورأى بيت المقدس عياناً وهو بمكة .

ورأى قصور الشام وأبواب صنعاء ومدائن كسرى وهو بالمدينة يحفر الخندق .

ورأى أمراءه بمؤته وقد أصيبوا وهو بالمدينة .

ورأى النجاشى بالحبشة لما مات وهو بالمدينة ، فخرج إلى المصلى فصلى عليه .

ورأى عمر سارية بنهاوند من أرض فارس هو وعساكر المسلمين ، وهم يقاتلون عدوهم فناداه : يا سارية الجبل .

[حكايات تفرس أمير المؤمنين عمر وعثمان رضى الله عنهما]
[وغيرهما من أكابر الدين]

ودخل عليه نفر من مذحج فيهم الأشتر النخعى فصعد فيه البصر وصوبه وقال أيهم هذا ؟ قالوا : مالك بن الحارث فقال : ماله قاتله الله إنى لأرى للمسلمين منه يوماً عصيباً . ودخل عمرو بن عبيد على الحسن فقال : هذا سيد الفتيان إن لم يحدث .

وقيل إن الشافعى ومحمد بن الحسن جلسا فى المسجد الحرام . فدخل رجل فقال محمد : أتفرس إنه نجار ، فقال الشافعى : أتفرس إنه حداد ، فسألاه ، فقال : كنت حداداً وأنا اليوم أنجر .

---

(١) هذا معنى حديث شريف أخرجه البخارى فى الأذان ٢/ ٢٤٢ - ٢٤٣ (٧١٨ - ٧١٩) .

ودخل أبو الحسن البوشنجى والحسن الحداد على أبى القاسم المناوى يعودانه ، فاشتريا فى طريقهما بنصف درهم تفاحا نسيئة ، فلما دخلا عليه قال : ما هذه الظلمة، فخرجا وقالا : ما علمنا لعل هذا من قبل ثمن التفاح ، فأعطيا الثمن ثم عاد إليه ووقع بصره عليهما فقال : يمكن الإنسان أن يخرج من الظلمة بهذه السرعة أخبرانى عن شأنكما فأخبراه بالقصة ، فقال : نعم ، كان كل واحد منكما يعتمد على صاحبه فى إعطاء الثمن ، والرجل مستح منكما فى التقاضى .

وكان بين أبى زكريا النخشبى وبين امرأة سبب قبل توبته ، فكان يوماً واقفاً على رأس أبى عثمان الحيرى فتفكر فى شأنها فرفع أبو عثمان إليه رأسه ، وقال : ألا تستحيى ؟

وكان شاه الكرمانى جيد الفراسة لا تخطىء فراسته وكان يقول : من غض بصره عن المحارم وأمسك نفسه عن الشهوات وعمر باطنه بدوام المراقبة ، وظاهره باتباع السنة، وتعود أكل الحلال لم تخطىء فراسته .

وكان شاب يصحب الجنيد يتكلم على الخواطر فذكر للجنيد فقال : إيش [1] هذا الذى ذكر لى عنك ؟ فقال له : أعتقد شيئاً ، فقال له الجنيد : اعتقدت . فقال الشاب : اعتقدت كذا وكذا ، فقال الجنيد : لا . فقال : فاعتقد ثانياً ، قال : اعتقدت . فقال الشاب : اعتقدت كذا وكذا ، فقال الجنيد : لا . قال فاعتقد ثالثا ، قال : اعتقدت قال الشاب : هو كذا وكذا . قال : لا . فقال الشاب : هذا عجب وأنت صدوق وأنا أعرف قلبى ، فقال الجنيد : صدقت فى الأولى والثانية والثالثة ، لكن أردت أن أمتحنك هل يتغير قلبك .

وقال أبو سعيد الخراز : دخلت المسجد الحرام فدخل فقير عليه خرقتان يسأل شيئاً ، فقلت فى نفسى : مثل هذا كل [2] على الناس ، فنظر إلى وقال :﴿ اعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه ﴾ [3] . قال : فاستغفرت فى سرى . فنادانى . وقال : ﴿ وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ﴾ [4] .

---

(١) أيش : كلمة عربية فصيحة ، تطلق للاستفهام ، ويقصد بها : أى شىء .

(٢) كَلّ : أى عَالَة .　　(٣) البقرة الآية : ٢٣٥ بلفظ : « واعلموا » .

(٤) الشورى الآية : ٢٥ .

وقال إبراهيم الخواص : كنت فى الجامع فأقبل شاب طيب الرائحة حسن الوجه حسن الحرمة فقلت لأصحابنا : يقع لى أنه يهودى ، فكلهم كره ذلك . فخرجت وخرج الشاب ثم رجع إليهم فقال : إيش قال الشيخ فى ؟ فاحتشموه فألح عليهم فقالوا : قال إنك يهودى ، فجاء فأكب على يدى فأسلم ، فقلت : ما السبب ؟ فقال : نجد فى كتابنا أن الصديق لا تخطىء فراسته ، فقلت : أمتحن المسلمين فتأملتهم . فقلت : إن كان فيهم صديق ، ففى هذه الطائفة فلبست عليكم ، فلما اطلع هذا الشيخ على وتفرسنى علمت أنه صديق .

وهذا عثمان بن عفان دخل عليه رجل من الصحابة وقد رأى امرأة فى الطريق فتأمل محاسنها . فقال له عثمان : يدخل على أحدكم وأثر الزنا ظاهر على عينيه ، فقلت: أوحىٌ بعد رسول الله ﷺ ؟ فقال : لا . ولكن تبصرة وبرهان وفراسة صادقة فهذا شأن الفراسة ، وهى نور يقذفه الله فى القلب ، فيخطر له الشىء فيكون كما خطر له، وينفذ إلى العين فترى ما لا يراه غيرها .

❊ ❊ ❊

فصل

[الفرق بين النصيحة والغيبة]

والفرق بين النصيحة والغيبة : أن النصيحة : يكون القصد فيها تحذير المسلم من مبتدع أو فتان أو غاش أو مفسد ، فتذكر ما فيه إذا استشارك فى صحبته ومعاملته والتعلق به ، كما قال النبى ﷺ ، لفاطمة بنت قيس ، وقد استشارته فى نكاح معاوية وأبى جهم فقال : « أما معاوية فصعلوك ، وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه » .

وقال عن بعض أصحابه لمن سافر معه : « إذا هبطت بلاد قومه فاحذره » .

فإذا وقعت الغيبة على وجه النصيحة لله ورسوله وعباده المسلمين فهى قربة إلى الله من جملة الحسنات ، وإذا وقعت على وجه ذم أخيك وتمزيق عرضه والتفكه بلحمه والغض منه ، لتضع منزلته من قلوب الناس ، فهى الداء العضال ونار الحسنات التى تأكلها كما تأكل النار الحطب .

❊ ❊ ❊

فصل

[الفرق بين الهدية والرشوة وإعطاء الرشوة لدفع الظلم]

والفرق بين الهدية والرشوة وإن اشتبها فى الصورة والقصد . فإن الراشى : قصده بالرشوة التوصل إلى إبطال حق أو تحقيق باطل ، فهذا الراشى الملعون على لسان رسول الله ﷺ ، فإن رشا لدفع الظلم عن نفسه اختص المرتشى وحده باللعنة .

وأما المهدى فقصده استجلاب المودة والمعرفة والإحسان ، فإن قصد المكافأة فهو معاوض وإن قصد الربح فهو مستكثر .

* * *

فصل

[الفرق بين الصبر والقسوة]

والفرق بين الصبر والقسوة ، أن الصبر : خلق كسبى يتخلق به العبد ، وهو حبس النفس عن الجزع والهلع والتشكى ، فيحبس النفس عن التسخط ، واللسان عن الشكوى ، والجوارح ، عما لا ينبغى فعله ، وهو ثبات القلب على الأحكام القدرية والشرعية .

وأما القسوة : فيبس فى القلب يمنعه من الانفعال ، وغلظة تمنعه من التأثر بالنوازل فلا يتأثر لغلظته وقساوته لا لصبره واحتماله .

[القلوب ثلاثة]

وتحقيق هذا أن القلوب ثلاثة : قلب قاس غليظ بمنزلة اليد اليابسة . وقلب مائع رقيق جداً . فالأول لا ينفعل بمنزلة الحجر ، والثانى بمنزلة الماء وكلاهما ناقص . وأصح القلوب : القلب الرقيق ، الصافى الصلب ، فهو يرى الحق من الباطل بصفائه ويقبله ويؤثره برقته ويحفظه ويحارب عدوه بصلابته ، وفى الأثر : القلوب آنية الله فى أرضه فأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفاها . وهذا القلب الزجاجى فإن الزجاجة جمعت الأوصاف الثلاثة ، وأبغض القلوب إلى الله القلب القاسى قال تعالى :

﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [١] . وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [٢] . وقال تعالى : ﴿ لِيَجْعَلَ مَايُلْقِى الشَّيْطَنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ [٣] فذكر القلبين المنحرفين عن الاعتدال هذا بمرضه وهذا بقسوته ، وجعل إلقاء الشيطان فتنة لأصحاب هذين القلبين ورحمة لأصحاب القلب الثالث ، وهو القلب الصافى الذى ميز بين إلقاء الشيطان وإلقاء الملك بصفائه وقبل الحق بإخباته ورقته ، وحارب النفوس المبطلة بصلابته وقوته ، فقال تعالى عقيب ذلك : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [٤] .

فصل

[الفرق بين العفو والذل]

والفرق بين العفو والذل ، أن العفو : إسقاط حقك جوداً وكرماً وإحساناً مع قدرتك على الانتقام ، فتؤثر الترك رغبة فى الإحسان ومكارم الأخلاق . بخلاف الذل، فإن صاحبه يترك الانتقام عجزاً وخوفاً ومهانة نفس ، فهذا مذموم غير محمود، ولعل المنتقم بالحق أحسن حالاً منه ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ . فمدحهم بقوتهم على الانتصار لنفوسهم وتقاضيهم منها ذلك حتى إذا قدروا على من بغى عليهم وتمكنوا من استيفاء ما لهم عليه ندبهم إلى الخلق الشريف من العفو والصفح ، فقال : ﴿ وَجَزَؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّلِمِينَ ﴾ . فذكر المقامات الثلاثة : العدل وأباحه ، والفضل وندب إليه ، والظلم وحرمه .

فإن قيل : فكيف مدحهم على الانتصار والعفو وهما متنافيان ؟

قيل : لم يمدحهم على الاستيفاء والانتقام ، وإنما مدحهم على الانتصار وهو القدرة والقوة على استيفاء حقهم ، فلما قدروا ندبهم إلى العفو .

(١) الزمر الآية : ٢٢ . (٢) البقرة الآية : ٧٤ .
(٣) الحج الآية ٥٣ . (٤) الحج الآية : ٥٤

قال بعض السلف فى هذه الآية : كانوا يكرهونه أن يستذلوا فإذا قدروا عفوا فمدحهم على عفو بعد قدرة لا على عفو ذل وعجز ومهانة ، وهذا هو الكمال الذى مدح سبحانه به نفسه فى قوله : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ . ﴿ واللَّه غفور رحيم﴾ .

[تسبيح حملة العرش]

وفى أثر معروف ، حملة العرش أربعة : إثنان يقولان سبحانك اللهم ربنا وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك ، وإثنان يقولان : سبحانك اللهم ربنا وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك .

ولهذا قال المسيح صلوات الله وسلامه عليه : ﴿ إن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ . أى إن غفرت لهم عن عزة وهى كمال القدرة وحكمة وهى كمال العلم فغفرت بعد أن علمت ما عملوا وأحاطت بهم قدرتك ، إذ المخلوق قد يغفر بعجزه عن الانتقام وجهله بحقيقة ما صدر من المسىء ، والعفو من المخلوق ظاهره ضيم وذل وباطنه عز ومهابة ، والانتقام ظاهره عز وباطنه ذل ، فما زاد الله بعفو إلا عزا ولا انتقم أحد لنفسه إلا ذل ، ولو لم يكن إلا بفوات عز العفو ولهذا ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قط وتأمل قوله سبحانه : ﴿ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ كيف يفهم منه أن فيهم من القوة ما يكونون هم بها المنتصرين لأنفسهم لا أن غيرهم هو الذى ينصرهم ، ولما كان الانتصار لا تقف النفوس فيه على حد العدل غالباً ، بل لا بد من المجاوزة شرع فيه سبحانه المماثلة والمساواة ، وحرم الزيادة وندب إلى العفو.

والمقصود : أن العفو من أخلاق النفس المطمئنة والذل من أخلاق الأمارة . ونكتة المسألة أن الانتقام شىء والانتصار شىء .

[الفرق بين الانتصار والانتقام]

فالانتصار : أن ينتصر لحق الله ومن أجله ولا يقوى على ذلك إلا من تخلص من ذل حظه ورق هواه ، فإنه حينئذ ينال حظا من العز الذى قسم الله للمؤمنين ، فإذا بغى عليه انتصر من الباغى من أجل عز الله الذى أعزه به غيرة على ذلك العز ، أن يستضام ويقهر وحمية للعبد المنسوب إلى العزيز الحميد أن يستذل فهو يقول للباغى عليه : أنا مملوك من لا يذل مملوكه ، ولا يحب أن يذله أحد ، وإذا كانت نفسه

الأمارة قائمة على أصولها لم تحب بعد طلبه إلا الانتقام والانتصار لحظها وظفرها بالباغى تشفيا فيه وإذلالاً له .

وأما النفس المطمئنة التى خرجت من ذل حظها ورق هواها إلى عز توحيدها وإنابتها إلى ربها ، فإذا نالها البغى قامت بالانتصار حمية ونصرة للعز الذى أعزها الله به ونالته منه ، وهو فى الحقيقة حمية لربها ومولاها .

وقد ضرب لذلك مثل بعبدين من عبيد الغلة حراثين ، ضرب أحدهما صاحبه فعفا المضروب عن الضارب نصحا منه لسيده ، وشفقة على الضارب أن يعاقبه السيد ، فلم يجشم سيده خلقه [1] عقوبته وإفساده بالضرب ، فشكر العافى على عفوه ووقع منه بموقع، وعبد آخر قد أقامه بين يديه وجمله وألبسه ثياباً يقف بها بين يديه ، فعمد بعض سواس الدواب وأضرابهم ولطخ تلك الثياب بالعذرة أو مزقها ، فلو عفا عمن فعل به ذلك لم يوافق عفوه رأى سيده ولا محبته ، وكان الانتصار أحب إليه وأوفق لمرضاته، كأنه يقول إنما فعل هذا بك جرأة على واستخفافا بسلطانى ، فإذا أمكنه من عقوبته ، فأذله وقهره ولم يبق إلا أن يبطش به ، فذل وانكسر قلبه فإن سيده يحب منه أن لا يعاقبه لحظة ، وأن يأخذ منه حق السيد ، فيكون انتصاره حينئذ لمحض حق سيده لا لنفسه ، كما روى عن على رضى الله عنه أنه مر برجل فاستغاث به ، وقال: هذا منعنى حقى ، ولم يعطنى إياه ، فقال : اعطه حقه . فلما جاوزهما لج الظالم ولطلم صاحب الحق ، فاستغاث بعلىٍّ فرجع ، وقال : أتاك الغوث فقال له : استقد منه . فقال : قد عفوت يا أمير المؤمنين فضربه علىٌّ تسع درر . وقال : قد عفا عنك من لطمته . وهذا حق السلطان . فعاقبه علىٌّ لما اجترأ على سلطان الله ولم يدعه .

ويشبه هذا قصة الرجل الذى جاء إلى أبى بكر رضى الله عنه فقال : احملنى فواللَّه لأنا أفرس منك ومن إبنك - وعنده المغيرة بن شعبة - فحسر عن ذراعه وصك بها أنف الرجل . فسال الدم فجاء قومه إلى أبى بكر رضى الله عنه فقالوا : أقدنا من المغيرة . فقال : أنا أقيدكم من وزعة الله ؟ لا أقيدكم منه . فرأى أبو بكر أن ذلك انتصاراً من المغيرة وحمية لله وللعز الذى أعز به خليفة رسول الله ﷺ . ليتمكن بذلك العز من حسن خلافته وإقامة دينه . فترك قوده لاجترائه على الله وسلطانه الذى أعز به رسوله ودينه وخليفته . فهذا لون ، والضرب حمية للنفس الأمارة لون .

---

(١) لعله سقطت كلمة « على » خلقه على عقوبته .

فصل

[الفرق بين سلامة القلب والبله والتغفل]

والفرق بين سلامة القلب والبله والتغفل أن سلامة القلب : تكون من عدم إرادة الشر بعد معرفته ، فيسلم قلبه من إرادته وقصده لا من معرفته ، والعلم به ، وهذا بخلاف البله والغفلة فإنها جهل وقلة معرفة ، وهذا لا يحمد إذ هو نقص ، وإنما يحمد الناس من هو كذلك لسلامتهم منه ، والكمال أن يكون القلب عارفاً بتفاصيل الشر سليماً من إرادته . قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لست بخب [1] ولا يخدعنى الخب .

وكان عمر أعقل من أن يخدع وأروع من أن يخدع ، وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ * إلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [2] فهذا هو السليم من الآفات التى تعترى القلوب المريضة من الشبهة التى توجب اتباع الظن ، ومرض الشهوة التى توجب اتباع ما تهوى الأنفس ، فالقلب السليم الذى سلم من هذا وهذا .

فصل

[الفرق بين الثقة والغرة]

والفرق بين الثقة والغرة [3] ، أن الثقة : سكون يستند إلى أدلة وأمارات يسكن القلب إليها ، فكلما قويت تلك الأمارات قويت الثقة واستحكمت ، ولا سيما على كثرة التجارب وصدق الفراسة ، واللفظة كأنها واللَّه أعلم من الوثاق وهو الرباط . فالقلب قد ارتبط بمن وثق به توكلاً عليه وحسن ظن به ، فصار فى وثاق محبته ومعاملته والاستناد إليه والاعتماد عليه ، فهو فى وثاقه بقلبه وروحه وبدنه ، فإذا سار القلب إلى الله وانقطع إليه تقيد بحبه وصار فى وثاق العبودية ، فلم يبق له مفزع فى النوائب ولا ملجأ غيره ويصير عدته فى شدته وذخيرته فى نوائبه وملجأه فى نوازله ومستعانه فى حوائجه وضروراته .

وأما الغرة : فهى حال المغتر الذى غرته نفسه وشيطانه وهواه ، وأمله الخائب

(١) الخب : المخادع .　(٢) الشعراء الآية : ٨٨ - ٨٩ .　(٣) الغرة : الغرور .

الكاذب بربه حتى أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأمانى . والغرور ثقتك بمن لا يوثق به ، وسكونك إلى من لا يسكن إليه ، ورجاؤك النفع من المحل الذى لا يأتى بخير ، كحال المغتر بالسراب قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْئَانُ مَآءً حَتَّى إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّٰهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ وقال تعالى فى وصف المغترين : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صنعا ﴾ وهؤلاء إذا انكشف الغطاء وثبتت حقائق الأمور علموا أنهم لم يكونوا على شىء وبدا لهم ما لم يكونوا يحتسبون .

وفى أثر معروف إذا رأيت الله سبحانه يزيدك من نعمه وأنت مقيم على معصيته فاحذره ، فإنما هو استدراج يستدرجك به ، وشاهد هذا فى القرآن فى قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَآ أُوتُوا أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ وهذا من أعظم الغرة أن تراه يتابع عليك نعمه وأنت مقيم على ما يكره ، فالشيطان موكل بالغرور وطبع النفس الأمارة الاغترار فإذا اجتمع الرأى والبغى والرأى المحتاج ، والشيطان الغرور والنفس المغترة ، لم يقع هناك خلاف . فالشياطين غروا المغترين باللَّه وأطمعوهم مع إقامتهم على ما يسخط الله ويغضبه فى عفوه وتجاوزه ، وحدثوهم بالتوبة ، لتسكن قلوبهم ، ثم دافعوهم بالتسويف حتى هجم الأجل فأخذوا على أسوأ أحوالهم ، وقال تعالى : ﴿ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِىُّ حَتَّى جَآءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ وقال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ .

وأعظم الناس غروراً بربه من إذا مسه الله برحمة منه وفضل قال هذا لى أى أنا أهله ، وجدير به ومستحق له ، ثم قال : وما أظن الساعة قائمة . فظن أنه أهل لما أولاه من النعم مع كفره باللَّه ، ثم زاد فى غروره فقال : ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى : يعنى الجنة والكرامة . فهكذا تكون الغرة باللَّه فالمغتر بالشيطان مغتر بوعوده وأمانيه ، وقد ساعده اغتراره بدنياه ونفسه فلا يزال كذلك حتى يتردى فى آبار الهلاك .

❊ ❊ ❊

فصل

[الفرق بين الرجاء والتمنى]

والفرق بين الرجاء والتمنى ، أن الرجاء : يكون مع بذل الجهد واستفراغ الطاقة فى الإتيان بأسباب الظفر والفوز .

والتمنى : حديث النفس بحصول ذلك مع تعطيل الأسباب الموصلة إليه . قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَـٰهَدُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ أُولَـٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ الله ﴾ فطوى سبحانه بساط الرجاء إلا عن هؤلاء وقال المغترون إن الذين ضيعوا أوامره وارتكبوا نواهيه واتبعوا ما أسخطه وتجنبوا ما يرضيه أولئك يرجون رحمته ، وليس هذا ببدع من غرور النفس والشيطان لهم ، فالرجاء لعبد قد امتلأ قلبه من الإيمان باللَّه واليوم الآخر فمثل بين عينيه ما وعده الله تعالى من كرامته وجنته ، فامتد مائلاً إلى ذلك شوقاً إليه ، وحرصاً عليه فهو شبيه بالماد عنقه إلى مطلوب قد صار نصب عينيه .

وعلامة الرجاء الصحيح أن الراجى يخاف فوت الجنة وذهاب حظه منها ، بترك ما يخاف أن يحول بينه وبين دخولها ، فمثله رجل خطب امرأة كريمة فى منصب وشرف إلى أهلها ، فلما آن وقت العقد واجتماع الأشراف والأكابر ، وإتيان الرجل إلى الحضور ، أعلم عشية ذلك اليوم ليتأهب للحضور ، فتراه المرأة وأكابر الناس فأخذ فى التأهب والتزين والتجمل فأخذ من فضول شعره ، وتنظف وتطيب ، ولبس أجمل ثيابه . وأتى إلى تلك الدار متقياً فى طريقه كل وسخ ودنس وأثر يصيبه أشد تقوى حتى الغبار والدخان ، وما هو دون ذلك ، فلما وصل إلى الباب رحب به ربها ومكن له فى صدر الدار على الفرش والوسائد ، ورمقته العيون وقصد بالكرامة من كل ناحية ، فلو أنه ذهب بعد الفرش والوسائد ، ورمقته العيون وقصد بالكرامة من كل ناحية ، فلو أنه ذهب بعد أخذ هذه الزينة فجلس فى المزابل وتمرغ عليها وتمعك بها وتلطخ فى بدنه وثيابه بما عليها من عذرة وقذر ، ودخل ذلك في شعره وبشره وثيابه فجاء على تلك الحال إلى تلك الدار ، وقصد دخولها للوعد الذى سبق له ، فقام إليه البواب بالضرب والطرد والصياح عليه ، والإبعاد له من بابها ، وطريقها فرجع متحيراً خاسئاً ، فالأول حال الراجى ، وهذا حال المتمنى .

وإن شئت مثلت حال الرجلين بملك هو من أغير الناس وأعظمهم أمانة وأحسنهم معاملة ، لا يضيع لديه حق أحد وهو يعامل الناس من وراء ستر لا يراه أحد وبضائعه وأمواله وتجاراته وعبيده وإماؤه ، ظاهر بارز فى داره للمعاملين . فدخل عليه رجلان فكان أحدهما يعامله بالصدق والأمانة والنصيحة ، لم يجرب عليه غشاً ولا خيانة ولا مكراً ، فباعه بضائعه كلها واعتمد مع مماليكه وجواريه ، ما يجب أن يعتمد معهم ، فكان إذا دخل إليه ببضاعة تخير له أحسن البضائع وأحبها إليه ، وإن صنعها بيده بذل جهده فى تحسينها وتنميقها ، وجعل ما خفى منها أحسن مما ظهر ويستلم المؤنة ممن أمره أن يستلمها منه ، وامتثل ما أمره به السفير وبينه فى مقدار ما يعمله صفته وهيئته وشكله ورقته وسائر شئونه .

وكان الآخر إذا دخل بأخس بضاعة يجدها لم يخلصها من الغش ، ولا نصح فيها ولا اعتمد فى أمرها ما قاله المترجم عن الملك والسفير بينه وبين الصناع والتجار ، بل كان يعملها على ما يهواه هو ومع ذلك فكان يخون الملك فى داره ، إذ هو غائب عن عينه ، فلا يلوح له طمع إلا خانه ، ولا حرمة للملك إلا مد بصره إليها ، وحرص على إفسادها ، ولا شيئا يسخط الملك إلا ارتكبه إذا قدر عليه ، فمضيا على ذلك مدة.

ثم قيل : إن الملك يبرز اليوم لعامليه حتى يحاسبهم ويعطيهم حقوقهم ، فوقف الرجلان بين يديه فعامل كل واحد منهما بما يستحقه .

فتأمل هذين المثلين فإن الواقع مطابق لهما ، فالراجى على الحقيقة لما صارت الجنة نصب عينه ورجاؤه وأمله امتد إليها قلبه وسعى لها سعيها ، فإن الرجاء هو امتداد القلب وميله وحقق رجاءه كمال التأهب وخوف الفوت والأخذ بالحذر .

وأصله من التنحى ورجا البئر ناحيته وأرجاء السماء نواحيها وامتداد القلب إلى المحبوب منقطعا عما يقطعه عنه ، هو تنح عن النفس الأمارة وأسبابها وما تدعو إليه وهذا الامتداد والميل والخوف من شأن النفس المطمئنة . فإن القلب إذا انفتحت بصيرته فرأى الآخرة ، وما أعد الله فيها لأهل طاعته ، وأهل معصيته خاف وخف مرتحلاً إلى الله والدار الآخرة ، وكان قبل ذلك مطمئناً إلى النفس ، والنفس إلى الشهوات والدنيا ، فلما انكشف عنه غطاء النفس خف وارتحل عن جوارها ، طالباً جوار العزيز الرحيم فى جنات النعيم ، ومن هاهنا صار كل خائف راجياً وكل راج خائفاً ، فأطلق اسم أحدهما على الآخر ، فإن الراجى قلبه قريب الصفة من قلب الخائف . هذا

الراجى قد نحى قلبه عن مجاورة النفس والشيطان مرتحلاً إلى الله ، قد رفع له من الجنة علم فشمر إليه وله ماداً إليه قلبه كله ، وهذا الخائف فار من جوارهما ملتجىء إلى الله من حبسه فى سجنهما فى الدنيا فيحبس معهما بعد الموت ويوم القيامة ، فإن المرء مع قرينه فى الدنيا والآخرة ، فلما سمع الوعيد ارتحل من مجاورة جار السوء فى الدارين ، فأعطى اسم الخائف . ولما سمع الوعد امتد واستطار شوقاً إليه وفرحاً بالظفر به ، فأعطى اسم الراجى ، وحالاه متلازمان لا ينفك عنهما ، فكل راج خائف من فوات ما يرجوه ، كما أن كل خائف راج أمنه مما يخاف ، فلذلك تداول الاسمان عليه . قال تعالى : ﴿ مَّا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ (1) .

قالوا فى تفسيرها : لا تخافون لله عظمة . وقد تقدم أن الله سبحانه طوى الرجاء إلا عن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا . وقد فسر النبى ﷺ ، الإيمان بأنه ذو شعب وأعمال ظاهرة وباطنة ، وفسر الهجرة بأنها هجرة ما نهى الله عنه ، والمجاهد من جاهد نفسه فى ذات الله فقال : « المهاجر من هجر ما نهى عنه (2) ، والمجاهد من جاهد نفسه فى ذات الله » .

والمقصود أن الله سبحانه جعل أهل الرجاء من آمن وهاجر وجاهد وأخرج من سواهم من هذه الأمم .

وأما الأمانى : فإنها رءوس أموال المفاليس ، أخرجوها فى قالب الرجاء ، وتلك أمانيهم ، وهى تصدر من قلب تزاحمت عليه وساوس النفس ، فأظلم من دخانها فهو يستعمل قلبه فى شهواتها ، وكلما فعل ذلك منته حسن العاقبة والنجاة ، وأحالته على العفو والمغفرة والفضل ، وأن الكريم لا يستوفى حقه ولا تضره الذنوب ولا تنقصه المغفرة ويسمى ذلك رجاء ، وإنما هو وسواس وأمانى باطلة تقذف بها النفس إلى القلب الجاهل فيستريح إليها . قال تعالى : ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًا وَلَا نَصِيرًا ﴾ (3) .

---

(1) سورة نوح الآية : ١٣ .

(2) جزء من حديث أخرجه البخارى فى الإيمان ٦٩/١ (١٠) ، وأبو داود فى الوتر (باب ٢ ، ١١ ، ١٢) . والنسائى فى الإيمان باب (٩) ، وابن ماجه فى الفتن باب (٢) . وأحمد فى المسند : ١٦٣/٢ ، ١٩٣ ، ٢٠٥ . وغير موضع .

(3) النساء الآية ١٢٣ .

فإذا ترك العبد ولاية الحق ونصرته ترك الله ولايته ونصرته ، ولم يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً ، وإذا ترك ولايته ونصرته تولته نفسه والشيطان فصارا ولبين له ، ووكل إلى نفسه فصار انتصاره لها بدلا من نصرة الله ورسوله ، فاستبدل بولاية الله ولاية نفسه وشيطانه وبنصرته نصرة نفسه وهواه ، فلم يدع للرجاء موضعاً . فإذا قالت لك النفس : أنا فى مقام الرجاء . فطالبها بالبرهان ، وقل : هذه أمنية فهاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ، فالكيس يعمل أعمال البر على الطمع والرجاء ، والأحمق العاجز يعطل أعمال البر ويتكل على الأمانى التى يسميها رجاء . واللَّه الموفق .

فصل

[الفرق بين التحدث بنعم الله والفخر بها]

والفرق بين التحدث بنعم الله والفخر بها . أن المتحدث بالنعمة : مخبر عن صفات وليها ومحض جوده وإحسانه فهو مثن عليه بإظهارها والتحدث بها ، شاكر له ناشر لجميع ما أولاه مقصوده بذلك إظهار صفات الله ومدحه والثناء ، وبعث النفس على الطلب منه دون غيره ، وعلى محبته ورجائه فيكون راغبا إلى الله بإظهار نعمه ونشرها والتحدث بها .

وأما الفخر بالنعم : فهو أن يستطيل بها على الناس ويريهم أنه أعز منهم وأكبر فيركب أعناقهم ويستعبد قلوبهم ويستميلها إليه بالتعظيم والخدمة .

قال النعمان بن بشير : إن للشيطان مصالى وفخوخاً وإن من مصاليه وفخوخه البطش بنعم الله ، والكبر على عباد الله ، والفخر بعطية الله ، والهون فى غير ذات الله .

فصل

[الفرق بين فرح القلب وفرح النفس]

والفرق بين فرح القلب وفرح النفس ظاهر ، فإن الفرح باللَّه ومعرفته ومحبته وكلامه من القلب : قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾[1] .

---

(1) الرعد الآية : ٣٦ .

فإذا كان أهل الكتاب يفرحون بالوحى فأولياء الله وأتباع رسوله أحق بالفرح به . وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ .

قال أبو سعيد الخدرى : فضل الله : القرآن ، ورحمته أن جعلكم من أهله .

وقال هلال بن يساف : فضل الله ورحمته الإسلام الذى هداكم إليه ، والقرآن الذى علمكم ، هو خير من الذهب والفضة الذى تجمعون .

وقال ابن عباس والحسن وقتادة وجمهور المفسرين : فضل الله الإسلام ورحمته القرآن ، فهذا فرح القلب وهو الإيمان ويثاب عليه العبد ، فإن فرحه به يدل على رضاه به ، بل هو فرق الرضاء . فالفرح بذلك على قدر محبته . فإن الفرح إنما يكون بالظفر بالمحبوب . وعلى قدر محبته يفرح بحصوله له . فالفرح باللّه وأسمائه وصفاته ورسوله وسنته وكلامه محض الإيمان وصفوته ولبه ، وله عبودية عجيبة وأثر فى القلب لا يعبر عنه ، فابتهاج القلب وسروره وفرحه باللّه وأسمائه وصفاته وكلامه ورسوله ولقائه أفضل ما يعطاه بل هو أجل عطاياه . والفرح فى الآخرة باللّه ولقائه بحسب الفرح به ومحبته فى الدنيا . فالفرح بالوصول إلى المحبوب يكون على حسب قوة المحبة فى الدنيا . فالفرح بالوصول إلى المحبوب يكون على حسب قوة المحبة وضعفها فهذا شأن فرح القلب .

وله فرح آخر وهو فرحه بما من الله به عليه من معاملته والإخلاص له والتوكل عليه والثقة به وخوفه ورجائه به ، وكلما تمكن فى ذلك قوى فرحه وابتهاجه ، وله فرحة أخرى عظيمة الوقع عجيبة الشأن ، وهى الفرحة التى تحصل له بالتوبة فإن لها فرحة عجيبة لا نسبة لفرحة المعصية إليها ألبتة . فلو علم العاصى أن لذة التوبة وفرحتها تزيد على لذة المعصية وفرحتها أضعافا مضاعفة ، لبادر إليها أعظم من مبادرته إلى لذة المعصية ، وسر هذا الفرح إنما يعلمه من علم سر فرح الرب تعالى بتوبة عبده أشد فرح يقدر ، ولقد ضرب له رسول الله ﷺ مثلا ليس فى أنواع الفرح فى الدنيا أعظم منه ، وهو فرح رجل قد خرج براحلته التى عليها طعامه وشرابه فى سفر ففقدها فى

أرض دوية مهلكة ، فاجتهد فى طلبها فلم يجدها ، فيئس منها فجلس ينتظر الموت حتى إذا طلع البدر رأى فى ضوئه راحلته ، وقد تعلق زمامها بشجرة ، فقال من شدة فرحه : اللهم أنت عبدى وأنا ربك . أخطأ من شدة الفرح ، فاللّه أفرح بتوبة عبده من هذا براحلته .

فلا ينكر أن يحصل للتائب نصيب وافر من الفرح بالتوبة ، ولكن هاهنا أمر يجب التنبيه عليه ، وهو أنه لا يصل إلى ذلك إلا بعد ترحات ومضض ومحن ، لا تثبت لها الجبال ، فإن صبر لها ظفر بلذة الفرح ، وإن ضعف عن حملها ولم يصبر لها لم يظفر بشىء وآخر أمره فوات ما آثره من فرحة المعصية ولذتها ، فيفوته الأمران ويحصل على ضد اللذة من الألم المركب من وجود المؤذى وفوت المحبوب ، فالحكم لله العلى الكبير .

❊ ❊ ❊

فصل

[بيان أعظم الفرح]

وهاهنا فرحة أعظم من هذا كله ، وهى فرحته عند مفارقته الدنيا إلى الله إذا أرسل إليه الملائكة فبشروه بلقائه ، وقال له ملك الموت : اخرجى أيتها الروح الطيبة كانت فى الجسد الطيب ، أبشرى بروح وريحان ورب غير غضبان ، اخرجى راضية مرضياً عنك يا أيتها النفس المطمئنة ، ارجعى إلى ربك راضية مرضية ، فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى .

فلو لم يكن بين يدى التائب إلا هذه الفرحة وحدها لكان العقل يأمر بإيثارها ، فكيف ومن بعدها أنواع من الفرح منها صلاة الملائكة الذين بين السماء والأرض على روحه ، ومنها فتح أبواب السماء لها وصلاة ملائكة السماء عليها وتشييع مقربيها لها إلى السماء الثانية ، فتفتح وَيُصَلِّى عليها أهلها ويشيعها مقربوها هكذا إلى السماء السابعة ، فكيف يقدر فرحها ، وقد استؤذن لها على ربها ووليها وحبيبها ، فوقفت بين يديه وأذن لها بالسجود فسجدت ، ثم سمعته سبحانه يقول : اكتبوا كتابه فى عليين ، ثم يذهب به فيرى الجنة ومقعده فيها ، وما أعد الله له ويلقى أصحابه وأهله فيستبشرون به ويفرحون به ، ويفرح بهم فرح الغائب يقدم على أهله فيجدهم على

أحسن حال ، ويقدم عليهم بخير ما قدم به مسافر هذا كله قبل الفرح الأكبر يوم حشر الأجسام بجلوسه فى ظل العرش ، وشربه من الحوض ، وأخذه كتابه بيمينه وثقل ميزانه ، وبياض وجهه وإعطائه النور التام والناس فى الظلمة ، وقطعه جسر جهنم بلا تَعْوِيق [1] ، وانتهائه إلى باب الجنة ، وقد أزلفت له فى الموقف . وتلقي خزنتها له بالترحيب والسلام والبشارة ، وقدومه على منازله وقصوره وأزواجه وسراريه ، وبعد ذلك فرح آخر لا يقدر قدره ولا يعبر عنه تتلاشى هذه الأفراح كلها عنده ، وإنما يكون هذا لأهل السنة المصدقين برؤية وجه ربهم تبارك وتعالى من فوقهم وسلامه عليهم وتكليمه إياهم ومحاضرته لهم :

وليســــــــــت هذه الفرحات إلا	لذى الترحـات فى دار الرزايا
فشمرت ما استطعت الساق واجهد	لعـلك أن تفوز بذى العطايا
وصم عن لذة حشــيت بلاء	للذات خلصـــن مـن البلايا
ودع أمنية أن لم تنلهــا	تعذب أو تنل كانت منايا
ولا تســتبط وعدا من رسول	أتى بالحق من رب البرايـا
فهذا الوعد أدنى من نعيــم	مضى بالأمس لو وفقت رايا

فصل

[الفرق بين رقة القلب والجزع]

والفرق بين رقة القلب والجزع ، أن الجزع : ضعف فى النفس وخوف فى القلب، يمده شدة الطمع والحرص ، ويتولد من ضعف الإيمان بالقدر . وإلا فمتى علم أن المقدر كائن ولابد ، كان الجزع عناءً محضا ، ومصيبة ثانية قال تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى الأَرْضِ ولا فِى أَنفُسِكُمْ إلا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَكُمْ ﴾ [2] .

---

(١) تعويق أى موانع ، يقال : عاقه : عوقاً من باب قال ، واعتاقه وعوقه بمعنى منعه (المصباح المنير ص٤٣٨) .

(٢) الحديد الآية : ٢٢ ، ٢٣ .

فمتى آمن العبد بالقدر وعلم أن المصيبة مقدرة فى الحاضر والغائب ، لم يجزع ولم يفرح . ولا ينافى هذا رقة القلب ، فإنها ناشئة من صفة الرحمة التى هى كمال الله سبحانه ، إنما يرحم من عباده الرحماء ، وقد كان رسول الله أرق الناس قلباً وأبعدهم من الجزع .

فرقة القلب : رأفة ورحمة وجزعه مرض وضعف ، فالجزع حال قلب مريض بالدنيا قد غشيه دخان النفس الأمارة فأخذ بأنفاسه ، وضيق عليه مسالك الآخرة وصار فى سجن الهوى والنفس وهو سجن ضيق الأرجاء مظلم المسالك ، فانحصار القلب وضيقه يجزع من أدنى ما يصيبه ولا يحتمله ، فإذا أشرق فيه نور الإيمان واليقين بالوعد ، وامتلأ من محبة الله وإجلاله رق ، وصارت فيه الرأفة والرحمة فتراه رحيماً رقيق القلب بكل ذى قربى ، ومسلم يرحم النملة فى جحرها والطير فى وكره فضلا عن بنى جنسه ، فهذا أقرب القلوب من الله . قال أنس : « كان رسول الله ﷺ أرحم الناس بالعيال » [1] .

واللّه سبحانه إذا أراد أن يرحم عبداً أسكن فى قلبه الرأفة والرحمة ، وإذا أراد أن يعذبه نزع من قلبه الرحمة والرأفة ، وأبدله بهما الغلظة والقسوة . وفى الحديث الثابت : « لا تنزع الرحمة إلا من شقى » وفيه « من لا يرحم لا يرحم » [2] وفيه « ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » [3] وفيه « أهل الجنة ثلاثة : ذو سلطان مقسط متصدق ، ورجل رحيم رقيق القلب بكل ذى قربى ومسلم ، وعفيف متعفف ذو عيال » [4] .

والصديق رضى الله عنه إنما فضل الأمة بما كان فى قلبه من الرحمة العامة زيادة على الصديقية ، ولهذا أظهر أثرها فى جميع مقاماته حتى فى الأسارى يوم بدر ، واستقر الأمر على ما أشار به وضرب له ، صلى الله عليه وآله وسلم ، مثلا بعيسى وإبراهيم . والرب سبحانه وتعالى هو الرءوف الرحيم ، وأقرب الخلق إليه أعظمهم رأفة ورحمة ، كما أن أبعدهم منه من اتصف بضد صفاته . وهذا باب لا يلجه إلا الأفراد فى العالم .

---

(١) أخرجه ابن عساكر عن أنس ، ذكر ذلك السيوطى فى الجامع الصغير ٢/ ٢٢٣ (٦٨٢٠) وضعفه .
(٢) أخرجه البخارى فى الأدب ١٠/ ٤٤٠ (٥٩٩٧) . ومسلم فى الفضائل ٤/ ١٨٠٨ (٦٥) .
(٣) أخرجه الترمذى فى البر والصلة ٤/ ٢٨٥ (١٩٢٤) . وقال حديث حسن صحيح .
(٤) أخرجه مسلم فى الجنة وصفة نعيمها ٤/ ٢١٩٧ - ٢١٩٨ (٦٣) مطولاً وأحمد فى المسند : ٢/ ٤٢٥ ، ٤٧٩ .

فصل

[الفرق بين الموجدة والحقد]

والفرق بين الموجدة والحقد ، أن الوجد : الإحساس بالمؤلم ، والعلم به وتحرك النفس فى رفعه فهو كمال .

وأما الحقد : فهو إضمار الشر وتوقعه كل وقت ، فمن وجدت عليه فلا يزايل القلب أثره ، وفرق آخر وهو أن الموجدة لما ينالك منه ، والحقد لما يناله منك فالموجدة وجود ما نالك من أذاه ، والحقد توقع وجود ما يناله من المقابلة ، فالموجدة سريعة الزوال والحقد بطىء الزوال ، والحقد يجىء مع ضيق القلب ، واستيلاء ظلمة النفس ودخانها عليه بخلاف الموجدة فإنها تكون مع قوته وصلابته وقوة نوره وإحساسه .

* * *

فصل

[الفرق بين المنافسة والحسد]

والفرق بين المنافسة والحسد ، أن المنافسة : المبادرة إلى الكمال الذى تشاهد من غيرك ، فتنافسه فيه . حتى تلحقه أو تجاوزه ، فهى من شرف النفس وعلو الهمة ، وكبر القدر ، قال تعالى : ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ (1) .

وأصلها من الشىء النفيس الذى تتعلق به النفوس طلبا ورغبة ، فينافس فيه كل من النفسين الأخرى ، وربما فرحت إذا شاركتها فيه . كما كان أصحاب رسول الله ﷺ يتنافسون فى الخير ، ويفرح بعضهم ببعض باشتراكهم فيه ، بل يحض بعضهم بعضاً عليه مع تنافسهم فيه ، وهى نوع من المسابقة وقد قال تعالى : ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾(2) وقال تعالى : ﴿ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ ﴾ (3) .

وكان عمر بن الخطاب يسابق أبا بكر رضى الله عنهما فلم يظفر بسبقه أبدا ، فلما علم أنه قد استولى على الإمامة . قال : واللَّه لا أسابقك إلى شىء أبدا ، وقال : واللَّه ما سابقته إلى خير إلا وجدته قد سبقنى إليه .

---

(1) المطففين الآية : ٢٦ .　(2) البقرة الآية : ١٤٨ .　(3) الحديد الآية : ٢١ .

والمتنافسان كعبدين بين يدى سيدهما يتباريان ويتنافسان فى مرضاته ويتسابقان إلى محابه ، فسيدهما يعجبه ذلك منهما ، ويحثهما عليه ، وكل منهما يحب الآخر ويحرضه على مرضاة سيده .

والحسد : خلق نفس ذميمة وضيعة ساقطة ، ليس فيها حرص على الخير فلعجزها ومهانتها تحسد من يكسب الخير والمحامد ويفوز بها دونها ، ويتمنى أن لوفاته كسبها حتى يساويها فى العدم ، كما قال تعالى : ﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ﴾ (١) . وقال تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ (٢) فالحسود عدو النعمة متمن زوالها عن المحسود كما زالت عنه هو ، والمنافس مسابق النعمة متمن تمامها عليه وعلى من ينافسه فهو ينافس غيره ، أن يعلو عليه ويحب لحاقه به ، أو مجاوزته له فى الفضل والحسود يحب انحطاط غيره حتى يساويه فى النقصان ، وأكثر النفوس الفاضلة الخيرة تنتفع بالمنافسة ، فمن جعل نصب عينيه شخصا من أهل الفضل والسبق فنافسه انتفع به كثيراً ، فإنه يتشبه به ويطلب اللحاق به والتقدم عليه ، وهذا لانذمه وقد يطلق اسم الحسد على المنافسة المحمودة كما فى الصحيح عن النبى ﷺ : « لا حسد إلا فى اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ، ورجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته فى الحق » (٣) .

فهذا حسد منافسة وغبطة يدل على علو همة صاحبه وكبر نفسه وطلبها للتشبه بأهل الفضل .

* * *

فصل

[الفرق بين حب الرياسة وحب الإمارة]

والفرق بين حب الرياسة وحب الإمارة للدعوة إلى الله : هو الفرق بين تعظيم أمر الله والنصح له وتعظيم النفس والسعى فى حظها ، فإن الناصح لله المعظم له المحب له ، يحب أن يطاع ربه فلا يعصى ، وأن تكون كلمته هى العليا وأن يكون

---

(١) النساء الآية : ٨٩ . (٢) البقرة الآية : ١٠٩ . (٣) متفق عليه ، وسبق تخريجه .

الدين كله لله ، وأن يكون العباد ممتثلين أوامره مجتنبين نواهيه ، فقد ناصح الله فى عبوديته وناصح خلقه فى الدعوة إلى الله ، فهو يحب الإمامة فى الدين ، بل يسأل ربه أن يجعله للمتقين إماماً يقتدى به المتقون ، كما اقتدى هو بالمتقين ، فإذا أحب هذا العبد الداعى إلى الله أن يكون فى أعينهم جليلا وفى قلوبهم مهيبا وإليهم حبيباً وأن يكون فيهم مطاعا لكى يأتموا به ويقتفوا أثر الرسول على يده ، لم يضره ذلك بل يحمد عليه . لأنه داع إلى الله يحب أن يطاع ويعبد ويوحد فهو يحب ما يكون عوناً على ذلك موصلا إليه ، ولهذا ذكر سبحانه عباده الذين اختصهم لنفسه وأثنى عليهم فى تنزيله وأحسن جزاءهم يوم لقائه فذكرهم بأحسن أعمالهم وأوصافهم ثم قال : ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَجِنَا وذرياتنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ واجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[1] . فسألوه أن يقر أعينهم بطاعة أزواجهم وذرياتهم له سبحانه ، وأن يسر قلوبهم باتباع المتقين له على طاعته وعبوديته . فإن الإمام والمؤتم متعاونان على الطاعة فإنما سألوه ما يعاونون به المتقين على مرضاته وطاعته وهو دعوتهم إلى الله بالإمامة فى الدين التى أساسها الصبر واليقين . كما قال تعالي : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهمْ أئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِئَايَتِنَا يُوقِنُون ﴾ [2] وسؤالهم أن يجعلهم أئمة للمتقين هو سؤال أن يهديهم ويوفقهم ويمن عليهم بالعلوم النافعة والأعمال الصالحة ظاهراً وباطناً التى لا تتم الإمامة إلا بها ، وتأمل كيف نسبهم فى هذه الآيات إلى اسمه الرحمن جل جلاله ليعلم خلقه أن هذا إنما نالوه بفضل رحمته ومحض جوده ومنته ، وتأمل كيف جعل جزاءهم فى هذه السورة الغرف وهى المنازل العالية فى الجنة ، لما كانت الإمامة فى الدين من الرتب العالية بل من أعلى مرتبة يعطاها العبد فى الدين . كان جزاؤه عليها الغرفة العالية فى الجنة ، وهذا بخلاف طلب الرياسة ، فإن طلابها يسعون فى تحصيلها لينالوا بها أغراضهم من العلو فى الأرض ، وتعبد القلوب لهم وميلها إليهم ومساعدتهم لهم على جميع أغراضهم ، مع كونهم عالين عليهم قاهرين لهم فترتب على هذا المطلب من المفاسد ما لا يعلمه إلا الله من البغى والحسد والطغيان والحقد والظلم والفتنة والحمية للنفس ، دون حق الله وتعظيم من حقره الله، واحتقار من أكرمه الله ، ولا تتم الرياسة الدنيوية إلا بذلك . ولا تنال إلا به وبأضعافه من المفاسد، والرؤساء فى عمى عن هذا ، فإذا كشف الغطاء تبين لهم فساد ما كانوا

---

(١) الفرقان الآية : ٧٤ . (٢) السجدة الآية : ٢٤ .

عليه، ولا سيما إذا حشروا فى صور الذر يطؤهم أهل الموقف بأرجلهم إهانة لهم ، وتحقيراً كما صغروا أمر الله وحقروا عباده .

فصل

[الفرق بين الحب فى الله والحب مع الله]

والفرق بين الحب فى الله والحب مع الله وهذا من أهم الفروق ، وكل أحد محتاج بل مضطر إلى الفرق بين هذا وهذا .

فالحب فى الله : هو من كمال الإيمان .

والحب مع الله : هو عين الشرك ، والفرق بينهما أن المحب فى الحب تابع لمحبة الله ، فإذا تمكنت محبته من قلب العبد ، أوجبت تلك المحبة أن يحب ما يحبه الله ، فإذا أحب ما أحبه ربه ووليه ، كان ذلك الحب له ، وفيه كما يحب رسله وأنبياءه وملائكته وأولياءه ، لكونه تعالى يحبهم ويبغض من يبغضهم ، لا لكونه تعالى يبغضهم . وعلامة هذا الحب والبغض فى الله أنه لا ينقلب بغضه لبغيض الله حباً لإحسانه إليه ، وخدمته له ، وقضاء حوائجه ، ولا ينقلب حبه لحبيب الله بغضاً إذا وصل إليه من جهته ما يكرهه ، ويؤلمه إما خطأ وإما عمداً ، مطيعاً لله فيه أو مجتهداً أو باغياً نازعاً بائناً .

والدين كله يدور على أربع قواعد : حب ، وبغض ، ويترتب عليهما فعل وترك، فمن كان حبه وبغضه وفعله وتركه لله ، فقد استكمل الإيمان بحيث إذا أحب أحب لله ، وإذا أبغض أبغض لله ، وإذا فعل فعل لله ، وإذا ترك ترك لله ، وما نقص من إضافة هذه الأربعة نقص من إيمانه ودينه بحسبه ، وهذا بخلاف الحب مع الله فهو نوعان : نوع يقدح فى أصل التوحيد ، وهو شرك . ونوع يقدح فى كمال الإخلاص ومحبة الله ولا يخرج من الإسلام .

فالأول : كمحبة المشركين لأوثانهم وأندادهم قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ وهؤلاء المشركون يحبون أوثانهم وأصنامهم وآلهتهم مع الله ، كما يحبون الله . فهذه محبة تأله وموالاة يتبعها الخوف والرجاء والعبادة والدعاء ، وهذه المحبة هى محض الشرك الذى لا يغفره الله ولا يتم الإيمان إلا بمعاداة هذه الأنداد وشدة بغضها وبغض أهلها ، ومعاداتهم ومحاربتهم ، وبذلك

أرسل الله جميع رسله وأنزل جميع كتبه ، وخلق النار لأهل هذه المحبة الشركية ، وخلق الجنة لمن حارب أهلها وعاداهم فيه ، وفى مرضاته ، فكل من عبد شيئاً من لدن عرشه إلى قرار أرضه ، فقد اتخذ من دون الله إلهاً ولياً وأشرك به كائناً ذلك المعبود ما كان ، ولابد أن يتبرأ منه أحوج ما كان إليه .

والنوع الثانى : محبة ما زينه الله للنفوس من النساء والبنين والذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، فيحبها محبة شهوة كمحبة الجائع للطعام ، والظمآن للماء فهذه المحبة ثلاثة أنواع ، فإن أحبها لله توصلا بها إليه واستعانة على مرضاته وطاعته أثيب عليها ، وكانت من قسم الحب لله توصلا بها إليه ، ويلتذ بالتمتع بها، وهذا حال أكمل الخلق الذى حبب إليه من الدنيا النساء والطيب [1] وكانت محبته لهما عونا له على محبة الله وتبليغ رسالته والقيام بأمره وإن أحبها لموافقة طبعه وهواه وإرادته ، ولم يؤثرها على ما يحبه الله ويرضاه ؛ بل نالها بحكم الميل الطبيعى كانت من قسم المباحات ولم يعاقب على ذلك ، ولكن ينقص من كمال محبته لله والمحبة فيه ، وإن كانت هى مقصوده ومراده وسعيه فى تحصيلها أو الظفر بها ، وقدمها على ما يحبه الله ويرضاه منه كان ظالماً لنفسه متبعاً لهواه .

فالأول : محبة السابقين .

والثانى : محبة المقتصدين .

والثالثة : محبة الظالمين : فتأمل هذا الموضع وما فيه من الجمع والفرق ، فإنه معترك النفس الأمارة والمطمئنة ، والمهدى من هداه الله .

فصل

[الفرق بين التوكل والعجز]

والفرق بين التوكل والعجز ، أن التوكل : عمل القلب وعبوديته اعتماداً على الله وثقة به والتجاء إليه ، وتفويضاً إليه ، ورضا بما يقضيه له لعلمه بكفايته سبحانه ، وحسن اختياره لعبده ، إذا فوض إليه مع قيامه بالأسباب المأمور بها واجتهاده فى تحصيلها ، فقد كان رسول الله ﷺ ، أعظم المتوكلين ، وكان يلبس لأمته درعه ؛ بل

---

(١) امتثالاً لقول الحبيب المصطفى ﷺ : « حُبِّبَ إلىَّ من الدنيا النساء والطيب » . انظر مسند الإمام أحمد : ٣/١٢٨ .

ظهر يوم أحد بين درعين ، واختفى فى الغار ثلاثاً ، فكان متوكلاً فى السبب لا على السبب .

وأما العجز : فهو تعطيل الأمرين أو أحدهما ، فإما أن يعطل السبب عجزاً منه ويزعم أن ذلك توكل ، ولعمر الله إنه لعجز وتفريط ، وإما أن يقوم بالسبب ناظراً إليه معتمداً عليه غافلاً عن المسبب معرضاً عنه ، وإن خطر بباله لم يثبت معه ذلك الخاطر ، ولم يعلق قلبه به تعلقاً تاماً ، بحيث يكون قلبه مع الله وبدنه مع السبب . فهذا توكله عجز وعجزه توكل ، وهذا موضع انقسم فيه الناس طرفين ووسطا .

فأحد الطرفين : عطل الأسباب محافظة على التوكل .

والثانى : عطل التوكل محافظة على السبب .

والوسط : علم أن حقيقة التوكل لا يتم إلا بالقيام بالسبب ، فتوكل على الله فى نفس السبب . وأما من عطل السبب وزعم أنه متوكل فهو مغرور مخدوع متمن كمن عطل النكاح والتسرى وتوكل فى حصول الولد وعطل الحرث والبذر ، وتوكل فى حصول الزرع . وعطل الأكل والشرب وتوكل فى حصول الشبع والرى . فالتوكل نظير الرجاء والعجز نظير التمنى .

فحقيقة التوكل : أن يتخذ العبد ربه وكيلا له قد فوض إليه كما يفوض الموكل إلى وكيله العالم بكفايته ونهضته وأمانته وخبرته وحسن اختياره ، والرب سبحانه قد أمر عبده بالاحتيال وتوكل له أن يستخرج له من حيلته ما يصلحه ، فأمره أن يحرث ويبذر ويسعى ويطلب رزقه فى ضمان ذلك ، كما قدره سبحانه ودبره واقتضته حكمته وأمره أن لا يعلق قلبه بغيره بل يجعل رجاءه له وخوفه منه وثقته به وتوكله عليه وأخبره أنه سبحانه الملىء بالوكالة الوفى بالكفالة ، فالعاجز من رمى هذا كله وراء ظهره ، وقعد كسلان طالباً للراحة ، مؤثرا للدعة يقول : الرزق يطلب صاحبه كما يطلبه أجله ، وسيأتينى ما قدر لى على ضعفى ، ولن أنال ما لم يقدر لى مع قوتى ، ولو أنى هربت من رزقى كما أهرب من الموت للحقنى . فيقال له : نعم ، هذا كله حق ، وقد علمت أن الرزق مقدر ، فما يدريك كيف قدر لك بسعيك أم بسعى غيرك، وإذا كان بسعيك فبأى سبب ومن أى وجه . وإذا خفى عليك هذا كله ، فمن أين علمت أنه يقدر لك إتيانه عفواً بلا سعى ولا كد ؟ فكم من شىء سعيت فيه فقدر لغيرك ، وكم من شىء سعى فيه غيرك فقدر لك رزقاً ، فإذا رأيت هذا عيانا فكيف

علمت أن رزقك كله بسعى غيرك . وأيضاً فهذا الذى أوردته عليك النفس يجب عليك طرده فى جميع الأسباب مع مسبباتها ، حتى فى أسباب دخول الجنة والنجاة من النار ، فهل يعطلها اعتماداً على التوكل ، أم يقوم بها مع التوكل ، بلى لن تخلو الأرض من متوكل صبر نفسه لله ، وملأ قلبه من الثقة به ورجائه وحسن الظن به ، فضاق قلبه مع ذلك عن مباشرة بعض الأسباب ، فسكن قلبه إلى الله واطمأن إليه ، ووثق به ، وكان هذا من أقوى أسباب حصول رزقه ، فلم يعطل السبب ، وإنما رغب عن سبب إلى سبب أقوى منه ، فكان توكله أوثق الأسباب عنده ، فكان اشتغال قلبه باللّه وسكونه إليه وتضرعه إليه أحب إليه من اشتغاله بسبب يمنعه من ذلك ، أو من كماله فلم يتسع قلبه للأمرين ، فأعرض عن أحدهما إلى الآخر .

ولا ريب أن هذا أكمل حالاً ممن امتلأ قلبه بالسبب ، واشتغل به عن ربه ، وأكمل منهما من جمع الأمرين ، وهى حال الرسل والصحابة ، فقد كان زكريا نجاراً [(١)] ، وقد أمر الله نوحاً أن يصنع السفينة [(٢)] ، ولم يكن فى الصحابة من يعطل السبب اعتماداً على التوكل ، بل كانوا أقوم الناس بالأمرين . ألا ترى أنهم بذلوا جهدهم فى محاربة أعداء الدين بأيديهم وألسنتهم ، وقاموا فى ذلك بحقيقة التوكل ، وعمروا أموالهم وأصلحوها وأعدوا لأهليهم كفايتهم من القوت ، اقتداء بسيد المتوكلين ، صلوات الله وسلامه عليه وآله .

فصل
[الفرق بين الاحتياط والوسوسة]

والفرق بين الاحتياط والوسوسة ، أن الاحتياط : الاستقصاء والمبالغة فى اتباع السنة ، وما كان عليه رسول الله ﷺ ، وأصحابه من غير غلو ومجاوزة ولا تقصير ولا تفريط . فهذا هو الاحتياط الذى يرضاه الله ورسوله .

وأما الوسوسة : فهى ابتداع ما لم تأت به السنة ، ولم يفعله رسول الله ﷺ ولا أحد من الصحابة ، زاعما أنه يصل بذلك إلى تحصيل المشروع وضبطه ، كمن يحتاط بزعمه ويغسل أعضاءه فى الوضوء فوق الثلاثة ، فيسرف فى صب الماء فى وضوئه

(١) أخرج مسلم عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « كان زكريا نجاراً » ، انظر الصحيح ٤/١٨٤٧ (١٦٩) . وسنن ابن ماجة فى التجارات باب (٥) . وأحمد فى المسند : ٢/٢٩٦ ، ٤٠٥ ، ٤٨٥ .
(٢) امتثالاً لقوله تعالى : « واصنع الفلك بأعيننا ووحينا » . هود آية ٣٧ .

وغسله ، ويصرح بالتلفظ بنية الصلاة مراراً أو مرة واحدة ؛ ويغسل ثيابه مما لا يتيقن نجاسته احتياطاً ، ويرغب عن الصلاة فى نعله احتياطاً إلى أضعاف أضعاف هذا . مما اتخذه الموسوسون ديناً وزعموا أنه احتياط ؛ وقد كان الاحتياط باتباع هدى رسول الله ﷺ ، وما كان عليه أولى بهم ، فإنه الاحتياط الذى من خرج عنه فقد فارق الاحتياط؛ وعدل عن سواء الصراط ؛ والاحتياط كل الاحتياط الخروج عن خلاف السنة ؛ ولو خالفت أكثر أهل الأرض بل كلهم .

فصل

[الفرق بين إلهام الملك وإلقاء الشيطان]

والفرق بين إلهام الملك وإلقاء الشيطان من وجوه .

منها : أن ما كان لله موافقا لمرضاته وما جاء به رسوله ؛ فهو من الملك . وما كان لغيره غير موافق لمرضاته فهو من إلقاء الشيطان .

ومنها : أن ما أثمر إقبالاً على الله وإنابة إليه وذكراً له وهمة صاعدة إليه ؛ فهو من إلقاء الملك . وما أثمر ضد ذلك فهو من إلقاء الشيطان .

ومنها : أن ما أورث أنساً ونوراً فى القلب وانشراحاً فى الصدر ؛ فهو من الملك وما أورث ضد ذلك فهو من الشيطان .

ومنها : أن ما أورث سكينة وطمأنينة فهو من الملك . وما أورث قلقاً أو انزعاجاً واضطرابا فهو من الشيطان .

فالإهام الملكى : يكثر فى القلوب الطاهرة النقية التى قد استنارت بنور الله فللملك بها اتصال وبينه وبينها مناسبة ؛ فإنه طيب طاهر لا يجاور إلا قلباً يناسبه فتكون لمة الملك بهذا القلب أكثر من لمة الشيطان ؛ وأما القلب المظلم الذى قد اسود بدخان الشهوات والشبهات ، فإلقاء الشيطان ولمته به أكثر من لمة الملك .

فصل

[الفرق بين الاقتصاد والتقصير]

والفرق بين الاقتصاد والتقصير . أن الاقتصاد : هو التوسط بين طرفى الإفراط والتفريط ، وله طرفان هما ضدان له تقصير ومجاوزة ، فالمقتصد قد أخذ بالوسط ،

وعدل عن الطرفين . قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ (١) . وقال تعالى : ﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ (٢) . وقال تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا ﴾ (٣) .

والدين كله بين هذين الطرفين ؛ بل الإسلام قصد بين الملل ، والسنة قصد بين البدع ودين الله ، بين الغالى فيه والجافى عنه ، وكذلك الاجتهاد هو بذل الجهد فى موافقة الأمر . والغلو مجاوزته وتعديه وما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان فإما إلى غلو ومجاوزة ، وإما إلى تفريط وتقصير ، وهما آفتان لا يخلص منهما فى الاعتقاد والقصد والعمل إلا من مشى خلف رسول الله ﷺ ، وترك أقوال الناس وآراءهم لما جاء به لا من ترك ما جاء به لأقوالهم وآرائهم ، وهذان المرضان الخطران قد استوليا على أكثر بنى آدم ، ولهذا حذر السلف منهما أشد التحذير ، وخوفوا من بُلى بأحدهما بالهلاك ، وقد يجتمعان فى الشخص والواحد ، كما هو حال أكثر الخلق يكون مقصراً مفرطا فى بعض دينه ، غاليا متجاوزاً فى بعضه ، والمهدى من هداه الله .

❊ ❊ ❊

فصل
[الفرق بين النصيحة والتأنيب]

والفرق بين النصيحة والتأنيب . أن النصيحة : إحسان إلى من تنصحه بصورة الرحمة له والشفقة عليه والغيرة له ، وعليه فهو إحسان محض يصدر عن رحمة ورقة ومراد الناصح بها وجه الله ورضاه . والإحسان إلى خلقه . فيتلطف فى بذلها غاية التلطف ، ويحتمل أذى المنصوح ولائمته ويعامله معاملة الطبيب العالم المشفق والمريض المشبع مرضاً . وهو يحتمل سوء خلقه وشراسته ونفرته . ويتلطف فى وصول الدواء إليه بكل ممكن ، فهذا شأن الناصح .

وأما المؤنب : فهو رجل قصده التعبير والإهانة وذم من أنبه وشتمه فى صورة النصح ، فهو يقول له : يا فاعل كذا وكذا ، يا مستحقاً للذم والإهانة فى صورة ناصح مشفق . وعلامة هذا أنه لو رأى من يحبه ويحسن إليه على مثل عمل هذا أو

---

(١) الفرقان الآية : ٦٧ (٢) الإسراء الآية : ٢٩ . (٣) الأعراف الآية : ٣١ .

شر منه لم يعرض له ، ولم يقل له شيئا . ويطلب له وجوه المعاذير . فإن غلب قال: وأَنَّى ضمنت له العصمة ، والإنسان عرضة للخطأ ومحاسنه أكثر من مساوئه والله غفور رحيم . ونحو ذلك .

فياعجبا كيف كان هذا لمن يحبه دون من يبغضه ؛ وكيف كان خط ذلك منك التأنيب فى صورة النصح ، وحظ هذا منك رجاء العفو والمغفرة وطلب وجوه المعاذير ؟ !!

ومن الفروق بين الناصح والمؤنب ، أن الناصح لا يعأديك إذا لم تقبل نصيحته ، وقال : قد وقع أجرى على الله قبلت أو لم تقبل . ويدعو لك بظهر الغيب ، ولا يذكر عيوبك ولا يبينها فى الناس ، والمؤنب بضد ذلك .

فصل

[الفرق بين المبادرة والعجلة]

والفرق بين المبادرة والعجلة أن المبادرة : انتهاز الفرصة فى وقتها ولا يتركها حتى إذا فاتت طلبها فهو لا يطلب الأمور فى أدبارها ولا قبل وقتها ، بل إذا حضر وقتها بادر إليها ووثب عليها وثوب الأسد على فريسته ، فهو بمنزلة من يبادر إلى أخذ الثمرة ، وقت كمال نضجها وإدراكها .

والعجلة : طلب أخذ الشيء قبل وقته ، فهو لشدة حرصه عليه بمنزلة من يأخذ الثمرة قبل أوان إدراكها .

فالمبادرة : وسط بين خلقين مذمومين : أحدهما التفريط والإضاعة .

والثانى الاستعجال قبل الوقت : ولهذا كانت العجلة من الشيطان ، فإنها خفة وطيش ، وحدة فى العبد تمنعه من التثبت والوقار والحلم وتوجب له وضع الأشياء فى غير مواضعها ، وتجلب عليه أنواعاً من الشرور ، وتمنعه أنواعاً من الخير ، وهى قرين الندامة ، فقل من استعجل إلا ندم . كما أن الكسل قرين الفوت والإضاعة .

❊ ❊ ❊

فصل

[الفرق بين الإخبار بالحال وبين الشكوى]

والفرق بين الإخبار بالحال وبين الشكوى - وإن اشتبهت صورتهما - أن الإخبار

بالحال : يقصد المخبر به قصداً صحيحاً من علم سبب إدانته ، أو الاعتذار لأخيه من أمر طلبه منه ، أو يحذره من الوقوع فى مثل ما وقع فيه فيكون ناصحاً بإخباره له أو حمله على الصبر بالتأسى به ، كما يذكر عن الأحنف أنه شكا إليه رجل شكوى فقال: يا ابن أخى ، لقد ذهب ضوء عينى من كذا وكذا سنة فما أعلمت به أحداً .

ففى ضمن هذا الإخبار من حمل الشاكى على التأسى والصبر ما يثاب عليه المخبر وصورته صورة الشكوى ، ولكن القصد ميز بينهما . ولعل من هذا قول النبى ﷺ لما قالت عائشة : « وارأساه . فقال : بل أنا وارأساه »[1] . أى الوجع القوى بى أنا دونك، فتأسى بى فلا تشتكى . ويلوح لى فيه معنى آخر وهو أنها كانت حبيبة رسول الله ﷺ ؛ بل كانت أحب النساء إليه على الإطلاق ، فلما شكت إليه رأسها أخبرها أن به من الألم مثل الذى بها ، وهذا غاية الموافقة من المحب ومحبوبه ، يتألم بتألمه، ويسر بسروره ، حتى إذا آله عضو من أعضائه آلم المحب ذلك العضو بعينه ، وهذا من صدق المحبة وصفاء المودة .

فالمعنى الأول : يفهم أنك لا تشتكى واصبرى فبى من الوجع مثل ما بك فتأسى بى فى الصبر وعدم الشكوى .

والمعنى الثانى : يفهم إعلامها بصدق محبته لها . أى انظرى قوة محبتى لك كيف واسيتك فى ألمك ووجع رأسك ، فلم تكونى متوجعة وأنا سليم من الوجع بل يؤلمنى ما يؤلمك ، كما يسرنى ما يسرك .

كما قيل :

وإن أولى البرايا أن تواسيه عند السرور الذى واساك فى الحزن

وأما الشكوى : فالإخبار العارى عن القصد الصحيح ، بل يكون مصدره السخط وشكاية المبتلى إلى غيره ، فإن شكا إليه سبحانه وتعالى لم يكن ذلك شكوى ، بل استعطاف وتملق واسترحام له كقول أيوب : ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾[2] .

---

(١) أخرجه البخارى فى المرضى ١٠/١٢٨ (٥٦٦٦) . وابن ماجه فى الجنائز ١/ ٤٧٠ (١٤٦٥) وفى الزوائد: إسناده صحيح .

(٢) الأنبياء الآية : ٨٣ .

وقول يعقوب : ﴿ إِنَّمَآ أَشْكُوا بَثِّى وَحُزْنِى إِلَى اللَّهِ ﴾ .

وقول موسي : « اللهم لك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان وبك المستغاث وعليك التكلان ولا حول ولا قوة إلا بك » .

وقول سيد ولد آدم : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس أنت رب المستضعفين وأنت ربى . إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى أو إلى عدو ملكته أمرى ، إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى ، غير أن عافيتك أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل على غضبك ، أو ينزل بى سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » [1] .

فالشكوى إلى الله سبحانه لا تنافى الصبر بوجه فإن الله تعالى قال عن أيوب : ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [2] ، مع إخباره عنه بالشكوى إليه فى قوله « مسنى الضر » وأخبر عن نبيه يعقوب أنه وعد من نفسه بالصبر نقصاً لصبره ، ولا يلتفت إلى غير هذا من ترهات القوم .

كما قال بعضهم : لما قال : مسنى الضر ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِراً ﴾ ولم يقل صبوراً حيث قال : مسنى الضر .

وقال بعضهم : لم يقل : ارحمنى ، وإنما قال : أنت أرحم الراحمين ، فلم يزد على الإخبار بحاله ، ووصف ربه .

وقال بعضهم : إنما شكا مس الضر ، حين ضعف لسانه عن الذكر ، فشكا مس الضر ضعف الذكر لا ضر المرض والألم .

وقال بعضهم : استخرج منه هذا القول ليكون قدوة للضعفاء من هذه الأمة ، وكان هذا القائل رأى الشكوى إلى الله تنافى الصبر ، وغلط أقبح الغلط ، فالمنافى للصبر شكواه لا الشكوى إليه ، فاللَّه يبتلى عبده ليسمع تضرعه ودعاءه والشكوى إليه ، ولا يحب التجلد عليه وأحب ما إليه انسكار قلب عبده بين يديه ، وتذلله له وإظهار ضعفه وفاقته وعجزه ، وقلة صبره ، فاحذر كل الحذر من إظهار التجلد عليه وعليك بالتضرع

---

(١) أخرجه الطبرانى عن عبد الله بن جعفر ، ذكره ذلك السيوطى فى الجامع لصغير ١/ ٩١ - ٩٢ (١٤٨٣) وحسن الحديث .

(٢) سورة ص : الآية : ٤٤ .

والتمسكن وإبداء العجز والفاقة والذل والضعف ، فرحمته أقرب إلى هذا القلب من اليد للفم .

[الرد على الطائفة الاتحادية فى مقولة الاتحاد وذكر نصوصهم وواضع فصوصهم]

وهذا باب من الفروق مطول ، ولعل إن ساعد القدر أن نفرد فيه كتاباً كبيراً ، وإنما نبهنا بما ذكرنا على أصوله ، واللبيب يكتفى ببعض ذلك ، والدين كله فرق ، وكتاب الله فرقان ، ومحمد ﷺ فرق بين الناس ، ومن اتقى الله جعل له فرقاناً ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إن تَتَّقُواْ اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً ﴾ (1) ، وسمى يوم بدر يوم الفرقان ، لأنه فرق بين أولياء الله وأعدائه . فالهدى كله فرقان والضلال أصله الجمع، كما المشركون بين عبادة الله وعبادة الأوثان ومحبته ومحبة الأوثان ، وبين ما قدره وقضاه ، فجعلوا الأمر واحداً واستدلوا بقضائه وقدره على محبته ورضاه . وجمعوا بين الربا والبيع فقالوا : ﴿ إنما البيع مثل الربا ﴾ (2) ، وجمعوا بين المذكى والميتة ، وقالوا : كيف نأكل ما قتلناه ولا نأكل ما قتل الله . وجمع المنسلخون عن الشرائع بين الحلال والحرام ، فقالوا : هذه المرأة خلقها الله وهذه خلقها ، وهذا الحيوان خلقه وهذا خلقه ، فكيف يحل هذا ويحرم هذا ، وجمعوا بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، وجاءت طائفة الاتحادية فطموا الوادى على القرى وجمعوا الكل فى ذات واحدة ، وقالوا : هى الله الذى لا إله إلا هو ، وقال صاحب فصوصهم وواضع نصوصهم ، واعلم أن الأمر قرآناً لا فرقاناً (3) :

ما الأمر إلا نسق واحـد ... ما فيه من مـدح ولا ذم
وإنما العادة قد خصصت ... والطبع والشارع بالحكـم

والمقصود أن أرباب البصائر هم أصحاب الفرقان ، فأعظم الناس فرقاناً بين المشتبهات أعظم الناس بصيرة ، والتشابه يقع فى الأقوال والأعمال والأحوال والأموال والرجال ، وإنما أتى أكثر أهل العلم من المتشابهات فى ذلك كله ولا يحصل الفرقان إلا بنور يقذفه الله فى قلب من يشاء من عباده ، يرى فى ضوئه حقائق الأمور ، ويميز

---

(1) الأنفال الآية : 29 . (2) البقرة الآية : 275 . (3) صوابه : واعلم أن الأمر قرانٌ لافرقانٌ .

بين حقها وباطلها وصحيحها وسقيمها ، ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُورٍ﴾ .

ولا تستطل هذا الفصل فلعله من أنفع فصول الكتاب والحاجة إليه شديدة ، فإن رزقك الله فيه بصيرة خرجت منه إلى فرقان أعظم منه ، وهو الفرق بين توحيد المرسلين والعلو والتكلم والتكليم حقيقة ، وبين التشبيه والتمثيل ، والفرق بين إثبات الصفات والعلو والتكلم والتكليم حقيقة ، وبين التشبيه والتمثيل ، والفرق بين تجريد التوحيد العملى الإرادى وبين هضم أرباب المراتب مراتبهم التى أنزلهم الله إياها ، والفرق بين تجريد متابعة المعصوم وبين إهدار أقوال العلماء وإلغائها ، وعدم الالتفات إليها ، والفرق بين تقليد العالم وبين الاستضاءة بنور علمه ، والاستعانة بفهمه والفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان . والفرق بين الحال الإيمانى الرحمانى والحال الشيطانى الكفرى ، والحال النفسانى . والفرق بين الحكم المنزل الواجب الاتباع على كل واحد ، والحكم المؤول الذى نهايته أن يكون جائز الاتباع عند الضرورة ولا درك على مخالفه .

فصل

[فى بيان الإشارة اللطيفة إلى الفروق بين هذه الأمور المذكورة آنفاً]

ونحن نختم الكتاب بإشارة لطيفة إلى الفروق بين هذه الأمور ، إذ كل فرق منها يستدعى بسطه كتاباً كبيراً ، فالفرق بين توحيد المرسلين [1] وتوحيد المعطلين [2] .

أن توحيد الرسل : إثبات صفات الكمال لله على وجه التفصيل وعبادته وحده لا شريك له فلا يجعل له نداً فى قصد ولا حب ولا خوف ولا رجاء ، ولا لفظ ولا حلف ، ولا نذر ، بل يرفع العبد الأنداد له من قلبه وقصده ولسانه وعبادته ، كما أنها معدومة فى نفس الأمر لا وجود لها ألبتة ، فلا يجعل لها وجوداً فى قلبه ولا لسانه .

وأما توحيد المعطلين : فنفى حقائق أسمائه وصفاته وتعطيله ، ومن أمكنه منهم تعطيلها من لسانه عطلها ، فلا يذكرها ولا يذكر آية تتضمنها ، ولا حديثاً يصرح

---

(١) المرسلون - جمع رسل ، وهم رسل الله عز وجل .   (٢) المعطلون : سبق الكلام عليهم .

بشىء منها ، ومن لم يمكنه تعطيل ذكرها سطا عليها بالتحريف ونفى حقيقتها ، وجعلها اسماً فارغاً لا معنى له ، أو معناه من جنس الألغاز والأحاجى . على أن من طرد تعطيله منهم علم أنه يلزمه فى ما حرف إليه النص من المعنى نظير ما فر منه سواء ، فإن لزم تمثيل أو تشبيه أو حدوث فى الحقيقة لزم فى المعنى الذى حمل عليه النص وإن لا يلزم فى هذا فهو أولى أن لا يلزم فى الحقيقة ، فلما علم هذا لم يمكنه إلا تعطيل الجميع ، فهذا طرد لأصل التعطيل والفرق أقرب منه ، ولكنه مناقض يتحكم بالباطل حيث أثبت لله بعض ما أثبته لنفسه ، ونفى عنه البعض الآخر . واللازم الباطل فيهما واحد ، واللازم الحق لا يفرق بينهما . والمقصود أنهم سموا هذا التعطيل توحيداً ، وإنما هو إلحاد فى أسماء الرب تعالى وصفاته وتعطيل لحقائقها .

فصل

[الفرق بين تنزيه الرسل وتنزيه المعطلة]

والفرق بين تنزيه الرسل وتنزيه المعطلة . أن الرسل نزهوه سبحانه عن النقائص والعيوب التى نزه نفسه عنها ، وهى المنافية لكماله وكمال ربوبيته وعظمته ، كالسنة والنوم والغفلة والموت واللغوب ، والظلم وإرادته [1] والتسمى به ، والشريك والصاحبة والظهير والولد والشفيع بدون إذنه ، وأن يترك عباده سدى هملاً ، وأن يكون خلقهم عبثاً وأن يكون خلق السموات والأرض وما بينهما باطلاً لا لثواب ولا عقاب ، ولا أمر ولا نهى ، وأن يسوى بين أوليائه وأعدائه ، وبين الأبرار والفجار وبين الكفار والمؤمنين ، وأن يكون فى ملكه ما لا يشاء ، وأن يحتاج إلى غيره بوجه من الوجوه وأن يكون لغيره معه من الأمر شىء ، وأن يعرض له غفلة أو سهو أو نسيان . وأن يخلف وعده أو تبدل كلماته أو يضاف إليه الشر إسماً أو وصفاً أو فعلاً ، بل أسماؤه كلها حسنى وصفاته كلها كمال وأفعاله كلها خير وحكمة ومصلحة . فهذا تنزيه الرسل لربهم .

وأما المعطلون : فنزهوه عما وصف به نفسه من الكمال ، فنزهوه عن أن يتكلم أو يكلم أحداً ونزهوه عن استوائه على عرشه ، وأن ترفع إليه الأيدى ، وأن يصعد إليه

(١) أى إرادة الظلم .

الكلم الطيب . وأن ينزل من عنده شىء أو تعرج إليه الملائكة والروح ، وأن يكون فوق عباده وفوق جميع مخلوقاته عالياً عليها ، ونزهوه أن يقبض السموات بيده والأرض باليد الأخرى ، وأن يمسك السموات على إصبع ، والأرض على إصبع والجبال على إصبع ، والشجر على إصبع . ونزهوه أن يكون له وجه ، وأن يراه المؤمنون بأبصارهم فى الجنة ، وأن يكلمهم ويسلم عليهم ويتجلى لهم ضاحكاً ، وأن ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا ، فيقول من يستغفرنى فأغفر له ، من يسألنى فأعطيه ، فلا نزول عندهم ولا قول . ونزهوه أن يفعل شيئاً لشىء ، بل أفعاله لا لحكمة ولا لغرض مقصود ، ونزهوه أن يكون تام المشيئة نافذ الإرادة ، بل يشاء الشىء ويشاء عباده خلافه ، فيكون ما شاء العبد دون ما شاء الرب ، ولا يشاء الشىء فيكون ما لا يشاء ، ويشاء ما لا يكون . وسموا هذا عدلاً كما سموا ذلك التنزيه توحيداً ونزهوه عن أن يحب أو يحب ، ونزهوه عن الرأفة والرحمة والغضب والرضا ونزهه آخرون عن السمع والبصر وآخرون عن العلم . ونزهه آخرون عن الوجود فقالوا : الذى فر إليه هؤلاء المنزهون من التشبيه والتمثيل ، يلزمنا فى الوجود فيجب علينا أن ننزهه عنه ، فهذا تنزيه الملحدين والأول تنزيه المرسلين .

فصل

[الفرق بين حقائق الأسماء والصفات وبين التشبيه والتمثيل]

والفرق بين إثبات حقائق الأسماء والصفات وبين التشبيه والتمثيل ما قاله الإمام أحمد ، ومن وافقه من أئمة الهدى : أن التشبيه والتمثيل : أن تقول : يد كيدى أو سمع كسمعى ، أو بصر كبصرى ، ونحو ذلك .

وأما إذا قلت : سمع وبصر ويد ووجه واستواء لا يماثل شيئاً من صفات المخلوقين بل بين الصفة والصفة من الفرق كما بين الموصوف والموصوف فأى تمثيل هاهنا وأى تشبيه لولا تلبيس الملحدين ، فمدار الحق الذى اتفقت عليه الرسل على أن يوصف الله بما وصف به نفسه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تشبيه ولا تمثيل إثبات الصفات ونفى مشابهة المخلوقات ، فمن شبه الله بخلقه فقد كفر ومن جحد حقائق ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، ومن أثبت له حقائق الأسماء والصفات، ونفى عنه مشابهة المخلوقات ، فقد هدى إلى صراط مستقيم .

فصل

[الفرق بين تجريد التوحيد وبين هضم أرباب المراتب]

والفرق بين تجريد التوحيد ، وبين هضم أرباب المراتب :

أن تجريد التوحيد : أن لا يعطى المخلوق شيئاً من حق الخالق وخصائصه ، فلا يعبد ولا يصلى له ولا يسجد ولا يحلف باسمه ولا ينذر له ولا يتوكل عليه ولا يؤله ولا يقسم به على الله ، ولا يعبد ليقرب إلى الله زلفى ، ولا يساوى برب العالمين فى قول القائل : ما شاء الله وشئت ، وهذا منك ومن الله ، وأنا باللَّه وبك وأنا متوكل على الله وعليك . واللَّه لى فى السماء وأنت فى الأرض . وهذا من صدقاتك وصدقات الله ، وأنا تائب إلى الله وإليك ، وأنا فى حسب الله وحسبك ، فيسجد للمخلوق كما يسجد المشركون لشيوخهم ، يحلق رأسه له ويحلف باسمه وينذر له ويسجد لقبره بعد موته ويستغيث به فى حوائجه ومهماته ، ويرضيه بسخط الله ولا يسخطه فى رضا الله ، ويتقرب إليه أعظم مما يتقرب إلى الله ، ويحبه ويخافه ويرجوه أكثر مما يحب الله ويخافه ويرجوه أو يساويه ، فإذا هضم المخلوق خصائص الربوبية وأنزله منزلة العبد المحض الذى لا يملك لنفسه فضلاً عن غيره ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، لم يكن هذا تنقصاً له ولا حطاً من مرتبته ، ولو رغم المشركون.

وقد صح عن سيد ولد آدم صلوات الله وسلامه عليه أنه قال : « لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ، فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » [(١)] .

وقال : « أيها الناس ما أحب أن ترفعونى فوق منزلتى » [(٢)] .

وقال : « لا تتخذوا قبرى عيداً » [(٣)] ، وقال : « اللهم لا تجعل قبرى وثناً يعبد » [(٤)] ، وقال : « لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد » ، وقال له رجل :

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الأنبياء : ٦/ ٥٥١ (٣٤٤٥) . والدارمى فى الرقاق ٢/ ٤١٣ (٢٧٨٤) . وأحمد فى المسند : ١/ ٢٣ ، ٤٧ ، ٥٧ ، وأبو داود الطيالسي فى المسند ص ٦ .

(٢) شاهده أخرجه مسلم فى الجنة ٤/ ٢١٩٨ (٦٤) .

(٣) أخرجه أبو داود فى المناسك ٢/ ٢٢٥ (٢٠٤٢) . وأحمد فى المسند : ٢/ ٣٦٧ .

(٤) أخرجه مالك فى الموطأ كتاب المناسك ١/ ١٧٢ (٨٥) وهو مرسل . وأحمد فى المسند : ٢/ ٢٤٦ . موصولاً عن أبى هريرة .

ما شاء الله وشئت ، فقال : « أجعلتنى لله نداً » . وقال له رجل قد أذنب : اللهم إنى أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد فقال : « عرف الحق لأهله » . وقد قال الله له: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ . وقال : ﴿ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾ . وقال : ﴿قُل لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ . وقال : ﴿ قُلْ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ رَشَداً قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً ﴾ ، أى لن أجد من دونه من ألتجىء إليه وأعتمد عليه ، وقال لابنته فاطمة وعمه العباس وعمته صفية : « لا أملك لكم من الله شيئاً » . وفى لفظ فى الصحيح : « لا أغنى عنكم من الله شيئاً » فعظم ذلك على المشركين بشيوخهم وآلهتهم وأبوا ذلك كله وادعوا لشيوخهم ومعبوديهم خلاف هذا كله ، وزعموا أن من سلبهم ذلك فقد هضمهم مراتبهم وتنقصهم ، وقد هضموا جانب الإلهية غاية الهضم وتنقصوه فلهم نصيب وافر من قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يستبشرون ﴾ (١) .

فصل

[الفرق بين تجريد متابعة المعصوم ﷺ وإهدار أقوال العلماء وإلغائها]

والفرق بين تجريد متابعة المعصوم صلى الله عليه وآله وسلم ، وإهدار أقوال العلماء وإلغائها .

أن تجريد المتابعة : أن لا تقدم على ما جاء به قول أحد ، ولا رأيه كائناً من كان ، بل تنظر فى صحة الحديث أولاً ، فإذا صح لك نظرت فى معناه ثانياً ، فإذا تبين لك لم تعدل عنه ، ولو خالفك من بين المشرق والمغرب . ومعاذ الله أن تتفق الأمة على مخالفة ما جاء به نبيها ، بل لابد أن يكون فى الأمة من قال به ، ولو لم تعلمه فلا تجعل جهلك بالقائل به حجة على الله ورسوله . بل أذهب إلى النص ولا تضعف . واعلم أنه قد قال به قائل قطعاً ، ولكن لم يصل إليك هذا مع حفظ مراتب العلماء وموالاتهم واعتقاد حرمتهم وأمانتهم واجتهادهم ، فى حفظ الدين وضبطه . فهم دائرون بين الأجر والأجرين والمغفرة ، ولكن لا يوجب هذا إهدار النصوص وتقديم قول الواحد منهم عليها لشبهة أنه أعلم بها منك .

---

(١) الزمر الآية : ٤٥ .

فإن كان كذلك فمن ذهب إلى النص أعلم به منك فهلا وافقته إن كنت صادقاً فمن عرض أقوال العلماء على النصوص ووزنها بها ، وخالف منها ما خالف النص لم يهدر أقوالهم ، ولم يهضم جانبهم بل اقتدى بهم ، فإنهم كلهم أمروا بذلك فمتبعهم حقاً من امتثل ما أوصوا به لا من خالفهم فخلافهم فى القول الذى جاء النص على أقوالهم . ومن هنا يتبين الفرق بين تقليد العالم فى كل ما قال ، وبين الاستعانة بفهمه والاستضاءة بنور علمه ، فالأول يأخذ قوله من غير نظر فيه ولا طلب لدليله من الكتاب والسنة ، بل يجعل ذلك كالحبل الذى يلقيه فى عنقه يقلده به . ولذلك سمى تقليداً بخلاف من استعان بفهمه واستضاء بنور علمه فى الوصول إلى الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، فإنه يجعلهم بمنزلة الدليل إلى الدليل الأول . فإذا وصل إليه استغنى بدلالته عن الاستدلال بغيره ، فمن استدل بالنجم على القبلة فإنه إذا شاهدها لم يبق لاستدلاله بالنجم معنى .

قال الشافعى : أجمع الناس على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد .

فصل

[الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان]

والفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان . أن أولياء الرحمن : لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . هم الذين آمنوا وكانوا يتقون . وهم المذكورون فى أول سورة البقرة إلى قوله : ﴿ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ وفى وسطها فى قوله : ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ إلى قوله : ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ وفى أول الأنفال إلى قوله : ﴿ لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ وفى أول سورة المؤمنين إلى قوله : ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ وفى آخر سورة الفرقان . وفى قوله: ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ﴾ إلى آخر الآية وفى قوله : ﴿ أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ وفى قوله : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ وفى قوله : ﴿ إِلاَّ الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ إلى وقوله : ﴿ فِى جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴾ . وفى قوله: ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ ﴾ إلى آخر الآية .

فأولياء الرحمن : هم المخلصون لربهم المحكمون لرسوله فى الحرم والحل ، الذين يخالفون غيره لسنته ، ولا يخالفون سنته لغيرها ، فلا يبتدعون ولا يدعون إلى بدعة ، ولا يتحيزون إلى فئة غير الله ورسوله وأصحابه ، ولا يتخذون دينهم لهواً ولعباً ولايستحبون سماع الشيطان على سماع القرآن ، ولا يؤثرون صحبة الأفتان على مرضاة الرحمن ، ولا المعازف والمثانى ، على السبع المثانى .

برئنا إلى الله من معشــــر	بهم مرض مورد للضـــنا
وكم قلت يا قوم أنتم على	شفا جرف من سماع الغنا
فلما اســــــتهانوا بتنبيهنا	تركنا غوياً وما قد جــــنا
وهل يستجيب الداعى الهدى	غوى أصـــــار الغنا ديدنا
فعشنا على ملة المصــطفى	وماتوا على تاننا تنتنــــــا

ولا يشتبه أولياء الرحمن بأولياء الشيطان إلا على فاقد البصيرة والإيمان ، وأنى يكون المعرضون عن كتابه وهدى رسوله وسنته المخالفون له إلى غيره أولياءه ، وقد ضربوا لمخالفته جأشاً [1] وعدلوا عن هدى نبيه وطريقته ﴿ وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ، ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ [2] .

فأولياء الرحمن : المتلبسون بما يجب وليهم الداعون إليه المحاربون لمن خرج عنه .

وأولياء الشيطان : المتلبسون بما يحبه وليهم قولاً وعملاً يدعون إليه ويحاربون من نهاهم عنه ، فإذا رأيت الرجل يحب السماع الشيطانى ومؤذن الشيطان وإخوان الشياطين ، ويدعو إلى ما يحبه الشيطان من الشرك والبدع والفجور ، علمت أنه من أوليائه ، فإن اشتبه عليك فاكشفه فى ثلاثة مواطن فى صلاته ، ومحبته للسنة وأهلها ونفرته عنهم ودعوته إلى الله ورسوله ، وتجريد التوحيد والمتابعة وتحكيم السنة ، فزنه بذلك لا تزنه بحال ، ولا كشف ولا خارق ، ولو مشى على الماء وطار فى الهواء .

فصل

[الفرق بين الحال الإيمانى والحال الشيطانى]

وبهذا يعلم الفرق بين الحال الإيمانى والحال الشيطانى .

فإن الحال الإيمانى : ثمرة المتابعة للرسول والإخلاص فى العمل وتجريد التوحيد ونتيجته منفعة المسلمين فى دينهم ودنياهم . وهو إنما يصح بالاستقامة على السنة والوقوف مع الأمر والنهى .

---

(١) جأشاً : أى قبلاً ونفساً .   (٢) الأنفال الآية : ٣٤ .

والحال الشيطانى : نسبته إما شرك أو فجور ، وهو ينشأ من قرب الشياطين والاتصال بهم ومشابهتهم ، وهذا الحال يكون لعباد الأصنام والصلبان والنيران والشيطان فإن صاحبه لما عبد الشيطان خلع عليه حالاً يصطاد به ضعفاء العقول والإيمان ، ولا إله إلا الله ، وكم هلك بهؤلاء من الخلق ﴿ ليرد وهم وليلبسوا عليهم دينهم ، ولو شاء الله ما فعلوه ﴾ [1] ، فكل حال خرج صاحبه عن حكم الكتاب ، وما جاء به الرسول فهو شيطانى كائناً ما كان ، وقد سمعت بأحوال السحرة وعباد النار وعباد الصليب ، وكثير ممن ينتسب إلى الإسلام ظاهراً وهو برىء منه فى الباطن ، له نصيب من هذا بالحال بحسب موالاته للشيطان ومعاداته للرحمن . وقد يكون الرجل صادقاً ولكن يكون ملبوساً عليه بجهله ، فيكون حاله شيطانياً مع زهد وعبادة وإخلاص ، ولكن لبس عليه الأمر لقلة علمه بأمور الشياطين والملائكة ، وجهله بحقائق الإيمان ، وقد حكى هؤلاء وهؤلاء من لبس منهم بل هو متشبه صاحب مخابيل ومخاريق ، ووقع الناس فى البلاء بسبب عدم التمييز بين هؤلاء وهؤلاء ، فحسبوا كل سوداء تمرة ، وكل بيضاء شحمة ، والفرقان أعز ما فى هذا العالم ، وهو نور يقذفه الله فى القلب ، يفرق به بين الحق والباطل . ويزن به حقائق الأمور خيرها وشرها وصالحها وفاسدها ، فمن عدم الفرقان وقع ولا بد فى إشراك الشيطان . فاللَّه المستعان وعليه التكلان .

فصل

[الفرق بين الحكم المنزل الواجب الاتباع الحكم المؤول الذي غايته أن يكون جائز الاتباع]

والفرق بين الحكم المنزل الواجب الاتباع والحكم المؤول الذى غايته أن يكون جائز الاتباع :

أن الحكم المنزل : هو الذى أنزله الله على رسوله وحكم به بين عباده وهو حكمه الذى لا يحكم له سواه .

وأما الحكم المؤول : فهو أقوال المجتهدين المختلفة ، التى لا يجب اتباعها ولا يكفر ولا يفسق من خالفها ، فإن أصحابها لم يقولوا هذا حكم الله ورسوله ، بل قالوا :

(١) سورة الأنعام الآية : ١٣٧ .

اجتهدنا برأينا ، فمن شاء قبله ومن يشاء لم يقبله ، ولم يلزموا به الأمة ، بل قال أبو حنيفة : هذا رأيى فمن جاءنا بخير منه قبلناه .

ولو كان هو عين حكم الله لما ساغ لأبى يوسف ومحمد وغيرهما مخالفته فيه ، وكذلك مالك استشاره الرشيد أن يحمل الناس على ما فى الموطأ ، فمنعه من ذلك ، وقال : قد تفرق أصحاب رسول الله ﷺ فى البلاد وصار عند كل قوم علم غير ما عند الآخرين .

وهذا الشافعى ينهى أصحابه عن تقليده ويوصيهم بترك قوله إذا جاء الحديث بخلافه [(١)] . وهذا الإمام أحمد ينكر على من كتب فتاواه ودونها ، ويقول : لا تقلدنى ولا تقلد فلاناً ولا فلاناً ، وخذ من حيث أخذوا [(٢)] . ولو علموا رضى الله عنهم أن أقوالهم يجب اتباعها لحرموا على أصحابهم مخالفتهم ، ولما ساغ لأصحابهم أن يفتوا بخلافهم فى شىء ، ولما كان أحدهم يقول القول ثم يفتى بخلافه فيروى عنه فى المسألة القولان والثلاثة وأكثر من ذلك ، فالرأى والاجتهاد أحسن أحواله أن يسوغ اتباعه والحكم المنزل لا يحل لمسلم أن يخالفه ولا يخرج عنه .

وأما الحكم المبدل : وهو الحكم بغير ما أنزل الله ، فلا يحل تنفيذه ولا العمل به ، ولا يسوغ اتباعه ، وصاحبه بين الكفر والفسوق والظلم .

والمقصود : التنبيه على بعض أحوال النفس المطمئنة واللوامة والأمارة ، وما تشترك فيه النفوس الثلاثة [(٣)] وما يتميز به بعضها من بعض ، وأفعال كل واحدة منها واختلافها ومقاصدها ونياتها ، وفى ذلك تنبيه على ما وراءه ، وهى نفس واحدة تكون أمارة تارة ولوامة أخرى ومطمئنة أخرى ، وأكثر الناس الغالب عليهم الأمارة ، وأما المطمئنة فهى أقل النفوس البشرية عدداً وأعظمها عند الله قدراً ، وهى التى يقال لها : ﴿ارْجِعِى إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِى فِى عِبَادِى * وَادْخُلِى جَنَّتِى﴾ [(٤)] .

---

(١) انظر المجموع للإمام النووى ١/ ٦٣ .

(٢) انظر إعلام الموقعين للإمام الجليل ابن قيم الجوزية صاحب هذا الكتاب ٢/ ٣٠٢ فقد تكلم فى هذا الأمر .

(٣) النفوس الثلاثة : صوابه النفوس الثلاث ، لأن العدد المفرد يخالف المعدود .

(٤) الفجر الآيات : ٢٨ - ٣٠ .

والله سبحانه وتعالى المسئول المرجو الإجابة أن يجعل نفوسنا مطمئنة إليه عاكفة بهمتها عليه ، راهبة منه ، راغبة فيما لديه ، وأن يعيذنا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، وأن لا يجعلنا ممن أغفل قلبه عن ذكره واتبع هواه وكان أمره فرطاً . ولا يجعلنا من ﴿ الأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الذينَ ضلَّ سَعْيُهُم فى الحياة الدنيا وَهُم يَحْسَبُونَ أَنْهَم يُحْسِنُونَ صُنْعَاً ﴾ (1) . إنه سميع الدعاء . وأهل الرجاء . وهو حسبنا ونعم الوكيل.

❊ ❊ ❊

تم بحمد الله تعالى

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات

وكان الفراغ من تحقيق هذا الكتاب فجر يوم الأحد الرابع والعشرين من شهر رمضان المبارك سنة ١٤١٤ هـ . الموافق لليوم الخامس من شهر مارس سنة ١٩٩٤ م .

اللهم أنر الطريق وانفع بهذا الكتاب

يارب العالمين

آمين

---

(1) سورة الكهف الآية ١٠٣ - ١٠٤ .

فهرس الكتاب

* * *